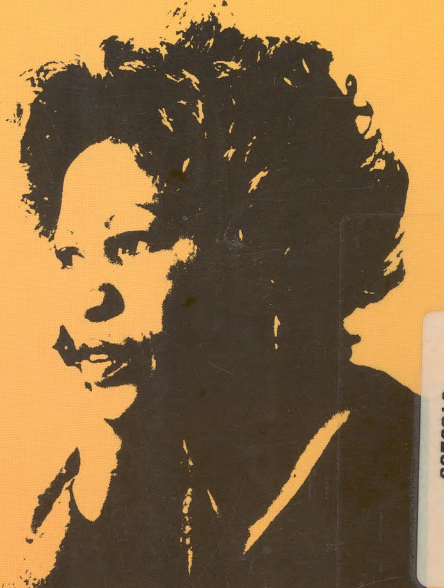
١٩٩٣

مكتبة نوبل

توني موريسون

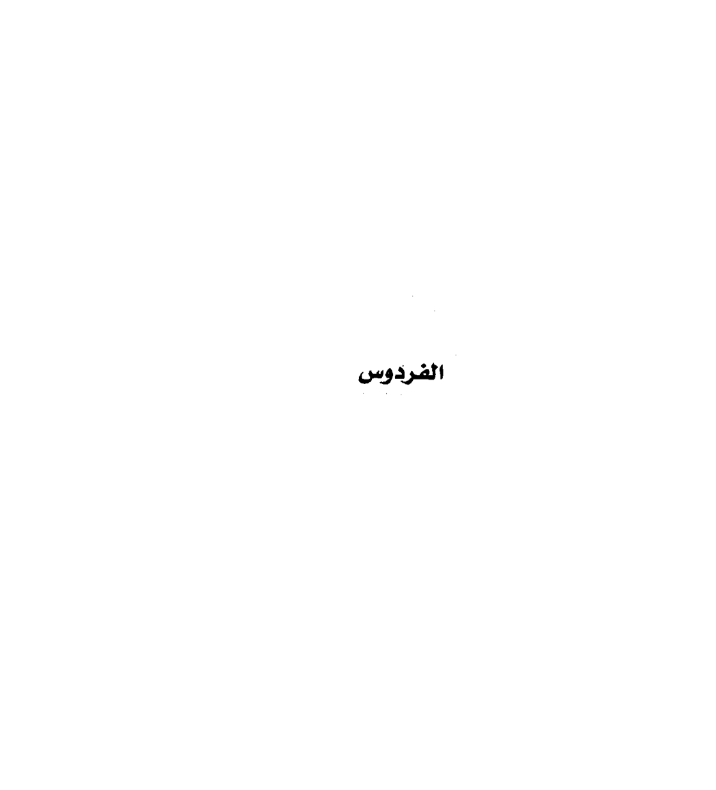
الفردوس



ترجمة
توفيق الأسدي







الفردوس



مكتبة نوبل

Author : Toni Morrison
Title : Paradise
Translator: Tawfik Al-Assadi
Al- Mada : P. C.
First Edition 1999

اسم المؤلف : توني موريسون
عنوان الكتاب : الفردوس
ترجمة : توفيق الأسدي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ١٩٩٩

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٢٠١٩ – ٢٧٧٦٨٦٤ – فاكس : ٢٧٧٣٩٩٢
بيروت – لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ – ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ – ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 2776864 , Fax: 2773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

١٩٩٣

مكتبة نوبل

توني موريسون

الفردوس

ترجمة

توفيق الأسدي



الإهداء

لويْس



للكثيرين هي الأشكال السارة التي توجد في

خطايا

وغلمات

وعواطف شائنة

ومسرات متلاشية كثيرة

والتي يغتنمها (الرجال) حتى يصبحوا

صاحين

ويصعدوا إلى مكان راحتهم.

وسيجدونني هناك

وسيعيشون

ولن يموتوا ثانية.





روبي



إنهم يطلقون النار على الفتاة البيضاء أولاً . أما البقية فيتمهلون معهن . لا حاجة للإسراع هنا . إنهم على مسافة سبعة عشر ميلاً عن بلدة تبعد تسعين ميلاً عن أي بلدة أخرى . ستكون أماكن الاختباء كثيرة في «الدير» ، ولكن سيكون هناك وقت وقد بدأ اليوم للتو .

إنهم تسعة ، أكثر من ضعفي عدد النساء المضطرون هم لحملهن على الفرار أو قتلهن ، ولديهم الأدوات لأي من الشرطين : حبل ، صليب من سعف النخيل ، أصفاد ، هراوة ونظارات شمسية ، مع بنادق نظيفة وجميلة .

لم يسبق لهم أن توغلوا إلى هذا الحد في «الدير» . كان بعضهم قد أوقف سيارته قرب مدخله وأخذ خيطاً من ثمار الفلفل أو دخل إلى الطبخ للحصول على غالون من صلصة اللحم المشوي . إلا إن القلة القليلة منهم رأت القاعات والمصلّى وغرفة الدرس وغرف النوم . والآن سيرونها جميعاً . وأخيراً سيرون القبو ويعرضون قذارته للنور الذي سرعان ما سينظف سماء أوكلاهوما . في هذه الأثناء هم مذهولون من الملابس التي يرتدونها : فجأة أصبحوا واعين بأن ملابسهم غير ملائمة . لأنه في فجر يوم من أيام تموز (يوليو) كيف يمكنهم أن يخمنوا وجود البرد في داخل ذلك المكان ؟ لقد تشربت قمصانهم الـ« تي

شيرت » وقمصان العمل والداشيكي البرد كأنها الحمى . أولئك الذين كانوا يلبسون أحذية العمل لم تثر أعصابهم بسبب رعد خطواتهم على الأرضيات الرخامية . أما أولئك الذين ارتدوا « برو - كيد » فقد أثارهم الصمت . ثم كانت هناك الفخامة . فقط الشخصان اللذان كانا يرتديان ربطة عنق بدا أنهما يلائمان المكان هنا ، وتذكروا الواحد إثر الآخر بأنه قبل أن يكون « ديراً » ، كان هذا المنزل حماقة مختلس . دار كبيرة حيث الخزف والأرضيات الرخامية ذات اللون الوردي المتشابك مع الأرضيات المصنوعة من خشب الساج . يحتفظ غراء السمك بنور البارحة وينمط جدراناً جردت وطليت بالجص الأبيض قبل خمسين سنة . أدوات الحمام المزخرفة التي أشعرت الراهبات بالغثيان ، قد استبدلت بحنفيات عادية جيدة ، ولكن أحواض الاستحمام والمغاسل الأميرية التي ما كان يمكن إزالتها دون نفقات باهظة ، قد بقيت مفسدة على نحو بارد ، كانت بهجة المختلس التي أمكن تدميرها ، وخاصة في غرفة الطعام ، التي حولتها الراهبات إلى غرفة للدرس ، وحيث جلست فتيات « الأراباهو » [قبيلة من الهنود الحمر]* مرة وتعلمن النسيان .

والآن هاهم رجال مسلّحون يفتشون الغرف التي تعوم سلال « الميكراميه » فيها قرب الشمعدانات الفلامنكية ، وحيث يتوهج المسيح وأمه في محاريب مزركشة بأوراق الكرمة . لقد كسرت « أخوات الصليب المقدس » كل الحوريات ، ولكن انحناءات شعورهن الرخامية لا تزال تخنق أوراق الكرمة وتمشط الثمار . والبرودة تزداد مع انتشار الرجال على نحو أعمق في الدارة الكبيرة ، متمهلين ، ينظرون ويصغون ، متنبهين إلى الشر الأنثوي الذي يختبئ هنا وروائح الخميرة والزبدة للعجينة الناضجة .

* الملاحظات المذكورة ضمن هذه الأقواس [ ] هي إضافات من المترجم .

ينظر أحدهم ، وهو الأصغر سناً ، إلى الخلف ، مجبراً نفسه على رؤية كيف يسير الحلم الذي هو فيه . المرأة المقتولة بالرصاص ، تضطجع على نحو غير مريح على الرخام ، تلوح بأصابعها له ، أو تبدو كذلك . إذن حلمه على ما يرام ، باستثناء لونه . لم يسبق له أن حلم بألوان كهذه الألوان : الأسود الإمبراطوري يعابث ضربات وحشية من اللون الأحمر ، ثم الأصفر السميك المحموم . مثل ملابس المرأة الرخيصة . يتوقف قائد الرجال ، يرفع يده اليسرى ليوقف الظلال التي خلفه . يتوقفون ، يمسكون أنفاسهم ، يقومون بتعديلات ودية على مسكات بنادقهم ومسدساتهم . يلتفت القائد ويشير إلى اتجاهات الانقسام : أنتما الاثنان اذهبا من هناك إلى المطبخ . اثنان آخران يصعدان إلى الطابق العلوي . واثنان أيضاً إلى المصلّى . يبقي نفسه وأخاه والآخر الذي يظن نفسه في حلم ليذهبوا إلى القبو .

يفترقون برشاقة دون كلمات أو عجلة . في وقت أسبق ، حين اقتحموا باب «الدير» ، فإن طبيعة المهمة جعلتهم في حالة دوار . ولكن الهدف ، على أي حال ، حطام : أناس كالنشرات المجانية يطيرون أحياناً مع نسمة هواء عائدين إلى الغرفة بعد طردهم من الباب . لذلك فإن السم أصبح ممكناً تدبيره الآن . كان إطلاق النار على المرأة الأولى (البيضاء) قد أوضح الأمر كله كالزبدة : زيت الحقد الصافي في القمة ، وقساوته مستقرة في الأسفل .

في الخارج ، يرتفع الضباب الرقيق حتى الخصر . سرعان ما يصبح فضياً ويصنع أقواس قزح عشبية واطئة إلى حد يكفي للعب الأطفال قبل أن تبعدها الشمس بلهيبها ، كاشفة مساحات من البلوسترن وربما مجازات الساحرات أيضاً .

* * *

المطبخ أكبـر من أي منزل من المنازل التي ولد فيـها أي من الرجـال . كـان السقف عـالياً علو رافدة الحظيرة . فيـه من الرفوف أكـثـر من بقاليـة « إيس » . طول المنضدة أربعـة عشـر قدماً قد تنقص بوصة واحدة ، ومن السهل معرفـة أن النسـاء المطاردات قد أخذن على حين غـرة . في أحـد الجوانب يقف إبريق مليء بالحليب قرب أربعة أوعيـة تحوي شرائح من خبز القمح . في الجانب الآخر قوطعت عملية تقطيع للخضار : الكراث مكوم مثل حفنة من الحلوى الخضراء تؤوي أقراصاً لامعة من الجزر والبطاطا المقشرة والكاملة بيضاء كالعظام ، رطبة ونضرة . على الموقد قدر ينضج ما فيـه ببطء . إنه موقد كبير كما في المطاعم وله ثماني فوهات وعلى رف تحت الغطاء الفولاذي الكبير اثنا عشر رغيفاً من الخبز آخذة بالنضج . هناك كرسي واطئ مقلوب . لا نوافذ .

يشيـر أحد الرجال إلى آخر ليفتح حجرة المؤونة بينما يذهب هو إلى الباب الخلفي . إنه مغلق ولكن غير مقفل . يطل إلى الخارج فيرى دجاجة عجوزاً ذات مؤخرة منتفخة وحمراء وكانت موضع تقدير ـ كما افترض ـ لأنها تبيض بيضاً غريباً بصفارين وثلاثة ضمن قشرة كبيرة الحجم ومشوهة الشكل . تأتي همهمة خافتة من الخم الذي في الخلف . هناك فراريج تمشي بثقة في ضباب الساحة لتختفي وتعود للظهور ثم تختفي مجدداً ، وكل عين مسطحة غير مبالية بأي شيء عدا طعام الإفطار . لا أثر لأقدام تعكر الوحل حول الدرج الحجري . يغلق هذا الرجل الباب وينضم إلى شريكه في حجرة المؤونة . معاً يفحصان « أوعية مايسون » الزجاجية [أوعية لحفظ الطعام كاظمة للهواء] وما تبقى من عملية حفظ الطعام في السنة الماضية : بندورة وفاصولياء خضراء ودراق . نساء مهملات ، هكذا فكروا . شهر آب قريب وهؤلاء النسوة لم يفرزن ، بل هن حتى لم يغسلن الأوعية .

يطفئ النار تحت القدر الكبير . كانت أمه تحممه في قدر ليس أكبر من هذا . رفاهية في مسقط رأسها ، في المنزل الكئيب الذي ولدت فيه . المنزل الذي يعيش هو فيه الآن كبير ومريح ، وهذه البلدة باهرة بالمقارنة مع مسقط رأسه ، تطورت كثيرا في خمسين سنة . ومن «هايفن» ، وهي بلدة حلم في «إقليم أوكــلاهومــا» إلى «هايفن» ، بلدة أشــبــاح في ولاية أوكلاهوما . العبيد المعتقون الذين وقفوا وقفة عزّ في عام (١٨٨٩) انهاروا راكعين في عام (١٩٣٤) وكانوا يزحفون على بطونهم في عام (١٩٤٨) . وعدم وجود أي شيء فاسد في داخل أو خارج البلدة الوحيدة التي كل سكانها من السود أمر يستحق العناء ، كل البلدات الأخرى التي عرفها أو سمع عنها تحكي عن بلدات سكانها من البيض خضع لها أو اندمج معها السود . وخلاف ذلك ، شأنها شأن «هايفن» ، فقد ذوت إلى رسم : حدود الأساس المحددة بالطريقة التي ينمو فيها العشب هناك ، وأصبح ورق الجدران سلبياً خلف ألواح النوافذ الناقصة ، وأرضيات المدارس انتقلت جانباً من قبل شجرات البيلسان النامية نحو مبنى الجرس . ألف مواطن في عام (١٩٠٥) أصبحوا خمسمائة في عام (١٩٣٤) ، ثم مائتين ثم ثمانين مع انهيار القطن . أو أن شركات السكة الحديدية قد مدّت خطوطها في أماكن أخرى . الزراعة لعيش الكفاف ، التي كانت ذات مرة المكافأة التي تحتاجها أي أسرة كبيرة ، أصبحت مجرد زراعة فتات بعد أن حصل كل ابن متزوج على حصته ، والتي كان لابد من تقسيمها إلى قطع أكثر لأطفاله ، حتى أضحى مالكو الحصص والقطع الذين لم يرحلوا في اشمئزاز يرحبون بأي عرض من أي مضارب أبيض ؛ كانوا شديدي التوق للرحيل والمحاولة في مكان آخر ، مدينة كبرى في هذه المرة أو بلدة صغيرة : أي مكان سبق له أن عُمّر .

ولكن كانت لديه ولدى الآخرين ، وكلهم من المحاربين القدماء ، فكرة مختلفة . لقد أحبوا «هايفن» كما هي ـ فكرتها وإمكانية الوصول إليها ـ وقد حملوا ذلك الحب ، ولاطفوه ورعوه من «باتان» إلى «غوام» ، من «إيوو جيما» إلى «شتوتغارت» ، وقد صمموا على فعل ذلك مجدداً . لمس غطاء الموقد معجباً بتركيبه وقوته . كان له الطول نفسه الذي للفرن الذي قبع ذات مرة في منتصف بلدته الأم . حين عادوا إلى الولايات المتحدة ، فقد فككوه ، وحملوا الآجر وحجر الموقد وصفيحته الحديدية مسافة مائتي وأربعين ميلاً غرباً : بعيداً بعيدا عن «كريك نايشن» القديمة التي كانت ذات مرة حكومة نبيهة تسمى «الأرض غير المخصصة» . ويتذكر الاحتفال الذي أقاموه حين أعيد تركيب الشفة الحديدية لـ«الفرن» في مكانه وتم صقل حروفه المهترئة ليراها الجميع . كان هو نفسه قد ساعد في تنظيف اثنتين وستين سنة من الفحم والدهن الحيواني حتى عادت الكلمات لامعة شأنها في عام (١٨٨٠) حين كانت جديدة . وإن كان ذلك مؤلماً ـ تفكيك ما ركبه أجدادهم ـ فلم يكن شيئاً بالمقارنة مع ما تحملوه وما قد يصبحون عليه لو لم يبدؤوا مجدداً . وكآباء جدد ، حاربوا العالم ، لم يستطيعوا (ولن) يكونوا أقل من «الآباء القدماء» الذين غلبوه بالحيلة ، الذين لم يتركوا الخطر أو الشر الطبيعي يبقيهم بعيداً عن بناء «هايفن» من الوحل ، وعرضوا جيداً أن يختموا انتصارهم بتلك الأفضلية . «فرن» . مدور مثل رأس ، عميق كالرغبة . العيش في أو قرب عرباتهم ، يسلقون الوجبات في الهواء الطلق ، يقطعون الأعشاب والمسكيت [شجيرة عميقة الجذور تنمو متكاثفة ملتفة وتأكل الماشية منها سنوخها] ليبنوا مأوى ، وقد فعل الآباء القدماء ذلك أولاً : وضعوا معظم قوتهم في بناء «فرن» هائل مصمم دون أخطاء كان يغذيهم ويصنع مما فعلوه نصباً تذكارياً . وحين انتهى ـ كل آجرة صفراء

منصوبة على نحو كامل ، المدخنة واسعة وعالية ، مسامير التعليق والمشواة مثبتة ، مجرى الهواء يجذب بثبات من ثقب المؤخرة ، باب النار عامودي - ثم قام بائع الأدوات الحديدية بعمله . من دفّات البراميل والمحاور المحطمة ، من الأوعية والمسامير الملوية ، قام بصنع صفيحة حديدية طولها خمسة أقدام طولاً وعرضها قدمان ووضعها عند قاعدة فم «الفرن» . ليس واضحاً بعد من أين أتت الكلمات . من شيء سمعه أو اخترعه أو همس له بينما كان ينام وقد التف على أدواته في حوض العربة . كان اسمه «مورغان» من يعرف إن كان قد اخترع أو سرق تلك نصف الدزينة من الكلمات أو التي صاغها . كلمات بدت أولاً أنها تباركهم ، ولاحقاً أنها تلعنهم ، وأخيراً بدت أنها تعلن أنهم قد خسروا .

ينظر الرجل إلى حوض المطبخ . يتحرك إلى المنضدة الطويلة ويرفع إبريق الحليب . يشمه أولاً ثم والمسدس في يده اليمنى ، يستخدم يده اليسرى لرفع الإبريق إلى فمه ، ويعب عبات طويلة مقيسة من الحليب حتى أن نصفه كان قد اختفى حين شم رائحة حشيشة البتول .

*

في الطابق العلوي يمشي رجلان عبر القاعة ويفحصان غرف النوم الأربع ، كل واحدة لها بطاقة اسمية ملصقة على بابها . الاسم الأول المكتوب بأحمر الشفاه هو «سينيكا» . والتالي «ديفاين» المكتوب بالحبر بأحرف كبيرة . يتبادلان نظرات العارف حين يدركان أن كل امرأة لا تنام في سرير ، كالناس العاديين ، بل في أرجوحة شبكية . وعدا ذلك ، وباستثناء مكتب ضيق أو طاولة صغيرة ، لا يوجد أثاث إضافي . لا ملابس في الخزائن بالطبع ، بما أن النساء كن يرتدين ثياباً متسخة لا تلائمهن ولا شيء

يمكنك أن تسميه بصدق حذاء . ولكن هناك أشياء غريبة مسمّرة أو ملصقة على الجدران أو مسندة إلى زاوية . هناك تقويم لعام (١٩٦٨) وإشارات (X) كبيرة تعلم تواريخ متنوعة (٤ نيسان (أبريل) ، ١٩ تموز (يوليو)) ، رسالة مكتوبة بالدم وملطخة إلى حد لا يمكن معه فك رموز مضمونها الشيطاني . خارطة فلكية . قبعة طرية من اللباد مائلة على العنق البلاستيكي لتمثال جذع نسائي ، وفي مكان كان يؤوي مسيحيين ذات مرة - كاثوليك على أي حال - لا يوجد أي صليب للمسيح في أي مكان . ولكن ما أزعج الرجلين على أشد ماسكون كان سلسلة الجزمات والأحذية الطفلية المربوطة إلى حبل معلق من مهد في آخر غرفة نوم دخلوها . هاك حلقة تسنين ، مشققة ويابسة ، معلقة بين الأحذية الصغيرة . أشار أحد الرجلين بعينيه إلى شريكه نحو غرف النوم الأربعة الأخرى على الجانب الآخر من القاعة . يتحرك هو نفسه على نحو اقرب إلى باقة أحذية الأطفال . عم يبحث ؟ المزيد من الأدلة ؟ ليس متأكداً . دم ؟ أصبع قدم صغيرة ، ربما ، ترك في حذاء أبيض من جلد العجل ؟ يزلق مسمار الأمان على مسدسه وينضم إلى البحث عبر القاعة .

غرف النوم هذه عادية . غير مترتبة : الأرضية في إحداها مغطاة بأطباق عليها قشرة من الطعام ، وفناجين قذرة ، والسرير تستحيل رؤيته تحت جبل من الملابس . هناك غرفة أخرى تحوي كرسيين هزازين مليئين بالدمى . وثالثة تحوي أنقاض سكير ورائحته ، ولكنها عادية على الأقل .

ريقه مرّ ورغم أنه يعرف أن هذا المكان موبوء وهو مذهول من سوط الشفقة الذي يضرب في صدره . ما الذي يفعله هذا للنساء ؟ كيف يمكن لأدمغتهن البسيطة أن تفكر في مثل هذه الأمور : الجنس المثير للغثيان ، الخداع والتعذيب السري للأطفال ؟ هنا في الخارج في الفضاء الواسع المفتوح استطعن أن يشككن في قيمة كل امرأة عرفها . نقود معطف الشتاء

الذي استطاع والده توفيرها سراً خلال فصلي حصاد . النور في عيني أمه حين راحت تمسّد قبة المعطف المصنوعة من فرو الفقمة . الحفلة المفاجئة التي أقامها هو وأخوته في عيد ميلاد أختهم السادس عشر . ولكن هنا ، ليس أبعد من عشرين ميلاً عن مجتمع هادئ ومنتظم ، هاهن نساء لا يشبهن أي نساء عرفهن أو سمع عنهن إطلاقاً . في هذا المكان بالذات . الفريد والمعزول ، كانت بلدته مسرورة بنفسها على نحو مبرّر . لم يكن لديها سجن وما كانت في حاجة إليه . لم يكن هناك مجرمون في تلك البلدة . والشخص أو الشخصان اللذان كانا يسلكان سلوكاً شاذاً أو يهينان أسرتيهما أو يهددان نظرة البلدة إلى نفسها كانا يجدان من يعتني بأمرهما جيداً . لاشك أنه لم تكن هناك امرأة مهملة أو قذرة في البلدة ، والأسباب كانت واضحة ، كما فكر هو . منذ البداية كان سكانها أحراراً ومحميين . المرأة المسهدة يمكنها دائماً أن تنهض من سريرها ، تلف شالاً حول كتفيها وتجلس على الدرج في ضوء القمر ، وإن شعرت بالرغبة كان يمكنها أن تغادر الباحة وتمشي على الطريق . لا مصباح ولا خوف . أي هسهسة أوطقطقة من جانب الطريق ما كانت ستخيفها أبداً لأنه مهما كان مصدر الضجة ، فلن يكون شيئاً يزحف لينقض عليها . لاشيء لمسافة تسعين ميلاً فيما حولها كان يفكر بها كطريدة . كانت تستطيع أن تتمشى بالبطء الذي تريد ، وتفكر في تحضير الطعام أو الحرب أو الأمور العائلية ، أو ترفع عينيها نحو النجوم ولا تفكر بأي شيء إطلاقاً . دون مصباح أو خوف كانت تسير في طريقها . وإذا ما لمع ضوء في منزل أو لفت اهتمامها صراخ طفل مصاب بالمغص ، فقد تقترب من ذلك المنزل وتنادي برقة المرأة التي في الداخل وتحاول تهدئة الطفل . وقد تتناوب المرأتان على تمسيد معدة الطفل ، أو تهدهدانه أو تحاولان جعله يشرب بعض ماء

الصودا . حين يهدأ الطفل فقد تجلسان معاً لفترة ، تثرثران وتضحكان بصوت منخفض حتى لا تزعجا أحداً .

يمكن للمرأة أن تقرر العودة إلى منزلها عندئذ ، وقد انتعشت وأصبحت جاهزة للنوم ، أو قد تبقى سائرة في الاتجاه نفسه على الطريق ، عبر منازل أخرى ، عبر الكنائس الثلاث وعبر مرتع الأبقار . أو قد تذهب إلى البعيد خارجا ، إلى ما وراء حدود البلدة ، لأنه لاشيء عند الحافة يعتبرها طريدة .

في كل جانب من جانبي القاعة حمام . ومع دخول كل رجل إلى واحد منهما ، لا يحرك أي منهما فكيه ، لأنهما يعتقدان كلاهما أنهما مستعدان لأي شيء . في أحد الحمامين ، الأكبر ، كانت الحنفيات صغيرة جداً وعتيقة جدا بالمقارنة مع المغاسل الواسعة . يستريح حوض الاستحمام على ظهور أربع حوريات : ذيولهن المشقوقة واسعة لتضمن سلامة الحوض ، وصدورهن مقوسة لأجل الثبات . البلاط تحت الأقدام أخضر بلون القناني . هناك علبة «مودكس» على خزان ماء المرحاض ودلو من الأشياء المتسخة قريب منه . لا يوجد ورق تواليت . هناك مرآة واحدة فقط غطيت بطلاء حواري وتلك يهملها الرجل . إنه لا يريد أن يرى نفسه يطارد خلسة النساء أو سوائلهن . وبارتياح يتراجع ويغلق الباب . وبراحة يدع مسدسه يشير إلى الأسفل .

*

في الطابق السفلي هناك رجلان لا يبتسمان ، أب وابنه . رغم أنهما حين دخلا أولاً إلى المصلى شعرا برغبة في الابتسام لأن ذلك كان صادقاً : كانت أوثان منحوتة تعبد هنا . رجال ونساء بحجم ضئيل في ملابس بيضاء وأردية زرقاء وذهبية يقفون فوق رفوف صغيرة محفورة في كوى في الجدار .

كانوا يحملون طفلاً أو يقومون بإيماءة ما ، ووجوههم الفارغة تتصنع البراءة . كان من الواضح أن شموعاً قد أحرقت عند أقدامهم ، وكما قال القس بوليام بالضبط ، ربما كان الطعام قد قدم إليهم أيضاً ، بما أنه لم يكن هناك سوى أوعية صغيرة على كلا جانبي المدخل . وحين انتهى هذا كانا سيخبران القس بوليام كم كان على حق ويضحكان في وجه القس ميسنر .

كانت هناك نزاعات لا يمكن تسويتها بين رعايا الكنائس في البلدة ، ولكن بعض الأعضاء في هذه الكنائس جميعا كانوا متفقين بقوة حول ضرورة العمل : افعل ما عليك فعله . لا يمكن لـ«الدير» ولا للنساء اللواتي في داخله الاستمرار .

يا للأسى . مرة كان «الدير» جاراً حقيقياً لكنه منعزل ، وكان محاطاً بالذرة وعشب البافالو والبرسيم ويتم الوصول إليه بواسطة درب ترابية لا ترى إلا بالكاد من الطريق . كان «الدير» الذي أصله دارة فخمة موجوداً هناك قبل البلدة بوقت طويل ، وكانت آخر فتيات الأراباهو المقيمات قد سبق لها ورحلن حين وصلت العائلات الخمس عشرة . حدث ذلك قبل خمس وعشرين سنة ، حين كانت كل الأحلام تجاوز الرجال الذين يحلمون بها . طريق مستقيم مثل قالب شق عبر مركز البلدة ورصف على جانب واحد بممشى مرصوف . كان لدى سبع من الأسر أكثر من خمسمائة آكر ، ولدى ثلاث ألف تقريباً . ومع مرور الوقت ، وحين أصبح الطريق شارعاً له اسم ، نظم رجل يدعى «أوسي» سباق أحصنة للاحتفال . من خيام عسكرية ومنازل نصف جاهزة وأرض تم تنظيفها مؤخراً دخل الناس ممتطين ، جالبين معهم ما كان لديهم . خرجت الأشياء المخزنة وأشياء ظهرت في المكان : غيتارات وبطيخ متأخر عن أوانه ، بندق وفطائر الراوند والأرغن الذي يعزف بالفم ، لوح غسيل ، لحم حمل مشوي ، أرز بالفلفل ، «ليل غرين» ، «في

العتمة » ، «لويس جوردان والخمسة الطنانين » ، الجعة المنزلية واللحم المفروم المقلي والمطبوخ في المرق . عقدت النسوة مناديل براقة على شعورهن . صنع الأطفال لأنفسهم قبعات من الخشخاش البري وكرمة النهر . كان لدى « أوسي » حصان عمره سنتان وآخر عمره أربع سنوات ، وكلاهما كانا سريعين وجميلين كعروسين . الأحصنة الأخرى كانت لمجرد الرفقة : حصان « إيس » المبقع ، حصان الآنسة إستر العجوز خفيف الوزن ، كل أحصنة ناثان الخاصة بالفلاحة وعددها أربعة إضافة إلى فرسه ومهر نصف محطم ، لا يطالب به أحد ، راح يرعى ضفة النهر .

تشاجر الفرسان مطولاً حول الركوب بسرج أو بدونه ، أمهات الأطفال الرضع طلبوا منهم الركوب أو تغيير الأدوار . تجادل الرجال حول سباق العدل ووضعوا رهانات ربع الدولار بحماسة . وحين انطلق المسدس لم يقفز إلى الأمام سوى ثلاثة أحصنة . أما البقية فخطت جانباً أو شقت طريقها فوق الجذوع المكدسة قرب البيوت غير المنتهية . وحين جرى السباق في النهاية ، صاحت النساء من المرج ، بينما زعق أطفالهن ورقصوا في عشب يصل إلى أكتافهم . المهر وصل أولاً ، ولكن بما أنه فقد راكبه قبل ثمني ميل ، فكان الرابح هو فرس ناثان الأسمر المحمر . وقد اختيرت الفتاة الصغيرة التي وضعت أكبر عدد من نبات الخشخاش على رأسها لتقدم شريط المرتبة الأولى المعلق به «القلب الأرجواني» خاصة « أوسي » . كان الرابح في سن السابعة آنئذ ويبتسم ابتسامة عريضة كأنه ربح سباق « كنتاكي ديربي » . والآن ها هو في مكان ما في قبو «الدير» مراقباً نسوة رهيبات لم يكن ، حين قدمن الواحدة بعد الأخرى ، راهبات حقيقيات ولا حتى ادعين ذلك ، بل كن عضوات ، كما كان يظن ، في نوع من أنواع العبادات الغريبة الأخرى . لا أحد كان يعرف . ولكن لم تكن المعرفة مهمة لأنهن كن

جميعاً ، كل واحدة بدورها ، وشأن «الأم الرئيسة» العجوز والخادمة التي اعتادت ولا تزال بيع المنتجات وصلصلة المشاوي والخبز الجيد والفلفل الأشد لذوعة في العالم . ولقاء سعر مرتفع كنت قادراً على شراء خيط من الفلفل الأسود الأرجواني أو بهارات مصنوعة منه . وأي منهما كان متفوقاً في قوة الحرق النقية . والبهارات كانت تدوم سنيناً مع الرعاية الصحيحة ، ورغم أن كثيراً من الزبائن حاولوا زرع البذور ، فإن الفلفل لم يكن لينمو في أي مكان آخر خارج حديقة «الدير» .

جارات غريبات ، كما قال معظم الناس ، ولكنهن غير مؤذيات . بل أكثر من ذلك ، فهن يقدمن يد المساعدة في المناسبات . كن يؤوين الناس : الناس الضائعون أو الذين هم في حاجة إلى الراحة . التقارير المبكرة تحدثت عن الكرم والطعام الجيد جداً . ولكن أصبح الجميع يعرفون الآن أن هذا كله كذب ، واجهة ، قناع مخطط جيداً يستر ما كان يحدث فعلاً . وما أن أصبحت الحالة تستدعي الاهتمام ، اجتمع ممثلون عن الكنائس الثلاث في «الفرن» لأنهم لم يستطيعوا الاتفاق على أي من الكنائس ستستضيف الاجتماع الذي سيقرر ما الذي يجب عمله الآن مع قيام النساء بتجاهل كل التحذيرات .

كان اجتماعاً سرياً ، ولكن الإشاعات كانت تجري همساً لمدة تزيد عن عام . الأعمال الفظيعة التي كانت تتراكم طوال الوقت اتخذ شكل الدليل . لقد أسقطت بنت ذات عيون باردة أمها من على الدرج . ولد أربعة أطفال مشوهين في عائلة واحدة . رفضت البنات الخروج من فراشهن . اختفت عروسات في شهر عسلهن . قتل أخوان الواحد منهما الآخر بالرصاص في يوم رأس السنة . أضحت الرحلات إلى «دمبي» للحصول على حقن مضادة للأمراض الزهرية أمراً شائعاً . وما جرى في «الفرن» في تلك

الأيام كان أمراً لا يصدق . لذا حين قرر عشرة رجال الاجتماع هناك ، كان عليهم أن يطردوا الجميع من المكان بالبنادق قبل أن يستطيعوا الجلوس تحت أنوار مصابيحهم اليدوية ليأخذوا المسألة بأيديهم . كانت الأدلة التي يحاولون جمعها منذ الاكتشاف الرهيب في الربيع غير ممكن إنكارها : والأمر الوحيد الذي كان يربط كل هذه الكوارث كان في «الدير» . وكان في «الدير» أولئك النسوة .

يمشي الأب عبر ممر [المصلّى] وهو يدقق بالمقاعد يميناً وشمالاً . يدير سعفة من النور من مصباحه [ماركة] «بلاك أند دكر» تحت كل مقعد . طراريح الركبة يتم قلبها . عند المذبح يتوقف . تطفو نافذة ذات لون أصفر شاحب فوقه في العتمة . تبدو الأشياء دون تنظيف . يخطو إلى صينية من الكؤوس الصغيرة متموضعة على الجدار ليرى إن كانت تبقت تقدمات من الطعام هناك . وباستثناء السخام ونسيج العنكبوت ، فإن الكؤوس الحمراء كانت فارغة . ربما هي ليست للطعام بل للنقود . أو للنفاية ؟ هناك غلاف علكة في أقذر واحد منها . علكة نكهة النعناع المزدوجة .

يهز رأسه وينضم إلى ابنه في الخلف عند المذبح . يشير الابن بيده . يضيء الأب بمصباحه الجدار تحت النافذة الصفراء حيث الشمس لا تدخل إلا بالكاد . تبدو للناظر الخطوط الكفافية لصليب ضخم . نظيف كالدهان الجديد في الفراغ الذي كان من المفروض أن يحتله «المسيح» .

*

الشقيقان المقتربان من القبو كانا ذات مرة متشابهين إلى حد التطابق . ورغم أنهما توأمان ، إلا أن زوجتيهما تبدوان أكثر تشابهاً .

أحدهما سريع ونشط ويدخن سيجار «تي آمو» [أحبك] . والآخر أخشن وأخس ولكنه يخفي وجهه حين يصلي . ولكن كان لهما كلاهما عينان واسعتان برينتان وكلاهما الآن موطد العزم وهما واقفان أمام باب مغلق شأنهما في عام (١٩٤٢) حين تطوعا في الجيش . عندها كانا يتطلعان لمخرج : لمهرب من حياة كانت كلها مدينة للغير ، دون أي شيء ممتلك . والآن يريدان الدخول . آنئذ ، في الأربعينات ، لم يكن لديهما ما يخسرانه . والآن يتطلب كل شيء حمايتهما . من البداية حين تأسست البلدة عرفا أن العزلة لم تكن ضمانا للسلامة . كانت هناك حاجة إلى رجال أقوياء وراغبين حين لم يكن الغرباء الضائعون أو المتجولون دون هدف يقودون سياراتهم عبر البلدة فحسب ، لا يكادون ينظرون إلى بلدة ناعسة ذات ثلاث كنائس تبعد الواحدة عن الأخرى ميلاً واحداً ، ولكن دون خدمات للمسافر : فلا يوجد هنا مطعم ، أو شرطة ، أو محطة وقود ، أو هاتف عمومي أو دار للسينما أو مستشفى . أحياناً ، إن كانوا شباناً وثملين أو عجائز وصاحين ، فقد يرى هؤلاء الغرباء ثلاث أو أربع فتيات ملونات يتسكعن على امتداد جانب الطريق . ويمشين بضع ياردات ، يتوقفن حسب ما يتطلبه حديثهن ، يقفزن ، يتوقفن ليضحكن أو ليصفعن ذراع فتاة أخرى كنوع من اللهو . كان الغرباء يهتمون بهن ، ربما ، ثلاث سيارات ، قل مثلاً سيارة «بل إير» موديل عام (١٩٥٣) ، خضراء اللون وبلون الكريم من الداخل ، رقم لوحتها (ب ٥٨٠) ، ذات محرك بست أسطوانات ، ذات قالب مزدوج على جسر الواقية الخلفية ، وذات فاصل واصل آلي بسرعتين نوع «باورغلايد» . وقل أيضاً سيارة «دودج وايفيرر» موديل (١٩٤٩) ، سوداء ، ذات نافذة خلفية مشققة ، الواقية لها حواف ، قيادة بالزيت ، نوافذ تشبه لوحة الشطرنج . وكذلك سيارة «أولدزموبيل» موديل عام (١٩٥٣) لها لوحة من «أركنسو»

[ولاية أمـريكيـة] . يبطئ السـائقـون ، يخـرجـون رؤوسـهم من النوافـذ ويصرخون . عيونهم متغضنة في نزوع إلى الأذى . يلتفون من حول الفتيات ويقومون بالتفافات بشكل حرفي (U) و(K) ، فيحركون بذور الأعشاب أمام المنازل ، ويجفلون القطط أمام « بقالية إيس » . يدورون بسياراتهم . تتجمد عيون الفتيات وهن يتراجعن . ثم ، قد يحدث مرة أن يخرج رجال البلدة من المنازل والباحات الخلفية أو منصة المصرف أو مخزن الأغذية . كان أحد الركاب قد فتح مقدمة سرواله وتعلق خارج النافذة ليخيف الفتيات . تتوقف قلوب الفتيات الصغيرة ولا يستطعن إغلاق جفونهن بسرعة كافية ، لذلك يلوين رؤوسهن جانباً . ولكن رجال البلدة ينظرون فعلاً إلى ذلك ، ويرون الرغبة في تلك الإيماءة الأكثر جرأة ، ويبتسمون . يبتسمون بتردد ورغماً عن أنوفهم لأنهم يعرفون أنه من هذه اللحظة فصاعداً ، إن لم يكن قبلاً ، فإن هذا الرجل ، حتى مرضه الأخير ، سيسبب في ضرر خطير للملونين بقدر ما يستطيع .

يخرج المزيد من الرجال ثم المزيد . مسدساتهم لا تشير إلى أي شيء ، بل تحمل بإهمال على أفخاذهم . عشرون رجلاً ، خمسة وعشرون رجلاً الآن . يدورون حول السيارات التي تدور . تسعون ميلاً عن أقرب هاتف عمومي وتسعون عن أقرب ضمادة . لو كان اليوم دون مطر ، فإن الغبار المتصاعد خلف الإطارات كان سيغير ألوانهم كلهم . وكما حدث ، فإنها مجرد حصوة صغيرة رفست في الأثر الذي تركوه خلفهم .

للتوأمين ذاكرتان قويتان . يتذكران فيما بينهما تفاصيل كل شيء سبق أن جرى : أموراً شهداها وأموراً لم يشهداها . درجة حرارة الطقس حين دارت السيارات من حول الفتيات وكم «بوشلاً» كان محصول كل مزرعة في البلد . ولم ينسيا أبداً رسالة أي حكاية أو تفاصيلها ، وخاصة

الحكاية الموجهة التي حكاها أحد جديهما : الرجل الذي وضع الكلمات في الفم الأسود لـ« الفرن » . حكاية تفسر السبب في أنه لا مؤسسي « هايفن » ولا أي من نسلهم كانوا يطيقون أي شخص عدا أنفسهم . في الرحلة من الميسيسبي والأبرشيتين في لويزيانا إلى أوكلاهوما ، فإن العبيد المعتقين البالغ عددهم مائة وخمسة وثمانين شخصاً كانوا غير مرحب بهم في كل ذرة تراب من « يازو » إلى « فورت سميث » . طردهم « التشوكتو » [قبيلة من الهنود الحمر] الأغنياء والبيض الفقراء ، وطاردتهم كلاب الساحات ، وسخرت منهم مومسات المخيمات وأطفالهن ، ومع ذلك فلم يكونوا مهينين للإحباط العدواني الذي نالوه من البلدات الزنجية لتي سبق لها أن شيدت . ما كان ممكنا للعنوان الرئيسي لإحدى المقالات في صحيفة « هيرالد » الذي يقول : « تعال مستعداً أو لا تأت على الإطلاق » يعينهم هم ، أليس كذلك ؟ كانوا ماهرين وأقوياء وتواقين إلى العمل في أرضهم هم ، واعتقدوا أنهم أكثر من مستعدين : كانوا أولاد القضاء والقدر . وقد آلمهم وشوشهم أن يعرفوا أنه لم يكن لديهم ما يكفي من المال لتلبية القيود المطلوبة من الزنوج « المعتمدين على أنفسهم » . باختصار ، كانوا أشد فقرا ، وأشد اتساخا من أن يتجرؤوا على الدخول ، ناهيك عن الإقامة في المجتمعات التي كانت تؤيد أرباب الأسر الزنجية . غيّر هذا الطرد المهين من قبل المحظوظين من درجة حرارة دمائهم مرتين . أولاً غلت دماؤهم حين كتب عنهم أنهم « أناس يفضلون الحانات وألعاب الكراب في المنازل والكنائس والمدارس » . ثم إذ تذكروا تاريخهم الرائع فقد بردوا . ما بدأ كتصميم حار أصبح استحواذاً بارداً . « لا يعرفوننا أو يعرفون عنا » ، قال أحد الرجال . « نحن أحرار مثلهم . كنا عبيداً مثلهم . لماذا هذا الاختلاف ؟ » .

بعد أن أُنكروا وتم الاحتراس منهم ، غيروا طريقهم وانطلقوا غرب الأراضي غير المخصصة ، جنوب « مقاطعة لوغان » ، عبر « النهر الكندي » إلى « إقليم أراباهو » . لقد جعلتهم كل مصيبة أقوى وأكثر اعتزازاً ، وتفاصيلها حفرت في ذاكرتي التوأمين القومية ، الحكايات غير المزخرفة التي رويت مرارا وتكرارا في الحظائر المعتمة ، قرب « الفرن » عند الغروب ، تحت نور اجتماعات الصلاة في عصر أيام الأحد . حكايات تدور حول سروج رجال العصابات سود البشرة الذين أطعموهم لحم البافالو الجاف قبل سرقة بنادقهم . حول هدوء الأنبوب الذي كان يتلوى عبر مخيّمهم وحوله . الأطفال النائمون الذي استيقظوا مبحرين في الهواء . ومضة الجياد التي جلس فوقها رجال التشوكتو المراقبون . في وقت العشاء ، حين كان أي عمل متعذر لشدة العتمة باستثناء ما يمكن فعله تحت نور الموقد ، روى الآباء القدماء حكايات رحلتهم ، الإشارات التي أرسلها الرب لتوجيههم : نحو مواقع الماء ، نحو « الكريك » [من قبائل الهنود الحمر] الذين استطاعوا مقايضتهم بعملهم مقابل عربات وأحصنة ومراع ؛ بعيداً عن بلدات كلاب البراري ذات الاتساع الذي يصل إلى خمسين ميلاً وآثام الشيطان : نساء مهجورات دون أي ممتلكات ، إشاعات عن الذهب الكامن في حوض النهر .

اعتقد التوأمان أن الجد اختار الكلمات لشفتي « الفرن » حين اكتشف كم كان ضيقاً درب الصلاح . كان الأثاث مثبتاً بأوتاد خشبية لأن المسامير كانت ثمينة جداً ، ولكنه ضحى بكنزه المؤلف من مسامير طولها ثلاث وأربع بوصات ، المثنية منها والمستقيم ليقول شيئاً هاماً ذا ديمومة .

ما أن ثبتت الأحرف في مكانها ، ولكن قبل أن يتاح لأي شخص التأمل في الكلمات التي كانت تشكلها ، رفع سقف قريب من « الفرن » ينتظر أن يجفف . على صناديق ومقاعد مؤقتة ، تجمع أهل « هايفن » للحديث

وللاجتماع وراحة لحم الطرائد الساخنة . فيما بعد ، حين انزاح عشب البافالو لتحل محله بلدة صغيرة لطيفة ذات شارع في المنتصف ومنازل خشبية وكنيسة واحدة ومدرسة ومخزن ، كان السكان لازالوا يجتمعون هناك . كانوا يشوون الدجاج الحبشي أو غزالاً كاملاً على السفود ، ويديرون الأضلاع ويفركون ملحاً زائداً في جوانب لحم العجل الآخذ بالتبرد . كانت تلك أيام الطبخ البطيء ، حين كانت النيران تشعل على نحو خفيف جداً حتى كان الديك الحبشي الذي يزن عشرين باونداً يشوى طوال الليل ، ويمكن لجانب واحد أن يستغرق يومين لينضج حتى العظم . وكلما كانت الماشية تذبح ، أو حين كان مذاق الطرائد غير المدخنة جيداً ، فإن سكان «هايفن» كانوا يجلبون الذبيحة إلى «الفرن» ويبقون أحياناً للثرثرة والشجار مع عائلة «مورغان» حول التجفيف والمذاق الصحيح لكلمة «ناضج» . كانوا يبقون ليتحدثوا عن الإشاعات والتذمر والضجيج مع الضحك وشرب القهوة وهم يمشون في ظل الإفريز . وأي طفل على مرمى السمع كان خاضعاً لأن يؤمر بتحريك المروحة لإبعاد الذباب ، أو ينقل الحطب أو ينظف طاولة العمل أو يضرب الأرض بمدكاك .

في عام (١٩١٠) كانت هناك كنيستان في «هايفن» ومصرف «أول سيتيزنز بنك» ، وأربع غرف دراسة في المدرسة وخمسة خازن تبيع البضائع الجافة والعلف والأطعمة ، ولكن حركة السير إلى ومن «الفرن» كانت أكبر منها إلى كل تلك الأماكن . لم تكن هناك أسرة تحتاج إلى أكثر من موقد بسيط طالما كان «الفرن» حياً ، وقد كان حيا على الدوام . وحتى في عام (١٩٣٤) حين كان كل شيء آخر في البلدة يحتضر ، حين اتضح وضوح النهار أن الحديث عن الكهرباء سيبقى مجرد حديث ، وحين كانت أنابيب الغاز والمجاري الصحية أعاجيب من عجائب «تولسا» ، بقي «الفرن» حياً .

وحتى «الجفاف الكبير» ، لم يكن الماء الجاري مفتقداً لأن البئر كانت عميقة . حين كان التوأمان مجرد صبيين كأنا يتأرجحان بذراعيهما من أغصان شجرة الصفصاف المنحنية قربه ويتعلقان على نحو خطير فوق الماء الصافي ليعجبا بانعكاس أقدامهما . وقد سمعا المرة إثر الأخرى حكايات عن الأثواب والقبعات الزرقاء التي كان الرجال يشترونها للنساء بنقود حصلوا عليها من أول حصاد أو أول حصة من القطيع . الوصول المسرحي لبيانو «سانت لويس» الذي أرسل في طلبه بعد وضع أرضية كنيسة «تسيون» . تخيلوا أمهم فتاة في سن العاشرة بين الفتيات الأخريات المتجمعات بهدوء حول البيانو ، يختلسن لمسة أو ضربة مفتاح قبل أن تضرب الشماسة على أيديهن . كانت أصواتهن السوبرانو النقية عند البروفات تغني «سيعتني بك الرب...» ، وقد فعل ذلك ، حتى توقف ذات يوم .

ولد التوأمان في عام (١٩٢٤) وسمعا لمدة عشرين عاماً ما كانت عليه السنوات الأربعون الماضية . استمعا وتصورا وتذكرا كل شيء على حدة لأن كل تفصيل كان مدعاة للسرور وشهوانيا كحلم ، ومثيراً وأكثر مغزى حتى من الحرب التي خاضاها .

في عام (١٩٤٩) ، كشابين ومتزوجين حديثاً ، لم يكونا أحمقين على أي حال . قبل الحرب بكثير ، كان سكان «هايفن» يغادرونها وأولئك الذي لم يحزموا حقائبهم كانوا يخططون للقيام بذلك . حدق التوأمان إلى مستقبلهما متضائل الإمكانيات فيما بعد الحرب ، ولم يكن من الصعب إقناع الفتيان الآخرين في البلدة بتكرار ما فعله الآباء القدماء في (١٨٩٠) . كانت عشرة أجيال قد عرفت ما يكمن هناك : إنه الفراغ ، الذي كان مرة مغوياً وحراً ، أصبح غير مراقب ومؤلماً ، أصبح خواء تنبعث منه العشوائية والشر المنظم أنى اختار هذان ذلك : خلف أي شجرة منتصبة ، خلف باب أي منزل ،

سواء كان متواضعاً أو فخماً . في الخارج هناك حيث أطفالك رياضة للهو ونساؤك طرائد ، وحيث يمكن أن يلغى شخصك بالذات ، حيث تحمل الطائفة السلاح إلى الكنيسة والحبال ملفوفة على كل سرج . هناك في الخارج حيث كل تجمع للرجال البيض يبدو كمجموعة من الذين ينفذون القانون بأيديهم ، وأن تكون وحيداً يعني أنك ميت . ولكن جرى تعلم الدروس . وتعلمها من جديد في الأجيال الثلاثة الأخيرة حول كيفية حماية البلدة . لذا ، مثل العبيد السابقين الذين عرفوا ما يأتي أولاً ، فإن الجنود السابقين فككوا «الفرن» وحملوه في شاحنتين حتى قبل أن يفككوا أسرتهم . وقبل أول نور في منتصف شهر آب (أغسطس) ، انتقلت خمس عشرة عائلة من «هايفن» ، متجهة نحو «موسكوغي» أو «كاليفورنيا» كما فعل البعض ، أو «سانت لويس» أو «هيوستون» أو «لانغستون» أو «تشيكاغو» ، أو نحو الأعمق نحو «أوكلاهوما» ، إلى أقصى مسافة يستطيعون تسلقها بعيدا عن الذل الذي يلوث البلدة التي صنعها أجدادهم .

سأل الأطفال من المقاعد الخلفية للسيارات : «كم سيطول ؟ كم سيطول بنا الأمر ؟» .

أجاب الآباء : «عاجلاً» . وساعة بعد ساعة ، كان الجواب هو نفسه «عاجلاً عاجلاً جداً» . حين رأوا «نهر بيفر» ينزلق عبر فوهة ولاية لها شكل البندقية ، وعبر مساحات من الأراضي المعشوشبة (أرخص من الرخيصة بعد أعاصير عام ١٩٤٩) والتي اشتروها بأموال التسريح من الخدمة العسكرية ، فقد كان الأمر جميلاً وسريعاً وفي أوانه .

كان ما خلفوه وراءهم بلدة أضحت شوارعها الفخورة بنفسها ذات مرة مختنقة بالأعشاب الضارة ، يضبطها الآن ثمانية عشرة شخصاً عنيداً يتساءلون كيف سيصلون إلى مكتب البريد حيث يمكن أن تكون هناك

رسالة من أحفاد رحلوا منذ زمن بعيد . وحيث كان «الفرن» ، راحت حيات خضراء صغيرة تنام في الشمس . من كان يستطيع تخيل أنه بعد خمسة وعشرين عاماً في بلدة جديدة كل الجديدة سيقوم «دير» بالتغلب على الحيات و«فترة الركود الاقتصادي» ومحصل الضرائب والسكة الحديدية لمجرد القوة المدمرة البحتة ؟

والآن هاهو أخ واحد ، قائد في كل شيء ، يحطم باب القبو بأخمص بندقيته . والآخر ينتظر إلى الخلف على مسافة أقدام قليلة مع ابن أختهما . ينزل الثلاثة معاً الدرج مستعدين ومستثارين ليعرفوا . ليسوا خائبي الرجاء . ما يرونه هو غرفة نوم الشيطان ، حمامه وحظيرته النقالة القذرة التي يلعب فيها .

*

كان ابن الأخت يعلم دائماً أن أمه حاولت قدر ما تستطيع التشبث . استطاعت أن تراه يمتطي الحصان الرابح ، ولكن لم تكن لديها القوة أن تقوم بما هو أبعد من ذلك . لا يوجد ما يكفي للاهتمام في النقاشات حول الاسم الذي يطلق على هذا المكان الذي سافرت إليه مع أخويها وابنها الصغير . لسنوات ثلاث كانت «نيوهايفن» [هايفن الجديدة] هو الاسم الذي يلاقي الإجماع ، رغم أن البعض أعلن صراحة اقتراح أسماء جديدة ، أسماء لم تكن تنطق ـ كما قالوا ـ بالفشل جديداً كان أم مكرراً . كان المحاربون القدماء من معارك المحيط الهادي يحبذون اسم «غوام» وآخرون «إنتشون» . أما الذين حاربوا في أوربا فتابعوا اقتراح أسماء لم يتمتع سوى الأطفال بنطقها . لم يكن للنساء رأي ثابت حتى توفيت أم ابن الأخت . وقد أوقفت جنازتها ـ أول جنازة للبلدة ـ جدول النقاش وضرورته . لقد أسمين

البلدة باسم واحدة منهن ولم يخالفهن الرجال . حسناً . جيد . « روبي » .
« يانغ روبي » [روبي الشابة] .

لقد سر ذلك خاليه اللذين كانا قادرين على ممارسة طقوس الحداد على الأخت وتكريم الصديق والصهر الذي لم يتراجع . ولكن ابن الأخت ، الذي ربح جائزة « القلب الأرجواني » خاصة « أوسي » ، ووريث بطاقات كلب أبيه ، الشاهد على اسم أمه المطبوع على إشارات الطرق والمكتوب على المغلفات بقية حياته ، كان فقد مكانه بهذه العلامات الحزينة . القلب والبطاقات وتسمية مكتب البريد كانت أكبر حجماً منه نوعاً ما . والنساء اللواتي عرفن أمه واعتنين بها أفسدن ابن « روبي » . وكان الرجال الذين تطوعوا مع أبيه يحبذون ابن زوج « روبي » . والخالان استخفا به . وحين اتخذ القرار عند « الفرن » ، كان هو هناك . ولكن قبل ساعتين ، حين ابتلعوا آخر قطعة من اللحم الأحمر ، ربت أحد الخالين ببساطة على كتفه وقال : «لدنيا قهوة في الشاحنة . اذهب واحصل على بندقيتك» . وقد فعل ذلك ، ولكنه أخذ صليب النخيل أيضاً .

كانت الساعة هي الرابعة صباحاً حين غادروا ، وكانت الخامسة تقريباً حين وصلوا ، ولم يكونوا في حاجة إلى طنين المحرك أو الأنوار الأمامية لإفساد غطاء الظلمة ، فمشوا الأميال الأخيرة . أوقفوا شاحناتهم في أيكة من شجر السنديان ، فالنور قد يفضح لأميال في هذه البلاد . حين تكون رؤوس التغليف لمسافة خمسين ميلاً غير مرئية ، فإن كعكة عيد ميلاد مضاءة يمكن أن ترى ما أن يشعل عود ثقاب . على بعد نصف ميل من مبتغاهم أحاط الضباب بهم حتى أوراكهم . وصلوا « الدير » قبل ثوان قليلة من بزوغ الشمس وكانت أمامهم لحظة ليروا ويسجلوا لكل الأوقات كيف عامت الدارة الكبيرة ، معتمة ومعزولة بحقد عن أرض الرب .

في غـرفـة الدرس التي كـانت غـرفـة طعـام وأصبـحت الآن دون وظيـفـة باستثناء تخزين المقاعد المدفوعة إلى الجدار ، فإن المنظر كان واضحاً . رجال «روبي» يتجمعون عند النوافذ . حين لم يجدوا شيئاً عدا الدليل المثبت في مكان آخر في «الدير» ، تجمعوا هنا ، «الآباء الجدد» لروبي ، أوكلاهوما . الصقيع الذي واجهوه قد ولّى ، والضباب أيضاً . إنهم مفعمون بالحيوية : دافئون من التعرق والرائحة الليلية للورع . المنظر واضح .

أثر . هذا هو كل ما يستطيع ابن الأخت التفكير به . عداؤو الأربعمائة ياردة أو حتى عدائي الأميال الثلاثة . كان رأسا اثنتين منهن مدفوعين إلى الوراء بقدر ما تسمح به العنق . القبضات مشدودة مع تحرك أذرعتهن وامتدادها بحثا عن مسافة . كان الرأس النائم لإحداهن مدلى إلى الأسفل يضرب الهواء والزمان المفتوحين ، ويد تصل إلى سلك الرابح في اللامكان من مستقبلها . كانت أفواههن مفتوحة تستنشق الهواء ، دون أن تزفره . سيقان الجميع كانت لا تمس الأرض ، وقد انشقت مفتوحة فوق البرسيم .

حواءات سوداوات منذرات بالشر لم تخلصهن «مريم» من الخطيئة ، هن أشبه بالظبيات المذعورات القافزات نحو شمس أنهت إحراق الضباب لإبعاده وراحت الآن تصب زيتاً مقدساً فوق جلود الطرائد .

الرب إلى جانبهم . يسدد الرجال بنادقهم . لأجل «روبي» .



مايفيس



بدا الجيران مسرورين حين اختنق الطفلان . ربما لأن الكاديلاك ذات اللون الأخضر النعناعي التي ماتا فيها قد أزعجتهم لبعض الوقت . وقد فعلوا كل الأشياء الصحيحة ، بالطبع : جلبوا الطعام ، هاتفوا معبرين عن أسفهم ، جمعوا بعض المال ، ولكن لمعة الاستثارة في أعينهم كانت جلية .

حين وصلت الصحافية ، كانت «مايفيس» جالسة في زاوية الكنبة الطويلة ، لا تعرف هل تكشط فتات رقاقات البطاطا من حزوز الغطاء البلاستيكي أو تقحمها نحو الأعمق . ولكن الصحافية أرادت أخذ الصورة أولاً ، لذا أمر المصور مايفيس أن تجلس في وسط الكنبة ، والأطفال الباقين على قيد الحياة على جانبي أمهم الذاهلة المفجوعة . طلبت الأب أيضاً بالطبع . «جيم» ؟ هل اسمه «جيم أولبرايت» ؟ ولكن مايفيس قالت إنه لم يكن على ما يرام ولا يستطيع الحضور ، وعليهم أن يتابعوا دونه . تبادلت الصحافية والمصور النظرات ، وظنت مايفيس أنهما عرفا على الأرجح وعلى أي حال أن «فرانك» - وليس «جيم» - كان يجلس على حافة حوض الاستحمام يشرب «السيغرام» دون كأس .

انتقلت مايفيس إلى وسط الصوفا ونظفت أظافرها من غبار رقاقات البطاطا حتى انضم إليها الأطفال الآخرون . «الأطفال الآخرون» هو الاسم الذي يطلق على الأطفال الآن . وضعت «سال» ذراعها حول خصر أمها . كان «فرانكي» و«بيلي دجيمز» مهروسين معاً على يمينها . قرصتها «سال» ، بقوة . عرفت مايفيس فوراً أن ابنتها لم تكن عصبية أمام الكاميرا وكل ذلك ، لأن القرصة طالت ، وكانت ثاقبة . كانت أصابع «سال» تغوص بحثاً عن الدم .

«لابد أن الأمر قاس عليك» . كان اسمها كما قالت هو «دجون» [حزيران/ يونيو] .

«نعم سيدتي . الأمر قاس علينا كلنا» .

«هل هناك أمر ما تودين قوله ؟ شيء ما تريدين أن تعرفه الأمهات الأخريات ؟» .

«سيدتي ؟» .

صالبت «دجون» رجليها ولاحظت مايفيس أنها ترتدي حذاءها الأبيض ذا الكعب العالي للمرة الأولى . كان النعلان [جديدين] لا لطخة فيهما . «أنت تعرفين ما أعني . شيء ما يحذرهن ، ينبههن ، فيما يتعلق بالإهمال» .

«حسناً .» أخذت مايفيس نفسا عميقاً . «لا أستطيع التفكير في أي شيء . أظن ذلك» .

أقعى المصور ، وأمال رأسه وهو يدرس الاحتمالات .

«إذن يمكن الخروج بشيء جيد من هذه المأساة المريعة ؟» كانت ابتسامة دجون حزينة .

انتصبت مايفيس في جلستها أمام نجاح أظافر «سال» . طقطقت

الكاميرا . حركت دجون قلمها ذا الرأس اللبادي إلى مكانه . كان شيئاً جميلاً . لم يسبق لمايفيس أن شاهدت نظيراً له : يكتب بالحبر على الورق ولكنه حبر جاف ، لا يلطخ أبداً . «ليس لدي ما أقوله للغرباء في الوقت الحاضر» .

وللمرة الثانية عدّل المصور واقية النافذة الأمامية وعاد إلى الكنبة ممسكاً بعلبة سوداء أمام وجه مايفيس .

قالت دجون : «أفهم ذلك» . لانت عيناها ، ولكن اللمعة كانت كلمعة الجيران . «وأنا أكره فعلاً أن أعرضك لهذا كله ، ولكن ربما استطعت أن تقولي لي ما حدث فحسب ، قراؤنا مروعون ببساطة بحكاية التوأمين وكل هذا الأمر . أوه ، وهم يريدون أن تعرفي أنهم يذكرونك في صلواتهم كل يوم» . تركت نظرتها تجتاح الصبيين وسال . «وأنتم جميعاً أيضاً . إنهم يصلون لأجل كل واحد منكم» .

نظر فرانكي وبيلي دجيمز إلى أقدامهما العارية . أراحت سال رأسها على كتف أمها بينما كانت تقبض على اللحم في خصر مايفيس .

«إذن تستطيعين أن تحكي لنا ؟» ابتسمت دجون ابتسامة تعني : (اصنعي معي هذا المعروف) .

«حسناً» . عبست مايفيس ، أرادت أن تحكي الحكاية على النحو الصحيح هذه المرة . «لم يرغب هو بـ«السبام» [نوع من اللحم المحفوظ المعلب] . أعني أن الأطفال يحبونها ولكنه لا يحبها . في هذا الحر لا يمكنك حفظ الكثير من اللحم . كان لدي شرائح لحم من الرقبة والكتف ولكنها تعفنت ذات مرة ، لذا ذهبت وأخذت السيارة . سأصطحب الصغيرين فقط ، وفكرت جيداً ، «ميرل» و«بيرل» . كنت ضد الفكرة أولاً ولكنه قال :...» .

«ميرل ؟» .

«نعم سيدتي» .

«تابعي» .

«لم يكونا يبكيان أو ما شابه ولكنه قال إن رأسه يؤلمه . فهمت ذلك . فهمته فعلاً . لا تستطيعين أن تتوقعي من رجل أن يأتي إلى البيت من ذلك النوع من العمل ويكون عليه أن يعتني بالأطفال بينما أذهب أنا لإحضار طعام ملائم أضعه أمامه . أعرف أن هذا غير صحيح» .

«إذن أخذت التوأمين . لماذا لم تصطحبي بقية الأطفال ؟» .

«إنه ابن عرس في مؤخرة السيارة» .

«خنزير الأرض» قال بيلي دجيمز .

«اخرس» . مالت سال فوق بطن مايفيس وأشارت إلى أخويها .

ابتسمت دجون . «ألم يكن أكثر أمانا لو كان الأطفال الآخرون في السيارة ؟ أعني أنهم أكبر» .

زلقت مايفيس إبهامها تحت شريط حمالة نهديها وجذبتها إلى الخلف فوق كتفها . «لم أكن أتوقع أي خطر . الفوضى هناك في البعيد . كنت أستطيع الذهاب إلى «كونفينينس» ولكن بضاعتهم بائتة جداً بالنسبة إلي» .

«إذن تركت الوليدين في السيارة وذهبت لشراء بعض شرائح الرقبة والكتف» .

«لا يا سيدتي . الطفلان الصغيران» .

«صحيح . (المقانق) .» [هنا خلطت الصحافية بين كلمتي weenies وwieners] . كانت دجون تكتب بسرعة ولكن لم يبد عليها أنها تشطب أي شيء . «ولكن ما أريد أن أسأل عنه هو لماذا استغرق منك الأمر كل هذا الوقت ؟ أعني لشراء مادة واحدة» .

«لم يستغرق طويلاً . لم أغب أكثر من خمس دقائق على الأكثر» .

«طفلاك اختنقا يا سيدة أولبرايت . في سيارة حارة والنوافذ مغلقة . لا هواء . من الصعب رؤية ذلك يحدث في خمس دقائق» .

يمكن أن يكون العرق هو الذي سبب لها الألم ، ولكنه بدا مؤلما إلى حد أنه كان دما لا بد... لم تتجرأ على ضرب يد سال بعنف لإبعادها أو للاعتراف بالألم ولو قليلاً . بدلاً عن ذلك حكّت زاوية فمها وقالت : «لقد عاقبت نفسي على ذلك ، ولكن هذا قريب جداً مما حدث . مشيت إلى هناك مباشرة إلى قسم الأجبان واشتريت رزمتين من «أرمورز» وهي غالية الثمن كما تعرفين ولكني لم أنظر حتى إلى السعر . بعضها أرخص ولكنها بالجودة نفسها . لكني كنت على عجل فلم أنظر» .

«كنت على عجل ؟» .

«أوه أجل يا سيدتي . كان من عادته أن يوبخني . ليست «السبام» بالأمر القليل على الرجل العامل» .

«وماذا عن المقانق ؟ هل هي كذلك ؟» .

«كنت أفكر بشرحات اللحم مع الضلع ، كنت أفكر بشرحات اللحم مع الضلع» .

«ألم تعرفي أن زوجك كان قادماً إلى المنزل لتناول العشاء ، يا سيدة أولبرايت ؟ ألا يأتي للعشاء إلى المنزل كل يوم ؟» .

إنها بالفعل شخص لطيف ، هكذا فكرت مايفيس . مهذبة لم تنظر في أرجاء الغرفة أو إلى أقدام الصبيين ولم تنقز من الضجيج القادم من مؤخرة المنزل ثم صوت مياه السيفون في المرحاض .

كان صوت المصور وهو يطقطق علبه عالياً حين توقف الصوت من المرحاض . قال : «حصلت عليها . من اللطيف التعرف عليك يا سيدتي» . انحنى ليصافح مايفيس . كان شعره بلون شعر الصحافية .

سألت دجون : «هل صورت الكاديلاك صوراً كافية ؟» .

«الكثير منها» . صنع بإبهامه وسبابته شكل (O) . «فلتكونوا كلكم لطفاء . أتسمعون ؟» ثم لمس قبعته ورحل .

توقفت سال عن قرص خصر أمها . انحنت إلى الأمام وركزت على أرجحة قدمها ، ولكنها كانت تصيب ساق أمها .

من حيث جلسوا ما كان أحد في الغرفة قادراً على مشاهدة الكاديلاك المتوقفة أمام المنزل . ولكنها تشاهد منذ أشهر من قبل الجميع في الجوار ويمكن أن ترى الآن من قبل أي شخص في «ماريلاند» بما أن المصور قد أخذ لها صوراً أكثر مما أخذ لأفراد العائلة . أخضر نعناعي . أخضر خسّي . بارد . ولكن اللون ما كان ليظهر في الصحيفة . ما كان سيظهر هو حجم ووضاءة المكان الذي مات فيه الطفلان . الطفلان اللذان ما عاد ليراهما أحد الآن لأن الأم لم تصور وجهيهما البريئان حتى .

قفزت سال وزعقت : «أوه! انظروا! خنفسة!» ثم داست على قدم أمها .

كانت مايفيس قد قالت : «نعم يا سيدتي . هو يأتي إلى المنزل للعشاء كل يوم» . ثم تساءلت كيف سيكون ذلك : أن يكون لديك زوج يأتي إلى البيت كل يوم . لأجل أي شيء . بعد أن غادرت الصحافية ، أرادت أن تذهب لتلقي نظرة على الأذى الذي خلفته سال في خصرها ، ولكن فرانك كان لا يزال في الحمام ، نائماً ربما ، ولم يكن إزعاجه فكرة جيدة . فكرت في تنظيف فتات رقاقات البطاطا من حزوز الأغطية البلاستيكية ولكن المكان الذي كانت تريد أن تتواجد فيه كان الكاديلاك . لم تكن ملكها ، بل ملكه هو ، ومع ذلك أحبتها مايفيس أكثر منه وكذبت عليه حول فقدان المجموعة الثانية من المفاتيح . كان ذلك آخر ما تحدثت عنه بعد مغادرة دجون ،

فقالت : «ليست جديدة على أي حال . عمرها ثلاث سنوات . موديل عام ١٩٦٥» . لو استطاعت لكانت نامت فيها هناك في الخارج ، في المقعد الخلفي ، ولكانت كنكنت في المكان الذي تواجد فه التوأمان ، الوحيدان اللذان استمتعت بصحبتهما ولم يكونا محنة عليها . لم تستطع بالطبع . قال لها فرانك إنه من الأفضل لها ألاّ تلمس الكاديلاك ، ناهيك عن قيادتها طالما كانت على قيد الحياة . لذا كانت على الدرجة نفسها من الدهشة كما كان الآخرون حين سرقتها .

*

«هل أنت على ما يرام ؟» كان فرانك قد سبق له وأصبح تحت الشرشف ، واستيقظت مايفيس مجفلة من الرعب الذي سرعان ما انحل متحولاً إلى الخوف المعتاد .

«أنا على ما يرام» . بحثت في العتمة عن إشارة ، محاولة أن تشعر أو تشم مزاجه سلفاً . ولكن كان فراغا ، كما كان بالضبط عند عشاء أمسية المقابلة الصحفيّة . ربما كان رغيف اللحم الكامل (غير رخو كثيراً وغير قاس كثيراً : بيضتان تصنعان هذا الفرق) قد سرّه . إما هذا أو أنه وصل إلى التوازن : ما يكفي في الداخل ، ما يكفي في المتناول . وعلى أي حال ، فقد كان هنيئا وحتى عابثاً على المائدة ، بينما كان الأطفال الآخرون جريئين على نحو مباشر . كانت سال قد أشرعت موسى حلاقة فرانك القديمة ووضعتها قرب طبقها وطرحت على أبيها سلسلة من الأسئلة ، وكل سؤال كان يبدأ بـ«هل هي حادة بما فيه الكفاية لتقطع... ؟» وكان جواب فرانك : «تقطع أي شيء من شعرة الذقن إلى الغضروف» أو «تقص رموش بقة الفراش» ، مما أثار جلجلة من ضحك سال . حين بصق

بيلي دجيمز «كول - إيد» في طبق مايفيس ، قال أبوه : «هات ذلك الكتشأب يا فرانكي ، وأنت يا بيلي توقف عن اللعب بطعام أمك ، أتسمع ؟» .

لم تظن أنها ستتحملهم أكثر من ذلك ، وحين رأت كيف تصرفوا على العشاء ، مستمتعين كل واحد منهم بنكات الآخر ، عرفت أن فرانك سيدع الأطفال يفعلون الأمر . كان الصحفيون سيفكرون بشيء مثير ، ودجون «الصحافية الأنثى الوحيدة في «الكوريير» ستقوم بالاهتمام الإنساني .

حاولت مايفيس ألا تتخشب حين أصدر فرانك ضجيجاً على الفرشة . هل كان يرتدي الشورت ؟ لو عرفت ذلك لأدركت إن كان ينشد ممارسة الجنس ، ولكنها لم تستطع أن تعرف دون أن تلمسه . وكأنما ليشبع فضولها طقطق فرانك بمطاطة شورت الملاكمة خاصته . استرخت مايفيس وسمحت لنفسها بتنهيدة أملت أن تبدو شخيراً . وقد أزيح الشرشف قبل أن تكمل التنهيدة . حين رفع لها قميص نومها ، رماه فوق وجهها ، وقد كانت تلك حركة أشبه بالرحمة لها فتركتها كما هي . لقد أساءت الحكم . مجدداً . كان سيفعل هذا أولاً ثم البقية . الأطفال الآخرون سيكونون وراء الباب ، يضحكون ضحكات مكبوتة . عينا سال باردتان ودون تسامح كما كانتا حين حكي لها عن الحادثة . قبل أن يأتي فرانك إلى الفراش ، كانت مايفيس تحلم بشيء هام كان من المفترض أن تفعله ، ولكنها لم تستطع أن تتذكره . وحين تذكرت ، سألها فرانك إن كانت على ما يرام . والآن افترضت أنها كانت على ما يرام فعلاً لأن الشيء الهام الذي نسيته لن يحتاج إلى أن يؤدى بعد الآن .

هل سيكون الأمر سريعاً كما كان دائماً ؟ أو طويلاً ومتجولاً ومنهاراً في تعب دون كلمات ؟

لم يكن هذا أو ذاك . لم يولج : بل فركه حتى وصل إلى الذروة وهو يمضغ كتلة من شعرها عبر قميص النوم الذي كان يغطي وجهها . كان يمكنها أن تكون «دمية آني المشعثة» بالحجم الأصلي الطبيعي .

بعد ذلك كلمها في العتمة : «لا أعرف يا مايف . لا أعرف فحسب» .

هل عليها أن تقول : ماذا ؟ ما الذي تعنيه ؟ ما الذي لا تعرفه ؟ أو الصمت ؟ اختارت مايفيس الصمت لأنها فهمت فجأة أنه لم يكن يخاطبها بل يخاطب الأطفال ، الضاحكين خلف الباب .

قال : «ربما . ربما نستطيع تسوية الأمر . وربما لا . لا أعرف فحسب» . ثم تثاءب بعمق . «ألا ترون كيف ، رغم ذلك ؟» .

كانت تلك هي الإشارة ، كما عرفت : إلى سال وفرانكي وبيلي دجيمز .

انتظرت بقية الليل ، دون أن تغلق عينيها لثانية واحدة . كان نوم فرانك عميقاً وكانت ستنزلق من الفراش (طالما أنه لم يخنقها أو يكتم أنفاسها) وتفتح الباب لولا صوت الأنفاس وراءه . كان على ثقة أن سال كانت تقعي هناك : مستعدة للانقضاض على ساقيها أو الإمساك بهما . ستكون شفتها العليا مرفوعة مظهرة أسنان فتاة في الحادية عشرة لكنها كبيرة جدا بالمقارنة مع فمها المكشر . سيكون الفجر حاسماً كما فكرت مايفيس . وسيتم الاتفاق على المصيدة التي لم تنصب بعد . كان تركيزها الأشد حدة مطلوباً لمعرفة مكانها قبل أن تنطلق .

عند أول علامة على نور رمادي انزلقت مايفيس من السرير . لو استيقظ فرانك لانتهى الأمر كله . أمسكت ببنطال ضيق أحمر خاص بركوب الدراجات وقميص واسع «دافي دك» ، واتجهت نحو الحمام . أخذت حمالة نهدين متسخة من سلة الغسيل ولبست بسرعة . دون سروال داخلي وما

كان يمكن لها أن تعود إلى غرفة النوم من أجل حذائها . كان المهم هو المرور عبر غرفة الأطفال الأخرى . كان الباب مشرعاً ، ورغم أنه لم يكن هناك صوت قادم منها ، إلا أن مايفيس أحست بقشعريرة لدى التفكير بالاقتراب منها . عند البهو إلى اليسار كانت غرفة الطعام ـ المطبخ وغرفة الجلوس إلى اليمين . سيكون عليها أن تقرر أي طريق ستسلكها قبل أن تعدو خارجة من ذلك الباب . ربما سيتوقعون منها أن تذهب مباشرة إلى المطبخ كالعادة ، لذلك ربما كان عليها أن تنطلق بسرعة إلى الباب الأمامي . أو ربما كانوا يعتمدون على أن تغيّر عادتها ، ولم تكن المصيدة في المطبخ إطلاقاً .

وفجأة تذكرت أن حقيبتها اليدوية كانت في غرفة الجلوس ، موضوعة على خزانة التلفزيون ، والتي حين تعطل الجهاز ، أصبحت وعاء لتوالي الأشياء وفضالاتها . والمفاتيح الاحتياطية كانت مثبتة تحت شق في بطانة الحقيبة . أمسكت بأنفاسها ، وعيناها مفتوحتان أمام العتمة ، تقدمت بسرعة عبر غرفة نوم الأطفال الآخرين . ومع ظهرها المكشوف لهذا الخطر الكبير ، أحست بالحمى : كانت تتعرق وتشعر بالبرد في آن معاً .

لم تكن حقيبتها حيث تذكرت فحسب ، بل كانت جزمة سال عند الباب الأمامي . أمسكت مايفيس بالحقيبة ، أقحمت قدميها في جزمة ابنتها الصفراء وهربت نحو رواق المدخل الأمامي . لم تنظر نحو المطبخ ولم تره ثانية .

كان الخروج من المنزل شديد الإيلام لذا كانت تجذب الكاديلاك بعيداً عن المنعطف حين لم يكن لديها أي فكرة عما ستفعله تالياً . قادت السيارة نحو منزل «بيغ» . لم تكن تعرف هذه المرأة جيداً ، ولكن دموعها في الجنازة أثرت في «مايفيس» . لقد أرادت دائماً أن تعرفها

على نحو أفضل ، ولكن فرانك وجد طرقاً لمنع هذا التعارف من أن يتحول إلى صداقة .

بدا النور الوحيد في الشارع بعيداً لمسافة أميال وكانت الشمس مترددة في الشروق ، لذا لم تجد مشقة في إيجاد منزل بيغ . وحين فعلت أخيراً ، أوقفت السيارة عبر الشارع لتنتظر نوراً من السماء أقوى قبل أن تطرق الباب . كان منزل بيغ معتماً ولا يزال واقي النافذة (على شكل صورة) مغلقاً . هدوء كامل . تمثال الفتاة الخشبية في نبات «البتونيا» وجهه مختف خلف قبعة زرقاء هفافة ، وقد أمال صحيفة الماء ، وقد اصطفت أسرة من البط المنحوت عند كعبيها . المرج ، المقصوص جيداً وذو الحافة الدقيقة ، بدا وكأنه عينة لسجادة مصنوعة من صوف ثمين . لاشيء يتحرك ، لا الطاحونة الصغيرة ولا اللبلاب المحيط بها . عند جانب المنزل ، على أي حال ، كانت شجرة ورد شارون أعلى من سطح منزل بيغ وأكبر عمراً ، آخذة بالاهتزاز . كانت ترقص تحت الهواء القادم من عادم مكيف الهواء ، والبراعم والأزاهير تحتك بالعشب . كانت برية وبدت برية ، وراح نبض مايفيس يسابقها . حسب ساعة الكاديلاك لم تكن الساعة قد تجاوزت الخامسة والنصف بعد . قررت مايفيس أن تقود السيارة من حول المكان لفترة ثم العودة في ساعة محترمة . ربما في السادسة . ولكنهم سيكونون قد استيقظوا أيضاً في تلك الساعة وسيرى فرانك أن «الكادي» قد اختفت . لاشك أنه سيهتف للشرطة .

ابتعدت مايفيس عن المنعطف وهي حزينة وخائفة من شدة غبائها . ولم يكن الجوار كله يعرف السيارة فحسب ، بل أن صورة لها ستنشر في صحيفة اليوم . حين اشتراها فرانك وساقها إلى المنزل فإن الرجال في الشارع راحوا يضربون على غطاء السيارة ويبتسمون ، أو ينحنون إلى الداخل ليأخذوا

شمة ، يضربون الزمور ويضحكون . كانوا يضحكون ويضحكون أكثر لأن مالكها يضطر إلى استعارة جزازة عشب كل أسبوعين ، ولأن مالكها لم يكن لديه منخل على نوافذه ولا جهاز تلفزيون يعمل ، ولأن اثنين من أعمدة مدخل البيت وعددها الإجمالي ستة قد طليا باللون الأبيض قبل ثلاثة أشهر والباقية لازال لونها أصفر مقشر ، ذلك أن مالكها كان ينام أحياناً خلف مقود السيارة التي كان يتاجر فيها ـ طوال الليل ـ أمام منزله . وكانت النساء اللواتي رأين مايفيس تقود الأطفال إلى «القلعة البيضاء» وهم يرتدون نظارات شمسية في الأيام الغائمة ، كن يحدقن ببلادة قبل أن يهززن رؤوسهن . وكأنهم عرفوا من البداية أن الكاديلاك ستكون ذات يوم حاملة لشهرة سيئة .

دخلت مايفيس الطريق رقم (١٢١) وهي تزحف بسرعة عشرين ميلا بالساعة ، وذلك بفضل حماية العتمة التي لازالت متبقية . وحين عبرت قرب مستشفى المقاطعة ، مرت سيارة إسعاف صامتة خارجة من المدخل . صليب أخضر في حقل من البياض انزلق من نور الإسعاف اللامع إلى الظل . لقد كانت مريضة هنا خمس عشرة مرة : أربع مرات للولادة . وخلال الدخول قبل الأخير إلى المستشفى ، حين كانت ولادة التوأمين ، وصلت أم مايفيس من نيو جرزي للمساعدة . أدارت شؤون المنزل ورعت الأطفال الآخرين لثلاثة أيام . حين ولدت التوأمين ، عادت الأم إلى باترسون على مبعدة ثلاث ساعات بالسيارة ، كما ظنت مايفيس . يمكنها أن تصل هناك قبل «العاصفة السرية» التي افتقدتها طوال الصيف .

في محطة وقود من نوع «املأ وامض» ، تفحصت مايفيس محفظة نقودها قبل أن تجيب على العامل المشرف على المحطة . كان معها ثلاثة أوراق نقدية من فئة العشرة دولارات خلف إجازة السياقة .

قالت : «عشرة» .

«غالونات أم دولارات يا سيدتي ؟» .

«غالونات» .

في بقعة الأرض المجاورة لاحظت مايفيس نافذة مطعم إفطار تعكس لوناً مرجانياً في النور الباكر .

صرخت فوق زمجرة شاحنة الطريق العام : «هل ذلك المكان مفتوح ؟» .

«نعم يا سيدتي» .

مشت نحو المطعم متعثرة مرات عديدة على الحصى ، في الداخل ، كانت النادلة تأكل كعك التفاح البري والجريش خلف النضد . غطت طبقها بقماشة ولمست زوايا فمها قبل أن تتمنى لمايفيس صباحاً ملؤه الخير وتسألها عن طلبها . حين غادرت مايفيس ، حاملة فنجاناً ورقياً من القهوة وبسكوتتين مغمستين بالعسل في منديل ، لاحظت ابتسامة النادلة الواسعة في مرآة «جعة هايرز روت» عند المخرج . لقد أزعجتها الابتسامة طوال طريق عودتها إلى محطة الوقود ، حتى رأت قدميها المرتديتين للون الأصفر الكناري وهي تخطو إلى داخل السيارة .

بعيداً عن المضخة ، أوقفت السيارة خلف المطعم ووضعت طعام فطورها على واقية السيارة وهي تنقب في علبة القفازات . وجدت زجاجة صغيرة من «إيرلي تايمز» غير مفتوحة وزجاجة أخرى فيها بوصة أو نحوه من الويسكي ، محارم ورقية وحلقة تسنين للأطفال ، وعدداً من الحلقات المطاطية ، وزوجاً من الجوارب المتسخة ، ومصباحا يدويا ببطارية فارغة ، وأحمر شفاه ، وخريطة لولاية فلوريدا ، ولفائف من روح النعناع وبعض بطاقات السير . وضعت حلقة التسنين في حقيبتها اليدوية ولوت شعرها في ذيل حصان صغير وحزين برز من الحلقة المطاطية كأنه ريش دجاجة ،

ولطخت فمها بأحمر شفاه المرأة الغريبة . ثم جلست وارتشفت القهوة . كانت في حالة عصبية لم تطلب معها حليباً أو سكراً فطلبت القهوة «سادة» ولم تستطع أن تجبر نفسها على أخذ جرعة ثالثة . كان أحمر شفاه المرأة الغريبة يلطخ بلزوجة حافة الفنجان الكرتوني .

كانت الكاديلاك تشرب عشرة غالونات من البنزين كل تسعين ميلاً . تساءلت مايفيس إن كان عليها أن تهتف لأمها أو تزورها دون إبلاغ . بدا الأمر الثاني أذكى . قد يكون فرانك هاتف حماته الآن أو قد يفعل ذلك في أي دقيقة . الأفضل لو أن أمها استطاعت أن تقول بصدق : «لا أعرف أين هي» . استغرقت الرحلة إلى باترسون خمس ساعات وليس ثلاثة ، وكان معها أربعة دولارات وستة وسبعين سنتاً حين رأت اللافتة التي تحمل اسم البلدة . كانت ساعة الوقود تعطي إشارة «فارغ» .

بدت الشوارع أضيق ممّ تتذكرها والمحلات مختلفة . كانت الأوراق الشمالية قد سبق لها وبدأت تلتف . قادت السيارة تحتها في القاعة المرقشة التي صنعتها الأوراق ، فشعرت وكأن الرصيف ينزلق نحو الأمام بدلاً عن التراجع . وكلما أسرعت كلما ظهر الطريق أمامها .

توقفت الكاديلاك قبل صف كامل من الأبنية عن منزل أمها ، ولكن مايفيس استطاعت أن تتجاوز نقطة التقاطع وتجعل السيارة تقف عند المنحنى .

لقد وصلت مبكراً . لن تكون أمها قد عادت إلى البيت من مدرسة روضة الأطفال حتى يكون أطفال فترة بعد الظهر قد جرى جمعهم . لم يعد مفتاح الباب تحت «الرنة» ، لذا جلست مايفيس على الرواق الخلفي ونزعت الجزمة الصفراء بصعوبة . بدا قدماها وكأنهما تنتميان إلى شخص آخر .

كان قد سبق لفرانك وهتف في الساعة الخامسة والنصف صباحاً ، حين كانت مايفيس مازالت تحدق إلى شجرة ورد الشارون خاصة بيغ . قالت «بيردي غودرو» لمايفيس أنها أغلقت الخط بعد أن قالت له إنها لا تعرف عما كان يتحدث عنه ومن يظنها تكون إذ هو يوقظها من نومها ؟ لم تكن مسرورة . ليس في ذلك الحين وليس فيما بعد حين نقرت ابنتها على نافذة المطبخ وهي تبدو كوطواط خارج من الجحيم ، وهذا ما قالته ما أن فتحت الباب . «يا فتاة ، تبدين كوطواط خارج من الجحيم . ما الذي تفعلينه هنا في جزمة الأطفال هذه ؟» .

«ماما ، دعيني أدخل فحسب ، هل تسمحين ؟» .

لم تكن بيردي غودرو قد طهت ما يكفي من كبد العجل لاثنين . أكلت الأم والبنت في المطبخ ، ومايفيس تبدو الآن في حالة جيدة : لقد اغتسلت ومشطت شعرها وتناولت الأسبرين وارتدت ثوب بيردي المنزلي الواسع عليها .

«حسناً ، هات القصة . ليس لأني أريد أن أعرف» .

أرادت مايفيس المزيد من بازلاء الأطفال وقلبت الوعاء لترى إن كان قد تبقى فيه شيء .

«استطعت أن أرى هذا يحدث . أي شخص كان يستطيع ذلك» . ثم تابعت مايفيس : «لا يحتاج الأمر إلى دماغ أكبر من دماغ بعوضة ليرى ذلك» .

كان هناك القليل منها . ما يعادل زوجاً من الملاعق . كشطتها مايفيس إلى صحنها متسائلة إن كانت هناك أي حلويات لما بعد الغداء . كان لا يزال هناك بعض البطاطا المقلية في صحن أمها . «هل ستأكلين هذه يا أمي ؟» .

دفعت بيردي بصحنها نحو مايفيس . كان هناك مربع صغير من الكبد أيضاً وبعض البصل . كشطتها مايفيس كلها إلى صحنها .

«لازال لديك أطفال . الأطفال في حاجة إلى أم . أعرف ما عانيته ، يا حبيبتي ، ولكن لديك أطفال آخرون» .

كان الكبد معجزة . كانت أمها تتخلص دائماً من كل جزء من الغشاء المتراص .

«ماما» ، مسحت مايفيس شفتيها بمنديل ورقي . «لم تخلفت عن الحضور إلى الجنازة ؟» .

انتصبت بيردي . «ألم تصلك حوالة النقود ؟ والزهور ؟» .

«حصلنا عليهما» .

«إذن تعرفين السبب . كان على أن أختار : بين المساعدة في دفنهما أو دفع نفقات الرحلة . لم أستطع القيام بالأمرين معاً . لقد قلت لك ذلك . سألتك بصراحة أي الأمرين كان أفضل ، وقلتما كلاكما إن المال هو المطلوب . كلاكما قلتما ذلك . كلاكما» .

«سيقتلونني يا ماما» .

«هل ستهددينني بذلك بقية حياتي ؟ رغم كل ما فعلته لك ولأولئك الأطفال ؟» .

«لقد حاولوا سابقاً ولكني نجوت» .

«أنت كل ما لديّ بعد أن ذهب إخوتك وتركوا أنفسهم يقتلون...»

ضربت بيردي المنضدة بيدها .

«ليس لهم الحق في قتلي» .

«ماذا ؟» .

«إنه يجعل الأطفال الآخرين يقومون بذلك» .

« ماذا ؟ يقومون بماذا ؟ ارفعي صوتك حتى أسمع ما تقولين » .

« أقول إنهم سيقتلونني » .

« هم ؟ من ؟ فرانك ؟ من هم ؟ » .

« كلهم . الأطفال أيضاً » .

« يقتلونك ؟ أطفالك ؟ » .

أومأت مايفيس برأسها . فتحت بيردي غودرو عينيها على وسعهما أولاً ثم نظرت إلى حضنها وهي تلقي بجبينها على كفها .

لم تتحدثا بعد ذلك لفترة من الزمن ، ولكن لاحقاً ، عند المجلى ، سألت بيردي : « هل كان التوأمان سيقتلانك أيضاً ؟ » .

حدقت مايفيس إلى أمها . « لا . أوه . لا . ماما! هل أنت مجنونة . كانا رضيعين » .

« حسناً . حسناً . مجرد سؤال . هذا غير عادي كما تعلمين أن يظن المرء أن أطفالاً صغاراً...غير عادي ؟ هذا... هذا أمر شرير . ولكنهم سيفعلون ما يأمرهم به . والآن سيقومون بأي شيء . لقد سبق لهم وحاولوا يا ماما » .

« ما الذي حاولوه ؟ ما الذي فعلوه ؟ » .

« كان معها موسى وكانوا يضحكون ويراقبونني ، يراقبونني كل دقيقة » .

« ما الذي فعلته سال بالموسى ؟ » .

« كانت تضعها إلى القرب من صحنها وتنظر إليّ . كلهم كانوا ينظرون إليّ » .

لم تتكلم أي منهما حول الموضوع ثانية لأن بيردي قالت لمايفيس إنها تستطيع البقاء ولكن على شرط ألا تتحدث بتلك الطريقة ثانية . إنها لن تخبر فرانك لو اتصل مجدداً أو أي شخص آخر أنها موجودة عندها ، ولكن لو نطقت بكلمة أخرى حول القتل فستهتف له فوراً .

خلال أسبوع كانت مايفيس على الطريق ، ولكن كانت لديها خطة هذه المرة . قبل أيام سمعت أمها تتكلم مباشرة في سماعة الهاتف قائلة : «الأفضل لك أن تأتي إلى هنا بسرعة وأعني على الفور» . كانت مايفيس تتجول في المنزل بينما كانت بيردي في المدرسة ، مفكرة : المال والأسبرين والطلاء والملابس الداخلية . أخذت كل ما استطاعت أن تجده من أول شيئين : الشيكات في مغلفين حكوميين بنيين كانا مسندين على صورة أحد أخوتها الذي قتل في الحرب ، وزجاجتي «باير» . كما أخذت زوجاً من المشابك الألماسية الزائفة من علبة مجوهرات بيردي واستردت مفاتيح السيارة التي ظنت أمها أنها أخفتها جيداً . صبّت غالونين من بنزين جزازة العشب في خزان الكاديلاك وقادت السيارة مبتعدة باحثة عن مكان تجد فيه المزيد . في نيوآرك وجدت دكان بيع طلاء «إيرل شايب» وانتظرت يومين في مهجع «جمعية الشبان المسيحيين» حتى طليت السيارة بلون رمادي . تبين أن الإعلان عن كلفة تقدر بتسعة وعشرين دولاراً هو لسيارة بالحجم العادي . وقد جعلوها تدفع تسعة وستين دولاراً للكاديلاك . وقد اشترت الملابس الداخلية والصندل الجلدي من محلات «وولويرث» . وفي أحد محلات «غودويل» اشترت بذلة ببنطال ذات لون أزرق فاتح من النوع الذي يجف دون تغضن عند غسله وكنزة ذات قبة عالية من القطن الأبيض . مناسب تماماً لكاليفورنيا كما فكرت . مناسب تماماً .

وبخريطة «موبيل» جديدة قربها على المقعد ، أسرعت خارجة من نيوآرك متجهة إلى الطريق رقم (٧٠) . وكلما خلفت المزيد ثم المزيد من «الشرق» وراءها ، كلما شعرت أنها أسعد . مرة واحدة فحسب شعرت بهذا النوع من السعادة . كان ذلك حين ركبت «الصاروخ» وهي طفلة . وحين أزّ «الصاروخ» متجهاً نحو الأسفل ، جعلتها الاندفاعة تصاب بالدوار من

المتعة . وحين أبطأ قبل أن يقلب عاليها سافلها عبر القوس العالي لدائرته ، كانت الاستثارة شديدة ولكنها هادئة . زعقت مع الركاب الآخرين ، ولكن في الداخل كانت هناك الاستثارة الراسخة في مواجهة الخطر وهي محزمة بأمان ضمن المعدن المتين . كانت سال تكرهه ، وكذلك الصبيان حين اصطحبتهم لاحقاً إلى حديقة الملاهي . والآن وهي هاربة إلى كاليفورنيا ، فإن ذكرى ركوب «الصاروخ» واندفاعته كانا يرافقانها عندما تشاء .

حسب الخريطة كان الطريق مستقيماً . كل ما كان عليها فعله هو أن تجد الطريق رقم (٧٠) وتبقى مواظبة على السير فيه حتى «يوتاه» ، ثم تسير يساراً إلى لوس أنجلس . تذكرت لاحقاً أنها سافرت هكذا : بخط مستقيم . ها هي ولاية ، ثم أخرى ، كما وعدت الخريطة تماماً . وحين بدأت نقودها تتناقص إلى مجرد قطع معدنية ، اضطرت إلى البحث عن راكبات مجانيات تقلهن على الطريق . ولكن عدا أول وآخر راكبة لم تكن تستطيع تذكر ترتيب الفتيات . كان إركاب الفتيات السيارة هو الأسهل . كن رفقة آمنة ، كما كانت تأمل ، وكن يساعدن بشراء البنزين والطعام وأحياناً يقمن بدعوتها إلى مكان يستطعن فيه الدخول مجاناً . كن يركبن في الطرق الرئيسية ونقاط التقاطع والمنحدرات قبل الجسور وحدود محطات الوقود والموتيلات ، يرتدين سراويل الجينز ذات الأحزمة الهابطة حتى الوركين والمنتفخة في الأسفل . الشعر غير اللامع يتأرجح أو الشعر المصفف على الطريقة الأفريقية . كانت البيضاوات هن الأشد تودداً ، والملونات بطيئات في الذوبان . ولكنهن جميعاً حكين لها عن العالم قبل كاليفورنيا . ومن تحت الحديث العارف والضحكة الرنانة كالجرس ولحظات الصمت المدببة ، كان العالم الذي وصفنه كعالمها قبل كاليفورنيا : حزيناً ، مخيفاً ، وكله على خطأ . المدارس الثانوية مقالب قمامة ، والآباء أغبياء ،

«جونسون» [الرئيس الأمريكي جونسون] شخص بغيض وتافه والشرطة خنازير والرجال جرذان والفتيان فتحات شرجية .

ركبت الفتاة الأولى خارج «زانسفيل» . هناك كانت جالسة في مطعم على جانب الطريق ، تعدّ نقودها ، حين ظهرت الهاربة . لاحظتها مايفيس تذهب إلى حمام النساء ، ثم وبعد فترة قصيرة ، شاهدتها تخرج وهي تلبس ملابس مختلفة . : تنورة طويلة هذه المرة وبلوزة متهدلة تلمس فخذيها . في الخارج في مرآب السيارات ، عدت الفتاة إلى نافذة الكاديلاك وطلبت الركوب . فتحت الباب بقوة وهي تبتسم بسعادة حين أومأت مايفيس برأسها موافقة . قالت الفتاة إن اسمها «ساندرا» ولكن نادني بـ«داستي» وتحدثت لمسافة اثنين وثلاثين ميلاً . كانت داستي غير مهتمة بأي شيء يخص مايفيس ، وقد أكلت اثنتين من «المالومار» وثرثرت ، خاصة حول مالكي ستة بطاقات تعريف للكلاب كانت تتدلى من عنقها . الصبيان في صف الثانوية معها أو الذين عرفتهم في المدرسة ما قبل الثانوية . لديها اثنتان حصلت عليهما حين كانت تتواعد مع الفتيان ، والبقية رجت الأسر أن تعطيها إياها : للذكرى . كلها [كلاب] ميتة أو مفقودة .

وافقت مايفيس على المرور عبر «كولومبوس» لتوصل داستي إلى منزل صديقتها . وصلتا تحت مطر خفيف . كان أحدهم قد قام بإجراء آخر جز للعشب هذا الموسم . كان شعر داستي متلبداً في خصل بنية . كانت هناك الرائحة المجيدة للعشب المجزوز حديثاً تحت المطر وطقطقة بطاقات الكلاب ونصف «المالومار» . كانت تلك ذكرى مايفيس عن أول انعطاف لها عن طريقها مع راكبة مجانية . وباستثناء الأخيرة ، كانت الأخريات خارج السلسلة المتعاقبة . هل رأت في كولورادو ذلك الرجل جالساً على مقعد تحت أشجار الصنوبر في منطقة استراحة ؟ كان يأكل ببطء ، ببطء شديد

وهو يقرأ في صحيفة . أو كان الأمر قبل ذلك ؟ كان الجو مشمساً وبارداً . على أي حال قرب ذلك المكان أركبت فتاة سرقت منها المشبكين من الألماس المزيف . ولكن قبل ذلك ـ قرب سانت لويس يا ترى ؟ ـ فتحت الباب لفتاتين ترتجفان على الطريق (٧٠) . كانت الريح قد فعلت فعلها فيهما والجاكيت العسكرية مغلقة بإحكام حول ذقن كل واحدة منهما ، قباقيب جلدية وجوارب رمادية سميكة : مسحتا أنفيهما بينما كانت أيديهما لا تزال داخل جيوبهما .

ليس بعيداً ، كما قالتا . كان يبعد أميالاً قليلة فحسب خارج البلدة . والمكان مقبرة خضراء لامعة مليئة بالناس كأنها منتزه عام . كانت صفوف من السيارات تحيط بالمدخل كقلادة عنق . مجموعات من الناس ، وأشخاص يتمشون لوحدهم ، وكلهم صابرون في هذه الريح ، يختلطون مع الفتيان من مدرسة عسكرية . شكرت الفتاتان مايفيس وخرجتا من السيارة ، وركضتا قليلاً لتنضما إلى مجموعة من الأشخاص في ملابس الحداد قرب أحد القبور . تمهلت مايفيس ، مندهشة من اللمعان غير الطبيعي للون الأخضر . والذين حسبتهم طلاباً عسكريين تبين أنهم جنود حقيقيون إنما كانوا (شباناً) ، صغاراً في السن ، ويبدون نضرين كشواهد القبور التي يقفون أمامها .

لاشك أنه بعد هذا أركبت مايفيس «بني» ، آخر فتاة وهي كذلك الفتاة التي أحبتها مايفيس أكثر من الكل وهي التي سرقت معطفها المطري وجزمة سال . كانت «بني» سعيدة في أن تعرف أن مايفيس ـ شأنها هي ـ كانت ذاهبة إلى لوس أنجلس . أما هي «بني» كانت متجهة إلى «سان دييغو» . لم تكن من النوع المتكلم ، لا الصغير منه ولا الكبير . بل غنت . غنت أغاني عن الحب الحقيقي والحب المزيف والصلاح ، وأغاني عن المتعة غير

المعقولة . البعض منها كان يبكي والآخر أحمق على نحو متعمد . غنت معها مايفيس في إحدى المرات ، ولكنها أصغت معظم الوقت ، وهي لم تتعب خلال مائة واثنين وسبعين ميلاً من الاستماع إليها . كرّ الميل بعد الميل يحثه ويسهله الألم الجميل في صوت «بني» .

لم تكن تحب الأكل عند الوقفات على الطريق العام . ولو حدثت الوقفات فلأن مايفيس أصرت عليها . شربت «بني» الماء بينما التهمت مايفيس سندويشات الجبنة المسيحة والبطاطا المقلية . وجهتها «بني» مرتين عبر بلدتين بحثاً عن أحياء الملونين ، حيث تستطيعان تناول طعام «صحي» كما قالت . في تلك الأماكن كانت «بني» تأكل ببطء وثبات وتكرر الطلبات . تطلب أطباقاً جانبية ودائماً شيئاً ما تأخذه معها . كانت حريصة على مالها دون أن تبدو قلقة حوله ، وتساهم في الكلفة عند كل محطة وقود .

لم تعرف مايفيس أبداً ما كانت تخطط له «بني» أو من ستقابل في لوس أنجلس (حسناً سان دييغو) . كان جوابها الوحيد على استفسارات مايفيس : «للمضي في العمل» . ورغم ذلك ، ففي مكان ما بين «توبيكا» و«لورنس» في ولاية كانساس ، اختفت مع معطف مايفيس المطري البلاستيكي الشفاف وجزمة سال الصفراء . ويا للعجب ، فها هي ورقة مايفيس النقدية من فئة الخمسة دولارات ما تزال مربوطة بمقبض علبة السرعة بمطاطة . كانتا قد أنهيتا اللحم المشوي وسلطة البطاطا في مطعم رث يدعى «هيكيز» . كان طلب «بني» (على الماشي) ملفوفاً وموضوعاً على الطاولة . قالت وهي تومئ إلى الفاتورة : «سأهتم بهذه . اذهبي إلى المرحاض قبل أن نصل الطريق العام» . وحين خرجت مايفيس كانت «بني» و«الضلع على الماشي» قد اختفيا .

كان جواب النادلة : « كيف لي أن أعرف بحق الجحيم ؟ لم تترك حتى سنتاً واحداً كبقشيش » .

نبشت مايفيس ربع دولار ووضعته على نضد الحساب . انتظرت دقائق قليلة في السيارة قبل أن تحاول أن تجد سبيلها ا إلى الطريق (٧٠) العذب .

كان الهدوء الذي خلفته «بني» في الكاديلاك غير ممكن احتماله . أبقت مايفيس الراديو مفتوحاً ، وعندما كانت تذاع إحدى أغنيات «بني» ، راحت تغني أيضاً ، حزينة بسبب أدائها الضعيف .

أصابها الفزع في محطة «إسو» للوقود .

حين أعادت مايفيس مفتاح غرفة الاستراحة ، نظرت عبر النافذة . إلى ما ورائها ، تحت أنوار النيون التي تعلو المضخة ، كان فرانك منحنياً عبر نافذة الكاديلاك . هل يمكن أن يكون شعره قد طال إلى هذا الحد خلال أسبوعين ؟ وملابسه . جاكيت جلدي أسود ، قميص مفتوح حتى سرته تقريباً وسلاسل ذهبية . تلوت مايفيس وحين حدق عامل المحطة إليها حاولت جعل الأمر يبدو وكأنها قد تعثرت . لم يكن هناك مجال للهروب . راحت تنبش في خرائط كولورادو على المنصب . نظرت مجدداً . كان قد رحل . ربما أوقف سيارته في مكان قريب ، كما فكرت ، منتظراً إياها حتى تخرج .

سأزعق ، قالت لنفسها ، وأتظاهر بأني لا أعرفه ، وأتشاجر معه وأنادي على الشرطة . لم تعد السيارة خضراء نعناعية اللون ، ولكن يا إلهي ، اللوحة كانت هي نفسها . كان معها السجل . لنفرض أنه جلب أوراق الملكية . هل كانت هناك نشرة ؟ لم تستطع التوقف ثابتة ولم يعد هناك تراجع . تقدمت مايفيس . دون أن تعدو . دون أن تتعثر . رأسها إلى الأسفل وهي تنبش في حقيبتها اليدوية عن الورقة من فئة العشرين دولاراً .

وبينما هي في السيارة تنتظر عامل المحطة ليقبض المال ، نظرت فيما حولها : من النافذة الخلفية والنوافذ الجانبية . لاشيء . دفعت المال وأدارت مفتاح الإشعال . عندها فإن الجذع المرتدي للجاكيت الأسود والقميص المفتوح ظهر في المرآة اليمينية . التقطت أنوار النيون السلاسل الذهبية . ومع صعوبة التحكم بالكاديلاك ، إلا أن هذه جنحت فجأة خارجة من طريق محطة الوقود . وقد نسيت من خوفها الآن ما الذي كان عليها أن تبحث عنه . وصلة ماذا ؟ استديري إلى اليمين لتتجهي جنوباً . لا . غرباً . ادخلي الطريق رقم (٧٠) عند ماذا ؟ ولكن هذا كان شرقاً . أين يذهب طريق الخروج المائل ؟

بعد ساعة كانت تسير في طريق سبق لها أن سارت فيه مرتين . خرجت منه بأسرع وقت ممكن ، فوجدت نفسها على جسر ضيق وشارع تصطف فيه المخازن . الطرق الثانوية ، كما قررت ، ستكون أفضل على أي حال . عدد أقل من رجال الشرطة ومن أنوار الشوارع . خرجت من البلدة وهي ترتجف عند كل إشارة ضوئية . كانت على الطريق رقم (١٨) حين حل الليل ، وقادت السيارة قدماً حتى لم يعد هناك سوى الأبخرة وقوداً للمحرك . لم تتنهد الكاديلاك ولا حتى سعلت . بل توقفت ببساطة في بئر من العتمة ، والأنوار الأمامية تلتقط ثلاثين قدماً من الزفت . أطفأت مايفيس الأنوار وأقفلت الأبواب . همست : القليل من الشجاعة . شأن الفتيات الهاربات من والهاربات باتجاه . لو استطعن التجوال والقفز إلى السيارات ، وإيقاف السيارات للوصول إلى الجنائز ، والبحث في الأحياء الغريبة بحثاً عن طعام وشق الطريق لوحدهن أو مع شخص آخر فقط للحماية ، لاستطاعت هي دون شك الانتظار حتى حلول الصباح . لقد فعلت ذلك طوال حياتها الراشدة ، وكانت قادرة على النوم على نحو أفضل في

نور النهار . وعلى أي حال وعلاوة على ذلك ، فلم تكن في سن المراهقة . كانت أماً في السابعة والعشرين لـ...

لم تسعفها «ايرلي تايمز» . بلّلت الدموع ذقنها ، ثم زحفت هابطة على عنقها على أي حال . ما فعلته في النهاية كان أن جعلتها تغفو .

استيقظت مايفيس وفمها كاللباد ، قبيحة ودون تركيز وعرفت أنها كانت جائعة لأن الشمس بلون البطيخ الأحمر بدت قابلة للأكل . كان الأفق الأزرق الزاعق الذي يحيط بها أقل ترحيباً أو تقريعاً ومدعوماً بمليار ميل مما هو ليس شيئاً واحداً .

لم يكن هناك خيار . أراحت نفسها كما علمتها «داستي» ، وعادت إلى السيارة لتنتظر سيارة أخرى عابرة . كانت «بني» ذكية . لم تكن تغادر إلى أي مكان دون علبة دسمة من الطعام . أحست مايفيس بغبائها يطبق على رأسها ككيس جاف . امرأة ناضجة لا تستطيع أن تعبر البلاد . لا تستطيع أن تضع خطة تلائم أكثر من عشرين دقيقة . كان عليها أن تتعلم كيف تجفف نفسها بالأعشاب . رعناء إلى حد أن تنسى فتح نافذة السيارة حتى يستطيع الأطفال التنفس . لم تكن تعرف الآن لم هربت من السلاسل الذهبية المتجهة نحوها . كان فرانك على حق . منذ البداية كان على حق تماماً فيما يخصها : كانت أغبى كلبة على الكوكب .

خلال الانتظار الذي لم تقترب خلاله أي سيارة أو شاحنة أو باص ، أغفت ، واستيقظت على أفكار مرعبة ثم أغفت مجدداً . وفجأة انتصبت في جلستها ، مستيقظة تماماً ، وقررت عدم الموت جوعاً . هل كانت فتيات الطريق سيجلسن هناك فحسب ؟ ماذا عن داستي ؟ «بني» ؟ نظرت مايفيس عن كثب إلى المكان المحيط بها . كان للمليار ميل من لاشيء أشجار هي على مبعدة من مكانها . هل كان ذلك عشباً أومحصولاً من نوع ما ؟ كل طريق يؤدي إلى مكان ما ، أليس

كذلك ؟ حملت مايفيس حقيبتها اليدوية ونظرت إلى معطفها المطري فاكتشفت أنه اختفى . « يا للمسيح! » صرخت ثم صفعت الباب .

مكثت بقية النهار على الطريق نفسه . حين كانت الشمس في أعلى مستوى لها ، تحولت إلى طريق أضيق لأنه كان ظليلاً . لازال الطريق مزفتاً ، ولكن ليس ما يكفي لمرور سيارتين معاً دون استخدام الكتف . حين خلا الطريق من الأشجار ، رأت أمامها إلى اليسار منزلاً . بدا صغيراً إنما قريباً واستغرق الأمر بعض الوقت حتى اكتشفت أنه لم يكن صغيراً ولا قريباً . كان عليها أن تمر بأكرات من حقول الذرة حتى وصلت . إما أن المنزل كان ذات اتجاه خلفي أو أنه طريق تؤدي إليه . ومع اقترابها رأت أنه من الحجر : الحجر الرملي ربما ، ولكنه أصبح داكناً مع تقدم العمر . في البداية بدا وكأنه دون نوافذ ، ولكنها تبينت بداية رواق ورأت انعكاس نوافذ ضخمة على الطابق الأرضي . دارت إلى اليمين فرأت طريقاً يؤدي ليس إلى الباب الأمامي بل إلى الجانب . استدارت مايفيس إلى اليسار . كان العشب قرب الرواق غير معتنى به . كانت هناك نحت كمخالب على التصميمات على كلا جانبي الدرج الحجري . صعدت مايفيس الدرجات وطرقت الباب . لا جواب . سارت من حول المكان إلى جانب الطريق ورأت امرأة جالسة في كرسي خشبي أحمر عند حافة بستان الخضار .

نادت مايفيس : «اعذريني» ويداها مكورتان كالقمع حول فمها .

واجهتها المرأة ، ولكن مايفيس لم تستطع أن تعرف أين كانت تنظر . كانت ترتدي نظارات شمسية .

اقتربت مايفيس : «اعذريني» . لا حاجة إلى الصراخ الآن . «لقد تعطلت سيارتي على مبعدة من هنا . هل يمكن لأحد المساعدة ؟ هل هناك من أستطيع مهاتفته ؟ » .

نهضت المرأة ، جامعة طرف مريلتها بكلتي يديها ، ثم تقدمت إلى الأمام . كانت ترتدي ثوباً قطنياً أصفر اللون مع زهور بيضاء دقيقة وأزرار مبهرجة تحت مريلة بدت كأنها من قماش القلوع . كان شريط حذائها ذو الكعب المنخفض دون ربط . وعلى رأسها كانت قبعة قش ذات حافة واسعة . كانت الشمس تضرب بقسوة ، وهناك ريح حارة ترفس حافة قبعتها إلى الخلف .

قالت : «لا يوجد هاتف هنا . ادخلي» .

تبعتها مايفيس إلى المطبخ حيث أسقطت المرأة جوز البيكان من مريلتها في صندوق قرب الموقد ورفعت قبعتها . هبطت جديلتان من طراز «هياواثا» [قبيلة من الهنود الحمر] على كتفيها . انزلقت من حذائها وفتحت الباب وسندته بأجرة وخلعت نظارتها الشمسية . كان المطبخ كبيراً ، مليئا بالروائح العطرة والكركبة الوحدانية للمرأة . أعطت ظهرها إلى مايفيس وسألتها : «هل أنت امرأة شراب ؟» .

لم تعرف مايفيس إن كانت تعرض عليها شراباً أو تستجدي منها واحداً .

«لا ، لست كذلك» .

«الكذب ليس مسموحاً في هذا المكان . في هذا المكان كل شيء صادق يكون طيباً» .

تنفست مايفيس في كفّها من ذهولها . «أوه ، لقد شربت بعضاً من ليكور زوجي قبل مدة ، ولكني لست ما تسميه امرأة شراب . لقد كنت ظمآنة تماماً . لقد قدت السيارة لوقت طويل ثم نفد الوقود مني» .

أشغلت المرأة نفسها بإشعال الموقد . وسقطت جديلتاها إلى الأمام .

«نسيت أن أسألك عن اسمك . اسمي مايفيس أولبرايت» .

«الناس يدعونني كوني» .

«أثمن عالياً بعض القهوة يا كوني لو كان عندك بعض منها» .

أومأت كوني دون أن تلتفت إلى الوراء .

«أتعملين هنا ؟» .

«أعمل هنا ؟» رفعت كوني جديلتيها من على صدرها وأسقطتهما خلف كتفيها .

«هل هنا أحد من العائلة ؟ يبدو كأني طرقت الباب لفترة طويلة» .

«لا عائلة . بل مجرد تلك المرأة في الطابق العلوي . لا تستطيع الرد على الباب حتى لو أرادت ذلك وهي لا تريد» .

«أنا متجهة إلى كاليفورنيا . هل تعتقدين أنك تستطيعين مساعدتي في الحصول على البنزين لسيارتي ؟ هل لك أن تريني الطريق لأخرج من هنا ؟» .

تنهدت المرأة عند الموقد دون أن تجيب .

«كوني ؟» .

«أنا أفكر» .

نظرت مايفيس فيما حولها إلى أنحاء المطبخ الذي بدا لها كبيراً بحجم كافتيريا مدرستها ما قبل الثانوية وكان لتلك أيضاً أبواب خشبية متأرجحة . تخيلت غرفاً مليئة بالغرف خلف تلك الأبواب .

«ألستما خائفتين هنا لوحدكما ؟ لا يبدو أن هناك شيئاً لمسافة أميال في الخارج» .

ضحكت كوني . «الأشياء المخيفة لا تكون دائماً في الخارج . معظم الأشياء المخيفة تكون في الداخل» . ابتعدت عن الموقد وهي تحمل وعاء ووضعته أمام مايفيس التي نظرت في يأس إلى البطاطا التي يخرج منها

البخار ، وفوقها كانت قطعة زبدة قد ذابت . كان مشروب « ايرلي تايمز » الذي تناولته قد حول جوعها إلى غثيان ، ولكنها قالت شكراً وقبلت الشوكة من يد « كوني » . وعلى أي حال ، فإن رائحة القهوة كانت واعدة .

جلست « كوني » إلى القرب منها . قالت : « ربما أذهب معك » .

رفعت مايفيس رأسها لتنظر إليها . كانت تلك أول مرة ترى فيها وجه المرأة دون النظارات الشمسية . وبسرعة نظرت إلى الطعام وحركت الشوكة في الوعاء .

« مار أيك أن نذهب أنا وأنت إلى كاليفورنيا ؟ » .

أحست مايفيس بابتسامة المرأة ولكنها لم تستطع مواجهتها . هل غسلت يديها قبل أن تسخن البطاطا ؟ كانت تفوح رائحة الجوز العادي من المرأة ، وليس رائحة جوز البيكان . « ماذا عن عملك هنا ؟ » . أجبرت مايفيس نفسها على تذوق قطعة صغيرة من البطاطا . مالحة .

« هل هي على البحر . كاليفورنيا ؟ » .

« أجل . مباشرة على الشاطئ » .

« سيكون من الجميل رؤية الماء مجدداً » . أبقت كوني عينيها على وجه مايفيس . « موجة بعد موجة بعد موجة . ماء كبير . أزرق ، أزرق ، أزرق ، أليس كذلك ؟ » .

« هذا ما يقولونه . كاليفورنيا المشمسة . شواطئ ، برتقال... » .

« ربما مشمسة جداً بالنسبة إلي » . نهضت كوني فجأة وذهبت إلى الموقد .

« لا يمكن أن تكون مشمسة أكثر من هنا » . الزبد والملح والفلفل المهروسة في البطاطا لم تكن سيئة أبداً . كانت مايفيس تأكل بسرعة . « تمشين أميالاً ولا ترين نقطة ظل واحدة » .

قالت « كوني » : « صحيح » . وضعت فنجانين من القهوة ووعاء من العسل على الطاولة . « الكثير من نور الشمس في العالم . هذا يثيرني . لا أستطيع تحمله بعد الآن » .

اندفع نسيم عبر باب المطبخ ، وأحل رائحة أحلى محل رائحة الطعام . فكرت مايفيس في أنها ستبتلع القهوة حال وصولها ، ولكن الرضا الذي منحتها إياه البطاطا الساخنة المالحة قد جعلها صبورة . اتبعت مثال كوني فوضعت ملعقة عسل في فنجانها وحركتها ببطء .

« هل فكرت في أي شيء يتعلق بكيفية حصولي على بعض البنزين ؟ » .

« انتظري قليلاً . ربما اليوم وربما في الغد ، سيخرج الناس ليشتروا » .

« يشترون ؟ وماذا يشترون ؟ » .

« أشياء البستان . أشياء أطبخها . أشياء لا يريدون أن يزرعوها بأنفسهم » .

« وأحدهم يمكن أن يصطحبني للحصول على بعض البنزين ؟ » .

« بكل تأكيد » .

« وإذا افترضنا أنه لم يأت أحد ؟ » .

« دائماً يأتون . لابد أن يأتي أحد ما دائماً كل يوم . هذا الصباح سبق لي وبعت ثمانية وأربعين عرنوس ذرة وباونداً كاملاً من الفلفل » . ربتت على جيب مريلتها .

وبينما راحت مايفيس تنفخ بلطف في فنجانها اتجهت نحو باب المطبخ ونظرت إلى الخارج . حين وصلت أولاً كانت سعيدة لأنها وجدت شخصاً في المنزل فلم تنظر إلى الحديقة عن كثب . والآن خلف الكرسي الأحمر ، رأت زهوراً تختلط مع أو تتوازى مع صفوف من الخضار . في بعض الأماكن كانت نباتات مسنودة بعيدان تنمو في دائرة ، وليس في خط ، في أكوام عالية من

التربة . كانت الدجاجات توقوق بعيداً عن العيون . ظنت أولا أن جزءاً من الحديقة مليء بالأعشاب الضارة ، ولكنه أصبح لدى النظر عن كثب حقل بطيخ صغيراً . إمبراطورية من الذرة إلى ما وراء ذلك .

«لم تقومي بهذا كله لوحدك ، أليس كذلك ؟ أومأت مايفيس نحو الحديقة» .

«باستثناء الذرة» قالت كوني .

«واو!» .

وضعت كوني وعاء الإفطار في المجلى . «هل تريدين أن ترتبي نفسك ؟» .

الغرف المليئة بالغرف التي تخيلتها مايفيس وراء الأبواب المتأرجحة قد منعتها من طلب الذهاب إلى الحمام . هنا في المطبخ أحست بالأمان . أقلقتها فكرة مغادرته ، «سأنتظر لأرى من سيأتي . ثم سأحاول أن أرتب نفسي . أعرف أني أبدو مريعة» . ابتسمت ، وهي تأمل في أن الرفض لم يكن دليلاً على خوفها .

قالت «كوني» : «افعلي ما يلائمك» ، ثم ربتت على كتف مايفيس والنظارات الشمسية في اليد ، وهي تخطو في حذائها المفلطح خارجة إلى الباحة .

بعد أن بقيت وحيدة توقعت مايفيس أن يفقد المطبخ الكبير راحته . لكن ذلك لم يحدث . في الواقع كان لديها إحساس بأن المطبخ كان مزدحماً بالأطفال - الضاحكين ؟ المغنين ؟ - وكان اثنان منهما «ميرل» و«بيرل» . أغلقت عينيها بشدة لتتخلص من الانطباع ولكن ذلك زاده فحسب . حين فتحت عينيها كانت «كوني» هناك ، وهي تجر سلة تتسع لثمانية غالونات فوق الأرض .

قالت : «هيا . كوني مفيدة» .

عبست مايفيس باتجاه جوز البيكان وهزت رأسها نحو كسارات الجوز والأوعية التي كانت كوني تجمعها . قالت : «لا . فكري في شيء آخر أستطيع فعله كمساعدة . إن تكسير قشور ذلك الشيء سيجعلني مجنونة» .

«لا لن يحصل . حاولي» .

«أخ . أخ . ليس أنا» . راقبتها مايفيس وهي ترتب الأدوات . «ألا يجب أن تضعي صحيفة في الأسفل ؟ سيكون التنظيف أسهل» .

«لا توجد صحف في هذا المنزل . ولا راديو . أي أخبار نحصل عليها تأتي من شخص ينبئنا بها وجهاً لوجه» .

قالت مايفيس : «هذا أفضل . كل الأخبار في هذه الأيام سيئة . لا يمكن أن نفعل شيئاً إزاءها على أي حال» .

«تستسلمين بسرعة كبيرة . انظري إلى أظافرك . قوية ، منحنية كأنها لطائر : يدان ملائمتان تماماً لجوز البيكان . الأظافر التي كهذه تخرج لب الجوز كاملاً كل مرة . يدان جميلتان ، ومع ذلك تقولين إنك لا تستطيعين . إنه يجعلك مجنونة . إنه ليجعلني مجنونة أن أرى أظافر جيدة تذهب هباء» .

فيما بعد ، بينما راحت تراقب يديها الجميلتين على نحو مفاجئ تتحركان خلال المهمة ، تذكرت مايفيس معلمتها في الصف السادس تفتح كتاباً : ترفع زاوية التجليد ، تربت على الحافة لتلمس علامة الكتاب ، تداعب الصفحة ، تترك بنانها يتعقب آثار خطوط الطباعة . كان هناك شعور بالذوبان وهي تراقبها . والآن وهي تكسر جوز البيكان ، حاولت أن تقتصد في إيماءاتها دون أن تضحي برشاقتها . بعد أن جعلتها كوني تنخرط في هذا العمل اليومي ، كانت قد رحلت ، قائلة إن عليها أن «تعتني بالأم» .

جلست مايفيس إلى الطاولة وهي تشم السرور الذي كانت الريح تجلبه معها عبر الباب ، فتساءلت كم كان عمر أم كوني . إذا أردنا أن نحكم من خلال عمر ابنتها ، فلابد أنها في التسعينات من عمرها . وأيضاً ، كم سيمر من الوقت قبل أن يمر زبون ؟ هل سبق لأحد أن أزعج الكاديلاك بعد ؟ وهل ستكون هناك خريطة تظهر لها طريقة العودة إلى رقم (٧٠) العذب أو حتى (٢٨٧) في محطة الوقود التي ستصل إليها ؟ ستذهب شمالاً إذن ، إلى «دنفر» ، ثم تنطلق غرباً . ومع شيء من الحظ ستكون في طريقها في وقت العشاء . دون حظ ، ستكون مستعدة للمغادرة في الصباح . ستعود إلى ما هو ملموس ومحسوس وتصغي إلى راديو السيارة الذي ساعدها على التخلص من الصمت بعد رحيل «بني» ، وخلال ساعات من القيادة دون توقف : أصبعان يدوران دون صبر بحثاً عن الأغنية الأفضل ، صوت أفضل . والآن كان الراديو بعيداً عبر حقل ، عبر طريق ثم طريق آخر . بعيداً في الفراغ حيث كان صوته واجباً أن يتواجد... لاشيء . مجرد غياب ، وهي لم تفكر أنها تستطيع ملؤه على النحو الصحيح دون البركة المؤطرة للراديو . من المنضدة حيث جلست متأملة يديها المشغولتين بإعجاب ، انتشر غياب الراديو . كانت هناك نار هادئة سرية تنفث أنفاسها وتستنشق أصوات زيادتها : صوت فتح القشور ، طقطقة لب الجوزة وهو يرمى في الوعاء وأوعية الطبخ في تعديل خالد ، همسة حشرة ، جدال العشب الطويل والسعال البعيد لعيدان الذرة .

كان الجو هادئاً ، ولكنها تمنت لو تعود «كوني» لئلا تبدأ من جديد : تتخيل الأطفال يغنون . وكما بدا طول غياب المرأة طويلاً جداً ، سمعت مايفيس صوت سيارة تحطم الحصى . ثم صوت المكابح . صفقة باب .

« هاي أيتها العجوز » . صوت امرأة ، خفيف ومنطلق . التفت مايفيس فشاهدت امرأة ذات بشرة داكنة ، رشيقة وتتحرك بسرعة ، تصعد الدرجات وتتوقف حين لم تر ما توقعت .

« أوه ، عفوك » .

« حسناً » . قالت مايفيس . « إنها في الطابق العلوي » . « كوني » .

« أرى ذلك » .

ظنت مايفيس المرأة تنظر بعناية شديدة إلى ملابسها .

« أوه . جميل » . قالت وهي تقترب من المنضدة . « جميل تماماً » . نزلت بأصابعها في وعاء جوز البيكان والتقطت قليلاً منه . توقعت منها مايفيس أن تأكل بعضاً منها ، ولكنها تركتها تسقط فوق الكومة . « ما هو يوم عيد الشكر دون فطيرة جوز البيكان ؟ لاشيء إطلاقاً » .

لم تسمع أي منهما صوت القدمين الحافيتين على الأرض الأشبه بصوت رمي الحصاة في الماء ، وبما أن البابين المتأرجحين ليس لهما صوت ، فإن دخول كوني كان أشبه بوصول الأشباح .

فتحت المرأة السوداء ذراعيها : « هاأنت أخيراً! » . دخلت كوني في الذراعين وعانقتها لفترة طويلة . « أخفت هذه الفتاة حتى الموت . لم أر غريباً هنا من قبل » .

« إنها الأولى » . قالت كوني . « مايفيس أولبرايت . هذه سوآن مورغان » .

« مرحبا يا حبيبتي » .

« مورغان . السيدة مورغان » .

سخن وجه مايفيس ، ولكنها ابتسمت على أي حال وقالت : « آسفة ، سيدة مورغان » بينما راحت تلاحظ حذاء السيدة الثمين ماركة أوكسفورد

والجوارب الرقيقة الشفافة وجاكيت الصوف المحبوك وقصة ثوبها : كريب خفيف صيفي أزرق فاتح مع قبة بيضاء .

فتحت «سوآن» حقيبتها اليدوية المشعبّة . قالت : «اشتريت المزيد» ورفعت نظارة شمسية من الطراز الذي يرتديه الطيارون .

«جيدة . لم يبق لي سوى زوج واحد منها» .

نظرت «سوآن» إلى مايفيس . «تأكل النظارات الشمسية أكلا» .

«ليس أنا . هذا المنزل يأكلها» . ركزت «كوني» ذراعي النظارات خلف أذنيها مختبرة العدسات الداكنة عند باب المنزل . التفتت بوجهها مباشرة إلى الشمس وأطلقت «هاه» مليئة بالتحدي .

«هل طلب أحد جوز البيكان بقشره أو أم هذه فكرتك» ؟

«فكرتي» .

«سنصنع أكثر من فطيرة» . غسلت كوني النظارة الشمسية تحت صنبور الحوض وقشرت اللاصقة .

«لا أريد أن أسمع ، لذا لا تخبريني . لقد جئت للشأن الذي تعرفينه» .

أومأت كوني . «هل تستطيعين إحضار بعض البنزين لهذه الفتاة لأجل سيارتها ؟ تأخذينها وتعيدينها ؟» كانت تجفف وتصقل النظارات الجديدة وتفتش عن بقع ونسالات من المنشفة .

«أين سيارتك ؟» سألت سوآن . لم يكن هناك أي استغراب في صوتها ، وكأنها كانت تشك في أي شخص يرتدي جاكيتة جلدية وبنطالاً مجعداً وكنزة فضفاضة طفلية يمكن أن يمتلك سيارة .

قالت لها مايفيس : «الطريق رقم ١٨ . لقد مشت ساعات حتى وصلت إلى هنا ، ولكن في سيارة...» .

أومأت «سوآن» برأسها . «سيسعدني ذلك . ولكن سأضطر إلى أن أجعل شخصاً آخر يعود بك . كنت سأفعل ذلك ، ولكن لديّ الكثير من الأعمال . كلا ولديّ سيعودان في إجازة» . وبفخر ، نظرت إلى كوني . «سيكون البيت مليئاً قبل أن أعرف» . ثم «كيف الأم ؟» .

«لا يمكنها أن تدوم» .

«هل أنت واثقة أن «دمبي» أو «ميدلتون» ليست بالفكرة الأفضل» .

زلقت «كوني» نظارات الطيارين الشمسية في جيب مريلتها واتجهت نحو المؤونة . «لن تسحب سوى نفس واحد في المستشفى . وستكون السحبة الثانية هي الأخيرة لها» .

*

بدا الكيس الصغير الذي وضعته «كوني» فوق أعلى سلة جوز البيكان كقنبلة يدوية . وبما أنه كان موضوعاً على مقعد الأولدزموبيل بين مايفيس و«سوآن مورغان» ، فإن الباكيت الجلدي كان يبعث توتراً . ظلت «سوآن» تلمسه وكأنها لتذكر نفسها بأنه كان هناك . الحديث الطلي في المطبخ قد اختفى . فجأة أصبحت «سوآن» رسمية فقالت القليل جداً وأجابت على أسئلة مايفيس بأقل المعلومات ولم تسأل بدورها أي سؤال .

«إن كوني لطيفة ، أليس كذلك» ؟

نظرت سوآن إليها . «أجل . هي كذلك» .

سافرتا لمدة عشرين دقيقة ، وسوآن حريصة عند كل ارتفاع أو التفاتة للطريق مهما كانت خفيفتين . بدت وكأنها تنتظر شيئاً ما . توقفت عند محطة وقود في منتصف اللامكان وطلبت من الرجل الذي كان يعرج ماشياً نحو النافذة خمسة غالونات في وعاء . جرى جدال بهّرته فترات صمت طويلة

حول صفيحة الغالونات الخمسة . أراد من مايفيس أن تدفع ثمنها . قالت إنها ستعيدها حين تعود لتملأ خزان سيارتها . كان يشك في ذلك . وأخيراً اتفقا على أن تودع لديه دولارين . انطلقت «سوآن» ومايفيس ثم انعطفتا إلى طريق أخرى متجهة نحو الشرق لمدة بدت كأنها ساعة . أشارت «سوآن» إلى علامة خشبية مبهرجة وهي تقول : «لقد وصلنا» . كانت العلامة تقول «روبي عدد السكان ٣٦٠» من فوق و«لودج ١٦» في الأسفل .

كان الانطباع الفوري لمايفيس عن البلدة الصغيرة هو مدى هدوئها ، وكأنه لم يكن هناك من يعيش فيها . وباستثناء مخزن للأطعمة ومصرف للتوفير والقروض ، لم يكن فيها منطقة أعمال متميزة . سارت السيارة عبر شارع عريض ، ومرتا بمرجات كبيرة مجزوزة على نحو مبهر أمام الكنائس والمنازل المطلية بألوان الباستيل . كان الهواء معطراً . الأشجار شابة ؟ انعطفت «سوآن» في شارع جانبي من حدائق الزهور أعرض من المنازل والفراشات فيه أشبه بندف الثلج .

*

كانت رائحة صفيحة الغالونات الخمس قوية جداً في سيارة «سوآن» . ولكن في شاحنة الغلام كانت مسندة بين قدمي مايفيس ، ولا يمكن تمييزها عن الأخريات . كان التركيب الصمغي الزيتي المعدني قد جعلها على الأرجح تشعر بالغثيان لو لم يقم هو طوعاً بالذي ما استطاعت مايفيس أن تطلبه من «سوآن مورغان» : لقد أدار جهاز الراديو . أعلن مذيع الاسطوانات عن الألحان وكأنها من صنع أسرته أو أفضل أصدقائه : «كينغ سولومون» ، «براذر أوتيس» ، «ديناه بيبي» ، «آيك أند تينا غيرل» ، «سيستر داكوتا» ، «ذا تمبس» .

وبينما هما على الطريق والسيارة تجعلهما يثبان في المكان ، استمتعت مايفيس ، المرحة الآن ، بالموسيقى والجزء المحلوق من رأس الغلام . ورغم أنه كان ألطف من « سوآن » ، لم يكن لديه المزيد ليقوله . كانا بعيدين أميالا عديدة عن « روبي عدد السكان ٣٦٠ » ويستمعان إلى المرتبة السابعة من مسابقة مجلة « جت » لأفضل عشرين أغنية حين أدركت مايفيس ، أنها لم تر شخصاً أبيض واحداً عدا عامل محطة الوقود .

« هل هناك أي أشخاص بيض في بلدتكم ؟ » .

« لا يأتون للسكن ، لا يفعلون ذلك . يأتون للتجارة أحياناً » .

حين لمحا الدارة الكبيرة على مبعدة وهما في الطريق إلى الكاديلاك ، سألها : « كيف هي الحال هناك ؟ » .

« كنت في المطبخ فقط » أجابت مايفيس .

« امرأتان محجوزتان في ذلك المكان الهائل الحجم . لا يبدو الأمر صحيحاً » .

كانت الكاديلاك كما هي ولكنها ساخنة إلى حد أن الغلام لعق أصابعه قبل وبعد أن فك غطاء البنزين . وكان لطيفاً بما فيه الكفاية فشغل المحرك لها وطلب منها أن تترك الأبواب مفتوحة لفترة قبل أن تدخل إليها . لم يكن على مايفيس أن تناضل لتجعله يقبل النقود ـ أصيبت سوآن بالفزع ـ ثم قاد سيارته بينما الراديو يذيع أغنية « هاي جود » .

خلف الموقد وهي تتبرد في الهواء المكيف ، أسفت مايفيس لعدم ملاحظتها رقم محطة الراديو على لوحة أجهزة شاحنة الغلام . راحت تبحث عبثاً وهي تقود الكاديلاك عائدة إلى منزل « كوني » . أوقفت السيارة ، وبقيت الكاديلاك ، ذات اللون الداكن مثل الدم الأزرق ، سنتين هناك .

كان الغروب قد حلّ حين شغل الغلام المحرك . لقد نسيت أن تسأله أيضاً عن الاتجاهات . كما لم تستطع أن تتذكر أين كانت محطة الوقود التي أودعت فيها الدولارين ولم تكن ترغب بالبحث عنها في العتمة . كانت « كوني » قد حشت وقلت فروجاً . ولكن قرارها قضاء الليل كان في أغلبه بسبب « الأم » .

كان البياض في الوسط معشياً . وقد استغرقت مايفيس لحظة لترى الشكل مترابطاً بين الوسائد والشراشف البيضاء كالنظام ، وقد تكون بقيت عمياء فترة أطول لو لم يقل صوت آمر : « لا تحدقي يا طفلتي » .

انحنت كوني فوق قاعدة السرير ومدت يدها تحت الشرشف . وبيدها اليمنى رفعت كعبي « الأم » وباليسرى رتبت الوسائد تحتهما . همهمت « أظافر القدمين كالشفرات » . أعادت القدمين إلى مكانهما بلطف .

وحين اعتادت عيناها على العتمة والنور ، شاهدت مايفيس شكل سرير صغير جداً على امرأة مريضة ـ تقريباً سرير طفل ـ وعدداً متنوعاً من الطاولات والكراسي في الإطار الأسود الذي كان يحيط به . اختارت كوني شيئاً ما من إحدى الطاولات وانحنت في النور الذي أحاط بالمريضة . راحت مايفيس التي تتبع حركاتها تراقبها وهي تضع الفازلين على شفتين في وجه أكثر شحوباً من القماش الأبيض الملفوف حول رأس المرأة المريضة .

« لابد أن هناك شيئاً ما له طعم أفضل من هذا » قالت « الأم » ، وهي تلمس برأس لسانها شفتيها المزيتتين .

قالت كوني : « الطعام . ما رأيك ببعض منه ؟ » .

« لا » .

« قطعة فروج » .

« لا . من هذه التي جلبتها إلى هنا ؟ لماذا تجلبين شخصاً إلى هنا ؟ » .

«لقد قلت لك . إنها امرأة ذات سيارة وتحتاج إلى المساعدة» .

«كان هذا البارحة» .

«لا لم يكن . هذا الصباح قلت لك ذلك» .

«حسناً ، قبل ساعات ، إذن ، ولكن من دعاها إلى عزلتي ؟ من فعل ذلك ؟» .

«احزري . أنت من فعل ذلك . هل تريدين أن أمسد لك جلدة رأسك ؟» .

«ليس الآن . ما اسمك يا طفلتي ؟» .

همست مايفيس من العتمة التي كانت تقف فيها .

«اقتربي . لا أستطيع مشاهدة أي شيء ما لم يكن فوقي تماماً . مثل العيش في قشرة بيضة» .

قالت كوني لمايفيس : «تجاهليها . إنها ترى كل شيء في الكون» .
قربت كرسياً إلى جانب السرير وجلست ، أخذت يد المرأة وراحت تمسّد واحدة بواحدة البشرة المتصلبة فوق كل أصبع ملوي .

تحركت مايفيس مقتربة أكثر ، نحو دائرة الضوء ، مريحة يدها على القاعدة المعدنية للسرير .

«هل أنت على ما يرام الآن ؟ هل سيارتك تعمل ؟» .

«نعم يا سيدتي . إنها في حال جيدة . شكراً» .

«أين أطفالك ؟» .

لم تستطع مايفيس النطق .

«كان هناك عادة عدد كبير من الأطفال هنا . كانت هذه مدرسة ذات مرة . مدرسة جميلة للبنات . للبنات الهنديات» .

نظرت مايفيس إلى كوني ، ولكن حين أعادت نظرتها ، أخفضت مايفيس نظرها بسرعة .

ضحكت المرأة التي في السرير بخفة . قالت : «هذا صعب ، أليس كذلك ، أعني النظر في تينك العينين . حين أحضرتها إلى هنا كانتا خضراوين كالعشب» .

قالت كوني : «وكانت عيناك زرقاوين» .

«مازالتا» .

«هذا ما تقولينه» .

«ما لونهما إذن ؟» .

«مثل لون عيني ، اللون الباهت للعجائز» .

«أعطني مرآة يا طفلتي» .

«لا تعطها شيئاً» .

«لازلت المسؤولة هنا» .

«بكل تأكيد . بكل تأكيد...» .

راقبت النساء الثلاث جميعاً الأصابع السمراء تلاطف تلك البيضاء . تنهدت المرأة التي في السرير . «انظري إلي . لا أستطيع الجلوس بنفسي ومازلت وقحة حتى النهاية . لابدّ أن الرب يضحك ملء شدقيه» .

«الرب لا يضحك ولا يلعب» .

«أجل ، حسناً ، أنت تعرفين كل شيء عنه ، أنا على ثقة . في المرة التالية التي ترينه فيها ، قولي له أن يدع الفتيات يدخلن . إنهن يتجمعن حول الباب ولكنهن لا يدخلن . لا يهمني وقت النهار ، ولكنهن يؤرقنني في الليل . أتطعمينهن على النحو الملائم ؟ هن دائماً جائعات . هناك الكثير من الطعام ، أليس كذلك ؟ ليست تلك الكعكات المقلية التي يحببنها بل طعام ساخن جيد فالشتاءات قاسية جداً حتى أننا نحتاج إلى فحم . من الإثم أن نحرق الأشجار في البراري . البارحة دخل الثلج من

تحت الباب» شبيه ، شفيعنا وإلهنا «[وردت باللاتينية] الأخت روبرتا تقشر البصل» ونحن دائما أحرار «[باللاتينية] ألا تستطيعين الابتعاد عن عرقلة الأمن...» [باللاتينية] .

طوت كوني يدي «الأم» على الشرشف ونهضت ، مشيرة إلى مايفيس أن تتبعها . أغلقت الباب وخطتا إلى القاعة .

«ظننت أنها أمك . أعني بالطريقة التي تحدثت بها ، ظننت أنها كانت أمك . كانتا تهبطان الدرج الواسع المركزي» .

«إنها أمي . وأمك أيضاً . أمّ من أنت ؟»

لم تجب مايفيس ، جزئياً لأنها لم تستطع التحدث عن ذلك ولكن أيضاً لأنها كانت تحاول أن تتذكر ، في منزل لا كهرباء فيه ، مصدر النور في غرفة «الأم» .

بعد عشاء الفروج المقلي ، اصطحبت «كوني» مايفيس إلى غرفة نوم كبيرة . ومن الأسرة الصغيرة الأربعة فيها ، اختارت ذاك الأقرب إلى النافذة ، حيث ركعت وراحت تنظر إلى الخارج . لو كان هناك قمران حليبيان معلقان هناك بدلاً عن واحد ، لكانا كعيني كوني . تحتهما عالم مجتاح . لا علاقة له بيوم الدينونة . نظيف ومرتب . فسيح . إلى الأبد .

أي الطرق إلى كاليفورنيا ؟

أي الطرق إلى ماريلاند ؟

ميرل ؟ بيرل ؟

شبل الأسد الذي التهمها تلك الليلة كانت له عينان زرقاوان بدلاً عن بنيتين ، وهو لم يضطر إلى أن يثبتها أرضاً هذه المرة . حين أحاط كتفيها بكفه اليسرى ، تركت بإرادتها رأسها يسقط إلى الوراء ، فاتحة له الطريق إلى نحرها . كما أنها لم تناضل للخروج من الحلم . كانت العضة مليئة

بالعصارة ، ولكنها نامت خلال ذلك أيضاً وخلال أمور أخرى حتى أيقظها الغناء .

غادرت مايفيس أولبرايت «الدير» مرات عديدة ، ولكنها كانت دائماً تعود ، وهكذا كانت هناك في عام (١٩٧٦) .

في صباح ذلك اليوم من تموز كانت مدركة منذ أشهر التباغض بين «الدير» والبلدة وكان يمكنها أن تتوقع تلك الشاحنة المليئة بالرجال الباحثين عن فريسة في الضباب . ولكنها كانت تفكر في أمور أخرى : البحارة الموشومون والأطفال السابحين في الماء الزمردي . وبسبب تعبها من المسرات في الليلة السابقة فقد تركت نفسها تنام وتستيقظ . بعد ساعة ، وبينما كانت تطرد الفراخ من غرفة المدرسة ، شمت رائحة دخان السيجار والأثر الضئيل لعطر «أكوا فلفا» .



غريس



إما أن الرصيف كان يحترق أو كانت هناك أحجار صغيرة في حذائها . «ك . د .» الذي لم يسبق له أن رأى امرأة تتبختر أو تتجول هكذا ، أعتقد أن المشية هي التي سببت في كل تلك المشكلة . لا هو ولا أصدقاءه المتسكعين عند «الفرن» شاهدوها تخرج من الباص ، ولكن حين ابتعد الباص شاهدوها ـ عبر الشارع من حيث كانوا ـ مرتدية بنطالاً شديد الضيق وحذاء عالي الكعب جداً وأقراطاً كبيرة جداً حتى نسوا أن يضحكوا على شعرها . عبرت «الشارع المركزي» نحوهم وهي تسير بخطوات صغيرة جداً فوق كعبين عاليين مقولبين لم يُر مثيل لهما منذ عام (١٩٤٩) .

مشت مسرعة وكأنها تتعثر فوق جمرات حمر أو تتألم من شيء ما محشو في مقدمة حذائها . شيء قيّم . هكذا فكر «ك . د .» ، وإلاّ لكانت خلعته من قدميها .

حمل صندوق المعدات عبر غرفة الطعام . شرائح ضيقة من التخريمات كانت تطفح من سلة على الطاولة الجانبية . كانت العمة سوآن تعمل بالخيطان كسجينة : يومياً ومنهجياً ، مجاناً ، منتجة من التخريمات ما يزيد عما يمكن أن يكون أمراً عملياً بالمطلق . في المؤخرة فإن الحديقة المحاذية لليسار

كانت خالية من العشب الضار مفلوحة جيداً . التف «ك . د .» إلى اليمين نحو الظلة ودخل . شعر الكلبان الاسكتلنديان بالاستثارة لرؤيته . كان عليه أن يفشخ من فوق الكلبة «غود» ليبقيها أرضاً . كانت أذناها طريتين في أصابعه وكان هو مثابراً بالقطن المشبع بالكافور . خرجت القرادات كجريش القهوة . وضع كفه تحت فكه . لعقت ذقنه . أما «بن» الكلب الآخر ، ورأسه فوق طرفيه ، فقد نظر إلى الأمام . كانت الحياة في مزرعة «ستيوارد مورغان» تجعل الكلبين قذرين . كانا في حاجة إلى أيام قليلة يقضيانها في روبي تحت عناية «ك . د .» مرتين في العام . أخذ الفرشاة القاسية من العلبة . أقحم الفرشاة عميقاً في شعر «غود» وهو يمسده بالفرشاة ويغني بهدوء بصوت عالي الطبقة «موتاون فولسيتو» ، الأغنية التي ألفها لأجلها حين كانت جروة . «مرحباً أيتها الكلبة الطيبة . ابقي كلبة طيبة . كلبة طيبة عزيزة . كلبتي الطيبة . كل شخص في حاجة إلى كلبة طيبة طيبة طيبة . كل شخص في حاجة إلى كلبة طيبة طيبة طيبة» .

بسطت «غود» أطرافها من السرور .

كان أولئك الأشخاص ذوو العلاقة هم فحسب من سيحضر الاجتماع الليلة . أي الجميع عدا الذين بدأوها : خالاه «ديك» و«ستيوارد» والقس ميسنر ووالد «أرنيت» وأخوها . سيناقشون الصفقة وليس الحمل وبالتأكيد ليس الفتاة ذات أحجار الصفير المخبأة في حذائها .

فلنفترض أنها لم تكن هناك . لنفرض أن سرتها لم تطل من فوق خصر بنطال الجينز أو أن ثدييها قد قمعا ، قمعا لثوان لقليلة حتى يعرفا كيف يتصرفان : ما هو الموقف من الإضراب . في العلن ، ودون وجود الفتيات المتسكعات ، كانوا سيعرفون . كمجموعة كانوا سيستعملون اللهجة الصحيحة فوراً . ولكن «أرنيت» كانت هناك ، تئنّ ، وكذلك «بيلي ديليا» .

كان «ك . د .» و«أرنيت» قد انتحيا مبتعدين عن الآخرين ليتحادثا . وقفا قرب السنديانات القزمة خلف مقاعد ومناضد النزهة ليجريا حواراً أسوأ مما ظن هو إطلاقاً . ما قالته آرنيت كان : «حسناً ، ما الذي ستفعله ؟» وما كانت تعنيه هو : أنا ذاهبة إلى لانغستون في أيلول (سبتمبر) ولا أريد أن أكون حاملاً أو أن أجهض أو أتزوج أو أشعر أني لست على ما يرام لوحدي أو أواجه أسرتي . قال : «حسناً ما الذي ستفعلينه أنت ؟» مفكراً : لقد أحرجتني وحاصرتني في مناسبات اجتماعية كثيرة ، أكثر من قدرتي على التذكر وحين وافقت في النهاية لم أكن مضطراً إلى أنزل لك سروالك التحتاني بل سبقتني إلى ذلك لذا فهذه ليست مشكلتي» .

كانا قد بد يستران التهديدات ويكشفان عن الكره المتبادل حين توقف الباص . التفتت الرؤوس كافة . أولاً لأنهم لم يسبق لهم أن رأوا باصاً في البلدة : لم تكن «روبي» موقفاً على الطريق إلى مكان آخر . وثانياً فلكي يروا لمَ توقف الباص . والرؤيا التي ظهرت حين تابع الباص سيره ، واقفة على كتف الطريق بين المدرسة وكنيسة «ذا هولي ريديمر» ، ثبتت اهتمام كل شخص متسكع عند «الفرن» . لم تكن تضع أي أحمر شفاه ولكن كان ممكناً من مسافة (١٥٠) قدماً أن ترى عينيها . بدا الصمت الذي حل ذا ديمومة حتى حطمته «آرنيت» .

«إن كان هذا النوع من المتشردات ما تبغيه ، فهيا اقفز عليها أيها الزنجي» .

نظر «ك . د .» من ثوب آرنيت الأنيق ذي البلوزة إلى الشعر المقصوص فوق الجبين ثم إلى وجهها : النكد ، النقّاق ، المتهم ، وصفعها . كان التغيير في تعبير وجهها يستحق تلك الصفعة .

قال شخص ما : «أخ!» لكن معظم أصدقائه كانوا يقيّمون الحلمتين

الزاعقتين المطبقتين عليهم . هربت آرنيت ، وكذلك بيلي ديليا ، ولكنها شأن الصديقة الطيبة نظرت إلى الخلف لتراهم يجبرون أنفسهم على النظر إلى الأرض ، إلى سماء أيار اللامعة أو أظافرهم .

انتهى عمله على « غود » . كان شعر بطنها يتحمّل تقليماً خفيفاً ـ وإلا كانت عقدة مستحيلة ـ ولكنها كانت جميلة . بدأ «ك . د . » يعمل على فروة « بن » ، وهو يتدرب بينه وبين نفسه على خط دِفاعه أمام عائلة « آرنيت » . وحين وصف الحادثة لخاليه قطبا جبينيهما في الوقت نفسه . ومثل صورة في مرآة بالإيماءات وليس بالشكل ، بصق ستيوارد مضغة « بلوبوي » طازجة بينما أشعل « ديك » سيجاراً . ومهما كانت درجة اشمئزازهما كليهما ، إلا أن «ك . د . » عرف أنهما لن يتفاوضا على حل يمكن أن يهدده أو يهدد مستقبل أموال مورغان . كان جده قد سمى توأميه « ديكون » و« ستيوارد » لسبب ما . لم تبن أسرتهما بلدتين ، وتحاربا القانون الأبيض ، و« كولورد كريك » والعصابات والمناخ السيئ ، لترى المزارع والمنازل والمصرف برهونات على مخزن الأطعمة ومخزن الأدوية ومخزن الأثاث تنتهي كلها في جيب « أرنولد فليتوود » . وبما أن العظام المهلهلة لأولاد خاله كانت قد دفنت منذ سنتين ، إلا أن «ك . د . » أمل خاليه ويأسهما ، كان الذكر الأخير في تلك السلالة التي تشمل نائب حاكم ولاية ومدققاً مالياً لولاية ورئيسي بلدية . كان سلوكه ، كما هو دائماً ، يتطلب التدقيق والتصحيح الجدي . أو هل سيرى الخالان الأمر بطريقة أخرى ؟ ربما ستكون « آرنيت » حاملاً بصبي ، بحفيد لآل « مورغان » . هل سيكون لأبيها ، أرنولد ، أي حقوق عندها وسيكون على آل مورغان احترامها ؟

*

وبينما راح يداعب فروة «بن» ، ويلتقط العقد من الخصل الحريرية من الشعر ، حاول «ك . د .» أن يفكر كخاليه ، ولكن ذلك كان صعباً عليه . لذا توقف عن المحاولة وانزلق في حلم من اختياره . ولكنه تضمن هذه المرة «جيجي» وحلمتيها الزاعقتين .

طقت علكتها مثل امرأة محترفة : «هاي . هل هذه روبي ؟ قال لي سائق الباص إنها كذلك» .

«أجل . نعم . هاهه . بالتأكيد» . تكلم الشبان المتسكعون كشخص واحد .

«هل من موتيلات في الجوار ؟» .

ضحكوا لذلك وشعروا بما يكفي من الراحة ليسألوها عمن كانت تبحث ومن أين أتت .

قالت : «فريسكو . وفطيرة الراوند . هل معك نار ؟» .

سيكون الحلم إذن في فريسكو .

*

لم يذعن آل مورغان لأي شيء إنما كانوا غير مرتاحين لاختيار مكان الاجتماع . كان القس ميسنر قد فكر في أنه من الأفضل احترام البروتوكول والذهاب إلى فليتوود على أن يتحملوا الإهانة الفجة التي تعرضت لها الأسرة بجعل المعتدى عليه يأتي إلى منزل المعتدي .

كان «ك . د .» وديك وستيوارد قد جلسوا في غرفة جلوس القس مع كل الإيماءات والنخرات التوفيقية ، ولكن «ك . د .» عرف ما كان يفكر فيه خالاه . راقب ستيوارد ينقل مضغة التبغ ويمسك بالعصارة . حتى الآن فإن الاتحاد الائتماني الذي شكله ميسنر كان قروضاً صغيرة دون أرباح للطوارئ

تمنح لأعضاء الكنيسة . جداول تسديد دون غرامة . كان «ديك» قد قال : «مثل الحصالة بشكل خنزير صغير» . ولكن ستيوارد قال : «نعم بالنسبة للوقت الحاضر» . إن سمعة الكنيسة التي غادرها ميسنر ليأتي إلى «روبي» كانت تطفو وراءه . اجتماعات سرية لتحريض الناس ، مواجهات مع القانون الأبيض وليس حيلاً للتملص منه . كان لديه بوضوح أمل في ولاية قررت مرة أن تبني مدرسة حقوق جديدة كاملة لتستوعب طالباً واحداً ـ فتاة زنجية ـ ولحماية «الفصل العنصري» في الوقت نفسه . لقد أخذ على محمل الجد إمكانية التغيير في ولاية كانت قد شيدت دورة مياه قرب غرفة مدرسية لفتاة أخرى . الطالب الزنجي يجلس لوحده . كان ذلك في الأربعينات ، حين كان «ك . د .» طفلا رضيعاً ، وقبل أن تغادر أمه وأخوته وأولاد خاله وكل الآخرين بلدة «هايفن» . والآن بعد نحو عشرين عاماً ، فإن خاليه كانا يصغيان أسبوعياً إلى مواعظ ميسنر ، ولكن عند نهاية كل واحدة منها كانا ينزلقان واحدهما وراء مقود الأولدزموبيل والآخر وراء مقود الإمبالا ويكرران لازمة الآباء العجائز : «أوكلاهوما هي الهنود والزنوج ومزيج الرب . كل الباقي علف» . ويا لفزعهما فقد كان القس ميسنر غالباً ما يعامل العلف كطعام يوضع على الموائد . شخص كذاك يمكن أن يشجع على السلوك الغريب ، ويقف إلى جانب فتاة مراهقة ، وينقل الولاء إلى «فليتوود» . رجل كذاك راغب في أن يبعثر النقود ، يمكن أن يعطي الزبائن أفكاراً . يجعلهم يظنون أن هناك خياراً حول أسعار الفائدة .

ومع ذلك ، فإن «المعمدانيين» كانوا الطائفة الأكبر والأقوى في البلدة . لذلك فإن آل مورغان صنفوا آراء القس ميسنر بعناية للحكم على أي التوصيات هي التي يجب أن يتم تجاهلها وأي الأوامر يجب أن تطاع .

في سيارتين كانا يقطعان مسافة لا تزيد عن ثلاثة أميال إلى منزل فليتوود .

في مكان ما في مدينة أوكلاهما ، كان صوت شهر حزيران (يونيو) يتضاعف بالماء المضاء بالشمس لبركة السباحة . كان «ك . د . » هناك ذات مرة . كان قد ركب قطار ميسوري ، كنساس ، تكساس مع خاليه وانتظروا في الخارج عند المنحنى بينما راحوا يتحدثون عن التجارة في بناء من آجر أحمر . بدت أصوات مستثارة قريبة ، وقد ذهب ليرى . خلف حاجز ذي سلسلة محاط بأسمنت مسلح واسع دون حزوز رأى ماء أخضر . يعرف الآن أن الحجم كان عادياً ، ولكنه كان يملك الأفق في ذلك الحين . بدا له وكأن مئات من الأطفال البيض كانوا يتمايلون فيه ، وأصواتهم تشكل شلالاً من أنقى سعادة في العالم ، فرح يمكن أن تشعر به على نحو شديد الحدة حتى أنه يسبب في انهمار الدموع . والآن ، مع انعطاف الأولدزموبيل بشكل حرف U عند «الفرن» ، حيث كانت «جيجي» قد أطلقت النار من مسدسها ، أحس «ك . د . » مجدداً بالاستثارة التواقة للماء الوضاء وأصوات حزيران (يونيو) الخاصة بالسابحين . لم يكن خالاه مسرورين لاضطراهما إلى البحث عنه في المنطقة التجارية للمدينة ، وقد عاقباه في القطار ولاحقاً في السيارة خلال طريق العودة كله إلى «روبي» . ثمن صغير إذن ، وثمن صغير الآن . انفجرت الاندفاعات : «كيف يمكنك الدخول في ورطات كتلك بحق الجحيم ؟ عليك أن تكون مع أشخاص من سنك . لماذا تريد أن تكون مع شخص من آل فليتوود على أي حال ؟ هل ترى أولاد ذلك الشاب ؟ اللعنة!» ـ انفجرت كلها دون ضرر . وكما كان قد سبق له وشاهد الماء الوضاء ، فقد سبق له ورأى «جيجي» . ولكنه خلافاً لبركة السباحة ، سيرى هذه الفتاة مجدداً .

أوقفا سيارتيهما الواقية على الواقية عند جانب منزل آل فليتوود . حين قرعا الباب ، فإن كل شخص ، عدا القس ميسنر ، بدأ بالتنفس من فمه كطريقة لتخفيف رائحة المرض في المنزل .

لم يرغب آرنولد فليتوود أبداً في النوم في خيمة على مصطبة أو أرضية مرة أخرى . لذلك وضع أربعة غرف نوم في المنزل الواسع الذي شيده في الشارع المركزي . إجراءات النوم لنفسه وزوجته وكل واحد من طفليه تركت غرفة للضيوف كانوا فخورين بها . وحين عاد ابنه جفرسون من فيتنام واصطحب «سويتي» عروسه إلى سريره ، كانت غرفة الضيوف لا تزال موجودة ، وكانت ستتحول إلى حضانة للأطفال لو لم يحتاجو إليها كجناح في مستشفى لأطفال «جف» وسويتي . وقد انتهى الأمر الآن إلى أن ينام فليت الآن في مخبأ في غرفة الطعام .

جلس الرجال على أثاث منجد تنجيداً نظيفاً ينتظرون القس ميسنر لينتهي من مقابلة النساء اللواتي لم يكن مرئيات . لقد أنفقت كل من السيدتين المسماتين «المسز فليتوود» طاقاتهما ووقتهما وعاطفتهما كافة على الأولاد الأربعة الذين لازالوا على قيد الحياة : حتى الآن . كان فليت وجف ، الممتنان إنما الغاضبان بسبب ذلك التكريس ، قد طردا عارهما بعيدا . إنه لأمر صعب أن يكون في رفقتهم ويجلس إلى القرب منهم . كان الحديث أصعب .

عرف «ك . د .» أن فليت كان مديناً لخاليه بالمال . وعرف أن جف أراد كثيراً أن يقتل شخصاً ما . وبما أنه لم يستطع قتل «إدارة المحاربين القدماء» فقد يفعل آخرون ذلك . كان كل شخص يشعر بالراحة حين عاد ميسنر هابطاً الدرج ، مبتسماً .

قال القس ميسنر وهو يشبك يديه : «نعم ، حسناً» . ثم هزهما قليلاً قرب كتفه وكأنه قد سبق له وغلب منافسه . «وعدتنا السيدات بجلب القهوة وأعتقد أنهن قلن إن حلوى الأرز ستتقدم لاحقاً . هذا أفضل سبب أعرفه لأبدأ» . ابتسم مجدداً . كاد يكون أوسم من أن يكون واعظاً . لم

يكن وجهه ورأسه بل وجسده أيضاً متناسقاً جداً ويجلب اهتمام مثيراً للإعجاب من كل شخص عملياً . كان رجلاً جدياً ، وكان يعامل وسامته الواضحة ككابح ضد الوحل : كانت تفرض عليه التعامل بعناية مع أبرشيته ، وألا يأخذ أي أمر على أنه مفروغ منه : ليس إعجاب النساء أو حسد الرجال .

لم يرجع أي شخص ابتسامته المتعلقة بالحلوى . فتابع قائلاً :

« فلأضع أمامكم الحالة كما أعرفها . صححوني جميعاً إذا أخطأت أو نسيت شيئاً . إن فهمي للأمر هو أن «ك . د .» هذا قد تسبب بأذى ، بأذى خطير ، لآرنيت . لذلك نستطيع أن نقول منذ البداية إن «ك . د .» لديه مشكلة فيما يخص مزاجه والتزام... » .

« أليس هو في عمر لا يحق له معه أن يغضب من فتاة صغيرة » ؟ قاطع جفرسون فليتوود المهتاج جالساً في كرسي منخفض أبعد ما يكون عن نور المصباح . «لا أسمي هذا مزاجاً . أسميه عملاً لا قانونيا » .

« حسناً ، في تلك اللحظة المحدّدة ، كان خارجاً عن طوره » .

« أرجو عفوك أيها المحترم . آرنيت في الخامسة عشرة من عمرها » .

نظر « جف » بثبات في عيني «ك . د .» .

قال فليت : « هذا صحيح . لم تضرب منذ أن كانت في سن العامين » .

« قد تكون هذه هي المشكلة » . كان ستيوارد ، المعروف عنه كلامه الحماسي الملتهب قد تلقى تحذيراً من « ديك » بأن يبقي فمه مغلقاً ويترك له الفرصة ، هو المتكلم الطلق ، ليتكلم . والآن جعلت كلماته « جف » يقفز من كرسيه .

« هل أتيتم إلى منزلي لتسبوا أسرتي ؟ » .

« منزلك ؟ » نظر ستيوارد من جف إلى أرنولد فليتوود .

«لقد سمعتني! بابا ، أعتقد أنه من الأفضل أن نلغي هذا الاجتماع قبل أن يصاب أحد بأذى» .

قال فليت : «أنت على حق . هذه طفلتي التي تتحدثون عنها . طفلتي!» .

كان جف وحده هو الواقف ، ولكن ميسنر نهض الآن . «أيها السادة ، هاي!» رفع يديه وبينما هو يطل من عل على الرجال الجالسين ، أحسن استخدام صوته الذي يستعمله في إلقاء المواعظ . «نحن رجال هنا ، رجال الرب . هل سترمون بعمل الرب في المجاري ؟» .

رأى «ك . د .» ستيوارد وهو يناضل بالحاجة إلى أن يبصق ونهض أيضاً . قال : «انظروا هنا . أنا آسف فعلاً . سأتراجع كما قلت إن كنت أستطيع» .

أخفض ميسنر يديه : «ما تم قد تم أيها الأصدقاء» .

تابع «ك . د .» : «أحترم ابنتك...» .

سأله جف : «منذ متى ؟» .

«كنت دائماً أحترمها . منذ أن كانت بهذا الطول . وضع «ك . د .» يده عند مستوى خصره . «اسألوا أي شخص . اسألوا صديقتها بيلي ديليا . بيلي ديليا ستقول لكم ذلك» .

تأثير صدمة العبقرية كان فورياً . ابتسم الخالان مورغان ، بينما انتفض الأب والابن من آل فليتوود غاضبين . بيلي ديليا كانت أسرع فتاة في البلدة وهي تسرع كل ثانية .

قال جف : «الأمر لا يدور حول بيلي ديليا . بل بما فعلته بأختي الصغيرة» .

قال ميسنر : «انتظروا دقيقة . ربما نستطيع الوصول إلى حل أفضل يا

«ك . د .» لو استطعت أن تخبرنا عن السبب في فعلتك ؟ لماذا ؟ ما الذي حدث ؟ هل كنت تتعاطى الشراب ؟ هل أغضبتك على نحو ما ؟ » توقع أن يفتح هذا السؤال المباشر مجالاً للصدق ، حيث يستطيع الرجال التوقف عن لعب لعبة الدب ويصلون إلى تسوية . كان الهدوء المفاجئ الذي تبع ذلك قد باغته . نظف ستيوارد وديك أوتارهما في الوقت نفسه . حدق آرنولد فليتوود إلى حذائه . شيء ما كان منحرفاً كما حزر ميسنر . في ذلك الصمت المحرج استطاعوا أن يسمعوا فوق رؤوسهم صوت الطقطقة الخفيفة للكعوب : النساء يمشين بسرعة ، يخدمن ، يحضرن أشياء ، يتغذين : مهما يكن ضرورياً لإنقاذ الأطفال الذين لا يستطيعون إنقاذ أنفسهم...

«لا نهتم بالسبب» قال جف . «ما أريد معرفته هو ما الذي ستفعله حول الأمر ؟» غرس سبابته في ذراع الكرسي مع كلمة «ستفعله» . استند «ديك» إلى الخلف وفتح فخذيه على نحو أوسع ، وكأنه يرحب بالمنطقة التي كانت تنتمي إليه طبيعياً . «ما الذي تفكر فيه ؟» هكذا سأل .

قال فليت : «أولاً ، الاعتذار» .

قال «ك . د .» : «لقد اعتذرت للتو» .

«ليس لي . بل لها . لها!» .

«نعم يا سيدي . سأفعل» . قال «ك . د .» .

قال ديك : «حسناً . هذا أولاً ، وماذا ثانياً ؟» .

أجاب جف : «الأفضل ألاّ تمد يدك إليها مرة أخرى» .

«لن أمد يدي إليها يا سيدي» .

سأل ديك : «هل هناك ثالثاً ؟» .

قال فليت : «نحتاج إلى نعرف أنه يعني ما يقول . إشارة إلى أنه سيفعل» .

قال ديك وقد نجح في أن يبدو محتاراً : «يوقع ؟» .

«سمعة أختي قد تلطخت ، أليس كذلك ؟» .

«هاهه . أستطيع أن أرى ذلك» .

«لاشيء يمكن أن يصلحها ، أليس كذلك ؟» كان سؤال جف مصحوباً بالتحدي والاستفسار .

انحنى ديك نحو الأمام . «حسناً . لا أعرف . سمعت أنها ستدخل الكلية . هذا سيضع كل الأمور وراءها . ربما نستطيع أن نمّد يد المساعدة» .

نخر جف : «لا أعرف شيئاً حول ذلك» . نظر إلى أبيه . «ما رأيك يا بابا ؟ هل...» .

«عليك أن تسأل أمها . فهي منزعجة من هذا أيضاً كما تعرف . إنها منزعجة أكثر مني ، ربما» .

«حسناً» ، قال ديك «لماذا لا تحادثها في ذلك إذن ؟ إن وافقت توقف عند المصرف . غداً» .

حك فليت فكه . «لا أستطيع إعطاء أي وعود . مايبل امرأة فخورة جداً بنفسها . فخورة جداً» .

أومأ ديك برأسه . «لديها المبرر لذلك ، فابنتها ستدخل الكلية وكل هذه الأمور . لا نريد لأي شيء أن يقف في طريق ذلك . هذا رصيد للبلدة» .

هز ستيوارد رأسه : «متى ستبدأ الدراسة في تلك الكلية ؟» .

«في آب (أغسطس) على ما أعتقد» .

«هل ستكون مستعدة في ذلك الحين ؟» .

«ما الذي تعنيه ؟» .

«حسناً» أجاب ستيوارد . «آب (أغسطس) لا يزال بعيداً . نحن في أيار (مايو) . قد تغيّر رأيها وتقرر البقاء هنا» .

«أنا أبوها ، سأرتب لها الأمور» .

قال ستيوارد : «حسناً» .

سأل ديك : «هل تمت تسوية الأمور إذن ؟» .

«كما قلت . عليّ أن أتحدث إلى أمها» .

«بالطبع» .

«إنها المفتاح . زوجتي هي المفتاح» .

ابتسم ديك مباشرة للمرة الأولى ذلك المساء . «النساء هن غالباً المفتاح ، فليباركهن الرب» .

تنهد القس ميسنر وكأن هناك هواء قابلاً للاستنشاق كان متاحاً له مجدداً : «حب الرب موجود في هذا المنزل . أشعر به كل مرة أحضر فيها إلى هنا ، في كل مرة» . ثم نظر نحو السقف بينما حدق جفرسون فليتوود إليه بعينين مذهولتين . «نحن نثمن قوة الرب ولكن ليس علينا تجاهل حبه . هذا ما يبقينا أقوياء . أيها السادة . أيها الأخوة . لنصلّ» .

أحنوا رؤوسهم وأصغوا بطاعة إلى كلمات ميسنر المصوغة على نحو جميل ونقرات خطوات النساء دون أن ترى النساء .

*

في صباح اليوم التالي دهش القس ميسنر لمدى هناءة نومه . الاجتماع مع آل مورغان وآل فليتوود في الليلة السابقة جعلته يشعر بالقلق . كان هناك دب رمادي في غرفة جلوس آل فليتوود : هادئ وغير مرئي ، ولكنه يجعل الحركة الرشيقة مستحيلة . في الطابق العلوي كان قد أضحك النساء : حسناً

« مايبل » ضحكت على أي حال . أما « سويتي » فابتسمت ولكنها تستمع بمزاحه على ما يبدو . كان عينها على أطفالها . انزلاق . نحول . شمة هواء : انحنت فوق المهد وقامت بتعديلات سريعة تدربت عليها بالممارسة . ولكن تعبيرها كان من النوع المتنازل وكأنها تقول ما الذي يمكن أن يكون هناك ليسليها ولماذا سيحاول هو ؟ وقد وافقت حين سألها أن تنضم إليه في الصلاة . أحنت رأسها وأغمضت عينيها ، ولكن حين واجهته بـ« آمين » هادئة ، فقد أحس كأن علاقته مع الرب الذي كان يخاطبه كانت غامضة أو جديدة جداً ، بينما كانت علاقتها هي متفوقة وقديمة ومخفية تماماً .

كان لديه حظ أكبر مع مايبل فليتوود التي كانت مسرورة بما فيه الكفاية بزيارته حتى أنها أطالت حوارهما دون ضرورة . في الطابق السفلي كان الرجال قد اجتمعوا بعد أن علموا بما حدث عند « الفرن » وانتظروا : وكذلك فعل الدب الرمادي .

تقاتل ميسنر مع وسادته للحظة ثم أقنع نفسه أن النهاية كانت مرضية . الأمزجة بردت وتم التوصل إلى قرار وأعلن السلام . هذا ما كان يأمله على الأقل . لقد بدا آل مورغان دائماً وكأنهم يجرون حواراً ثانياً : حواراً غير مسموع بجوار ذاك الذي كانوا ينطقون به بصوت مرتفع . كان [الأخوان] يتصرفان كشخص واحد ، ولكن شيئاً في أسلوب « ديك » جعل ميسنر يتساءل إن لم يكن يغطي على أخيه ، يساعده بالطريقة التي تساعد فيها طفلاً بطيء التعلم . كان أسلوب أرنولد في المواجهة خجولاً : صيغة توقعها كل شخص ، ولكنه كان يعرف أنه ليس لها وزن . كانت بشرة جفرسون رقيقة كالشاش . ولكن « ك . د . » هو الذي كان يثير حنق ميسنر على أشد ما يكون الحنق . كان سريع الإرضاء . اعتذاره كان زلقاً . ابتسامته ملتوية .

كان ميسنر يحتقر الذكور الذين يضربون النساء : وماذا ؟ فتاة في الخامسة عشرة ؟ ما الذي اعتقد «ك . د .» أنه كان يفعله ؟ كانت قرابته لديك وستيوارد تحميه بالطبع ، ولكن كان من الصعب محبة رجل يتكل على ذلك . كان خنوعاً أمام خاليه ومتوحشاً مع النساء . ثم ، لاحقاً في تلك الأمسية ، خلال تسخين ميسنر لشرائح اللحم المقلية والبطاطا التي جلبتها له «آنا فلود» لعشائه ، كان قد نظر خارج نافذته ورأى «ك . د .» يسرع عبر الشارع المركزي في سيارة ستيوارد الإمبالا . مبتسماً ابتسامته الملتوية ، وإنه ليراهن على ذلك .

مثل هذه الأفكار الملحة ستبقيه مستيقظا معظم الليل ، ولكنه استيقظ في الصباح كأنما من أعذب حالات النوم . ربما بسبب طعام «آنا» . ومع ذلك كان ما يزال يتساءل ما الذي كان «ك . د .» متجهاً نحوه خارج البلدة بتلك السرعة ؟

* * *

رجل وامرأة يمارسان الجنس إلى الأبد . حين يتغير الضوء كل أربع ساعات يقومان بشيء جديد . عند حافة الصحراء يمارسان الجنس أمام مدّ سماء أريزونا . لاشيء يمكنه أن يوقفهما . لاشيء يرغب في ذلك . يقوس ضوء القمر ظهره ويدفئ نور الشمس لسانها . لا مجال لأن تفوتي عليك رؤيتهما أو أن تخطئيهما إن كنت تعرفين مكانهما : تماماً خارج توكسون على (١ ـ ٣) في بلدة تسمى «ويش» [الأمنية] . اخترقيها ، ثم خذي أول طريق إلى اليسار حيث ينتهي الطريق العام وتبدأ الصحراء الجدية ، تابعي السير . الرتيلاوات سامة ولكن من الضروري المتابعة على الأقدام لأنه لا توجد عجلات يمكنها أن تناسب تلك المنطقة . ساعة واحدة على الأكثر ،

وسترين ممارسة الحب تقارع السماء . أحياناً رقيقة وأحياناً عنيفة ولكنهما لا يتوقفان أبداً . لا أمام عواصف الغبار أو الحر الذي يحوم عند (١٠٨) درجات [فهرنهايت] . وإن كنت صبورةً ورأيتهما صدفة في واحدة من هطولات مطر الصحراء النادرة ، سترين لون جسديهما يصبح أعمق . ولكنهما يتابعان القيام بذلك في المطر النقي النادر : ذانك الزوجان الأسودان في «ويش» ، أريزونا .

مراراً وتكراراً حكى مايكي لجيجي كيف يبدوان وكيف يمكن اكتشاف مكانهما خارج بلدته الأم . لقد كانا ويمكن أن يكونا مركز جذب سياحي ، كما قال ، إلا أنهما يحرجان السكان المحليين . لقد خططت لجنة من «الميثوديين» [أتباع حركة دينية إصلاحية] لنسفهما أو تغطيتهما بالأسمنت ، وبدأت أعمالها ، ولكنها توقفت بعد أعمال بحث تمهيدية قليلة . قال أعضاء اللجنة إن اعتراضاتهم لم تكن مضادة للجنس إطلاقاً بل ضد الانحراف ، حيث كان يعتقد بعضهم من الذين تفحصوا الأمر عن كثب ، أن الزوجين كانا امرأتين تمارسان الحب في التراب . أما آخرون ، وبعد فحص عن كثب مساو للأول (عن قريب وبالمناظير) فقالوا لا ، بل هما ذكران : وقاحة كوقاحة «عامورة» .

ولكن مايكي كان قد لمس على أي حال أعضاء الجسد وعرف كحقيقة أن الواحدة منهما امرأة والآخر رجل . قال : «وماذا يعني ذلك ؟ لم يكونا يمارسان ذلك على الطريق العام ، على أي حال . عليك الخروج من الطريق لتجديهما» . قال مايكي إن الميثوديين أرادوا التخلص منهما ولكنهم أرادوهما أن يكونا هناك أيضاً . حتى أن حفنة من «الردنك» المقموعين ، الخائفين من أن يروا أحلاماً رطبة ، عرفوا أنهم كانوا في حاجة إلى الزوجين . وحتى لو لم يذهبوا أبداً إلى القرب منهما ، كما قال ، فهم كانوا

في حاجة لمعرفة أنهما موجودان هناك في ذلك المكان . عند شروق الشمس ، كما قال ، كان لونهما يصبح نحاسياً وكنت تعرف أنهما كانا يمارسان الحب طوال الليل . عند الظهر يكونان بلون رمادي فضي . ثم بلون أزرق بعد الظهر ، ثم أسود في المساء . يتحركان ، يتحركان ، يتحركان طوال الوقت .

أحبت جيجي سماعه يقول ذلك الجزء : « يتحركان ، يتحركان ، يتحركان طوال الوقت » .

حين انفصلا ، سجن مايكي لتسعين يوماً . أطلق سراح جيجي من غرفة الطوارئ وعلى رسغها ضمادة « إيس » . حدث كل شيء بسرعة كبيرة بحيث لم يكن أمامها من الوقت ما يكفي ليخططا لمكان اللقاء . خرج المحامي الذي عينته المحكمة قائلاً لا كفالة ولا تعليق للعقوبة . كان على موكله أن يقضي الأشهر الثلاثة كلها في السجن ، وأرسلت جيجي إلى مايكي رسالة عبر المحامي الذي عينته المحكمة . وكانت الرسالة : « ويش (أمنية) الخامس عشر من نيسان » .

سأل المحامي : « ماذا ؟ » .

« كلها فحسب . ويش الخامس عشر من نيسان » .

« حسناً . حسناً » قال .

لم يكن هناك لا مايكي ولا « ويش » ، ولم يكن هناك ، ١ ـ ٢ ولا أحد يمارس الجنس في الصحراء ، وكل من تحدثت إليه في توكسون ظنها مجنونة .

قالت : « ربما البلدة التي أبحث عنها صغيرة جداً بحيث لا تذكر على الخرائط » .

« إذن اسألي رجال الشرطة الراكبين . لا توجد بلدة مهما صغرت لا يعرفونها » .

«التشكيل الصخري خارج الطريق . يبدو كشخصين يمارسان الحب» .

«حسناً ، رأيت بعض السحالي تقوم بذلك في الصحراء يا آنسة» .

«شجر الصبار ربما ؟» .

«الآن توجد إمكانية» .

ضحكوا حتى وهنوا .

بعدما مررت أصبعها على أعمدة الأسماء في دليل الهاتف ولم تجد أحداً في المنطقة له كنية مايكي أي «رود» ، فإن جيجي تخلت عنه . بتردد . ولكنها تمسكت بالزوجين الصحراويين الأبديين ، كشيء عزيز وغال كالحياة . تحت الأحلام الاستحواذية عن العدالة الاجتماعية ، لحراس للناس الشرفاء ـ أقوى من ذاكرتها عن الغلام الباصق للدم في يديه ـ حطم عاشق الصحراء قلبها . لم يخترعهما مايكي . ربما وضعهما في المكان الخطأ ، ولكنه استدعى إلى السطح ما كانت تعرف طوال حياتها أنه موجود... في مكان ما . ربما في المكسيك ، وإلى هناك اتجهت .

المخدّر كان قوياً ، والرجال دائماً مستعدين ، ولكن بعد عشرة أيام استيقظت وهي تبكي . هاتفت ألكورن ، ميسيسبي على أساس أن يدفع متلقي المكالمة الأجرة .

«اجلبي مؤخرتك إلى البيت يا فتاة . هل تغير العالم بما فيه الكفاية ليلائمك ؟ الجميع موتى على أي حال . «كينغ» ، واحد آخر من آل كنيدي ، ميدغار إيفرز ، الاسم الزنجي لإكس ، يا إلهي لا أستطيع أن أفكر بالجميع منذ غادرت ، هل تتذكرين «إل . جي .» الذي اعتاد أن يعمل في الطريق ، لقد جاء أحد ما في نور النهار الساطع ومعه مسدس له شكل لم يسبق لأحد أن رآه من قبل...» .

تركت جيجي رأسها تسقط على الجدار المطلي بالكلس قرب الهاتف . خارج الحانة لوّح كاتب بمكنسة على بعض الأطفال . بنات . دون ملابس تحتانية .

«قادمة يا جدي . سأتجه إلى البيت الآن» .

*

كانت تحتفظ بمقعدين لنفسها في معظم الوقت . حيّز تنتشر فوقه . نوم . قراءة أعداد قديمة من «رامبارتس» الملفوفة في حقيبة ظهرها . حين ركبت قطار «سانتا في» ، خرج القطار مزدحماً برجال سلاح الجو مرتدين البزات الزرقاء . وسرعان ما ازدحم العربات بـ H'ers - 4 . ولكن حين انتقلت إلى (إم كي تي) ، لم تمتلئ العربات مجدداً .

لم يكن الرجل ذو القرط قادماً ليبحث عنها . بحثت هي عنه . أرادت أن تتحدث إلى شخص ما لم يكن مغلفاً بالبوليستر ويبدو وكأنه قد يدخن شيئاً ما غير سجائر التشسترفيلد .

كان قصيراً ، قزماً تقريباً ، ولكن ملابسه كانت من طراز الشاطئ الشرقي . كانت تسريحته الأفريقية مرتبة ، وغير مشعثة ، وكان يضع بذوراً ذهبية حول عنقه ، وزراً ملائماً لها في عنقه .

وقفا الواحد إلى جانب الآخر عند السناك بار ، حيث أصر النادل على مهاتفة عربة الطعام . طلبت كوكاكولا دون ثلج مع سندويشة محمصة . كان يدفع لقاء كوب كبير من الثلج فقط .

قالت جيجي للرجل الجالس خلف نضد الحساب : «يجب أن يكون هذا مجانياً . ليس عليه أن يدفع ثمن الكوب» .

«اعذريني يا سيدتي . أنا أتبع النظام فحسب» .

لم أطلب ثلجاً . هل حسمت شيئاً ؟ » .

« طبعاً لا » .

« لا تزعجي نفسك » قال الرجل القصير .

« لست منزعجة » قالت له جيجي وثم قالت للرجل الجالس خلف النضد :

« اسمع . أعطه الثلج الذي ما كنت ستطالبني بدفع ثمنه ، ما رأيك ؟ » .

« يا آنسة ، هل علي أن أنادي على المفتش ؟ » .

« إن لم تفعل فسأفعل أنا . هذه سرقة قطار ، حسناً : قطارات تسرق الناس » .

قال الرجل : « حسناً . مجرد خمسة سنتات » .

قالت جيجي : « إنه المبدأ » .

« مبدأ الخمسة سنتات ليس مبدأ على الإطلاق . يحتاج الرجل إلى الخمسة سنتات . يحتاجها جداً » . ابتسم الرجل القصير .

قال النادل : « لا أحتاج شيئاً . إنه النظام » .

قال الرجل « سآخذ اثنين » ثم رمى بخمسة سنتات أخرى إلى الطبق .

كانت جيجي تحملق والرجل ذو القرط يبتسم حين غادرا السناك بار معاً . جلست عبر الممشى في مواجهته ليتحدثا بإسهاب حول الحادثة بينما راح الرجل يقرش الثلج بأسنانه .

رفعت يدها قائلة : « جيجي . ما اسمك ؟ » .

قال : « دايس » [تعني النرد بالعربية] .

قالت : « تعني كالنرد الصغير ؟ » .

قال : « بل زوجٌ منه » .

لمسها بيد باردة ثم قاما كلاهما باختراع الحكايات ، كل للآخر ، لمسافة أميال . بل أن جيجي شعرت بالراحة بما فيه الكفاية لتسأله إن كان

قد سبق له ورأى أو سمع عن تشكيل صخري يبدو كرجل وامرأة يمارسان الجنس . ضحك وقال لا ، ولكنه سمع ذات مرة عن مكان فيه بحيرة في وسط حقل قمح . وأنه قرب البحيرة تنمو شجرتان الواحدة في ذراع الأخرى . ولو حاولت الانحشار بينهما بالأسلوب الصحيح ، حسناً ، ستشعرين بنشوة لا يمكن لأي بشري أن يخترعه أو يقلده . «يقولون إنه بعد ذلك لا يمكن لأي شخص أن يرفض لك دعوة» .

«لا أحد يرفض دعوتي الآن» .

«لا أحد ؟ أعني لا أحد إطلاقاً! ؟» .

«أين هذا المكان ؟» .

«روبي . روبي ، أوكلاهوما . هناك في وسط اللامكان» .

«هل كنت هناك ؟» .

«ليس بعد . ولكني أخطط للبحث في الأمر . يقولون إن لديهم أفضل فطيرة راوند في البلد كلها» .

«أكره الراوند» .

«تكرهينها ؟ أيتها الفتاة ، لم تعيشي بعد ، لم تعيشي بعد إطلاقاً» .

«سأذهب إلى البيت . أريد رؤية أهلي» .

«أين هو البيت بالنسبة إليك ؟» .

«فريسكو . كل أهلي يعيشون في فريسكو ، لقد سبق أن تكلمت إلى جدي . إنهم ينتظرونني» .

أومأ «دايس» برأسه ولكنه لم يقل شيئاً .

حشت «جيجي» غلاف السندويش المحمصة في فنجان الورق الفارغ خاصتها . لست ضائعة ، هكذا فكرت . غير ضائعة إطلاقاً . أستطيع أن أرى جدي أو أعود إلى الخليج أو...

أبطأ القطار . نهض دايس ليلمّ حوانجه من الشبكة التي فوقه . كان قصيراً جداً إلى حد كان عليه أن يقف على رؤوس أصابعه . ساعدته جيجي ولم يبد عليه أنه انزعج .

« حسناً ، سأنزل هنا . سررت بالتحدث إليك » .

« وأنا إليك أيضاً » .

« حظاً طيباً . انتبهي الآن . لا تصابي بالبلل » .

*

لو كان الشبان الواقفين أمام نوع من مشواة اللحم قد قالوا : لا هذه ألكورن ، ميسيسبي ، لكانت صدقتهم بالأحرى . قصة الشعر نفسها ، التحديقات نفسها ، الابتسامات الريفية الحمقاء نفسها . ما كان جدها يسميه « ريف الريف » . كانت هناك بعض الفتيات أيضاً ، يتجادلن ، كما يبدو ، الواحدة مع الأخرى . وعلى أي حال ، لم تقدمن الكثير من المساعدة ، ولكنها استمتعت بأمواج الإثارة الذكورية الفجة التي راحت تصفع قفاها وهي تسير على امتداد الشارع .

أولاً طار الغبار الناعم كطحين ودخل في عينيها وفمها . ثم خربت الرياح شعرها . وفجأة كانت خارج البلدة . لقد توقف ما سماه المحليون الشارع المركزي فجأة ، وكانت جيجي عند حافة روبي في الوقت نفسه الذي وصلت فيه إلى مركزها . كانت الريح الصامتة تأتي من الأرض وليس من السماء بالأحرى . في دقيقة يطقطق كعباها وفي الدقيقة التالية يكونان أخرسين في غبار مدوّم . على كلا جانبيها كان عشب طويل يدور كالمياه .

كانت قد توقفت قبل خمس دقائق عند ما يسمى مخزن الأدوية ، واشترت سجائر وعلمت أن الفتيان عند مشواة اللحم كانوا يقولون الحقيقة :

لم يكن هناك من موتيل . وإن وجدت أي فطيرة فهي لا تقدم في مطعم لأنه ليس هناك مطعم أيضاً . وعدا عن مقاعد النزهة عند تلك المشواة ، لم يكن هناك مكان عام للجلوس . كل ما حولها كان أبواباً مغلقة ونوافذ موصدة حيث تستبدل بسرعة الستائر المفتوحة .

كان هذا كثيراً على « روبي » ، كما فكرت . لا شك أن مايكي قد أرسل لها هذا الشخص غريب الأطوار الكاذب في القطار . لقد أرادت أن ترى فحسب ، ليس فقط ذلك الشيء في حقل القمح ، بل إن كان هناك أي شيء على الإطلاق يريد العالم أن يقوله لنفسه (بالصخر أو بالشجر أو بالماء) لم يكن أكياساً جسدية أو أولاداً صغاراً يبصقون الدم على أيديهم حتى لا يتلفوا أحذيتهم . إذن . ألكورن . كان يمكنها أن تبدأ في ألكورن ، ميسيسبي . آجلاً أو عاجلاً واحدة من هذه الشاحنات المتوقفة عند مخزن الحبوب والطعام سيكون عليها أن تنطلق وستركب خارجة من هذا الجحيم .

ممسكة بشعرها وعيناها تغمزان أمام الريح ، أخذت جيجي تدرس إمكانية السير عائدة إلى مخزن الطعام . كانت حقيبة ظهرها قد أضحت ثقيلة وهي ترتدي الكعب العالي ولو لم تتحرك ، فإن الريح قد توقعها . وكما بدأت الريح تهبّ فجأة فقد سكنت فجأة . في غيابها سمعت محركاً يأتي باتجاهها .

« هل أنت متجهة نحو « الدير » ؟ » سألها رجل في قبعة ذات حافة عريضة وهو يفتح باب سيارته .

رمت جيجي حقيبة ظهرها على المقعد وتسلقت . « الدير ؟ أتمزح ؟ أي شيء عداه . هل تستطيع أن توصلني إلى موقف باص أو محطة قطار « حقيقية » أو ما شابه ؟ » .

« أنت محظوظة . سآخذك رأساً إلى الطريق » .

«عظيم! » فتشت جيجي في حقيبتها وهي بين ركبتيها . «تبدو جديدة من رائحتها » .

«جديدة تماماً . أنتم جميعاً في أول رحلة لي » .

«أنتم جميعاً ؟ » .

«علي أن أتوقف . هناك راكب آخر سيركب القطار أيضاً » . ابتسم . «اسمي روجر . روجر بست » .

«جيجي » .

«ولكنك ستركبين مجاناً . الأخرى ستدفع » . هذا ما قاله وهو يبعد عينيه عن الطريق . وإذ تظاهر أنه يفحص المنظر عبر النافذة الجانبية ، فقد نظر إلى سرتها أولاً ثم إلى الأسفل ثم إلى الأعلى .

أخرجت جيجي مرآة وأصلحت بقدر ما تستطيع ما خرّبه الهواء من شعرها ، مفكرة : أجل . أنا مجاناً . حسناً .

وكانت كذلك كما قال روجر بست ، لم تكن هناك أي كلفة على الأحياء ، ولكن الكلفة على الموتى خمسة وعشرين دولاراً .

بين الحين والآخر كانت المرأة الجالسة على درجات المدخل ترفع نظاراتها الشمسية لتمسح عينيها . سقطت إحدى جديلتيها من تحت قبعتها القش على ظهرها . ركع روجر على ركبته وحادثها لفترة بدت طويلة لجيجي ، ثم دخلا كلاهما إلى الداخل . حين خرج روجر ، كان يغلق حافظة نقوده ويعبس .

«ما من مساعدة هنا . تستطيعين الانتظار في الداخل . سيستغرق مني الأمر بعض الوقت لإنزال الجثمان » .

التفتت جيجي لتنظر خلفها ولكنها لم تستطع أن ترى عبر الحاجز .

«يا يسوع! ما هذا الهراء! هل هذه عربة موتى ؟ » .

«أحياناً . وأحياناً سيارة إسعاف . اليوم هي عربة موتى» . كان يتصرف كتاجر الآن . لا نظرات سريعة إلى نهديها . «عليّ أن أضعها فوق متن قطار «إم كي تي» في الثامنة وعشرين دقيقة مساء . عليّ أن أكون هناك ليس في الوقت الملائم ولكن في الساعة المحددة» .

كانت جيجي سريعة إنما غير رشيقة في النزول من السيارة ، التي هي عربة موتى الآن ، ولكنه التفت من حول المنزل وصعدت الدرج الخشبي ومرت عبر الأبواب الأمامية خلال وقت وجيز جداً . كان قد قال «الدير» لذلك ظنت أنه ستكون هناك نساء عذبات إنما صارمات يسبحن في قبعات ذات أشرعة فوق أكمام سوداء طويلة . ولكن لم يكن هناك أحد ، والمرأة في قبعة القش كانت قد اختفت . مشت جيجي عبر ردهة من الممر إلى ردهة أخرى ذات حجم مضاعف . في العتمة استطاعت أن ترى قاعة تمتد إلى اليمين واليسار أمامها درج أوسع . وقبل أن تستطيع أن تقرر أين ستتجه ، كان روجر خلفها يحمل شيئاً معدنياً ذا دواليب . تحرك نحو الدرج ، مهمهماً : «ليس من مساعدة ولو قليلة ، أبداً» . التفتت جيجي نحو اليمين ، مندفعة نحو النور الآتي من تحت بابين متأرجحين . في الداخل كانت أطول منضدة رأتها في حياتها في أكبر مطبخ . جلست هناك ، تمضغ ظفر إبهامها ، متسائلة كم سيكون الأمر سيئاً أن تسافر مع شخص ميت ؟ كانت هناك بعض الأعشاب في حقيبتها . ليس كثيراً ولكن ما يكفي ، كما فكرت ، لكي تبقيها بعيداً عن الخوف . مدت يدها وأخذت قطعة صغيرة من فطيرة كانت أمامها ولاحظت للمرة الأولى أن المكان كان مثقلاً بالطعام ، وخاصة الأطعمة التي لم يمسها أحد . كعكات كثيرة وفطائر أكثر وسلطة البطاطا وطبق كبير من الفاصولياء المطبوخة . لابد أن هناك راهبات ، كما فكرت . أو ربما كان هذا كله لأجل الجنازة . وفجأة كشخص من أهل المتوفى الشرعيين ، شعرت بجوع ضار .

كانت جيجي تلتهم الطعام وتكوم المزيد من الطعام على طبقها حتى وهي تغرف منه ، حين دخلت المرأة دون قبعة القش أو نظاراتها وتمددت فوق الأرض الباردة كالحجر .

كان فمها مليئاً بالفاصولياء المحمصة وكعكة الشوكولاته لذا لم تستطع جيجي الكلام . في الخارج دوى بوق سيارة روجر . وضعت جيجي ملعقتها ولكنها تمسكت بالكعكة وهي تمشي إلى حيث تمددت المرأة . أقعت ومسحت فمها وقالت : «هل أستطيع مساعدتك ؟» كانت عينا المرأة مغلقتين ولكنها هزت رأسها علامة الرفض .

«هل يوجد أي شخص آخر أستطيع مناداته ؟» .

فتحت عينيها عندئذ ، ولم تر جيجي أي شيء : مجرد دائرة باهتة حيث من المعتاد أن يكون طرف القزحية .

«هاي يا فتاة . هل أنت قادمة ؟» كان صوت روجر ضعيفاً وبعيداً فوق صوت محركه . «لديّ قطار عليّ أن ألحق به . في الوقت الصحيح! عليّ أن أكون هناك في الوقت الصحيح ؟» .

انحنت جيجي أكثر وحدقت إلى العينين اللتين ليس فيهما أي شيء يوصي بهما .

«قلت هل يوجد أي شخص آخر ؟» .

«أنت» ، همهمت . «أنت هنا» . وأبحرت كل كلمة نحو جيجي على موجة من أنفاس كحولية .

«هل تسمعينني ؟ لا أستطيع الانتظار طوال اليوم!» حذّر روجر .

حركت جيجي وجهها عبر وجه المرأة للتأكد من أنها كانت عمياء علاوة على كونها ثملة .

قالت المرأة ، هامسة إنما منزعجة : «توقفي عن ذلك» .

قالت جيجي . «أوه . ظننت . لم لا تدعيني أحضر لك كرسياً ؟» .

«أنا ذاهب ، أتسمعين ؟ ذاهب!» سمعت جيجي صوت المحرك وهو يعمل وعربة الموتى تنتقل من الحيادي إلى الاتجاه المعاكس .

«ستفوتني فرصة اللحاق بالسيارة ، ما الذي تريدين مني فعله ؟» .

التفت المرأة إلى جانبها وطوت يديها تحت عنقها . «كوني لطيفة . راقبي فحسب . لم أغلق عيني منذ سبعة عشر يوماً» .

«ألا يحل السرير المشكلة ؟» .

«كوني لطيفة . كوني لطيفة . لا أريد أن أنام بينما لا يوجد شخص هنا ليكون حارساً» .

«على الأرض ؟» .

ولكنها كانت نائمة . تتنفس كطفلة .

نهضت جيجي ونظرت في أنحاء المطبخ ، وهي تبتلع الكعكة ببطء . على الأقل لم يعد هناك أموات الآن . صوت عربة الموتى أضحى أوهى ثم غاب تماماً .

تحدث الخوف وليس الانتصار في كل قدم من الدارة الكبيرة خاصة المختلس . لقد كان لها شكل قذيفة حية ، مقوسة إلى نقطة مميتة عند الطرف الشمالي حيث كانت غرف الجلوس والطعام في الأصل . لابد وأنه أعتقد أن مطارديه سيأتون من الشمال لأن كل النوافذ في الطابق الأول كانت مجمعة في تينك الغرفتين . مثل المراصد . النهاية الجنوبية كانت تحوي إشارات عن رغبته في غرفتين : مطبخ واسع الى حد غير مألوف وغرفة يستطيع فيها لعب ألعاب الرجال الأغنياء . لم يكن لأي غرفة منظر تطل عليه ، ولكن كان للمطبخ واحد من مدخلي الدارة الكبيرة . هناك شرفة منحنية من الشمال حول رأس الرصاصة ، مستمرة على امتداد جداره عبر

المدخل الرئيسي وتنتهي في النهاية المسطحة للذخيرة : سطحها الخارجي الجنوبي . لا يمكن لأحد في المنزل ـ باستثناء غرفة النوم ـ أن يرى الشمس تبزغ ، ولم تكن هناك نقطة رؤية واضحة لترى هي الشمس تغرب . لذلك كان النور مضلّلاً على الدوام .

لابدّ أنه خطط ليكون لديه رفقة جيدة في قلعته : ثماني غرف نوم وحمامان هائلا الحجم ، وقبو للمخازن يحتل مسافة معادلة للطابق الأول . كما أراد أن يسلي ضيوفه على أكمل نحو بحيث لا يفكرون بالمغادرة لأيام لها أول وليس لها آخر . جهوده للتسلية لم تكن أكثر تعقيداً أو إثارة للاهتمام مما كان هو : على الأغلب الطعام والجنس والألعاب . وبعد سنتين من الإنشاء شبه السري ، استطاع أن يقيم حفلة شهوانية ، قبل أن يلقى القبض عليه ، كما كان يخشى ، من قبل رجال قانون شماليين ، وقد حضر أحدهم أول وآخر حفلاته .

المعلمات الأخوات الأربع اللواتي انتقلن ليعشن في منزله حين عرض للبيع بمبلغ زهيد من المال ألغين ببراعة الأصداء الواضحة لمتعته ولكنهن لم يستطعن أن يفعلن أي شيء لإخفاء رعبه . «الخلفية» المغلقة المحمية ، و«الرأس» المتوازن والمراقب ، مدخل محروس بالمخالب المتبقية لتمثال هائل ، أزالته الأخوات بالحال . وباب مطبخ متخلّع سيئ التعليق هو العورة الوحيدة .

سرعان ما لاحظت جيجي ، وقد شعرت بالثمالة بقدر الكمية المحدودة التي شربتها ، ومتجولة عبر الدارة الكبيرة بينما نامت المرأة المخمورة على أرض المطبخ ، كيف تم تحويل غرفة الطعام إلى صف مدرسي وغرفة الجلوس إلى مصلى وغرفة الألعاب إلى مكتب : عصي البلياردو والكرات موجودة إنما ليس الطاولة . ثم اكتشفت آثار الصناعة الفاشلة للأخوات . حاملات الشمع

ذات الجذع النسائي في الشمعدان معلقة من سقف القاعة . وتتلوى ذؤابات الشعر عبر أوراق الكرمة التي كانت تلامس الوجوه ذات مرة إلاّ أنها قصت الآن . والملاك الحارس (بشكل طفل مجنح) البارز من طبقات من الدهان في الدهليز . قبضات الأبواب ذات الرأس كحلمة النهد . تماثيل لنساء مضطجعات نصف عاريات في ملابس قديمة الطراز ، يشربن ويداعبن الواحدة الأخرى في طبعات مكدسة في خزائن . تمثال لفينوس بين قطع عديدة من التماثيل العارية تحت درج القبو . حتى أنها وجدت أعضاء ذكورية نحاسية انتزعت من المغاسل والأحواض ، وقد وضعت في درج مليء بنشارة الخشب ، وكأن الأخوات رأين قيمة للمعدن على أي حال رغم اشمئزازهن من متطلبات القطع المعدنية . داعبت جيجي القطع وقلبت الخصيتين المصممتين لجعل الماء يجري من القضيب . مصّت آخر شقفة من سيجارة الحشيش ـ مينغ ون ـ ووضعت العقب على واحد من المهابل المصنوعة من الألباستر في غرفة الألعاب . تخيلت الرجال ينقرون برضا لفافاتهم على تلك المنافض . أو ربما كانوا يضعون السيجار عليها ، وهم يعرفون دون أن ينظروا أن الرأس المدبب المشتعل كان يبني رأساً بشرياً دقيقاً ببطء .

تجنبت غرف النوم لأنها لم تعرف أيها كانت تخص الشخص الميت ، ولكن حين ذهبت لاستخدام واحد من الحمامات ، فقد رأت أنه لم يكن هناك نشاط من أنشطة التواليت إلاّ وكان مقصوداً له أن ينعكس في مرآة تنعكس في أخرى . معظمهم المرايا التي كانت مثبتة في بلاط الجدران كانت مطلية بالدهان . وإذ انحنت تتفحص الحوريات الحاملات لحوض الاستحمام ، لاحظت مقبض يد مثبتاً إلى لوح من الخشب محاطاً ببلاط الأرضية . استطاعت أن تصل وترفع المقبض ، ولكنها لم تكن قادرة على زحزحته .

وفجأة أحست بالجوع بشدة مجدداً وعادت إلى المطبخ لتأكل ولتفعل ما طلبته منها المرأة : أن تكون لطيفة وتحرس خلال نومها ، شأن السائحة العجوز التي تخشى النزول لوحدها . أنهت المعكرونة وبعض لحم الخنزير وشريحة أخرى من الكعكة حين تحركت المرأة التي على الأرض وجلست . أمسكت بوجهها بكلتي يديها للحظة ، ثم فركت عينيها .

سألت جيجي «هل تحسنت ؟» .

تناولت نظارات شمسية من جيب مريلتها وارتدتها . «لا . ولكني ارتحت» .

«حسناً . هذا أفضل لاشك» .

نهضت المرأة . «أعتقد ذلك . شكراً ـ لبقائك» .

«بكل تأكيد . الخُمار قحبة . أنا جيجي . من مات ؟» .

«إنسانة محبوبة» قالت المرأة . «كان لدي اثنتان ، كانت هي الأولى والأخيرة» .

«أوه ، آسفة» . قالت جيجي . «أين سيأخذها ؟ الغندور في عربة الموتى» .

«بعيداً إلى بحيرة سميت باسمها . ممتاز . هكذا أرادته» .

«من الذي يعيش هنا أيضاً ؟ لم تطبخي كل هذا الطعام ، أليس كذلك ؟» .

ملأت المرأة مقلاة بالماء وهزت رأسها .

«ما الذي ستفعلينه الآن ؟» .

«جيجي جيجي جيجي جيجي جيجي . هذا ما تغنيه الضفادع . ماذا أسمتك أمك ؟» .

«هي ؟ أعطتني اسمها» .

«حسناً ؟» .

«غريس» .

«غريس . ما الاسم الذي يمكنه أن يكون أفضل ؟» .

لاشيء . لاشيء إطلاقاً . لو أطل صباح هربت فيه الرحمة والحظ الطيب البسيط ، فإن الرحمة [غريس بالإنكليزية] لوجدها قد تفعل الفعل لوحدها . ولكن من أين ستأتي وبأي سرعة ؟ في تلك الفجوة المقدسة بين المشاهدة والمتابعة هل يمكن للرحمة أن تنزلق عبر ذلك إطلاقا ؟

*

كانت تلك المرأة التي تقول «أنا أعطي» والتي تعرض ثدييها مثل اثنتين من «الألاسكا» مخبوزتين على طبق هي التي جعلت عيني الفتى ترتعشان . راقبته جيجي وهو يعارك تحديقته ويخسر في كل مرة . قال إن اسمه «ك . د .» وحاول جاهداً أن يستمتع بوجهها كما بالشق بين ثدييها وهو يتحدث . كان نضالاً توقعته هي ، فنهضت واستمتعت بالـ.. طبعاً . ولكن الصورة التي استيقظت عليها قبل ساعة قد أفسدت الأمر .

غير راغبة في النوم في الطابق الثاني حيث توفي شخص للتو ، اختارت جيجي الصوفا الجلدية في المكتب الذي كان غرفة ألعاب . كان دون نوافذ ويعتمد على الكهرباء ، التي لم تعد موجودة ، للإنارة ، وشجعتها الغرفة عل النوم بعمق ومطولاً . نامت عبر الصباح كله واستيقظت بعد الظهر ، في عتمة هي بالكاد أقل من تلك التي استغرقت في النوم فيها . كان معلقاً على الجدار أمامها النقش الذي رأته بالكاد وهي تفتش المكان في اليوم السابق . والآن بدا أمام خط نظرها في النور الضئيل القادم من القاعة . امرأة . على ركبتيها نظرة ذليلة وعينان راجيتان

بارزتان ، وذراعاها ممدتان تحملان هديتها على طبق أمام سيّد . وقفت جيجي على رؤوس أصابع قدميها وانحنت لترى عن كثب من كانت تلك المرأة ذات الوجه الذي يقول «استسلم» . كانت عبارة «القديسة كاترين من سيينا» محفورة على رقعة صغيرة في الإطار المذهب . ضحكت جيجي : قضبان نحاسية مخبأة في علبة ، حلمات البودينغ معروضة على طبق ، ولكنها لم تبد مضحكة . لذا حين أوقف الصبي الذي رأته في البلدة في اليوم السابق سيارته قرب باب المطبخ وضرب النفير ، فإن اهتمامها وصل إلى حافة الإزعاج . استندت إلى الباب وهي تأكل الخبز المدهون بالزبدة والمربى وتصغي إليه وتراقبه الحرب التي تشن في عينيه . كانت ابتسامته جميلة وصوته جذاباً . «كنت أدور بالسيارة في كل مكان بحثاً عنك . سمعت أنك كنت هنا . فكرت أنك لا تزالين هنا» .

«من قال لك ذلك ؟» .

«صديق . حسناً . صديق لصديق» .

«تعني غندور عربة الموتى ذلك ؟» .

«هاهه . قال إنك غيرت رأيك حول الوصول إلى محطة القطار» .

«لاشك أن الأخبار تسري بسرعة هنا ، حتى إذا لم يكن أي شيء آخر يسير بسرعة» .

«ندبر أمورنا . هل تريدين نزهة بالسيارة ؟ سأقود بأقصى سرعة تريدينها» .

لعقت جيجي المربى من إبهامها وسبابتها . نظرت إلى اليسار نحو الحديقة وفكرت أنها رأت في البعيد ومضة معدن أو ربما مرآة تعكس النور . كأنها صادرة عن نظارات شمسية لشرطي خيّال .

قالت : «سأحضر خلال دقيقة . سأبدل ملابسي» .

في غرفة الألعاب ارتدت تنورة صفراء وقميصاً أحمر داكناً . ثم استشارت لائحة التنجيم خاصتها قبل أن تحشر أغراضها (وبعض التذكارات القليلة) في حقيبة ظهرها التي رمتها في المقعد الخلفي للسيارة .

قال «ك . د .» : «هاي . سنذهب في نزهة صغيرة فحسب» .

«أجل» . أجابت ولكن من يعرف ؟ قد أغير رأيي مجدداً» .

قاد السيارة عبر ميل إثر ميل من السماء الزرقاء سماوية اللون . لم تكن جيجي قد تفرجت على المناظر من شباك القطار أو الباص . كل ما كان يهمها لم يكن هناك في الخارج . ولكن وسيارة الإمبالا تسرع فيها فقد كان الأمر أشبه بالطيران في طيارة «دي سي ـ ١٠» ، واللاشيء تحول إلى سماء : لا يمكن تجاهلها ، معتادة ، رسمها رسام . لا هي فارغة أيضاً بل مليئة بالأنفاس وبكل ما هو للعين مبتغى .

«هذه أقصر تنورة سبق لي أن شاهدت» . ابتسم ابتسامته الجميلة .

«هذه هي الميني» ، قالت جيجي . «في العالم الحقيقي يسمونها «ميني ـ سكيرت» .

«ألا تجعل الناس يحدقون إليك ؟» .

«يحدقون . قد السيارة لمسافة أميال . حطم السيارة . تحدث بغباء » .

«عليك أن تحبيها . أعتقد أنها صنعت لذلك ، على أي حال» .

«اشرح لي ملابسك وسأشرح لك ملابسي . من أين حصلت على هذه السراويل مثلاً ؟» .

«ما الخطأ فيها ؟» .

«لا خطأ . اسمع ، هل تريد أن تجادل ، أرجعني» .

«لا . لا أريد المجادلة . بل أريد فقط... قيادة السيارة» .

«حسناً ؟ بأي سرعة ؟» .

«قلت لك . بأسرع ما أستطيع» .

«كم من الوقت ؟» .

«طالما رغبت» .

«إلى أين ؟» .

«طوال الطريق» .

كان الزوجان الصحراويان كبيرين ، كما قال مايكي . من أين نظرت ، كما قال ، فإنهما يحتلان السماء ويتحركان ويتحركان . كذاب ، كما فكرت جيجي . ليس هذه السماء . هذه السماء أكبر من أي شيء ، بما فيه امرأة ثدياها على صينية .

*

حين توقفت مايفيس بسيارتها في الطريق المؤدي إلى الدارة ، قرب باب المطبخ ، فإنها جذبت مكابحها بشدة إلى حد أن حوائجها انزلقت عن المقعد وسقطت تحت لوحة أجهزة السيارة . الشخص الجالس في كرسي الحديقة الأحمر كان عارياً تماماً . لم تستطع أن ترى الوجه من تحت حافة القبعة ولكنها عرفت أنها لم تكن تلبس نظارات شمسية . لقد غابت مجرد شهر واحد وخلال ثلاثة أسابيع من هذه الفترة لم تكن تستطيع كبت التوق للعودة إلى هناك . لابدّ أن شيئاً ما قد حدث ، كما فكرت . لـ«الأم» . لـ«كوني» . على زعيق المكابح ، فإن الشخص الذي كان يأخذ حماماً شمسياً لم يتحرك . ولكن فقط حين أغلقت باب الكاديلاك بشدة فإن الشخص انتصب جالساً ودفع القبعة بعيداً . أسرعت مايفيس منادية : «كوني ، كوني ؟» نحو حافة الحديقة . «من أنت بحق الجحيم ؟» أين «كوني» ؟ .

تثاءبت الفتاة العارية وحكت شعر عانتها . «مايفيس ؟» سألت .

أحست بالراحة لأنها علمت أنها معروفة ، وقد جرى الحديث عنها على الأقل . أخفضت مايفيس من نبرة صوتها . «ما الذي تفعلينه على هذه الشاكلة ؟ أين كوني ؟» .

«أي شاكلة ؟ إنها في الداخل» .

«أنت عارية» .

«حسناً وماذا ؟ هل تريدين السيجار ؟» .

«هل يعرفون ؟» نظرت مايفيس نحو الدارة .

قالت جيجي : «سيدتي ، هل تنظرين إلى شيء لم يسبق لك أن رأيته من قبل أو ليس لديك منه أو هل أنت مجنونة ملابس أو ماذا ؟» .

«ها أنت قد عدت» . نزلت «كوني» الدرجات وذراعاها مفتوحتان متجهة نحو مايفيس . «لقد افتقدتك» . تعانقتا واستسلمت مايفيس إلى دقات قلب المرأة مقابل قلبها .

«من هي يا كوني وأين ملابسها ؟» .

«أوه ، هذه غريس الصغيرة . لقد وصلت اليوم الذي تلا يوم موت «الأم»» .

«ماتت ؟ متى ؟» .

«قبل سبعة أيام من اليوم . سبعة» .

«ولكني جلبت الأغراض . كلها في السيارة» .

«لا فائدة . ليس لأجلها على أي حال . قلبي كله قد انسحق ، ولكن مع عودتك الآن أشعر بالرغبة في الطهو» .

«ألم تكوني تتناولين الطعام ؟» ألقت مايفيس نظرة باردة إلى جيجي .

«قليلاً . طعام الجنائز . ولكن سأطبخ طعاماً طازجاً الآن» .

قالت جيجي : «هناك الكثير منه . نحن لم نلمس الـ...» .

«هيا ارتدي بعض الملابس!»

«قبلي مؤخرتي!» .

«افعلي ذلك يا غريس» . قالت كوني «اذهبي كفتاة طيبة . وغطي نفسك ، ونحن نحبّك على أي حال» .

«هل سبق لها وسمعت بحمام الشمس ؟»

«هيا الآن» .

ذهبت جيجي وهي تبالغ في حركة الردفين اللذين عرضتهما لمايفيس .

«ما الصخرة التي زحفت من تحتها ؟» سألت مايفيس .

«صه» . قالت كوني . «سرعان ما ستحبينها . لا مجال . فكرت مايفيس . لا مجال إطلاقاً . لقد رحلت «الأم» إذن ، ولكن كوني على ما يرام . أنا هنا منذ ثلاث سنوات تقريباً وهذا المنزل هو حيث نحن . نحن ليس هي .

فعلتا كل شيء باستثناء صفع الواحدة للأخرى ، وأخيراً فعلتا ذلك . ما الذي أجّل المحتوم كانت قصص الحب اليائسة وفتاة صغيرة جدا في ملابس ضيقة جداً تقرع على الباب المنخلي .

«عليك أن تساعديني» قالت . «عليك ذلك . لقد اغتصبت وشهر آب (أغسطس) قد حل تقريباً» .

كان جزء من هذا فحسب صحيحاً .

سينيكا



كان شيء ما يخرمش على الزجاج . مجدداً . استدارت «دافي» على بطنها ، رافضة أن تنظر خارج النافذة في كل مرة كانت تسمع الصوت فيه . لم يكن هناك . لم يأت ليلاً . وعلى نحو متعمد ، ذهبت بذهنها إلى الأمور اليومية . ما الذي ستجهزه لعشاء الغد ؟

ليس الأمر هاماً جداً أن يزرع المرء البازلاء في الحديقة . يمكن للمرء أن يستخدم البازلاء المحفوظة كذلك . لا توجد حليمة ذوق في فم ستيوارد يمكنها أن تميز الفرق . أولاً إن مضغة التبغ «بلوبوي» التي يلزقها بخدّه من الداخل منذ عشرين سنة قد جعلت ذوقه محصوراً بالولع بالبهارات ثم تراجعت به إلى رغبة واحدة : الفلفل الأحمر .

حين تزوجا ، كانت «دافي» واثقة أنها لن تكون قادرة على الطبخ بالجودة الكافية التي تلائم ذوق هذا الأخ التوأم المعروف بأنه أصعب إرضاء من أخيه . «ديك» . بعد أن عاد الرجلان من الحرب ، كانا كلاهما جائعين للطعام المنزلي ، ولكن بعد أن حلما به لثلاث سنوات كانت توقعاتهما قد صعدت إلى مستويات عالية ، وبالغت في إمكانيات شحم الخنزير في صنع بسكويت أخف من الثلج ، والمسؤولية التي يتحملها الجبن الحاد في دقيق

الذرة الصفراء . حين سُرّحا من الخدمة وعادا إلى الوطن ، همهم ديك من السعادة وهو يمك النقي الحلو من العظام أو يقرقش عظام الفراريج حتى تصبح مسحوقاً . ولكن سيتوارد كان يتذكر كل شيء على نحو مختلف . ألا يجب أن يكون كبش القرنفل مدفونا في النسيج وألا يكون جالساً فحسب فوق أعلى لحم فخذ الخنزير ؟ وماذا عن شرائح لحم الفروج المقلية : هل نأكلها مع بصل فيداليا أم البصل الإسباني ؟

في يوم زفافها ، وقفت «دافي» تواجه ورق الجدران المزهر ، وظهرها إلى النافذة حتى تستطيع أختها ، «سوآن» ، أن ترى على نحو أفضل . رفعت دافي طرف اللباس الداخلي بينما راحت «سوآن» ترسم الحزوز . دغدغت الفرشاة الصغيرة القسم الخلفي من ساقيها ، ولكن وقفت ساكنة تماماً . لم تكن هناك جوارب حريرية في «هايفن» أو في العالم في عام (١٩٤٩) ، ولكن الزواج بساقين عاريتين وعلى نحو جليّ كان يعني السخرية من الرب ومن الطقوس .

قالت دافي لأختها : «لا أعتقد أنه سيكون راضياً على المائدة» .

«لم لا ؟» .

«لا أعرف . إنه يمدح طهوي ، ثم يقترح كيف نحسنه في المرة التالية» .

«قفي بثبات يا دافي» .

«لا يفعل ديك ذلك بك ، أليس كذلك ؟» .

«ليس ذاك . إنه صعب الإرضاء بطرق أخرى . ولكني لن أقلق حول ذلك لو كنت مكانك . إن كان راضياً في السرير ، فإن المائدة لن تعني شيئاً» .

ضحكتا مجدداً ، وكان على «سوآن» أن تعيد رسم حزّ كامل مجدداً .

كانت الصعوبة التي تلوح في الأفق في عام (١٩٤٩) قد وضع التبغ حلاً لها الآن . لم يكن يهم إن كانت بازلاؤها طازجة من الحقل أو محفوظة في صفيحة . كان فلفل الدير ، الحار كأنه نار جهنم ، ينجز كل الطهو نيابة عنها . كان الجهد المبذول لزرع البازلاء ضائعاً . ملعقة من السكر وقطعة من الزبدة في البازلاء المعلّب تفيان بالغرض ، بما أن قطع الفلفل الأسود الأرجواني التي سترش فوقها ستطيح بأي نكهة هادئة . خذ القرع المتأخر مثلاً .

في تلك الليالي ، وعلى الدوام تقريباً ، وحين كانت دافي تفكر في زوجها ، كان ذلك من خلال ما فقده . كان حسه الذوقي مثلاً واحدا ضمن أمور كثيرة راحت تعدها . فخلافاً لتقييمه (وتقييم كل «روبي») ، كلما اكتسب ستيوارد المزيد تصبح خسائره المنظورة أكثر . فلقد رافقت بيعه لقطيعه في أعلى سعر للدولار في عام (١٩٥٨) هزيمته في الانتخابات على مستوى الولاية كسكرتير للكنيسة بسبب احتقاره المعلن لتلاميذ المدرسة الجالسين في مخزن الأدوية ذاك في مدينة أوكلاهوما . بل لقد كتب رسالة حاقدة إلى النساء اللواتي نظمن الطلبة . لم يفاجئها موقفهن حيث أنه كان قبل عشر سنوات قد سمى «ثورغود مارشال» «زنجياً محرضاً» بسبب إدارته لقضية الفصل العنصري الخاصة بـ«الجمعية الوطنية لتقدم الملونين» في نورمان . و في عام (١٩٦٢) ، ملأ الغاز الطبيعي الذي حُفر لأجله بئر على عمق عشرة آلاف قدم في المزرعة جيبيه ولكنه قلص أرضهم إلى مجرد مزرعة دمية ، كما أنه خسر الأشجار التي جعلتها جميلة للنظر . لقد تعثر خط شعره وحليمات ذوقه مع الزمن . خسائر صغيرة انتهت بالخسارة الكبيرة : في عام (١٩٦٤) ، حين كان في الأربعين ، تحققت لعنة «فيري» : لقد عرفا أن أيا منهما لن يمكنه أن ينجب أطفالاً .

والآن بعد عشر سنوات تقريباً فقد «نظف جيوبه تماماً» كما أفاد ، في صفقة عقارية في «موسكوغي» ، ولم تضطر دافي إلى التساؤل عما قد يخسره الآن أيضا لأنه كان قد سبق له وراح يخوض معركة خاسرة مع القس ميسنر بسبب كلمات كتبت على شفة «الفرن» . كان جدالاً تغذى جزئياً ـ كما فكرت دافي ـ بما لم يتكلم عنه أحد . شبان متورطون في مشاكل أو متمرّدون كل خلف باب . أما آرنيت العائدة إلى المنزل من الكلية فرفضت ترك سريرها . كان ابن هاربر جوري المسمى «مينوس» يثمل في نهاية كل أسبوع منذ عاد من فييتنام . أما حفيدة روجر المسماة بيلي ديليا ، فقد اختفت فجأة . كانت زوجة جف المسماة سويتي ، تضحك ، تضحك على نكات لم يقلها أحد . وورطة «ك . د .» كانت مع تلك الفتاة التي تعيش في «الدير» . هذا إذا أسقطنا الأجوبة الوقحة والشفاه المبوّزة والتحدي المباشر للبعض الآخر : أولئك الذين أرادوا أن يسموا «الفرن» «مكان الكذا والكذا» ، والذين قرروا أن الكلمات الأصلية عليه كانت شيئاً أغضب ستيوارد وديك . كانت دافي قد تكلمت مع أختها التي هي أيضاً زوجة أخي زوجها) حول ذلك ، وكذلك إلى «مايبل فليتوود» و«آنا فلود» ، وزوج من النساء في النادي . اختلفت الآراء وكانت مشوشة وغير متسقة لأن المشاعر احتدمت جداً حول القضية . وأيضاً لأن بعض الشبان ، بهزئهم الضاحك من ذكرى أصبع الآنسة إستر ، قد أهانوا أجيالاً كاملة سبقتهم . لم يقترحوا بلطف أن الآنسة إستر قد أخطأت . لقد ضحكوا ساخرين من فكرة تذكر كلمات غير مرئية ما كنت قادراً حتى على قراءتها بتتبع الأحرف التي ما كنت ستستطيع لفظها .

سأل الأبناء : «هل رأتها ؟» .

صرخ الآباء : «أفضل من ذلك . لقد أحست بها ولمستها ووضعت أصبعها عليها» .

«لو كانت عمياء يا سيدي ، لصدقناها . سيكون ذلك أشبه بقراءة أحرف «بريل» . ولكن طفلة في الخامسة لا تستطيع قراءة شاهدتها لو خرجت من قبرها ووقفت أمامه ؟» .

عبس التوأمان . قفز فليت الذي كان يفكر في الكرم الشهير لحماته ، من مقعد الكنيسة وكان لا بد من أن يثبت في مكانه .

كان «الميثوديون» قد ابتسموا سروراً من التمرد الحاصل بين صفوف «المعمدانيين» . وضحك «العنصرانيون» عالياً . ولكن ليس لفترة طويلة . فقد بدأ أعضاء شبان في كنائسهم بالذات يعبرون عن آراء حول الكلمات . وكل أبرشية كان فيها أشخاص غادروا «هايفن» للبدء بحياة جديدة بين الأسر الخمس عشرة أو على صلة بها . لم يكن «الفرن» منتمياً إلى أي تسمية واحدة ، بل كان منتمياً للجميع ، وطلب إلى الجميع الحضور إلى «كالفاري» . لمناقشة الأمر كما قال القس ميسنر . كان الطقس بارداً وروائح الحديقة فواحة ، وحين اجتمعوا في السابعة والنصف كان الجو لطيفاً والناس محبين للاستطلاع ببساطة . وقد بقي هذا صحيحاً خلال ملاحظات ميسنر الافتتاحية . ربما كان الشبان عصبيين ، ولكن حين تكلموا ، بدءاً من أبناء لوثر بوشامب : رويال و دستري ، فإن أصواتهم كانت حادة إلى حد أن النساء لشدة الإحراج نظرن إلى كتب الجيب خاصتهن ، أما الرجال فنسوا أن يرمشوا بأعينهم من الصدمة .

كان من الأفضل للجميع لو أن الشبان تكلموا بلطف واعترفوا بنشأتهم وهم يعبرون عن آرائهم . ولكنهم لم يرغبوا في المناقشة ، بل أرادوا إعطاء التعليمات .

«لن يأمرنا عبيد سابقون بأن نخاف طوال الوقت . أن «نحذر» الرب . أن نخبئ رؤوسنا دائماً ونختفي ، محاولين أن نتطلع إلى فوق في كل دقيقة عسى أن يكون الرب قد اصبح مستعداً ليرمي إلينا بشيء ما ، فيحول بيننا وبين الفلاح» .

قال سارجنت بيرسون : «عليكم أن تقولوا «سيدي» حين تخاطبون الرجال» .

«آسف يا سيدي . لكن أي نوع من الرسائل هذا ؟ لا يمكن لعبد سابق تجرأ على شق طريقه بنفسه وبناء بلدة من لاشيء ، أن يفكر هكذا . لا يمكن لعبد سابق...» .

قاطعه ديكون مورغان : «هذا هو جدي الذي تتكلم عنه . توقف عن مناداته بالعبد السابق وكأنه لم يكن سوى كذلك . كان أيضاً نائب حاكم سابق ، ومصرفياً سابقاً وشماساً سابقاً والكثير من «السابقات» الأخرى ، ولم يكن يشق طريقة بنفسه . كان جزءاً من مجموعة كاملة تشق طريقها بنفسها» .

بعد أن التقت عيناه بعيني القس ميسنر ، كان الفتى حازماً . «لقد ولد في عهد العبودية ، يا سيدي . كان عبداً ، أليس كذلك ؟» .

«لم يكن كل من ولد في عهد العبودية عبداً . ليس بالطريقة التي تعنيها» .

«هناك أسلوب واحد أعنيها به يا سيدي» قال دستري .

«أنت لا تعرف ما تتحدث عنه!» .

«ولا واحد منهم يعرف! لا يعرفون حتى الخراء!» صاح هاربر جوري .

قاطع القس ميسنر قائلاً : «هو! هو! أيها الأخوة . أيتها الأخوات . لقد دعونا لهذا الاجتماع في منزل الرب لنحاول أن نجد...» .

زمجر سارجنت : «أحد منازله» .

«حسناً واحد من منازله . ولكن أيها كان ، فإن الرب يطلب الاحترام من أولئك الموجودين فيه . أأنا على حق أو أنا على حق ؟ » .

جلس هاربر . «أعتذر عن اللغة . إلى الرب» . هكذا قال وهو يشير إلى الأعلى .

قال ميسنر : «هذا قد يسره . وقد لا يسره . لاتجعل احترامك مقتصراً عليه يا أخ جوري . إنه يحذرنا بكل الطرق ضد هذا» .

نهض القس بوليام . كان رجلاً داكن البشرة نحيلاً وقوياً . قال : «أيها المحترم ، لدينا مشكلة هنا . أنت وأنا . وكل فرد . المشكلة هي بالطريقة التي يتكلم بها بعضنا . أعني أن على الراشدين منا بالطبع أن يستخدموا اللغة الملائمة . ولكن الشباب : الشباب يكررون ما نقول ولكنهم لا يتكلمون بالأحرى . إن ما اجتمعنا من أجله...» .

قاطع رويال بوشامب فعلياً كلام القس . «ما هو الكلام إن لم يكن تكراراً ؟ أنتم جميعاً لا تريدوننا أن نتكلم إطلاقاً . أي كلام هو «تكرار» إذا لم توافقوا على ما قيل... سيدي» .

ذهل الجميع من وقاحة الفتى إلى حد أنهم سمعوا بالكاد مقاله .

التفت بوليام ، الذي صرف من ذهنه إمكانية تواجد والدي روي ـ أي لوثر وهلن بوشامب ـ في المكان ، ببطء نحو ميسنر . «أيها المحترم ، ألا تستطيع إبقاء ذلك الفتى صامتاً ؟ » .

«ولماذا ؟ » قال ميسنر . «لسنا هنا لمجرد أن نتكلم بل لنصغي أيضاً» .

لم يكن اللهاث مسموعاً بقدر ما كان محسوساً . ضيّق بوليام عينيه وكان على وشك الإجابة حين غادر ديك مورغان الصف ووقف في

الممشى . «حسناً يا سيدي ، لقد أصغيت ، وأعتقد أني سمعت بما فيه الكفاية بالنسبة إلي . والآن عليكم جميعاً أن تصغوا إلي . لا أحد ، أعني لا أحد سيغير «الفرن» أو يسميه باسم غريب . لن يعبث أحد بشيء بناه أجدادنا . لقد صنعوا كل آجرة على حدة بأيديهم» . نظر ديك بثبات إلى روي . «هم من حفر الطين وليس أنت . هم من حمل حوض الملاط والآجر وليس أنت» . التفت برأسه ليشمل دستري وهيرستون وكالين بول لوركاس وليندا ساندز . «هم مزجوا الملاط ـ وليس أي واحد منكم . لقد صنعوا آجراً جيداً قوياً لذلك الفرن حين كان مأواهم العصي والأعشاب . أتفهمون ما أقوله لكم ؟ وقد احترمنا ما عانوه حتى ينتهوا منه . لاشيء عومل على نحو ألطف من ذاك الآجر الذي صنعه أولئك الرجال : الرجال ، أتسمعونني ؟ ليس العبيد ، سواء كانوا سابقين أو خلافه . قل لهم يا سارجنت كم كان الفصل دقيقاً ، وكم كنا حريصين ، وكيف لففناها كل واحدة على حدة . قل هم يا فليت . وأنت يا سيرايت أيضاً وأنت يا هاربر قل له إن كنت أكذب . لقد رفعنا الحديد أنا وأخي . كلانا . وإن سقطت بعض الأحرف فذلك لم يكن بسببنا لأننا غطيناها بالقش وكأنها حمل يثغو . لذلك افهموني حين أقول لكم إنه لن يأتي أي شخص بعد ثمانين عاماً مدعياً أنه يعرف أفضل مما كان يعرفه رجال مروا بالجحيم . قاطعوني إن أردتم . ولكنكم واقعون في ورطة كبيرة لو اعتقدتم أنكم تستطيعون عدم احترام مهمة عسيرة لم تنفذوها» .

صدر عشرون نوعاً مختلفاً من «آمين» لتؤكد على ما قاله ديك . كانت المسألة التي أثارها ستنهي الجدال لو لم يقل ميسنر :

«يبدو لي يا ديك أنهم يحترمونه . لأنهم يعرفون قيمة «الفرن» فهم يريدون منحه حياة جديدة» .

كانت الهمهمة التي أطلقها هذا الانتقال الثاني إلى موقف الشبان قد أصبحت زمجرة هدأت فقط للإصغاء إلى ردّ الخصم .

«لا يريدون منحه أي شيء . يريدون قتله ، تغييره إلى شيء يخترعونه هم» .

قال روي : «إنه تاريخنا أيضاً يا سيدي . وليس تاريخكم لوحدكم» .

«إذن تصرفوا على نحو مشابه له . لقد قلت لكم للتو . لقد سبق لذلك «الفرن» وكان له تاريخ . وهو لا يحتاج إليكم لتثبيته» .

قال ريتشارد ميسنر : «انتظر يا ديك . فكر بما قيل . لا تنس التسمية : تسمية «الفرن» . إن المشكلة هي توضيح الشعار» .

«الشعار ؟ الشعار ؟ نحن نتحدث عن الأمر!» أشار القس بوليام بأصبع أنيقة إلى السقف . «احذروا تغضينة الغضب في جبين الرب ؟ هذا ما يقوله على نحو واضح وضوح النهار . هذا ليس اقتراحاً ، إنه أمر!» .

«حسناً ، لا . ليس واضحاً وضوح النهار . إنه يقول «... التغضينة في جبينه» . لا وجود لـ«احذروا» .

«لم تكن أنت هناك! إستر هي من كانت . ولم تكن أنت هناك في البداية ، إستر كانت!» اهتزت يد أرنولد فليتوود اليمنى من قوة التحذير .

«كانت طفلة . ربما أخطأت» . قال ميسنر .

والآن انضم فليت إلى ديك في الممشى . «لم ترتكب إستر خطأ واحداً من هذا النوع طوال حياتها . لقد عرفت كل ما كان يجب أن يعرف حول «هايفن» و«روبي» أيضاً . لقد زارتنا قبل أن يكون لنا طريق . وقد سمعت هذه البلدة ، اللعنة . عفواً أيتها السيدات» .

رفع دستري المتوتر والموشك على البكاء يده وسأل : «اعذرني يا سيدي . ما الخطأ في «كونوا التغضينة ؟ كونوا تغضينة جبينه ؟» .

«لا يمكنك أن تكون الرب يا فتى» . تكلم ناثان دوبري بلطف وهو يهز رأسه .

«ليست المسألة مسألة «الرب» يا سيدي . بل أداته . عدالته . كعرق...» .

«عدالة الرب هي عدالته لوحده . كيف ستكونون أداته إن كنتم لا تعرفون ما يقوله ؟» هكذا سأل القس بوليام . «عليكم بطاعته» .

«أجل يا سيدي ، ولكننا نطيعه» . قال دستري . «لوا تبعنا وصاياه لكنا صوته ، جزاءه . كشعب...» .

أخرسه هاربر جوري . «إنه يقول : «احذروا» ولا يقول ، «كونوا» . و احذروا تعني انتبهوا السلطة لي . اعتادوا عليها» .

« «كونوا» تعني أنكم تضعون الرب جانباً وأنتم السلطة» ، قال سارجنت .

«نحن سلطة فعلاً لو أننا فقط...» .

«أترون ما أعني ؟ ترون ما أعني ؟» أصغوا إلى ذاك! أتسمع ذلك أيها القس المبجل ؟ ذلك الفتى يحتاج إلى سوط . تجديف على الرب!» .

*

كما كان ممكناً التنبؤ به ، كان لستيوارد الكلمة الأخيرة ، أو على الأقل الكلمات التي تذكرها الجميع على أنها الأخيرة لأنهم أنهوا الاجتماع . «اسمعوني» . كان صوته ثخيناً وجميلاً بسبب مضغة «بلو بوي» . «إن كنتم أو أي واحد منكم ستتجاهلون أو تغيرون أو تنقصون أو تضيفون إلى الكلمات التي في فم ذلك الفرن شيئاً ، فسوف أنسف رؤوسكم كأنكم حية ذات قنبعة» .

أصابت القشعريرة دافي مورغان بسبب التهديد الذي أطلقه زوجها ، فلم تستطع سوى النظر إلى الألواح الأرضية وتتساءل أي شكل مرني ستتخذه خسارته الآن .

بعد أيام كانت ما تزال غير قادرة على اتخاذ قرار حول من كان على حق أو أي جانب كان على حق . وخلال النقاش مع الآخرين ، بمن فيهم ستيوارد ، فقد نزعت إلى الموافقة مع كل شخص كانت تصغي إليه . وكانت هذه مسألة ستطرحها مع صديقها ، حين عاد إليها .

* * *

بينما راحا يبتعدان بالسيارة عن مكان الاجتماع في كالفاري ، حصل شجار صغير إنما شائع بين ستيوارد ودافي حول المكان الذي سيتجهان إليه . كان متجهاً إلى المزرعة التي اختُصرت إلى مزرعة للعرض الآن بعد أن بيعت حقوق الغاز ، ولكن في ذهن ستيوارد كانت تعني المنزل ، حيث يرفع علمه الأمريكي في العطل ، وحيث كانت محفوظة في إطار أوراق تسريحه المشرف من الخدمة ، وحيث يمكن للكلبين بن وغود أن يحركا ذنبيهما بجنون حين يظهر . ولكن المنزل الصغير في شارع سانت ماثيو ـ وهو حبس رهن لم يعد التوأمان إلى بيعه ـ كان يصبح بالنسبة إلى دافي ، تدريجيا ، هو المنزل . كان قريباً من أختها ، ومن «ماونت كالفاري» و «نادي النساء» . وكان أيضاً المكان الذي اختاره صديقها لزيارتها .

«أنزلني هنا يا ستيوارد . سأمشي بقية الطريق» .

«ستموتين برداً» .

«لا . برودة الليل جيدة الآن» .

«أيها الفتاة ، أنت عذاب» ، هكذا قال ، ولكنه ربت على فخذها قبل أن تخرج .

سارت دافي ببطء على امتداد الشارع المركزي . من بعيد استطاعت أن ترى مصابيح متبقية من «نزهة جونتينت» معلقة قرب «الفرن» وقد مرت أربعة أشهر ولم ينزلها أحد إلى المستودع للسنة القادمة . هي تقدم النور الآن ـ نوراً قليلاً يكفي بالكاد ـ لأجل احتفالات بالحرية من أنواع أخرى تجري تحت ظلالها . على يسارها كان المصرف ذو المبنى غير العالي على الإطلاق شأن الكنائس ولكنه يبدو على أي حال وكأنه يسيطر على الشارع . لم يكن أي من الأخوين يريد طابقاً ثانياً مثل مصرف هايفن ، حيث مقر شركة «لودج» . لم يريدا أن يدخل السير بناءهما لأي سبب عدا الأعمال المصرفية . كان مصرف هايفن الذي امتلكه والدهما قد انهار لأسباب كثيرة ، وأحدها ، كما يقول ستيوارد ، إقامة اجتماعات لودج في المبنى . كان يقول : «يشوش التركيز» . وراء ذلك بثلاثة شوارع ، إلى يمينها ، وقرب منزل باتريشيا بست ، كانت المدرسة التي كانت تعلم دافي فيها بينما كان منزل المزرعة يكتمل ، ولكن سوآن كانت قد علمت لفترة أطول حيث أنها تعيش قريباً جداً منها . كانت «بات» تدير المدرسة لوحدها الآن ، ويقوم القس ميسنر وآنا فلود بتدريس «تاريخ الزنوج» ودروس الطباعة بعد الدوام . كانت الزهور والخضار على أحد جانبي المدرسة امتداداً للحديقة أمام منزل «بات» .

التفت دافي يساراً نحو شارع سانت ماثيو . كان نور القمر يضيء الحواجز البيضاء المائلة في جهد لإمساك بالأقحوان وقفاز الثعلب وعباد الشمس وزهور الزينة وزنابق النهار ، بينما كان النعناع والملك الفضي يضغطان عبر الفراغات عند أسفل الأخشاب . كانت سماء الليل ، كغطاء

جميل ، تبقي العطر تحتها ، تدخره ، تكثفه وترفض منحه أقل نسيم يمكنه أن يهرب به .

معارك الحديقة ـ المنتصرة والمهزومة والتي مازالت تخاض ـ قد انتهت تقريباً . لقد استمرت عشر سنوات ، إذ بدأت فجأة في عام (١٩٦٣) حين كان هناك وقت . النسوة اللواتي كن في العشرينات حين تأسست « روبي » في الخمسينات من هذا القرن ، راقبن لمدة ثلاث عشرة سنة زيادة في الغلال لم تكن قد دخلت أحلامهن . اشتروا ورق تواليت طرياً ، واستخدموا قماشاً بدلاً عن الخرق ، والصابون للوجه وحده أو حفاضات فقط . في كل منزل في روبي ، كانت الأجهزة تضخ وتهمهم وتمتص وتهرّ وتهمس وتتدفق . وكان هناك وقت : خمس عشرة دقيقة حين لا يكون الحطب مطلوباً الاهتمام به في موقد المطبخ . وساعة كاملة حين لا تكون الشراشف أو الأوفرولات تحتاج إلى الضرب أو الكشط على لوح غسيل . عشر دقائق تكتسب لأنه لا حاجة إلى ضرب السجادة ولا الستائر تثبت على موسّعة . ساعتان لأن الطعام كان يدوم وبالتالي يمكن الحصول عليه أو شراؤه بكمية أكبر . كان أزواجهن وأبناؤهن ، الذين تدغدغوا حتى الموت ولم يكونوا أقل افتخاراً من النساء ، قد ترجموا رفع السعر خمسة أضعاف ، والسعر لكل باوند أو بالة أو وزن حي ، ترجموه إلى « كلفيناتورات » و« جون دير » ، إلى « ميلكو » وكذلك « بادي » أو « فيشر » . لقد منحهم البورسلان الأبيض الموضوع فوق الفولاذ ، والأحزمة والصمامات وقطع « البيكلايت » رضىً عميقاً . كما منحت الهمهمة والخفقان والهرير الناعم النساء وقتاً .

أصبحت ساحات التراب المكنوسة بعناية والمرشوشة بالمياه في هايفن مروجاً في روبي حتى أصبحت الباحات الأمامية أخيراً مشاتل للزهور دون سبب معقول باستثناء أنه توفر الوقت للعناية بها . انتشرت عادة

زراعة النباتات التي لا يمكن أكلها وكذلك الاهتمام بها . تحول التبادل والمشاركة في شتلة هنا وجذر هناك وبصلة أو اثنتين توقا شديدا إلى اغتصاب الأراضي حتى تذمر الأزواج من الإهمال والحصاد الصغير المحبط للآمال من الفجل أو الصفوف القصيرة جداً من الملفوف والشوندر . حافظت النساء على حدائق الخضرة في الخلف ، ولكن تدريجياً بدأ نتاجها يصبح كالزهور : مدفوعاً بالرغبة وليس الضرورة . بدأت نباتات السوسن والقبس والورد والفاوابنا تأخذ المزيد ثم المزيد من الوقت ، مع الكثير من التفاخر والكثير من الفراغ حتى أن الفراشات راحت تسافر أميالاً لتفقس في « روبي » . كانت خادراتها تتعلق سراً تحت الأكاسيا ومن هناك تنضم إلى الزرقاوات والفضيات التي كانت تتغذى منذ عقود على الحنطة السوداء والبرسيم . كانت الأسراب الحمراء التي تشرب من نبات السماق تتنافس مع ذات اللون الكريمي والأبيض الواصلة حديثاً ، وتحب أزهار الجواهر والكبوسين . أجنحة برتقالية ضخمة مغطاة بشريط أسود تحوم في أزهار الثالوث والبنفسج . ومثل سنوات التنافس الحدائقي ، فإن الفراشات رحلت في مساء بارد من أمسيات شهر تشرين الأول (أكتوبر) ، ولكن النتائج بقيت : باحات خصبة ومشغولة بإفراط ، كتل وسلاسل من البيض . مختبئة حتى الربيع .

صعدت دافي الدرج وهي تلامس الأوتاد التي تطوق الممر . هناك عند الرواق ترددت وفكرت في العودة لتزور سوآن التي غادرت الاجتماع باكراً . لقد أقلقتها سوآن . بدا وكأنها تمر بفترات ضعف لا تتعلق بموت ابنيها قبل خمس سنوات . ربما شعرت سوآن بما شعرت به دافي : عبء أن يكون للمرأة زوجان وليس واحداً . توقفت دافي ثم غيرت رأيها وفتحت الباب . أو حاولت ذلك . كان مقفلاً : من جديد . شيء ما بدأه ستيوارد مؤخراً جعلها

غاضبة : إنه يوصد المنزل كأنه مصرف هو أيضاً . كانت دافي على ثقة أن منزلهم كان الوحيد الذي له باب مقفل في روبي . ما الذي كان يخشاه ؟ ربتت على الطبق تحت أصيص التنينة والتقطت المفاتيح السرية .

*

قبل تلك المرة الأولى ، ولكن ليس مجدداً ، كانت هناك إشارة . كانت في الطابق العلوي ترتب المنزل المرهون ، وتوقفت لتنظر عبر نافذة غرفة النوم . الأشجار المثقلة بالأوراق في الأسفل هناك كانت لا تتحرك كأنها لوحة زيتية . تموز (يوليو) . جفاف . مائة درجة ودرجة [فهرنهايت] . مع ذلك فإن فتح النافذة سيلطف جو الغرفة الفارغة منذ عام . لقد استغرقها الأمر لحظة ـ نقرة هنا ، نقرة أو اثنتان هناك ـ ولكنها استطاعت أخيراً رفع النافذة إلى الأعلى والانحناء نحو الأمام لترى ما كان متبقياً من الحديقة . من موضعها في النافذة كانت الأشجار تخفي معظم الباحة الخلفية ومدت نفسها قليلاً لترى ما وراء انتشارها . ثم امتدت يد قوية هائلة باحثة في كيس ضخم ورمت بجفنات من البتلات في الهواء . أو هكذا بدا لها . فراشات . طريق مرتجف من الأجنحة ذات اللون الأصفر يمرّ عبر أعالي الأشجار الخضراء إلى الأبد . ثم يختفي .

فيما بعد ، وبينما هي جالسة في كرسي هزاز تحت تلك الأشجار ، مرّ هو . لم تكن قد رأته سابقاً ولم تستطع تمييز صفات أي أسرة محلية في ملامحه . في البداية ظنت أنه مينوس بن هاربر ، الذي كان يسكر وامتلك ذات مرة هذا المنزل . ولكن هذا الرجل كان يمشي باستقامة وبسرعة ، وكأنه متأخر عن موعده مستخدماً هذه الباحة كطريق مختصرة إلى مكان ما آخر . ربما سمع الصرخة الصغيرة لكرسيها الهزاز . ربما تساءل إن كان

تعديه على أملاك الغير آمناً . على أي حال ، حين التفت ورآها ابتسم ، ورفع كفه محيّياً .

هتف : « مساء الخير » .

غيّر اتجاهه واقترب من حيث كانت جالسة .

« أنت من هذه البلدة ؟ » .

« قريباً منها » . هكذا قال ولكنه لم يحرك شفتيه ليقول ذلك .

كان شعره في حاجة إلى قص .

« رأيت بعض الفراشات قبل فترة . هناك في الأعلى » . أشارت دافي بيدها . «لونها أحمر برتقالي . ومومضة . لم يسبق لي أن رأيت ذلك اللون سابقاً . إنه اللون الذي اعتدنا أن نسميه مرجانياً حين كنت صغيرة . لون اليقطين ، ولكنه أقوى » . تساءلت في ذلك الوقت عم كانت تتحدث عنه وكانت ستتوقف بلطف ـ ربما شيء يتعلق بالجو الحار ، ربما ، والراحة التي يجلبها المساء ـ باستثناء أنه بدا شديد الاهتمام فيما كانت تصفه . كان أوفروله نظيفاً ومكوياً منذ وقت قصير . كانت أكمام قميصه الأبيض مطوية فوق المرفقين . كانت ذراعاه بعضلات ملساء وجعلتاها تعي النظر في الانطباع الذي حصلت عليه من وجهه : أنه كان سيئ التغذية .

«لم يسبق أن رأيت فراشات كهذه ؟ » .

هزّ رأسه ولكنه كان يفكر بوضوح حول المسألة على نحو جدي بما فيه الكفاية ليقعي على كعبيه أمامها .

« لا تدعني أشغلك عن الاتجاه إلى المكان الذي كنت ذاهباً إليه . كان ذلك مجرد منظر رائع يا إلهي » .

ابتسم بتعاطف ونظر باتجاه المكان الذي كانت قد أشارت إليه . ثم

نهض ونفض مقعد أوفروله ، رغم أنه لم يكن قد جلس على العشب وقال : «هل الأمر على ما يرام لو مررت عبر هذا المكان ؟» .

«طبعاً . في أي وقت . لا أحد يعيش هنا الآن . الرجل الذي امتلكه خسره . جميل على أي حال ، أليس كذلك ؟ نحن نفكر في استخدامه بين الحين والآخر على الأرجح . زوجي...» كانت تثرثر ، كما عرفت ، ولكنه بدا مصغياً باهتمام ومنتبهاً إلى كل كلمة . وأخيراً توقفت ـ خجلة جداً من حماقتها في الاستمرار ـ وكررت دعوتها لاستخدام الطريق المختصرة كلما أراد .

شكرها وغادر الباحة ، متحركاً بسرعة بين الأشجار . راقبت دافي شخصه يذوب في قماش الظل الناعم الذي يغلف المنازل إلى ما وراء ذلك .

لم تر الأجنحة الصفراء ثانية أبدا . ولكنه عاد . بعد شهر من ذلك ، ثم لاحقاً كل شهر أو شهرين . كانت دافي تنسى دائماً أن تسأل ستيوارد أو أي شخص آخر ، عمن قد يكون ذلك الشخص . لقد أصبح تمييز الجيل الشاب أصعب ، وحين كان الأصدقاء أو الأقرباء يزورون روبي ، ما كانوا يحضرون الصلاة دائماً ، كما اعتاد الناس أن يفعلوا ، ثم يتم تقديمهم إلى أعضاء الأبرشية . لم تستطع أن تسأل عن عمره ولكنها افترضت أنه كان على الأقل أصغر منها بعشرين سنة ، وربما كان هذا لوحده قد جعلها تبقي زياراته سراً .

كان الأمر وما فيه أنها كانت تتكلم هراء كلما جاء . كانت تتكلم عن أمور لم تكن تعرف أنها موجودة في ذهنها . المسرات والمتاعب والأمور التي لا علاقة لها بقضايا العالم الجدية . ومع ذلك فقد كان يصغي باهتمام إلى كل ما كانت تقوله . وبسبب حدس لم تستطع تفسيره ، عرفت أنها لو سألته مرة عن اسمه ، فإنه لن يعود مرة أخرى .

أطعمته مرة شريحة من الخبز عليها زبدة التفاح وقد أكلها كلها .

بدأت تجد على نحو أكثر تكراراً أسباباً للبقاء في شارع سانت ماثيو . لم تكن تحمل أملا أو تقوم بالبحث ، ولكنها كانت راضية بأن تعرف أنه قد أتى وأنه سيأتي من ذاك الاتجاه ، لأجل ثرثرة أو لقمة طعام أو ماء بارد في عصر يوم قائظ . كان خوفها الوحيد أن يذكره شخص آخر ، أو يظهر في صحبته ، أو يعلن عن ادعاء مسبق بصداقته . لم يفعل أحد ذاك . بدا أنه يخصها لوحدها .

لذلك في أمسية الجدال مع الشبان في ماونت كالفاري ، أدخلت دافي المفتاح في قفل المنزل المرهون ، منزعجة من ستيوارد لأنه جعل الأمر ضرورياً ، ومهتاجة من المسار الكريه للاجتماع . أملت أن تجلس مع فنجان من الشاي الساخن وتقرأ بعض الأشعار أو تغضِب الجميع ، في حال مرّ «صديقها» في الصباح . لو فعل ، ستسأله عن رأيه . ولكنها كانت قد قررت ألا تشرب الشاي أو تقرأ ، وبعد أن تلت صلواتها ، صعدت إلى الفراش حيث صدّ السؤال الذي بقي دون جواب النوم عن عينيها : علاوة على التخلي عن ثروته ، أيمكن لرجل غني أن يكون رجلاً صالحاً ؟ ستسأل «صديقها» حول ذلك أيضاً .

والآن ، على الأقل ، وأخيراً ، فإن الباحة الخلفية كانت جميلة على نحو كاف لاستقباله . في الزيارة الأولى كانت في حالة من الفوضى ، دون رعاية ومليئة بالنفايات ـ مأوى القطط وحيات الحديقة والدجاجات التائهات ـ ليس فيها سوى الأجنحة المرجانية اللون لتوصي بها . كان عليها أن تصلح من شأنها بنفسها . لقد تهرب «ك . د .» وأعطاها أعذاراً لا يمكن تخيلها . وكان من الصعب الحصول على شبان صغار مهتمين بالأمر . اعتادت بيلي ديليا أن تكون مساعدتها ، وكان أمراً مفاجئاً لأن الفتيان كانوا مسيطرين

على عقلها وليس أي شيء آخر . إلا أن شيئاً ما كان خطأ في ذلك الأمر أيضاً . لم يرها أحد لبعض الوقت ، وكانت أم الفتاة «بات بست» ، قد أغلقت الباب أمام كل الأسئلة . ومع أنها لا تزال غاضبة ـ كما فكرت دافي ـ من معاملة البلدة لأبيها . ورغم أن بيلي ديليا لم تكن في الاجتماع ، إلا أن موقفها كان هناك . وحتى كفتاة صغيرة ، ببشرتها الغريبة السمراء الوردية وشعرها البني المسدل ، إلا أنها كانت تبوز شفتيها تجاه كل شيء : كل شيء ، ماعدا العناية بالحديقة . افتقدتها دافي وتساءلت ما رأي بيلي ديليا في تغيير رسالة «الفرن» .

«احذروا تغضينة جبينه ؟» «كونوا تغضينة جبينه ؟» كان رأيها أن تغضينة جبينه لوحدها كافية لأي عمر أو جيل . أما تحديد المسألة وتخصيصها وتثبيت معناها بالمسامير فكان أمراً لا طائل منه . التثبيت الوحيد بالمسامير المطلوب فعله كان قد سبق له أن تم . على الصليب . ألم يكن الأمر كذلك ؟ ستسأل «صديقها» . ثم ستقول لسوآن . في هذه الأثناء كان صوت الخرمشة قد ولّى وعند منحنى النوم عرفت أن البازلاء المحفوظة ستكون ملائمة تماماً .

*

أنزل ستيوارد النافذة وبصق بعناية حتى لا تعيد الريح البصقة إلى وجهه . كان مشمئزاً . «تهاون معي» . كان هذا الشعار الذي أراد أولئك الحمقى الشبان أن يكتبوه بالطلاء على «الفرن» . شأن ابن أخته «ك . د .» ، لم تكن لديهم أي فكرة عن الجهود التي بذلت لبناء هذه البلدة . ما الذي كانوا هم محميين منه . ما هي الإهانات التي لم يكن عليهم مواجهتها . قاد ـ كما دائماً ـ السيارة بأسرع ما يمكن على عادته حين

يصل إلى الطريق الريفي المؤدي إلى مزرعته ، فكر ستيوارد ملياً بالفرق بين «احذروا» و «كونوا» وكيف كان «بيغ بابا» سيشرحها . شخصياً ما كان ليهتم بالأمر إطلاقاً . لم تكن المسألة السبب في تغييره أو عدم تغييره ، ولكن ما كسبه القس ميسنر من طرح الفكرة . بصق مجدداً ، مفكراً كم أن ميسنر قد تكشف عن أحمق في النهاية . أحمق وربما خطر حتى . تساءل إن كان على ذلك الجيل ـ جيل ميسنر و«ك . د .» ـ أن يضحى به للوصول إلى الجيل التالي . الأحفاد وأولاد الأحفاد الممكن تدريبهم وشحذهم شأن ما فعله أبوه وجده بجيل ستيوارد . لا توقفات هناك . لا بناطيل فضفاضة للخياطة آنذاك . التوقعات كانت عالية وتحققت . لم يتحمل أي شخص المزيد من المسؤولية عن سلوكهم بالمقارنة مع أولئك الرجال الطيبين . تذكر رواية أخيه ، إلدر مورغان ، عن نزوله من السفينة القادمة من ليفربول في ميناء في ولاية نيوجيرزي . في عام (١٩١٩) . لقد تجول حول مدينة نيويورك قبل أن يركب القطار ، ورأى رجلين يتجادلان مع امرأة . قال إلدر إنه خمّن من ملابسها أنها بغيّ تتحرش بالرجال في الشوارع ، وبما أنه كان يحتقر مهنتها ، فقد شعر أولاً بصلة مع الرجلين الصائحين . وفجأة ضرب أحدهما المرأة بقوة على وجهها . سقطت أرضاً . وفجأة أيضا انزلق المشهد من اللون اليومي إلى الأسود والأبيض . قال إلدر إن فمه جف . التفت الرجلان بعيداً عن المرأة الزنجية المغمى عليها المتمددة على الرصيف . وقبل أن يستطيع إلدر التفكير ، غيّر أحدهم رأيه وعاد ليرفسها في المعدة . لم يعرف إلدر أنه كان يعدو حتى وصل إلى هناك وجذب الرجل بعيداً . كان قد سبق له وعدا وقاتل لعشرة أشهر متواصلة ، ولا يزال غير مفطوم عن العنف التلقائي . لكم إلدر الرجل الأبيض في فكه وظل يضربه حتى هاجمه الرجل الثاني . لم ينتصر أحد . الكل أصيبوا بالكدمات . كانت المرأة لاتزال

على الرصيف حين بدأ جمهور صغير بالصراخ منادياً الشرطة . عدا إلدر بعد أن شعر بالخوف وارتدى معطفه العسكري طول الطريق عائداً إلى أوكلاهوما خشية أن يرى أحد الضباط حالة بزته العسكرية . فيما بعد ، حين نظفت زوجته «سوزانا» البزة وكوتها وأصلحتها ، طلب منها إزالة الخيطان وأن تترك جيب الجاكيت خارج موضعه وقبة القميص ممزقة والأزرار معلقة أو مفقودة . كان الأوان قد فات على إنقاذ بقع الدم ، حين حشا منديله المدمى في جيب البنطال مع ميداليتيه . لم يغادر مشهد قبضة ذلك الرجل الأبيض في وجه المرأة الملونة ذاكرته أبداً . ومهما كان شعوره حيال مهنتها ، فقد فكر فيها ، وصلى لأجلها حتى نهاية حياته . تجادلت سوزانا معه مطولاً ، ولكن رجال مورغان انتصروا . دفن إلدر كما طلب : في البزة العسكرية الممزقة على نحو واضح . لم يغفر لنفسه أنه هرب متخلياً عن المرأة ، ولم يتوقع من الرب أن يتهاون معه لأجل ذلك . وكان مستعداً أن يسأله الرب كيف جرى الأمر . أحب سيتوارد تلك القصة ، ولكن كان يثير أعصابه أن يعرف أنها مبنية على الدفاع عن مومس والصلاة من أجلها . لم يتعاطف مع الرجلين الأبيضين ، ولكنه استطاع أن يرى وجهة نظرهم ، بل استطاع حتى أن يشعر بالأدرينالين ، ويتخيل أن القبضة كانت قبضته .

أوقف ستيوارد السيارة ودخل إلى المنزل . لم يكن تواقاً إلى السرير دون دافي تشاركه فيه وحاول مجدداً التفكير في حجة ليبقيها بعيداً عن المكوث في البلدة تلك المرات الكثيرة . سيكون ذلك دون جدوى . لم يكن يرفض لها طلباً . قابل الكلبين واصطحبهما ليرى كيف أدى العمال عملهم . كانوا رجالاً محليين يعرف هو زوجاتهم وآباءهم ، وكانوا يحضرون إلى الكنيسة المجاورة ويكرهون شأنه هو فكرة «التهاون» . ومجدداً صعدت المرارة . لو كان لديه أبناء لكانوا أمثلة ساطعة عن الاستقامة ، ويضحكون

من أفكار ميسنر عن الرجولة : الردود الوقحة وتغيير الاسم ، وكأن سحر الكلمة له علاقة بالشجاعة التي يتطلبها الرجل ليكون رجلاً .

ربط ستيوارد الكلبين وفتح مصراع حظيرة الحصان . كان يفضل أن يركب الساعة الرابعة صباحاً على «نايت» حتى شروق الشمس . أحب التجول في المراعي ، حيث كان كل شيء مفتوحاً . حين يجلس على صهوة «نايت» ، كان يكتشف في كل مرة الدهشة الطازجة إزاء معرفة أنه على أرضك ما كنت تستطيع أن تضل طريقك شأن ما حصل لـ«بيغ بابا» و«بيغ دادي» وكل التسعة والسبعين بعد مغادرة «فيرلي» في أوكلاهوما . كانوا راجلين وضائعين تماماً . وكانوا غاضبين . ولكنهم لم يخشوا أي شيء باستثناء حالة أقدام الأطفال . على العموم كانوا في حالة صحة جيدة . ولكن النساء الحوامل كن في حاجة إلى المزيد ثم المزيد من الراحة . كانت سلسته ، زوجة درام بلاكهورس ، وجدته الآنسة ميندي ، و«بك» وهي أمه ، كن جميعهن حوامل . كان من العار أن يرى المرء زوجته أو أخته أو ابنته يرفضن المأوى الذي آواهن ويغيرنه طوال الوقت . كان الذل يفعل أكثر من ملء القلب بالضغينة ، إذ كان يهدد بأن يهشم عظامهن .

تذكر ستيوارد كل تفاصيل من تفاصيل الحكاية التي رواها أبوه و جده ، ولم يكن يعاني من مشكلة تصور العار لنفسه . كانت دافي مثلاً ، قبل كل إجهاض ، ويدها مستريحة على الجزء الأصغر من ظهرها ، وعيناها ضيقتان ، تنظر إلى الداخل ، دائماً إلى الداخل نحو الطفل الذي في داخلها . كيف كان سيشعر لو أن بعض الرجال ذوي الألفاظ الرنانة المرتدين للياقات والأحذية الجيدة قالوا لها : «اخرجي من هنا» ، وهو ، ستيوارد ، ما كان يستطيع فعل شيء حيال ذلك ؟ حتى الآن ، في عام (١٩٧٣) وهو يركب حصانه على أرضه والريح الحرة تعصف بعرف «نايت» ، فإن فكرة ذلك

المستوى من العجز جعلته راغباً في قتل شخص ما . تسعة وسبعون . كانت كل ممتلكاتهم محزومة على ظهورهم أو موضوعة على رؤوسهم . كان الصغار يتبادلون الأحذية بين الحين والآخر . كانوا يتوقفون ليريحوا أنفسهم فحسب ، ليناموا ويأكلوا النفايات . نفايات ولحم مسلوق ، نفايات والهندباء البرية . يحلمون بسقف وسمك وأرز وشراب حلو . كانوا بملابس رثة مثل «مخلل الملفوف» ، كانوا يحلمون بملابس نظيفة ذات أزرار وقمصان بكمين . مشوا في صف طويل : «درام» و«توماس بلاكهورس» في المقدمة ، «بيغ بابا» ، الأعرج الآن ، كان محمولاً وهو جالس على لوح خشبي في المؤخرة . بعد «فيرلي» لم يعرفوا أي طريق يتخذون ولم يكونوا راغبين في مقابلة أي شخص قد يأمرهم أو يكون لديه شيء آخر في ذهنه . ابتعدوا عن طرق العربات وحاولوا البقاء أقرب إلى غابات الصنوبر ومجاري الأنهار ، متجهين شمالاً دون سبب محدد عدا أنه كان يبدو أبعد عن «فيرلي» .

في الليلة الثالثة أيقظ «بيغ بابا» ابنه «ركتور» ، وأشار إليه أن ينهض . متكئاً بثقل على عصاتين ، كان يتحرك مبتعداً عن المخيم ويهمس : «اتبعني ، أنت» .

عاد ركتور ليحضر قبعته وتبع خطوات أبيه البطيئة المؤلمة . فكر بانزعاج أن العجوز كان ذاهباً ليحاول الوصول إلى بلدة ما في منتصف الليل أو يتقدم بطلب إلى إحدى المزارع حيث كانت البيوت المعتمة معششة على رابية . ولكن «بيغ بابا» توغل به بعيداً في الغابة الصنوبرية حيث كانت رائحة الراتنج ، اللطيفة في البداية ، تسبب له الصداع لاحقاً . كانت السماء لامعة بالنجوم التي تجعل الهلال يبدو قزماً ، محولة إياه إلى ريشة ذات ظل . توقف «بيغ بابا» وبجهد مترع بالأنين ركع على الأرض .

قال : «أبي . زكاريا هنا» . بعد ثوان قليلة ساد صمت شامل ، فبدأ يهمهم أعذب الأصوات وأحزنها التي سبق لركتور أن سمعها . ركع ركتور إلى جانب «بيغ بابا» و بقي كذلك طوال الليل . لم يتجرأ على لمس العجوز أو التدخل في صلاته المهمهمة ، ولكن لم يستطع أن يستمر راكعا وجلس على وركيه ليريح الألم في ركبتيه . بعد برهة جلس ممسكاً بقبعته بيده ورأسه منحن ، محاولاً الإصغاء ، والبقاء يقظاً ، وليفهم . وأخيراً تمدد على ظهره وراقب النجوم تسير فوق الأشجار . ابتلعته الموسيقى الحزينة ، وشعر بنفسه يحلق فوق الأرض على ارتفاع عدة بوصات . وقد أقسم لاحقاً أنه لم ينم . وأنه خلال الليل طوله كان يصغي ويراقب . وإذ كان محاطاً بأشجار الصنوبر ، فقد أحس ولم ير بالأحرى السماء تبهت عند الأفق . آنذاك سمع وقع أقدام : كان قوياً كوقع أقدام مارد . أما «بيغ بابا» الذي لم يحرك عضلة أو يتوقف عن الغناء فصمت بسرعة . جلس ركتور في مكانه ونظر فيما حوله . كان وقع الخطوات كالرعد ولكنه لم يستطع أن يحدد من أي اتجاه كان يأتي . ومع توسع حاشية نور السماء ، استطاع أن يميز الصور الظلية لجذوع الأشجار .

شاهداه في وقت واحد . كان رجلا ضئيلا الحجم كما يبدو ، ضئيلا جداً بالمقارنة مع وقع خطواته ، كان يمشي مبتعداً عنهما ، مرتدياً بزة سوداء ، والجاكيت محمولة فوق كتفه بسبابة يده اليمنى ، التمع قميصه بلون أبيض بين حمالات بنطال عريضة . ودون مساعدة العصا ودون أنين ، نهض «بيغ بابا» . ومعاً راحا يراقبان الرجل يمشي مبتعداً عن أكثر أجزاء السماء شحوباً . تمهل لمرة واحدة ليلتفت وينظر إليهما ، ولكنهما لم يستطيعا أن يريا ملامح وجهه . حين بدأ يمشي مجدداً ، لاحظا أن هناك حقيبة مدرسية في يده اليسرى .

قال «بيغ بابا» : «اركض . اجمع الناس» .

قال ركتور : «لا تستطيع البقاء هنا وحيداً» .

«اركض!» .

وفعل ركتور .

حين استيقظ الجميع ، قادهم ركتور إلى حيث أنفق هو و«بيغ بابا» الليل . وجداه هناك ، واقفاً منتصباً أكثر من أشجار الصنوبر ، بينما رمى بعصاتيه بعيداً ، وظهره نحو الشمس المشرقة . لم يكن الراجل الماشي مرئياً ، ولكن السلام الذي غسل وجه زكاريا انتشر إلى أرواحهم ، فهدأ من روعهم .

قال زكاريا : «إنه معنا . إنه يقود الطريق» .

ومنذ ذلك الحين ، كانت الرحلة هادفة ، خالية من أي تذمر كان . بين الحين والآخر كان الرجل الماشي يظهر : على امتداد حوض نهر ، عند منحنى جبل ، مستنداً على تشكيل صخري ، مرة واحدة فقط استجمع شخص ما شجاعته ليسأل «بيغ بابا» كم سيطول الأمر بعد .

أجاب : «هذا زمن الرب . لا يمكنك البدء به ولا يمكنك إيقافه . وهناك أمر آخر . لن يقوم بعملك بدلاً عنك ، لذا عليك أن تخطو بحيوية» .

إن كان وقع الخطوات العالي قد استمر ، فهم ما كانوا يسمعونه . لم ير أحد الرجل الماشي سوى زكاريا وأحياناً طفل من الأطفال . لم يره ركتور مرة أخرى إلا في النهاية . لاحقا ، بعد تسعة وعشرين يوماً . بعد أن تم تحذيره بطلقة بندقية وعرضت عليه بعض النسوة السوداوات الطعام في حقل من الحقول ، وبعد أن سرق منهم راعيا بقر بنادقهم ـ ولم يقلق سلامهم أي من هذه الأمور ـ عندها رآه ركتور وأبوه كلاهما .

كان الشهر هو أيلول . وأي مسافرين آخرين كانوا سيحذرون من دخول المنطقة الهندية دون هدف معين والشتاء على الأبواب . ولكن لو شعروا بالقلق ، فلم يكن ذلك ظاهراً عليهم . كان ركتور مستلقياً ضمن عشب طويل ، منتظراً أن يقفز شرك مرتجل ـ أرنب ، كما كان يأمل ، أو خنزير أرض أو سنجاب حتى ـ حين رأى أمامه ، عبر فرجة في العشب ، الرجل الماشي واقفاً يتطلع حوله . ثم أقعى الرجل وفتح حقيبته وبدأ يعبث بمحتوياتها . راقبه ركتور لفترة ، ثم زحف إلى الخلف عبر الأعشاب قبل أن يقفز ويعدو عائداً إلى موقع المخيم حيث كان «بيغ بابا» ينهي فطوراً بارداً ، وصف ركتور ما رأى واتجه الاثنان نحو المكان حيث كان الشرك منصوباً ، كان الرجل الماشي ما يزال هناك ، يرفع أشياء من حقيبته ويضع أخرى ، حتى وهما يراقبان ، بدأ الرجل يتلاشى . حين اختفى نهائياً ، سمعا وقع الخطوات مجدداً وهي تقرع باتجاه لم يستطيعا تحديده : في الخلف ، إلى اليسار ، والآن إلى اليمين ، أو هل كان فوق رؤوسهم ؟ ثم هدأ الصوت تماماً وفجأة . زحف ركتور إلى الأمام . كان «بيغ بابا» يزحف أيضاً ، ليرى ما الذي خلفه وراءه الرجل الماشي . وقبل أن يتحركا مسافة ثلاثة ياردات سمعا صوتاً في العشب . هناك في الشرك ، والطعم والخيط مازالا غير ملموسين ، شاهدا ديكاً حبشياً ، له ريش رائع . تبادلا النظر ثم تركاه هناك وانتقلا إلى البقعة التي اعتقدا أن الماشي نشر فيها أشياء أخذها من حقيبته . لم يشاهدا شيئاً . كان هناك مجرد آثار دوس على العشب . انحنى «بيغ بابا» ليلمسها . ضغط بيده على العشب المداس ، ثم أغمض عينيه .

قال : «هنا . هذا مكاننا» .

حسناً ، لم يكن كذلك بالطبع . ليس بعد على أي حال . فالمكان كان يخص أسرة من هنود الولاية ، وقد استغرق الأمر سنة وأربعة أشهر من

المفاوضات ، والعمل كأجراء في الأراضي ، ليتمكنوا من الحصول عليها خالية وجاهزة . القدوم من مكان غني بالنباتات إلى فراغ واسع قد جعلهم يشعرون بالصغار حين رأوا من السماء أكثر ممّا رأوا من الأرض ، العشب يصل إلى أوراكهم . بالنسبة للآباء القدماء كان ذلك علامة على الفخامة : الكثير من الروح والاعتبار الذي هو حرية دون حدود ودون غابات عميقة متوعدة يمكن للأعداء الاختباء فيها . هنا لم تكن الحرية تسلية ، مثل كرنفال أو رقصة مرحة تستطيع الاعتماد عليهما مرة في السنة . ولم تكن تلك بقايا موائد أصحاب الحقوق . هنا الحرية كانت اختباراً يديره العالم الطبيعي الذي على المرء أن يتخذه لنفسه كل يوم . ولو مرّ عبر تجارب كافية لفترة كافية ، لكان ملكا .

ربما لم يرد زكاريا أبداً أن يأكل أرنباً مشوياً على عود أو لحم بافالو باردا . وربما ، بعد أن طرد من منصبه من قبل البيض ، رفض هو منزلاً قدمه الملونون ، وأراد أن يكون له شيء ثابت دائم في تلك الأرض المفتوحة يختلف تماماً عن لويزيانا . وعلى أي حال ، وبينما أقاموا مقراً مؤقتاً ـ أكواخاً منحدرة السطح ومخابئ ـ وحملوا الخشب في عربة ذات حصانين أعارها إياهم هنود الولاية ، جعل زكاريا بعض الرجال يعمرون فرناً للطبخ . كانوا فخورين أن أياً من نسائهم لم يسبق لها أن عملت في مطبخ رجل أبيض أو أرضعت طفلاً أبيض . ورغم أن العمل في الحقول كان أصعب ولا يحمل أي صفة ، فقد اعتقدوا بأن اغتصاب النساء اللواتي عملن في مطابخ البيض كان إمكانية جلية إن لم يكن أمراً أكيداً ، وما كانوا قادرين على تحمل التفكير في أي منهما . لذا استبدلوا بذلك الخطر السلامة النسبية للعمل الوحشي . كان هذا التفكير هو الذي جعل «المطبخ» الجماعي مقبولاً جداً . كانوا استثنائيين . لقد خدموا وحفروا وفلحوا وتاجروا في لويزيانا

منذ عام (١٧٥٥) ، حن كانت تشمل الميسيسبي . ثم قسمت إلى ولايات ساعدوا هم على حكمها من (١٨٦٨) إلى (١٨٧٥) ، وبعد ذلك جعلوهم يعملون كأجراء في الحقول . لقد حافظوا على فروجهم خصبة لأكثر من مائتي سنة . لم ينكر أحدهم شيئاً على الآخر ، ولم ينحن لأحد ، بل لخالقهم فقط . والآن ، وهو يتذكر حيواتهم وأعمالهم ، فإن ستيوارد يشعر بالاستقرار ، وبأن تصميمه ثابت . تخيل ، كما فكر هو ، كيف سيكون رأي «بيغ بابا» أو «درام بلاكهورس» أو «جوفينال دوبري» بتلك الجراء التي تريد تغيير الكلمات المصنوعة من الحديد المضروب .

لم تكن الشمس ستشرق قبل فترة أخرى من الزمن ولم يستطع ستيوارد الركوب بعد ذلك . لذا حث نايت على الالتفات واتجه نحو المنزل ، مفكراً بشيء ما آخر يقوله أو يفعله ليبقي دافي بعيداً عن إنفاق الليالي في البلدة . النوم دون أن يكون عطر شعرها إلى القرب منه أمر مستحيل .

*

في اللحظة نفسها ، قبل نور الصباح ، كانت سوآن واقفة في مطبخ أكبر منزل في روبي ، تهمس في العتمة خارج النافذة .

«انتبه أيها السُمان ، «ديك» سيطاردك بالبندقية . وحين يعود سيرمي بكيس مليء بك على أرضية منزلي النظيفة ويقول شيئاً مثل : «هذا للعشاء» إنه فخور . لكأنه يعطيني هدية . كأنما سبق لك أن نُتف ريشك ونُظفت وطُبخت» .

ولأن المطبخ كان مناراً بأنوار النيون المركبة حديثاً ، لم تستطع سوآن أن ترى إلى الخارج وهي تنتظر الإبريق حتى يغلي . أرادت أن يكون شرابها المقوي منقوعاً على النحو الملائم قبل عودة زوجها . كان أحد مستحضرات

« كوني » موجوداً عند بنانها ، كيس قماشي صغير مطوي في باكيت ورقي مشمع . محتوياته يمثل المرة الثانية التي أنقذتها بها « كوني » . كانت المرة الأولى خطأ رهيباً . لا ، ليس خطأ ، بل خطيئة .

ظنت أن الليل انتصف حين انسلّ ديك من الفراش ولبس ملابس الصيد . ولكن حين زحف إلى الطابق السفلي في جواربه ، نظرت إلى الساعة المضيئة فكانت (٣,٣٠) . ساعتان أخريان من النوم ، كما فكرت ، ولكنها استيقظت في السادسة صباحاً وكان عليها أن تسرع . تناولت الإفطار وارتدت ملابس العمل . قبل ذلك على أي حال تناولت شرابها المقوي ـ المطلوب جداً الآن لأن الهواء كان قد أصبح رقيقا مجدداً . لقد بدأ يرق ، ربما من كثرة الارتداء ، وليس حين قتل سكاوت ، بل بعد أسبوعين ـ وحتى قبل أن يشحن جثمان سكاوت ـ حين أُبلغوا أن إيستر قد قتل أيضاً . مجرد طفلين . أحدهما في التاسعة عشرة والآخر في الواحدة والعشرين . كم كانت فخورة وسعيدة حين تطوعا . كانت قد شجعتهما بفعالية على ذلك . فقد خدم أبوهما في الأربعينات . عاد جف فليتوود من فيتنام على أي حال . ورغم أنه بدا مهزوزاً قليلاً ، فإن مينوس جوري عاد حياً . وكحمقاء اعتقدت أن ابنيها سيكونان سالمين . أسلم من أي مكان آخر في أوكلاهوما خارج روبي . أسلم في الجيش من أن يكون في تشيكاغو ، حيث أراد إيستر أن يذهب . أسلم من برمينغهام ، من مونتغومري ، سلما ، واتس . أسلم من موني ، ميسيسبي ؛ في عام (١٩٥٥) وجاكسون ، ميسيسبي في عام (١٩٦٣) . أسلم من نيوآرك ، ديترويت ، أو واشنطن دي سي . كانت تظن الحرب أسلم من أي مدينة في الولايات المتحدة . والآن لديها أربع رسائل غير مفتوحة أرسلت بالبريد في عام (١٩٦٨) وسلمت إلى مركز بريد «دمبي» بعد أربعة أيام من دفنها آخر أبنائها . لم تستطع فتحها . كلاهما عادا إلى البيت في

إجازة في عيد يوم الشكر في (١٩٦٨) . بعد سبعة أشهر من اغتيال « كينغ »
[مارتن لوثر كينغ] ، بكت سوآن كالتائبات حين رأت ابنيها حيين كلاهما .
كان ولداها الملونان الحلوان سالمين من الإصابة بالرصاص ، أو الشنق أو
الإيذاء أو السجن . صرخت وهما يخرجان من السيارة « الصلاة تنفع » .
كانت تلك آخر مرة تراهما فيها كاملين . كانت كوني قد باعتها من جوز
البيكان بقشره كمية كافية لصنع فطيرتين لعيد « يوم الشكر » . كانت هناك
في ذلك اليوم فتاة تعطلت سيارتها ، ورغم أن سوآن اصطحبتها في سيارتها
لشراء البنزين الذي كانت في حاجة إليه لتذهب إلى حيث كانت متجهة ، إلا
أن الفتاة بقيت . ومع ذلك ، لابد أنها ذهبت إلى مكان ما قبل وفاة « الأم » ،
وإلا فإن كوني ما كانت ستحتاج إلى إشعال نار في الحقول . ما كان أحد
سيعرف لولا ريشة الدخان الأسود . رأته آنا فلود ، فذهبت بسيارتها
وجاءت بالخبر .

كان على سوآن أن تسرع أيضاً في ذلك الحين . تحدثت مع روجر
وذهبت إلى المصرف لتهتف إلى غرباء هناك في الشمال ، وجمعت الطعام
من الجارات وطبخت بعض الأشياء هي بنفسها . وقامت هي و دافي وآنا
بحمل الطعام إلى هناك ، عارفات جيداً أنه لم يكن هناك شخص يأكله
سواهن . السرعة . السرعة آنذاك ، لأن الجثمان يجب أن ينقل بسرعة إلى
الشمال ، في الثلج . بدت كوني غريبة ، محطمة نوعاً ما وأضافتها سوآن
على لائحة الناس الذين يقلقون حياتها . « ك . د . » مثلاً . وآرنيت .
وسويتي . والآن موقع الفرن كان في ذهنها . لقد بدأ عدد قليل من الشبان
بالتجمع هناك مع جعة عيار (٣,٢) ، كما يقول الناس ، والأطفال الصغار
الذين كانوا يحبون أن يلعبوا هناك قد أمروا بالذهاب إلى منازلهم . أو هذا
ما قالته أمهاتهم . ثم وجد عدد قليل من الفتيات (ظنت سوآن أنهن في

حاجة إلى الصفع) وجدن سبباً للبقاء هنا . كما اعتادت آرنيت وبيلي ديليا .

قال الناس إن هؤلاء الشبان في حاجة إلى أن يفعلوا شيئاً ما . ولكن سوآن ، العارفة أنه لم يكن هناك الكثير ليقوموا به ، لم تصدق أن هذا هو الأمر . كان هناك شيء ما يجري . شيء عدا القبضة السوداء القاتمة بأظافر حمراء المطلية على الجدار الخلفي لـ«الفرن» . لم يدّع أحد المسؤولية ، ولكن ما كان مسبباً للمزيد من الصدمة أكثر من الإنكار الجماعي كان رفض محوها . قال المتسكعون لا ، هم لم يضعوها هناك ، ولا ، إنهم لن يمحوها . ورغم أن كيت غولايتلي وآنا فلود ، مع «بريلو» ومخفف طلاء ودلو من الماء الساخن بالصابون ، محونها في النهاية ، فقد مرت خمسة أيام ، وخلالها كان قادة المدينة الغاضبون قد منعوا أي شخص عدا المتسكعين من إزالتها . الأصابع المنقبضة ، حمراء البنان والمندفعة جانباً وليس إلى الأعلى ، كانت تؤذي أكثر من ضربة وتدوم أكثر . كانت تعطي ألماً ملحاً كريهاً ما كان لعمليات الكشط التي قامت بها كيت وآنا أن تمحوه . لم تستطع سوآن أن تفهم . لم يكن هناك أشخاص بيض (أخلاقيون أو شريرون) في الجوار ليحرضوهم أو يحثوهم على تشويه «الفرن» وتحدي الراشدين . في الواقع ، كان السكان المحليون يضاربون ، وكانوا يكسبون منذ أكثر من عقد ؛ دولارات جيدة لقاء لحم العجل والقمح وحقوق الغاز المبيعة ومشتريات وقود النفط ودعم المضاربة . ولكن خلال الحرب ، وبينما ازدهرت روبي ، كان الغضب يصيب بالعدوى أماكن أخرى . «زمن شرير» كما قال القس بوليام من منبر «نيو تسيون» . «الأيام الأخيرة» كما قال القس باستور كاري في كنيسة «هولي ريديمر» . لم يقل أي شيء في كالفاري على الفور لأن تلك الأبرشية كانت مازالت في انتظار الواعظ

الجديد ، الذي ، حين وصل أخيراً في عام (١٩٧٠) ، قال : «أخبار طيبة» : «سأهزم أعداءك أمام عينيك» هكذا قال الرب ، الرب ، الرب .

جرى هذا قبل ثلاث سنوات . نحن الآن في عام (١٩٧٣) . ابنتها الصغيرة ـ أليس كذلك ؟ ـ كانت ستبلغ التاسعة عشرة الآن لو لم تذهب سوآن إلى الدير للمساعدة التي كانت الخطيئة في حاجة إليها دائماً . بعد ذلك بوقت قصير ، وبينما هي واقفة عند حبل الغسيل ، تناضل ضد الريح لتثبت الشراشف ، رفعت سوآن نظرها لترى سيدة في الباحة وهي تبتسم . كانت ترتدي ثوباً صوفياً بني اللون وقبعة قديمة الطراز من الكتان الأبيض وتحمل سلة كبيرة . حين لوحت السيدة ، ردت سوآن على تحية المرأة الغريبة بأفضل ما تستطيعه وفمها مليء بملاقط الغسيل : إيماءة برأسها أملت في أن تكون لطيفة . التفتت السيدة وتابعت تحركها . لاحظت سوآن شيئين : كانت السلة فارغة ولكن السيدة كانت تحملها بيديها الاثنتين كأنها مليئة ، وهذا كان إشارة إلى ما قد سيأتي ، فراغ سيكون ذا ثقل كبير ، غياب ثقيل جداً على الحمل . وعرفت من أرسل السيدة ليبلغها بذلك .

قاطع أزيز البخار «لائحة وجبات» الندم و صبت سوآن الماء الساخن في فنجان فوق الكيس الصغير من الموسلين . وضعت صحناً فوق الفنجان وتركت الدواء للنقع .

ربما كان عليها أن تعود إلى الطريقة التي كانوا يقومون بها حين كان أطفالها صغاراً . حين كان الجميع مشغولين جداً بالبناء والتخزين والحصاد فلا وقت لديهم للعراك مع الشر أو حتى التفكير به . هكذا كانت الأمور قبل اكتمال «ماونت كالفاري» . حينها أجريت طقوس العماد في ماء عذب . طقوس عمادة جميلة . طقوس عمادة تحطم القلب ، مليئة بالموسيقى

والبكاء والإثارة لكون المرء آمناً في النهاية . حين كان القس يحمل البنات بين ذراعيه ثم ينزلهن واحدة إثر الأخرى في الماء المقدس مؤخراً ، دون أن يتركهن . كان الآخرون يراقبون وقد حبسوا أنفاسهم . وكانت البنات يخرجن من الماء مبهورات الأنفاس ، كل بدورها . كانت أثوابهن البيضاء المبللة تنتفخ في الماء الذي تنيره الشمس . الماء ينزل في جداول من الشعر والوجه وهن ينظرن إلى السماء قبل أن يحنين رؤوسهن للأمر . «امضي الآن» ثم منح الثقة : «يا ابنتي أنت قد نجوت» . كانت اللهجة كأرق ما يكون حين كانت تضرب الماء المقدس ، ولكنها تتضاعف ثم تتضاعف ثلاث مرات . ثم كانت الأصوات الأخرى من حناجر أخرى تأتي وتسير مع الأولى . كانت طيور الأشجار تصمت وتحاول أن تتعلم . ببطء ، عندها ، وكل واحد يده في يد الآخر ، والرؤوس على الأكتاف الداعمة ، كانت المباركات والناجيات قد خضن في الماء إلى الضفاف وشققن طريقهن نحو «الفرن» . وهناك كن يجففن أنفسهن ويتعانقن ويهنئن الواحدة الأخرى .

والآن كان لكالفاري بركة داخلية . كان لنيوتسيون وهولي ريديمر أوعية خاصة لتنقيط بعض الماء على رأس منتصبة .

دون طقوس العماد ما كان لـ«الفرن» قيمة حقيقية . ما كان مطلوباً في أيام «هايفن» القديمة لم يكن مطلوباً أبداً في روبي . الشاحنات التي وصلوا بها جلبت مواقد الطبخ أيضاً . اللحم الذي كانوا يتناولونه كان يقوقئ في باحات الدور ، أو يسقط على ركبتيه تحت قدوم ، أو يزعق من شق في حنجرته . وخلافاً لبدايات هايفن ، حين تأسست روبي ، كانت الطرائد طرائد . كانت النساء يومئن برؤوسهن حين فكك الرجال «الفرن» ، حزموه ونقلوه وأعادوا تجميعه . ولكنهم كرهوا بينهم وبين أنفسهم المساحة التي منحت له في الشاحنة : بدلا عن أن يكون محله بالأحرى المزيد من أكياس

البذور أو الخنانيص أو حتى مهد طفل . كما كرهوا أيضاً الساعات التي أنفقت على إعادة تجميعه ، ساعات كان يمكن إنفاقها على تركيب باب خصوصي على نحو أسرع . ولو كانت اللوحة هامة إلى هذا الحد ـ وذلك إذا حكمت اعتمادا على ذلك الجزء من الاجتماع الذي شهدته ـ وقد افترضت هي ذلك ، فلماذا لم ينزعوها ويتركوا الآجرات حيث كانت منتصبة منذ خمسين سنة ؟

أوه ، كم أحب الرجال إعادة تركيبه كما كان ، وكم كانوا فخورين بذلك ومكرسين له . أمر جيد ، كما فكرت ، ولكن الأمر أصبح مبالغاً فيه . أصبح مرفق من المرافق معبداً (يتم التحذير عنه ليس فقط في «سفر التثنية» ، المخيف ولكن في «الكورنثيين ٢» أيضا) ، وكأي شيء يزعج الرب ، كان هذا يدمر ذاته . لا أحد في حال أفضل ليوضح الأمر أكثر من الشبان المتمردين الذين حولوه إلى نوع مختلف من الأفران . إلى فرن يكون فيه اللحم الآخذ بالدفء لحم بشري .

حين طلب رويال والشخصان الآخران : دستري وإحدى بنات دوبري إجراء اجتماع ، تم الاتفاق بسرعة عليه . ما كان أحد قد طلب اجتماعاً للبلدة منذ سنين . ظن الجميع ، بمن فيهم سوآن ودافي أن الشبان سيعتذرون أولاً عن سلوكهم ثم سيتعهدون بتنظيف الموقع وصيانته . وبدلاً عن ذلك جاؤوا بخطة تخصهم هم . خطة تكمل ما بدأته «القبضة» . جلس رويال ، المسمى «روي» أيضاً ، وألقى دون ورقة ، خطاباً كاملاً من كل النواحي عدا إمكانية الفهم . لم يعرف أحد ما كان يتحدث عنه والأجزاء التي كان ممكناً فهمها كانت حماقة تامة . قال إنهم «دقة قديمة» . وأن الأمور تغيرت في كل مكان إلاّ في روبي . لقد أراد أن يعطي «الفرن» اسماً ، أن تعقد الاجتماعات هناك للتحدث عن مقدار وسامتهم وهم يعطون أنفسهم

أسماء قبيحة . أسماء ليست أمريكية بل أفريقية . كل ما كانت سوآن تعرفه عن أفريقيا كان الخمسة والسبعون سنتاً التي منحتها إلى صندوق تبرعات الجمعية التبشيرية . كان لديها المستوى نفسه من الاهتمام في الأفريقيين كما كان لهؤلاء فيها . لا اهتمام . ولكن روي كان يتحدث عنهم كأنهم جيرانه ، بل وحتى أسوأ من هذا ، كأنهم أسرته . وقد تحدث عن البيض كأنه قد اكتشفهم للتو وبدا أنه يفكر في أن ما سمعه كان خبراً فحسب .

ومع ذلك فقد كان هناك المزيد وأمور أخرى في خطابه . ليس الكثير مما يمكن الموافقة عليه أو مخالفته ، ولكن نوعاً من التهمة المجنحة ضد البيض ، أجل ، ولكن أيضاً ضدهم هم ـ سكان البلدة الذين كانوا يستمعون ، آباؤهم وأجدادهم ، سكان بلدة روبي . وكأنما كانت هناك طريقة جديدة وأكثر رجولية للتعامل مع البيض . ليس حسب طريقة بلاكهورس أو مورغان ، ولكن على نمط أفريقي ما مليء بالكلمات الجديدة ، ومجموعات لونية جديدة و قصات شعر جديدة . كان يقترح بأن التفوق على البيض بالجملة كان أمراً جباناً . وأن يجب أن تتم مخاطبتهم ورفضهم و مواجهتهم . ولأن الطريقة القديمة كانت بطيئة ، مقصورة على القلة القليلة ، وضعيفة أيضاً . هذه التهمة الأخيرة جعلت عنق ديك ينتفخ وجعلته في أحد أيام الأسبوع ينسف أدمغة طيور السمّان ليمنع دماغه هو من الانفجار .

سيدخل حاملاً حقيبته ملأى بها في أي دقيقة الآن ، ولاحقاً ستقوم سوآن بتقديم طبق من لحمها الطري المسمرّ في أنصاف . لذلك فكرت بالأرز أو البطاطا الحلوة كمحتوى لفنجانها المنقوع . حين ازدردت آخر نقطة ، فتح الباب الخلفي .

«ما هذا ؟» .

كانت تحب رائحته . رائحة مبللة بالريح ومشبعة بأريج الأعشاب .

«لاشيء» .

رمى ديك بحقيبته على الأرض . «أعطني بعضاً منه ، إذن» .

«هيا يا ديك . كم واحدا ؟» .

«اثنا عشر . أعطيت ستاً لسارجنت» . جلس ديك قبل أن يخلع جاكتته وراح يفك شرائط جزمته . «ما يكفي لعشائين» .

«هل ذهب «ك . د .» معك ؟» .

«لا . لماذا ؟» نخر وهو يبذل جهدا ليخلع الجزمة .

حملت سوآن الجزمة ووضعتها في الرواق الخلفي . «من الصعب إيجاده هذه الأيام . إنه يخطط لشيء ما . أراهن على ذلك» .

«هل لديك قهوة جاهزة ؟ ما هو ذاك الشيء ؟» .

اشتمت سوآن الهواء المعتم ، مختبرة ثقله ، قبل أن تغلق الباب . «لا يمكنك أن تعرف بالضبط . ولكن لديه أسباب كثيرة ليرتدي حذاء رقيقاً» .

«يطارد الأقفية كما أتوقع . أتذكرين تلك الفتاة التي جرت نفسها ببطء في البلدة قبل مدة من الزمن وذهبت لتمكث في الدير ؟» .

التفتت سوآن إليه ، وإبريق القهوة عند صدرها وهي ترفع الغطاء . «لماذا تقول جرت نفسها ببطء ؟» «لماذا تقول «جرت نفسها ببطء» بتلك اللهجة ؟ هل رأيتها ؟» .

«لا ، ولكن رآها أناس آخرون» .

«ثم ؟» .

تثاءب ديك . «وثم لاشيء . قهوة يا حبيبتي . قهوة . قهوة» .

«إذن لا تقل : «جرت نفسها ببطء»» .

«حسناً . حسناً . لم تجر نفسها» . ضحك ديك وهو يسقط ملابسه الخارجية على الأرض . «لقد طفت» .

«ما الخطأ في الخزانة يا ديك ؟» نظرت سوآن إلى البنطال المضاد للماء والجاكيت الأسود والأحمر وقميص الفانيلا . «وما الذي من المفروض أن يعنيه هذا ؟» .

«سمعت أن حذاءها له كعب بارتفاع ستة بوصات» .

«أنت تكذب» .

«وأطير» .

«حسناً . إن كانت لا تزال في «الدير» ، فلابد أنها على ما يرام» .

مسّد ديك أصابع قدميه . «أنت مجرد منحازة لأولئك النسوة هناك في البعيد . لو كنت مكانك لكنت حريصاً . كم عددهن الآن ؟ أربعة ؟» .

«ثلاثة . لقد ماتت السيدة العجوز ؟ ألا تذكر ؟» .

حدق ديك إليها ثم نظر بعيداً . «أي سيدة عجوز ؟» .

«الأم الرئيسة . من تظن ؟» .

«أوه ، حسناً . أجل» . تابع ديك محركاً الدم في قدميه . ثم ضحك . «أول مرة يضطر فيها روجر إلى استخدام سيارته الكبيرة الجديدة «الفان»» .

«سيارة الإسعاف» . قالت سوآن وهي تجمع ثيابه .

«لقد دفع ثلاث دفعات في اليوم التالي . آمل أن يستطيع متابعة دفع الباقي . لا يوجد هنا ما يكفي من أعمال المستشفى والجنائز ليبرر تلك العربة ذات السعر الباهظ التي اشتراها» .

كانت رائحة القهوة قد بدأت ، وفرك ديك كفيه .

«هل يؤلم ؟» سألت سوآن .

«ليس بعد . ولكن بما أن رزقه يعتمد على المرضى والموتى ، سرعان ما يصبح مفلساً» .

«ديك!» .

«لم نستطع أن نفعل شيئاً لعيناً لأولادي . لقد دُفنا في كيسين كالقطط» .

«كانت لهما تابوتان جميلان! جميلان!» .

«أجل ، ولكن في الداخل...» .

«توقف يا ديك . لماذا لا تتوقف ؟» لمست سوآن حنجرتها .

«أعتقد أنه سينجح . لو ذهبت قبله . وفي مثل هذه الحالة ، حسناً ، أنت تعرفين ما عليك أن تفعليه . لا أتصور الركوب في تلك السيارة «الفان» بأي حال ، ولكني أريد تابوتاً من أفضل نوع ، لذا سيكون الأمر جميلاً . «فليت» هو الشخص الواقع في مشكلة» . وقف عند المغسلة وغسل يديه بالصابون .

«أنت تستمر في قول هذا . كيف ؟» .

«طلب بالبريد» .

«ماذا ؟» صبت سوآن القهوة في فنجان أزرق كبير كان زوجها يفضله .

«أنتم جميعاً تذهبون إلى «دمبي» ، أليس كذلك ؟ حين تريدون آلة تحميص أو مكواة كهربانية تطلبونها من الكاتالوغ وتذهبون إلى هناك لإحضارها . أين دوره هو ؟» .

«ليس لدى فليت الكثير في متناول يده أبداً ، وما الذي كان هناك لوقت طويل . ذلك الكرسي في غرفة الجلوس غير لونه ثلاث مرات وهو قابع في الواجهة» .

«لهذا السبب . إذا لم يكن قادراً على نقل المخزون القديم ، لا يستطيع شراء الجديد» .

«كان عمله جيداً» .

صب ديك قليلاً من القهوة في الصحن . «قبل عشر سنوات . خمس سنوات» . البركة الداكنة تموجت تحت أنفاسه . «الفتيان العائدون من فيتنام يتزوجون ويستقرون . أموال الحرب . المزارع تؤدي جيداً . كل فرد يؤدي جيداً» . راح يرشف من حافة الصحن ويتنهد من المتعة . «والآن ، حسناً...» .

«لا أفهم يا ديك» .

«أنا أفهم» . ابتسم لها . «لا حاجة بك إلى ذلك» .

لم تكن تعني أنها لم تفهم ما كان يتحدث عنه . كانت تعني أنها لم تفهم لماذا لم يكن قلقاً بما فيه الكفاية حول مشاكل أصدقائه المالية بحيث يساعدهم . لماذا مثلاً لم يستطع مينوس أن يحافظ على المنزل الذي اشتراه ؟ ولكن سوآن لم تحاول الشرح . لقد نظرت عن كثب إلى وجهه . صقيل . لا يزال وسيماً بعد ستة وعشرين عاماً ومضيئاً الآن من الرضا . لقد صاد جيداً هذا الصباح مما أشعره بالاستقرار وأعاد الأمور إلى حيث يجب أن تكون . القهوة لها اللون الصحيح . درجة الحرارة الصحيحة . وفي وقت لاحق اليوم ، فإن السمّانيات دون أدمغتها ستذوب في فمه .

*

في كل يوم يسمح الطقس به ، كان ديكون مورغان يقود سيارته السوداء اللامعة مسافة ثلاثة أرباع الميل . ومن منزله في شارع سانت جون كان يلتف إلى اليمين عند الزاوية نحو الشارع المركزي ، يمر بشوارع لوك ومارك وماثيو ، ثم يوقف السيارة بأناقة أمام المصرف . حماقة القيادة إلى حيث يستطيع أن يمشي في وقت أقصر من الوقت الذي يستغرقه تدخين سيجار واحد ، هي حماقة تزول حسب رأيه بثقل الإيماءة . كانت سيارته

كبيرة وكل ما كان يفعله فيها كان بقوة الأحصنة ويستحق التعليق : كيف يغسلها ويشمعها بنفسه : لايدع «ك . د .» أو أي من الشباب المغامرين يلمسونها . كيف كان يمضغ التبغ فيها ولا يشعل السيجار فيها ، كيف لم يكن يتكئ عليها ، ولكن لو أجريت حواراً معه ، وهو واقف إلى القرب منها ، كان يمشط سقفها بأظافره ، ويكشط النقاط التي لا يراها سواه ، ويمسح بقعاً لا يراه سواه بمنديل الجيب خاصته . كان يضحك مع أصدقائه على غروره ، لأنه كان يعرف أن استمتاعهم بضعفه كان يتماشى مع خشيتهم : الطريقة السحرية التي كان يقوم فيها (وتوأمه) بتكديس النقود . حكمته النبوية . ذاكرته الشاملة . وكانت أقوى ذكرياته هي أقدمها .

قبل اثنتين وأربعين سنة كان قد قاتل لأجل حيّز ليده في النافذة الخلفية من سيارة «بيغ دادي» مورغان موديل «تي» ، حيز يستطيع منه أن يلوح بيده مودعاً أمه وأخته الصغيرة «روبي» . بقية الأسرة : الأب والعم برايور وأخوه الأكبر «إلدر» وستيوارد ، توأمه ـ كانوا جميعاً محشورين مع سلتين كبيرتين من الطعام . كانت الرحلة التي سيوشكون على البدء بها تستغرق أياماً وربما أسبوعين . «الرحلة الكبرى الثانية» قال دادي . «آخر رحلة كبرى» كما قال العم برايور .

كانت الأولى في عام (١٩١٠) قبل ولادة التوأمين ، بينما كانت هايفن لا تزال تناضل لتحيا . قاد «بيغ دادي» السيارة بأخيه برايور وابنه البكر «إلدر» ، في طول الولاية وعرضها وما وراءها لدراسة على البلدات «الملونة» الأخرى وفحصها و الحكم عليها . كانوا يخططون لزيارة اثنتين خارج أوكلاهوما وخمس ضمنها : «بولي» و «لانغستون سيتي» و«رنتيسفيل» و«تافت» و« كليرفيو» و«ماوند بايو» و«نيكوديموس» . في النهاية ، اختصروها إلى أربع . تحدث «بيغ دادي» والعم برايور وإلدر

دون توقف عن تلك الرحلة ، كيف وضعوا ذكاءهم موضع المقارنة وتجادلوا مع الواعظين والصيادلة ومالكي مخازن الملابس الجاهزة والأطباء وناشري الصحف والمدرسين وأصحاب المصارف . لقد ناقشوا الملاريا وقانون حظر المسكرات وتهديد المهاجرين البيض ، ومشاكل العبيد المحررين من «كريك» ، ومدى موثوقية الأنصار ، ومدى عملية التعلم من الكتب ، والحاجة إلى التدريب التقني ، ونتائج كيان الولاية ، والمساكن وعنف البيض ، العشوائي منه والمنظم ، والذي كان يدوّم من حولهم : وقفوا عند حافة حقول الذرة ومشوا ضمن صفوف طويلة من نباتات القطن . زاروا دكاكين الطباعة ودروس الخطابة والصلوات في الكنائس ، ومناشر الخشب . راقبوا طرق الري وأنظمة التخزين . وفي معظم الحالات كانوا ينظرون إلى الأرض والمنازل والطرق .

بعد أحد عشر عاماً قصفت «تولسا» ، والعديد من البلدات التي زارها «بيغ دادي» وبرايور وإلدر كانت قد تلاشت . ولكن ضد كل الأرجحيات ، كانت هايفن تزدهر في عام (١٩٣٢) . لم يكن الكساد الاقتصادي قد وصلها : كانت المدخرات كبيرة الحجم . لم يكن مصرف «بيغ دادي» مورغان قد غامر بأي مخاطر (جزئياً لأن أصحاب المصارف البيض عزلوه) وكانت الأسر تتشارك في كل شيء ، وتتأكد من أنه لا يوجد من هو في عوز . خربت محاصيل القطن ؟ مزارعو الشوندر السكري تشاطروا أرباحهم مع مزارعي القطن . احترقت حظيرة ؟ كان تجار خشب الصنوبر يتأكدون من سقوط الجذوع «صدفة» عن العربات عند أماكن معينة ليجري ليلاً التقاطها . هاجمت الخنازير حقلاً لجار ؟ يعرض على الجار بدائل من الجميع ويعطى لحم الخنازير عند الذبح . الشخص الذي كانت يده تتعافى من خطأ في لدى استخدام السكين على لوح الفرم ما كان ليستخدم الضماد النظيف

الثاني إلا ويكون كدس جديد من الحطب قد كدس وجهز له . بعد أن رفضهم العالم في عام (١٨٩٠) في رحلتهم إلى أوكلاهوما ، فإنه ما كان أحد من سكان «هايفن» ليرفض للآخر طلباً ، وكانوا يقظين لأي حاجة أو عوز .

لم يقر آل مورغان بالاستمتاع في فشل البلدات «الملونة» : لقد حملوا الرفض في عام (١٨٩٠) مثل رصاصة في الدماغ . لقد علقوا ببساطة على غموض عدالة الرب وقرروا أن يأخذوا التوأمين الصغيرين ويذهبوا في جولة ثانية ليروا بأنفسهم .

وما رأوه كان أحياناً لاشيء ، وأحياناً شيئاً حزيناً ، ويتذكر ديك كل شيء . البلدات التي بدت كأنها أحياء العبيد ، وقد حملت وحركت . البلدات المنتشية بالثروة . بعض البلدات الأخرى التي تدعي النوم : تخبئ النقود والشهادات والصكوك في منازل غير مدهونة أو شوارع غير مرصوفة .

في إحدى البلدات المزدهرة راقب هو وستيوارد تسع عشرة سيدة زنجية ترتبن أنفسهن على درج مبنى بلدية البلدة . كن يرتدين أثواباً صيفية من مادة لها خفة ورقة لم يسبق لأي منهما أن رآهما . كانت معظم الأثواب بيضاء ، ولكن كان اثنان منهما بلون أصفر ليموني وواحد بلون سمك السلمون . كن يرتدين قبعات صغيرة فاتحة اللون : بيج وزهري مغبر وأزرق مغبر : قبعات تلفت الانتباه إلى العيون الواسعة اللامعة لمن كن يرتدينها . كانت خصورهن ليست أكبر من أعناقهن . كن يضحكن وتغيظ الواحدة الأخرى ، وهن يسوين ملابسهن أمام مصور يرفع رأسه من تحت القماشة السوداء ولكن ليختبئ تحتها مجدداً . وبعد وقفة ناجحة ، انفرط عقد السيدات إلى مجموعات صغيرة ، وهن يثنين خصورهن الدقيقة بضحك متموج ، يمشين وذراع الواحدة في ذراع الأخرى . عدّلت واحدة منهن دبوس زينة الأخرى . تبادلت واحدة منهن كتاب الجيب خاصتها مع أخرى .

التفتت أقدام رشيقة وتحركت بخفة في أحذية جلدية رقيقة . بهرت بشرتهن الكريمية واللامعة تحت أشعة شمس العصر ، أنفاسه . عبرت قلة من الفتيات الأصغر سناً الشارع وسرن عبر حاجز السكة الحديدية ، قريبات ، قريبات جداً من حيث كان هو وستيوارد جالسين . كن في طريقهن إلى مطعم قريب . سمع ديك أصواتاً موسيقية ، خفيضة ، مليئة بالسرور والمعلومات السرية ، وفي نسيجها ريح زهرة رعي الحمام . لم ينظر التوأمان واحدهما إلى الآخر حتى ، ودون كلمة واحدة اتفقا على السقوط من فوق الدرابزون . وبينما راحا يتصارعان على الأرض ، ممزقين سراويلهما وقميصيهما ، التفتت السيدات الزنجيات لينظرن إليهما . حصل ديك وستيوارد على الابتسامات التي أراداها قبل أن يقاطع «بيغ دادي» حديثه ويخطو عبر الرواق ليلتقط كل ابن من خصر سرواله ، ويرمي بهما كليهما على الرواق ويصدر فرقعة بعكازه .

حتى الآن لا تزال رائحة زهرة رعي الحمام واضحة ، وحتى الآن لا تزال تثيره الأثواب الصيفية والبشرة الكريمية التي تنيرها الشمس . لو أنه و ستيوارد لم يرميا بنفسيهما من فوق الدرابزون لكانا سينفجران من البكاء . لذلك ، بين التفاصيل الحية لتلك الرحلة ـ الأسف والعناد والخداع والثروة ـ الصورة التي لدى ديك عن تسع عشرة سيدة في ملابس الصيف كانت لا تشبه صورة المصور . كان تذكره بألوان الباستيل وأبديا .

*

في الصباح الذي تلى الاجتماع في كالفاري ، قرر وهو مسرور بحصته من الطيور ، وبينما هو نشيط وليس تعباً من عدم النوم ، أن يتفحص «الفرن» قبل أن يفتح المصرف . لذلك استدار إلى اليسار بدلاً عن اليمين

في الشـارع المـركـزي وقاد السـيارة مـارا بالمـدرسـة على الجانب الغـربي ، وكذلك ببقالية إيس ومحلات أثاث وتجهيزات فليتوود ومنازل عدة من جهة الشـرق . وحين وصل إلى المـوقع دار من حوله . وباستـثناء بعض صفـائح الصـودا والورق التي خرجت من برمـيل القـمـامة ، كـان المكان فـارغـاً . لا قـبضـات . لا متـسكعين . عليـه أن يتحـدث إلى آنا فلود التي كانـت تملك مخزن إيس الآن : يجعلها تنظف صفائح الشراب الغازي والنفايات التي تأتي من مشـتريات تتم في مخزنهـا . هذا ما اعتـاد فعله والد إيس . كـان ينظف ذلك المكان كـأنه مطبخـه الخاص ، من الداخل والخـارج ، ولو تركتـه لحاله سينظف الطريق كله . عاد ديك إلى الشارع المـركزي فلاحظ سيـارة ميسنر الفـورد المـحطمـة متـوقـفـة عند منزل آنا . إلى مـا وراء ذلك ، إلى يسـاره ، استطاع سمـاع أطفال المـدرسـة وهم يتلون في مجمـوعة قصيـدة كان تعلمها استظهـاراً دون فـهم أيضـاً ، باستـثناء أنه حفظ أبيـات «دنبـار» من أول مـرة سمـعهـا فيـهـا بالكامل وإلى الأبد . وحين تطوع هو و ستـيوارد كـان هناك الكثير ليتعلمـاه : من كيـفيـة ربط ربطة العنق العسكرية إلى كيـفيـة ترتيب حقيبة . وكـما حدث في مدرسة هايفن ، كان عليهمـا أولاً أن يفهما كل شيء ويتذكرا كل شيء . ولكن لم يكن أي شيء جيداً شأن ما تعلمـاه في البيت ، جالسين على الأرض في غرفة ذات موقد ، مصغيين إلى قصص الحرب ، إلى قصص الهجرات الكبرى : عن أولئك الذين قاموا بها وأولئك الذي لم يقوموا . إلى حـالات الفـشل و الانتـصـار للرجـال الأذكـياء : مـخاوفـهم وشـجاعـتـهم وتشوشهم . إلى قصص الحب العميق والدائم . كل ذلك في الكتاب الوحيد الذي امتلكاه في حينه . غلاف من الجلد الأسود مع أحـرف مذهبة . الصفحات أرق من أوراق الشـجـر الجـديدة ، من تـويجـات الأزهار . كـان ظهـر الكتـاب مـهـترئاً إلى مجـرد نـسـيج عند الأعلى ، والـزوايا بليت من كـثرة اسـتخـدام

الأصابع لها . الكلمات القوية ، الغريبة أولاً ، تصبح مألوفة ، تكسب وزناً وجمالاً منوماً تنويماً مغناطيسياً كلما سمعاها أكثر ، و جعلاها خاصتهما .

مع تحرك ديك شمالاً في الشارع المركزي ، بدا هذا الشارع والشوارع الجانبية مرضيا كما كان أبداً . بيوت هادئة بيضاء وصفراء مليئة بالمثابرة . وفيها كانت نساء سوداوات أنيقات يقمن بمهام مفيدة . خزائن مرتبة تنقصها التخمة أو البخل . الملابس الكتانية تغسل وتكوى حتى الكمال . اللحم الجيد يطهى ويحضر للشيّ . كان من شأن المنظر أن يكون ملعوناً لو كان سيخربه «ك . د .» أو تبطل الشبان .

كانت صرخة بعيدة من الأيام الأولى لهايفن وكان جده يهزأ من سهولة ذلك : شراء العقارات بدولارات جاهزة في متناول اليد بدلاً عن مقايضة سنوات من العمل بها . كان سيحرج من قبل الأحفاد الذين كانوا يعملون اثنتي عشرة ساعة لخمسة أيام في الأسبوع بدلاً عن الساعات الثماني عشرة إلى الأربع والعشرين يومياً التي احتاجها سكان هايفن مرة للبقاء أحياء ، وكان يمكنهم صيد السمّاني للمتعة وليس لأجل الحاجة اليائسة لمقابلة الزوجة وثمانية أطفال على المائدة دون عار . وكانت عيناه الباردتان الراشحتان ستضيقان لمشهد «الفرن» . لم يعد مكان اجتماع للحديث عما تم فعله أو ما هو المطلوب ، عن المرضى والولادات والوفيات وحالات القدوم والذهاب . «الفرن» الذي شهد المعمدات يدخلن الحياة المقدسة قد تحول الآن إلى مراقبة الشبان الكسالى . اثنان من أولاد سارجنت ، ثلاثة من أولاد بول واثنان من آل سيرايت ، واثنان من آل بوشامب ، واثنان من أولاد دوبري : بنات سات وبايوس . حتى آرنيت وطفلة بات بست الوحيدة اعتدن على التسكع هناك . كل أولئك كان يجب أن يكونوا في مكان ما يقطعون ويحفظون في الصفائح ، يصلحون ويحضرون الحوائج . «الفرن» الذي

سمعت كل آجرة فيه نغمات حية تسبح باسم الرب كان خاضعاً الآن لموسيقى الراديو ، وموسيقى المسجلة : الموسيقى التي سبق لها وماتت حين رشحت عبر سلك أسود يمتد من مخزن آنا إلى «الفرن» كحية . ولكن جده كان سيسرّ أيضاً . وبدلاً عن الأطفال والراشدين المجتمعين ليلاً في تلك الأيام الأولى ليخرمشوا الحروف والأشكال بالحصى على كسارات من الطين الصفيحي ، يتعلمون القراءة ممن كان يعرفها ، فقد كان هنا بناء مدرسي أيضاً . ليس كبيرا كذلك الذي بنوه في هايفن ، ولكنه كان مفتوحا ثمانية أشهر في السنة ولم يكن يشحذ المال من الولاية لإدارته . ولا سنتاً واحداً .

وكما تنبّأ «بيغ بابا» ، لو بقوا معاً وعملوا وصلوا ودافعوا معاً ، ما كانوا ليصبحوا أبداً بلدة كبلدات داونز ، ليكسينغتون ، سابولبا أو غانز ، حيث طرد الملونون من البلدة في ليلة واحدة . و ما كانوا بين الموتى والمشوهين في تولسا ونورمان وأوكلاهوما سيتي ، هذا إذا تجاوزنا عن ضحايا عمليات الجلد التلقائي والقتل وتهجير السكان بالحرائق المتعمدة ، وباستثناء تشقق هنا وثغرة هناك ، كان كل شيء في روبي سليماً . لم تكن هناك حاجة للتساؤل إن كان نقل الفرن خطأ ، سواء كان يحتاج إلى تربته الأصلية كأساس للاحترام والمنفعة الصحية اللذين كان يستحقهما . لا ، لا ، يا بيغ بابا . لا يا بيغ دادي . لقد فعلنا ما هو صواب .

طمأن ديك نفسه بقوة أكبر من الثقة فقد كان قلقاً على نحو متزايد بشأن سوآن . لم يكن هناك شيء يستطيع أن يخمنه ، مجرد إحساس مستمر بالخسارة . كان يشاطرها حزنها ، ويعتقد أنه شعر بخسارة ابنيه كما فعلت هي بالضبط وبالمدة نفسها ، باستثناء أنه كان يعرف عن الموضوع أكثر منها . فهو شأنه شأن معظم آل مورغان قد شارك في

الحروب ، أي أنه بعبارة أخرى قد عاش الموت . لقد راقبه يصيب الآخرين ، راقبه وهو يسببه للآخرين . كان يعرف أن الأجساد لا تضطجع لتموت بل كان معظمها يتطاير شلولاً في الفضاء ، وأن ما شحن إليهم في ذلك الصندوقين وما سحبوه من منصة القطار في ميدلتون ، كان عبارة عن مجموعة من تلك الأعضاء التي كان تزن نصف ما يزنه شاب في التاسعة عشرة من عمره . كان إيستر وسكاوت في وحدات موحدة ولو فكرت سوآن في ذلك ، لربما اعتبرت نفسها محظوظة بأن تعرف بأنه مهما كانت هناك أعضاء ناقصة فإن الأعضاء البديلة عنها كانت كلها لشبان سود ـ وكان ذلك كياسة وقانوناً حاول رجال الإسعاف أن يطبقوهما خشية إضافة أفخاذ وأقدام بيضاء إلى رأس أسود . ولو شكت سوآن بما كان محتملاً ، فيا إلهي . ندم لأن لسانه زلّ وهو يتناول القهوة وذكر ما كان روجر غير قادر على فعله . لم يكن راغباً في أن تتخيل هي حتى السؤال الوحيد الذي طرحه على روجر : في ما يخص سكاوت ثم إيستر : هل كل الأعضاء سوداء ؟ أي إن لم تكن كلها كذلك فليتخلص من البيضاء . أقسم روجر أن الأشلاء كلها كانت متجانسة عنصرياً وأن التابوتين الفخمين كانا دليلاً على امتنان مورغان ومصدراً للسلوى بالنسبة إلى سوآن . ومع ذلك فإن عقابيل تلك الخسارة بدت وكأنها تتراكم بطريقة لم يكن قادراً على التحكم بها . لم يكن يثق بالدواء الذي كانت تتعاطاه ولا بمصدره بالتأكيد . إلا أنه لم يكن هناك شيء في سلوكها يستطيع هو أن يجد فيه خطأ . كانت جميلة بمقدار ما تستطيع المرأة الفاضلة أن تكون . تدير منزلها على نحو جيد وتقوم بأعمال خيرة في كل مكان . بل كانت في لواقع أكثر كرماً ممّا يحب ، ولكن لم يكن هذا إلا بالكاد سبباً للشكوى . ما كان قادراً على فعل أي شيء حيال ذلك . كانت سوآن مثقلة بخسارة ابنين ، ولكنه كان مثقلاً بخسارة كل الأبناء ، وبما أن

توأمه كان دون ذرية فقد وصل آل مورغان إلى نهاية الخط . حسناً ، أجل ، كان هناك أولاد إلدر : قطيع منهم يتجول في كل مكان إلا في البلدة الأم ، وبعضهم يزور روبي لفترة أسبوع إلا أنه لا يكمل الأسبوع كله ، ويكونون تواقين إلى الابتعاد عن الهدوء الذي يجدونه مملاً والصناعة التي يجدونها متعبة والحرّ الذي يجدونه مهيناً ؛ لذا كان عبثاً مجرد التفكير بهم كجزء من النسل الشرعي لآل مورغان .

كان هو و ستيوارد الوريثين الأحق ، والبرهان على ذلك كان في روبي نفسها . ومن سوى الوريثين الشرعيين كانا سيكرران بالضبط ما كان قد فعله كل من زكاريا و ركتور ؟ ولكن بما أن جزءاً من العبء كان التكاثر ، فقد كان أمراً مؤلماً جداً أن يعرفا أن «ك . د .» كان الوسيلة الوحيدة لذلك . كان «ك . د .» ابن الأخت ورفيق السلاح . العقدة التي كانت تتشكل في صدر ديك كلما فكر في أخته كانت عقدة مألوفة . تلك الفتاة العذبة المتواضعة الضاحكة التي حماها هو و ستيوارد طول حياتهما . لقد مرضت خلال الرحلة ، بدت وكأنها تتعافى ، ولكنها انهارت بسرعة مجدداً ، وحين اتضح أنها في حاجة إلى مساعدة طبية جدية ، ما كانت هناك وسيلة لتقديمها . اصطحباها إلى دمبي ، ثم إلى ميدلتون . لم يكن الناس الملونون مسموحاً بوجودهم في العنابر . ما كان هناك طبيب محترف مستعد للعناية بهم . لقد فقدت السيطرة على نفسها ثم الوعي مع وصولهما إلى المستشفى الثاني . وقد ماتت على مقعد غرفة الانتظار بينما كانت الممرضة تحاول أن تجد طبيباً يفحصها . حين علم الأخوان أن الممرضة كانت تحاول أن تجد طبيباً بيطرياً ، جمعا أختهما الميتة بين أذرعهما بينما أكتافهما ترتجف طوال طريق العودة إلى البيت . دفنت روبي دون جنازة في بقعة جميلة في مزرعة ستيوارد ، وحين عقدت الصفقة ، صلاة على شكل صفقة لا أقل من

ذلك ، مع الرب ، لا أقل من ذلك ، بدا أنه التزم بها حتى عام (١٩٦٩) ، حين شحن إيستر وسكاوت إلى البيت . وبعد ذلك فهما شروط وأحكام الصفقة على نحو أفضل .

ربما اقترفا خطأ في عام (١٩٧٠) ، وهما يثبطان من همة «ك . د .» وابنة فليت . كانت حاملاً ، ولكن بعد مكوث قصير في ذلك «الدير» ، فلو كانت حاملاً ، لم تعد كذلك . كان الخالان قلقين حول الشكل الذي سيتخذه نسل فليتوود ، وعلاوة على ذلك ، كانت هناك مرشحات أخريات ملائمات ومتاحات ولكن «ك . د .» كان لايزال يعبث مع إحدى الفتيات التائهات المقيمات هناك حيث المدخل إلى الجحيم واسع ، وقد آن أوان إبلاغه النبأ : لا يعلق كل ماخور نوراً أحمر في النافذة .

كان يضغط على المكابح أمام المصرف حين لاحظ وجود شخص وحيد أمامه . وقد ميزها على الفور إلا أنه راقبها بعناية لأنها أولاً لم تكن تلبس معطفاً ، وثانياً لأنه لم يرها خارج المنزل منذ ست سنوات .

كان الشارع المركزي عبارة عن ثلاثة أميال ممهّدة من الإسفلت يبدأ من «الفرن» وينتهي عند «سارجنتس فيد أند سيد» . الشوارع الجانبية الأربعة شرق الشارع المركزي سميت باسم الأناجيل الأربعة . وحين دعت الحاجة إلى شارع خامس فقد سمي باسم القديس بطرس . لاحقاً ، ومع نمو روبي ، وضعت الشوارع على الجانب الغربي من الشارع المركزي ، ورغم أن هذه الشوارع الجديدة كانت استمرارات لتلك التي على الشرق ـ فقد كانت قد فتحت مقابلها تماماً ـ إلاّ أنها اكتسبت أسماء ثانوية . لذلك فإن شارع سانت جون في الشرق أصبح «كروس جون» في الغرب . وأصبح سانت لوك في الغرب «كروس لوك» . كانت عقلانية هذا الأمر قد منحت السرور للجميع تقريباً ، وخاصة ديك ، وكان هناك دائماً مجال

للمنازل الإضافية (الممولة عند الضرورة من قبل مصرف الأخوين مورغان) في المساحات والآكرات إلى خلف وإلى ما وراء تلك التي سبق إنشاؤها . بدت المرأة التي راح ديك يراقبها تغادر كروس بيتر وتتجه نحو «سارجنتس فيد أند سيد» . ولكنها لم تتوقف هناك . وبدلاً عن ذلك كانت تتحرّك عن تصميم شمالاً ، حيث كان ديك يعرف أنه لم يكن هناك من شيء لمسافة سبعة عشر ميلاً . ما الذي كان يمكن لأعذب فتاة ، سميت حسب طبيعتها ، أن تفعله دون معطف في صباح يوم تشريني بارد ، خارج بيت لم تغادره منذ عام ١٩٦٧ ؟

كانت هناك حركة في المرآة الخلفية لفتت انتباهه ، وميّز الشاحنة الحمراء الصغيرة الآتية من الجنوب . سيكون سائقها هو آرون بول ، متأخراً ، كما عرف ديك مسبقاً ، بما أنه كان يجلب آخر دفعة من قرضه . وبعد أن يأخذ في الحسبان أن يترك بول ينتظر والاستمرار في قيادة السيارة ليلحق بـ«سويتي» ، يسكت ديك محركه . لم تكن «جولاي» ، كاتبته وسكرتيرته ، ستصل قبل العاشرة . لا يجب أن تكون هناك مناسبة لا يفتح فيها مصرف بلدة جيدة وجدية في الوقت الصحيح .

* * *

قالت آنا فلود : «انظر . انظر إليه فحسب» .

كانت تراقب سيارة ديك وهي تدور من حول «الفرن» ثم تمر ببطء عبر مخزنها . «لماذا عليه أن يحوم هكذا ؟» .

رفع ريتشارد ميسنر نظره عن مدفأة الحطب . قال : «إنه يدقق في الأشياء فحسب» ، ثم عاد إلى تحضير النار . «لديه حق ، أليس كذلك ؟ إنها بلدته نوعاً ما ، ألن تقولي ذلك ؟ بلدته هو و ستيوارد» .

«لن أقول ذلك . قد يتصرفان وكأنهما يمتلكانها ، ولكنهما لا يمتلكانها» .

كان ميسنر يحب النار المحكمة ، وكانت النار التي يحضرها من ذلك النوع تماماً . «حسناً ، لقد أسساها ، أليس كذلك ؟» .

«مع كنت تتحدث ؟» غادرت آنا النافذة ومشت إلى الدرج الخلفي المؤدي إلى شقتها . هناك زلقت مقلاة من بقايا اللحم والبقول تحت بئر السلم . حدقت إليها القطة ، التي أصبحت شريرة بسبب أمومتها ، بعينين محذرتين . «لقد أسست البلدة خمس عشرة أسرة ، خمس عشرة وليس اثنتين . كان أبي إحداها وعمي واحدة أخرى...» .

قاطعها ميسنر : «تعرفين ما أعني...» .

نظرت آنا في الظلام محاولة أن ترى داخل الصندوق حيث كانت صغار القطة . «لا أعرف» .

قال ميسنر : «المال . كان لدى آل مورغان المال . أعتقد أن علي أن أقول إنهم مولوا البلدة ولم يؤسسوها» .

ما كانت القطة لتأكل وهي تحت المراقبة ، لذا تخلت آنا عن النظرة المختلسة إلى القطيطات وعادت إلى ريتشارد ميسنر . «أنت مخطئ في ذلك أيضاً . لقد شارك الجميع في ذلك . فكرة المصرف كانت مجرد طريقة للقيام بذلك . اشترت الأسر حصصاً فيه ، كما تعرف ، بدلاً عن مجرد إيداع الودائع التي يستطيعون إدارتها عبر أي مصرف عتيق . وبهذه الطريقة كانت أموالهم آمنة» .

أومأ ميسنر برأسه ومسح يديه . لم يكن راغباً في جدال آخر . رفضت آنا أن تفهم الفرق بين الاستثمار والتعاون . كما رفضت أن تعتقد بأن مدفأة الحطب كانت تعطي دفئاً أكثر من سخانتها الكهربائية الصغيرة .

قالت : «كان لدى آل مورغان المصادر ، هذا كل ما في الأمر . من مصرف أبيهم في هايفن . جدي ، آبل فلود ، كان شريكاً له . الكل كانوا يدعونه «بيغ دادي» ، ولكن اسمه الحقيقي كان...» .

«أعرف . أعرف . ركتور مورغان ، المعروف أيضاً باسم «بيغ دادي» . ابن زكاريا مورغان ، المعروف في كل أنحاء العالم المسيحي على أنه «بيغ بابا» . ثم اقتبس ميسنر لازمة كان سكان روبي يحبون تلاوتها : «فشل مصرف ركتور ، ولكنه هو لم يفشل» .

«هذا صحيح . كان على المصرف أن يغلق ـ في بداية الأربعينات ـ ولكنه لم يغلق . أعني أنه كان لديهم ما يكفي ، لذا استطعنا الانطلاق . أعرف ما تفكر فيه ، ولكنك لا تستطيع أن تقول بصدق إن الأمر لم ينجح . الناس يحققون النجاح هنا . كل الناس» .

«الكل يزدهر على الائتمان ، يا آنا ، هذا ليس الأمر نفسه» .

«وماذا يعني ذلك ؟» .

«ماذا لو أن الائتمان لم يعد موجوداً ؟» .

«لا يمكن ذلك . نحن نمتلك المصرف ؛ والمصرف لا يمتلكنا» .

«أوه آنا . أنت لا تفهمين ما أعنيه ، أليس كذلك ؟ أنت لا تفهمين» .

كانت تستمتع بوجهه حتى وهو يرذّل أشخاصاً تحبهم . كان يبدو وكأنه يحتقر ستيوارد مثلاً ، ولكن كان ستيوارد هو من علمها درس العقرب ، حين كانت آنا في الرابعة من العمر ، كانت تجلس على الرواق الجديد لمخزن أبيها ـ في عام ١٩٥٤ ـ حين كان كل شخص يعمّر شيئاً ما بينما مجموعة من الرجال بمن فيهم ستيوارد يساعدون إيس فلود على إنهاء تركيب الرفوف . كانوا في الداخل ، يستريحون بعد غداء سريع ، بينما راحت آنا تخرج النمل عن مساره على الدرج : تضع في طريق النمل عوائق وتراقبه

يصعد فوق حافة ورقة الشجرة ويتابع وكأنه أمام جبل أخضر جديد تماماً هو جزء حتمي من رحلته . وفجأة اقترب عقرب من قدمها العارية ، فعدت داخلة إلى المستودع بعينين مفتوحتين . توقف الحديث بينما راح الرجال يقيّمون هذه المقاطعة الطفلية ، وكان ستيوارد هو من رفعها بين ذراعها وسألها ما الذي يزعجك أيتها الجميلة ؟ وخفف عنها خوفها . تشبثت آنا به بينما راح هو يشرح أن ذيل العقرب كان مرفوعاً لأنه كان خائفاً منها كما كانت هي خائفة منه . في ديترويت ، وهي تراقب رجال شرطة بوجوه طفلية يمسكون المسدسات ، تذكرت ذيل العقرب القاسي . ومرة سألت ستيوارد كيف يكون شعور المرء بأنه توأم ، فأجاب : «لا أعرف ، بما أني لم أكن سوى توأم . ولكني أجرر بأن المرء يشعر أنه أكمل» .

سألت آنا : «لكأنه لم يسبق لك وكنت وحيداً ؟» .

«حسناً ، نعم . مثل ذلك ، ولكن على نحو أكثر... تفوقاً» .

حين توفي إيس عادت إلى روبي وكانت ستبيع أملاكها ـ المخزن والشقة والسيارة وكل شيء وتعود إلى ديترويت ، وحين دخل البلدة في سيارته الفورد المتهالكة . كان ذاك هو القس الجديد لكنيسة كالفاري .

طوت آنا ذراعيها على النضد الخشبي . «أملك هذا المخزن . مات أبي ، وهو لي الآن . لا إيجار . لا رهن . مجرد ضرائب ، ورسوم بلدية . أشتري الأشياء ، أبيع الأشياء . رفع السعر يخصني أنا» .

«أنت محظوظة . ماذا عن المزارع ؟ افترضي أن محصولاً ما لم ينجح ، فلنقل في سنتين متتاليتين . هل ستذهب السيدة ساندز العجوز أو ناثان دوبري لسحب حصتهما ؟ يقترضان عليها ؟ يبيعانها للمصرف ؟ ماذا ؟» .

«لا أعرف ما قد يفعلانه ، ولكني أعرف جيداً إنه ليس أمراً مربحاً

الذهاب إلى المصرف لخسارتها . لذلك يعطونها المال لشراء المزيد من البذور أو السماد أو مهما يكن ذلك» .

« تعنين « يقرضانها » المال » .

« أنت تسبب لي صداعاً . من حيث أتيت قد يكون هذا كله صحيحاً . روبي مختلفة » .

« آمل ذلك » .

« هو كذلك . لن تكون أي مشكلة آخذة بالتكون لنْ تكون متعلقة بالمال » .

« حسناً ، وماذا إذن ؟ » .

« من الصعب تصور الأمر ، ولكني لا أحب الطريقة التي يبدو بها وجه ديك حين يتفحص « الفرن » . يقوم بذلك في كل يوم يرسله الرب . أشبه بالصيد منه بالتفحص . هم مجرد أطفال » .

« تلك الرسمة الأولى أخافت الكثير من الناس » .

« لماذا ؟ كانت صورة! ستظن أن شخصاً ما قد أحرق صليباً! » بدأت تمسح الأشياء وهي تشعر بالضيق : الأباريق وواجهات الفاترينا ومبرّد الصودا . « عليه أن يكلم الآباء ، لا أن يذهب متصيداً الأطفال على هذا النحو وكأنه عمدة البلدة . يحتاج الأطفال إلى ما هو أكثر من المتوفر هنا » .

ما كان ممكناً لميسنر أن يتفق معها أكثر من ذلك . منذ اغتيال مارتن لوثر كينغ ، فإن التزامات عديدة قد جرى حلف اليمين بشأنها ، كما طرحت قوانين ولكن معظمها كان تزييناً : تماثيل وأسماء شوارع وخطب . بدا الأمر وكأن شيئاً ما ذا قيمة قد تم رهنه وأن بطاقة الرهن قد ضاعت . كان هذا ما يتطلع إليه دستري وروي وليتل ميرث والبقية . ربما كانت أول رسام يتطلع إلى ذلك أيضاً . وعلى أي حال ، فلو أنهم لم يستطيعوا إيجاد البطاقة ، فقد كان ممكناً فك الرهن . وكان السؤال : من رهنه أولاً ولماذا ؟

« قلت لي إن هذا هو السبب في مغادرتك ـ لا عمل لديك تقومين به ـ ولكن لم تقولي أبداً لم عدت ؟ » .

ما كانت آنا على وشك شرح هذا كله ، لذا فقد شرحت بالتفصيل ما كان يعرفه سابقاً . « أجل . حسناً . ظننت أني كنت قادرة على فعل شيء ما هناك في الشمال . شيء حقيقي لا يحطم قلبي . ولكن كان الأمر كله ـ لا أعرف ـ كلاماً وتجوالاً . لقد تشوشت ومع ذلك لست نادمة أبداً ، حتى لو أن الأمور لم تجر كما أردت » .

« حسناً ، أنا سعيد أنها لم تجر كما أردت ، مهما كان السبب » . وربت على يدها .

ردت آنا على تربيتته بمثلها . قالت : « أنا قلقة . فيما يخص بيلي ديليا . علينا أن نفعل شيئاً ما يا ريتشارد . شيئاً أكثر من مجرد المنافسات بين الجوقات وصفوف تدريس الكتاب المقدس والشرائط الممنوحة للخضار السمينة وحمامات الأطفال... » .

« ماذا عنها ؟ » .

« أوه ، لا أعرف . لقد دخلت إلى هنا قبل قليل ، وعرفت فوراً أن هناك شيئاً ما في ذهنها ، ولكن الشاحنة كانت قد تأخرت في إيصال بضاعتي ، لذا كنت موجزة معها » .

« ماذا تعنين ؟ » .

« لقد رحلت . على الأقل هذا ما أظنه . لم يرها أحد » .

« ما تقول أمها ؟ » .

هزت آنا كتفيها . « من الصعب التكلم إلى « بات » . سألتها كايت عن بيلي ديليا ، قالت إنها لم ترها في تمارين الجوقة . هل تعرفين ما تفعله ؟ وكان الرد على سؤال كايت بسؤال مشابه » . قلدت آنا صوت بات بست

الناعم البارد «(ولم تريدين معرفة ذلك ؟) إنها وكايت على علاقة وثيقة أيضاً» .

«هل تظنين أنها تتصرف بطريقة تؤدي إلى إصابتها بالأذى ؟ لا يمكنها أن تختفي دون أن يعرف شخص ما إلى أين ذهبت» .

«لا أعرف ما أفكر فيه» .

«تحدثي إلى روجر . لابد أنه يعرف . إنه جدها» .

«اسأله أنت . ليس أنا» .

«قولي ، ما كل هذا الشعور تجاه روجر ؟ أنا هنا منذ ثلاث سنوات تقريباً ، ولا أستطيع أن أفهم لماذا يسلك الناس هذا السلوك البارد تجاهه . هل لذلك علاقة بعمله في مجال الجنائز ؟» .

«ربما . هذا ولأنه «حضّر» [للدفن] إذا كنت تفهم ما أعنيه زوجته نفسها» .

«أوه» .

«هذا شيء يستحق التفكير ، أليس كذلك ؟» .

«حتى الآن» .

صمتا للحظة ، مفكرين في الأمر . ثم سارت آنا من حول النضد ووقفت عند النافذة . «كما تعرف ، أنت ذكي جداً فيما يخص الطقس . هذه هي المرة الثالثة التي لم أصدقك فيها وكنت على خطأ» .

انضم إليها ميسنر . وبمجرد لمس زجاج النافذة كانا قادرين على معرفة أن درجة الحرارة قد هبطت فجأة إلى بضع عشر درجة .

«هيا . أشعلها» . قالت وهي تضحك وسعيدة لأنها أخطأت إن كان ذلك سيجعل هذا الرجل الذي تعبده على حق .

كانت هناك نساء من رواد الكنيسة يستنكرن هذا الاهتمام الواضح

بها ، هي لوحدها . وكانت بات بست ماهرة في إخفاء اهتمامها الذاتي به . ولكن آنا ظنت أن في الأمر ما هو أبعد من خططهما لهذا الرجل الوسيم الذكي وبناتهم وبنات أخواتهم العديدات . كانت على ثقة بأن الاستنكار كان في جله بسبب شعرها غير المسوّى . يا إلهي ، الحوارات التي اضطرت إلى خوضها حين عادت من ديترويت . التحقيقات الغريبة والحمقاء والعدوانية . شعرت كأنهم كانوا يناقشون شعر عانتها وشعر ما تحت إبطها . أنها لو مشت عارية بالكامل في الشارع لكانوا قد علقوا فقط على شعر رأسها . لقد أثار الموضوع المزيد من الانفعال والكثير من الآراء والغضب مما أثارته تلك البغي التي أحضرها مينوس من فرجينيا . ربما كانت ستسوي شعرها مجدداً . وفي النهاية ، لم يكن تغييراً أو بياناً دائماً : باستثناء أنه أوضح الكثير لها في الأيام التي كانت فيها لا تزال مشوشة حول الكثير من الأمور الأخرى . وعلى الفور استطاعت تحديد الأصدقاء وغير الأصدقاء ، وأن تميز أولئك الذين تربوا تربية صالحة وأولئك الذين لم يتلقوها والمهددين والذين لا يتحلون بحس الأمان . لقد أحبته دافي مورغان وكرهته بات بست . هز ديك وستيوارد رأسيهما . أحبته كايت غولايتلي وساعدتها على إبقائه كما هو . ألقى القس بوليام موعظة كاملة عنه . ضحك «ك . د .» منه . وأعجب به معظم الشباب ، باستثناء آرنيت . ومثل «عداد غايجر» [أداة لاكتشاف الجسميات المؤينة وإحصائها] سجل شعرها ، كما اعتقدت ، الهدوء أو الكثافة لاضطراب مدو وعميق .

جذبت النار ذات الرائحة الرائعة القطة الأم . التفت على نفسها خلف المدفأة ، رغم أن عينيها بقيتا يقظتين تجاه المفترسات : سواء كانوا من البشر أو خلافه .

«اسمح لي أن أصنع بعض القهوة» ، قالت آنا وهي تنظر إلى الغيوم فوق كنيسة «هولي ريديمر» . «قد يصبح الأمر جدياً» .

كان إيمان إيس فلود من النوع الذي يحرك الجبال ، لذلك بنى مخزنه ليدوم . حجر رملي . أكثر متانة من بعض الكنائس . أربع غرف لأسرته في الأعلى ، وفي الأسفل مخزن واسع ، غرفة نوم صغيرة جداً ومجال للبيع بارتفاع خمسة عشر قدماً مزدحم بالرفوف والصناديق والعلب والأدراج . النوافذ كانت من النوع المنزلي المعتاد : لم يكن راغباً في العرض أو في حاجة إليه . لا زجاج من النوع الصفائحي الكبير المكلف الكاشف بالنسبة إليه . فليدخل الناس إلى الداخل ليروا ما لديه . لم يكن لديه الكثير من الأشياء ، ولكن لديه الكثير من المخزون . قبل أن يموت ، رأى مخزنه يتحول من الخدمة الضرورية في روبي إلى تجارة يرعاها المخلصون لبنود معينة ، رغم أنهم كانوا يتوقفون عند أسعاره ثم يقودون شاحناتهم إلى دمبي بحثاً عن مواد أرخص (وأفضل) . إلا أن آنا غيرت هذا كله . ما كانت بقالية إيس تفتقر إليه الآن من حيث حجم الموجودات ، فقد كسبته من حيث التنوع والأسلوب . كانت تقدم [فنجان] قهوة في الأيام الباردة والشاي المثلج في الأيام الحارة . وضعت كرسيين ومنضدة صغيرة للكبار في السن وأولئك القادمين من مزارع بعيدة ويريدون بعض الراحة لبعض الوقت . وبما أن الراشدين في هذه الأيام ما عادوا يزورون «الفرن» قرب مخزنها ـ باستثناء الحالات الخاصة ـ فقد راحت تهتم بشهية الشبان الذين كانوا يحبون التجمع هناك . كانت تبيع فطائرها الخاصة وتصنع سكاكرها الخاصة مع الكثير مما كانت تشتريه في دمبي . كان لديها ثلاثة أنواع من الشراب الغازي بالصودا بدلاً عن واحد ، كانت تبيع أحياناً الفلفل «الأسود مثل الصخرة الثامنة» التي يزرعها «الدير» . كانت تبقي جبنة رأس الخنزير في

المبردة ، كما كان يفعل أبوها ، مع الزبدة المحلية ولحم الخنزير المملح . ولكن المواد المحفوظة والفاصولياء المجففة والقهوة والسكر والشراب وصودا الخبز والدقيق والملح والكتشأب والمنتجات الورقية ـ كل المواد التي لم يكن أحد يستطيع أو يرغب في صنعها في البيت ـ كانت تحتل الفراغ الذي استخدمه إيس فلود ذات مرة للملابس وأحذية العمل والأدوات الخفيفة والكيروسين . والآن راح مخزن «سارجنتس فيد أند سيد» يبيع الأحذية والأدوات والكيروسين ، كما يبيع مخزن هاربر للأدوية الأبر والخيطان والأدوية الخفيفة والوصفات والمناديل الصحية والقرطاسية والتبغ . باستثناء «بلوبوي» [مضغة التبغ] . كان ستيوارد يعتمد على إيس ولم يكن راغباً في تغيير عادته .

بين يدي آنا ، ازدهرت «بقالية إيس» عبر التنوع والراحة والمرونة . ولأنها سمحت لمينوس بقص شعرها في المؤخرة في أيام السبت ، فإن المشتريات الطارئة ازدادت . ولأن لديها مرحاضاً مرتباً في الطابق الأرضي ، فإن المستخدمين العرضيين له أحسوا بأنهم ملزمون بأن يصبحوا زبائن قبل أن يغادروا المكان . كانت المزارعات تأتين لشراء روح النعناع بعد حضور الصلاة في الكنيسة . والرجال للحصول على أكياس من الزبيب . ودائماً ما كانوا ينتقون شيئاً صغيراً ما من الرفوف .

كان الرضا الذي استمدته من النار التي أوقدها ريتشارد قد جعلها تبتسم . ولكنها لم تستطع أن تكون زوجة قس . أبداً . أليس كذلك ؟ حسناً ، لم يكن قد طلب منها ذلك ، لذلك كانت تستمع بحرارة المدفأة ومؤخر عنقه والحضور غير المرئي للقطيطات .

بعد فترة قصيرة ، وصلت سيارة ستايشن وتوقفت قريباً جداً من المخزن ، واستطاع ميسنر وآنا كلاهما أن يريا الحمى في عيني الطفل

الصغير الزرقاوين . كانت الأم تحمل الطفل فوق كتفها وتربت على شعره الأصفر . أما السائق ، وهو رجل بملابس المدينة وفي الأربعينات من عمره ، فقد خرج من السيارة ودفع باب مخزن آنا .

ابتسم قائلاً : « كيف الحال ؟ » .

« بخير . وأنت ؟ » .

« يبدو أني تائه . كنت أحاول إيجاد [الطريق العام] رقم ثمانية عشر غرباً منذ ما يزيد عن الساعة » . نظر إلى ميسنر وابتسم معتذراً لأنه اقتحم القانون الذكوري حول عدم جواز السؤال عن الطريق . « زوجتي جعلتني أتوقف . قالت إن صبرها قد نفد » .

« إنه بعيد جداً عن الطريق التي أتيت منها » . قال ميسنر وهو ينظر إلى لوحة السيارة التي تدل على ولاية أركنسو . « ولكني أستطيع أن أدلك كيف تجده » .

قال الرجل : « ممتن لذلك . ممتن لذلك . لا أتوقع أن أجد طبيباً هنا في هذه النواحي ، أليس كذلك ؟ » .

« ليس في هذه النواحي . عليك أن تصل إلى دمبي لأجل ذلك » .

« وما خطب الطفل ؟ » سألت آنا .

« إنه يعاني من القيء . وحرارته مرتفعة . معنا كل ما يلزمنا من المؤن ، ولكن من يحمل الأسبرين أو دواء السعال في رحلة صغيرة كهذه ؟ لا أستطيع أن أفكر بكل شيء لعين ، هل يمكن ذلك ؟ يا للمسيح » .

« طفلك يسعل ؟ لا أعتقد أنك بحاجة إلى دواء للسعال » . غمزت آنا عبر النافذة . « أطلب من زوجتك الدخول من البرد في الخارج » .

قال ميسنر : « مخزن الأدوية فيه أسبرين » .

« لم أر أي مخزن للأدوية . أين هو ؟ » .

«لقد مررت به ، ولكنه لا يبدو كمخزن للأدوية... بل كمنزل عادي» .

« كيف سأجده إذن ؟ لا يبدو أن للمنازل هنا أرقاماً » .

« قل لي ما تريده كافة وسوف أحصل لك عليه . ثم قل لزوجتك أن تدخل الطفل» . وتناول ميسنر معطفه .

«فقط بعض الأسبرين ودواء للسعال . ممتن لكم . سأدخل زوجتي» .

كانت الريح التي دخلت من الباب المفتوح قد جعلت فناجين القهوة تصلصل . عاد الرجل إلى السيارة الستايشن . انطلق ميسنر في سيارته الفورد زرية المظهر . فكرت آنا في صنع بعض توست القرفة . لابدّ أن خبز القرع قد أصبح بائتاً الآن . لو كان لديها موزة ناضجة لحسن الأمر . بدا على الطفل انه مصاب بالإمساك . كانت ستهرسها مع بعض زبدة التفاح .

عاد الرجل يهز رأسه . «سأبقي المحرك دائراً . تقول إنها ستبقى في السيارة» .

أومأت آنا برأسها . «هل لازالت الطريق طويلة أمامكم ؟» .

«نحن ذاهبون إلى لوبوك . هل تلك القهوة ساخنة ؟» .

«هاهه . كيف تحبها» .

«سوداء وحلوة» .

كان قد أخذ رشفتين حين انطلق بوق سيارة الستايشن . «خراء . عفوك» ، قال . حين عاد اشترى سكاكر السوس وزبدة الفستق والبسكويت وثلاث «رويال كراون» وحملها إلى زوجته . ثم عاد لينهي قهوته ويرتشفها في صمت بينما راحت آنا تحرك النار .

«الأفضل لك أن تملأ الخزان بالبنزين حين تصل الطريق ثمانية عشر . هناك عاصفة جلدية قادمة» .

ضحك . «عاصفة جليدية ؟ في لوبوك ؟ تكساس ؟» .

«أنت لم تصل تكساس بعد» . قالت آنا . نظرت نحو النافذة . شاهدت شخصين يقتربان ، ثم فتح ميسنر الباب بكتفه وستيوارد خلفه .

قال ميسنر وهو يسلم الزجاجات : «إليك ما تريد» . أخذها الرجل وانطلق إلى سيارة الستايشن . لحق به ميسنر ليعطيه الإرشادات .

سأل ستيوارد : «ما الحكاية ؟» .

«مجرد بعض الأشخاص التائهين» . تناولت آنا صفيحة بوزن (٣٢) أونصة من بلوبوي .

«أشخاص تائهون أم بيض تائهون ؟» .

«أوه يا ستيوارد . من فضلك» .

«فرق كبير ، يا آنا يا فتاتي . كبير . أليس صحيحاً أيها المحترم ؟» كان ميسنر يعود للتو إلى الداخل .

قالت آنا : «قد تاهوا كما يفعل الجميع» .

«ولدوا ضائعين . يستولون على العالم ولا يزالون تائهين . صحيح أيها المحترم ؟» .

«للرب شعب واحد يا ستيوارد . أنت تعرف ذلك» . فرك ميسنر يديه ، ثم نفخ عليهما .

قال ستيوارد : «أيها المحترم ، لقد سمعت أشياء عن الجهل ، ولكن هذه أول مرة أسمعك فيها تقول شيئاً مبنياً على الجهل» .

ابتسم ميسنر وكان سيجيب حين دخل الرجل التائه مجدداً ليدفع لميسنر ثمن الدواء .

«هناك عواصف جليدية قادمة» . نظر ستيوارد إلى ملابس الرجل الخفيفة وحذاءه الرقيق . «ربما تريد السفر إلى مكان ما . محطة الوقود على الطريق (١٨) . ما كنت لأمضي إلى أبعد من ذلك لو كنت مكانك» .

« سأتغلب عليها » . أغلق الرجل محفظة نقوده . « سأصل إلى الطريق (١٨) ، ولكننا سنعبر خط الولاية اليوم . شكراً . كلكم قدمتم يد المساعدة . أنا ممتن لكم » .

قال ستيوارد والسيارة الستايشن تبتعد : « إنهم لا يصغون أبداً » . ولأنه كان هو نفسه في المكان حوالي عام (١٩٥٨) حين تجمدت قطعان بكاملها من البرد ، فقد كان يضخ الماء ويثبت الأشياء بالمسامير ويذري الفصة ويخزن منذ يوم الأربعاء . كان في البلدة الآن لشراء التبغ والشراب وليصطحب دافي .

قال ميسنر : « قل يا ستيوارد . هل شاهدت حفيدة روجر ، بيلي ديليا ؟ » .

« ما الذي يجب أن أراها من أجله ؟ » .

« تقول آنا إنه لم يرها أحد . طبعاً نحن لم نسأل أمها » .

وضع ستيوارد ، وهو ينتبه إلى « نحن » ، ورقة جديدة من فئة الخمس دولارات على النضد . « لن تحصل على شيء هناك » ، قال وهو يفكر ، لا خسارة كبيرة إن هربت بعيداً . هذا يفيد بات تماماً . إنها تتدخل في شؤون الجميع ولكنها تهدأ إن اقتربت من شؤونها . « يذكرني هذا بما قاله لي ديك إذ أنه رأى سويتي هذا الصباح ، كانت تمشي في الطريق . دون معطف . لاشيء » .

« سويتي ؟ خارج منزلها ؟ » شددت آنا على عدم تصديقها .

سأل ميسنر : « أي طريق ؟ » .

« ليس سويتي » .

« يقسم ديك أنه رآها » .

قال ميسنر : « لاشك في ذلك . فلقد رأيتها أنا أيضاً خارج منزلي .

ظننتها ستطرق الباب ، ولكنها استدارت واتجهت عائدة نحو الشارع المركزي . بدا لي كأنها ذاهبة إلى بيتها » .

« لم تفعل . ديك قال إنها كانت قد تجاوزت مخزن سارجنت ، خارجة من البلدة تمشي مشية الجنود » .

« ألم يوقفها ؟ » .

حدق ستيوارد إلى آنا كأنه لم يصدق كلماتها . « كان يفتح المصرف يا امرأة » .

قطب ميسنر جبينه . قاطعت آنا أي شيء كان هو يقوله . « كلاكما راغب ببعض القهوة ؟ وربما بعض خبز القرع ؟ » .

وافق كلاهما .

« الأفضل أن يبلغ شخص ما بما جرى لجف » . كان ذلك صوت آنا ولكن الثلاثة نظروا جميعاً إلى جدار من الرفوف كان وراءه مخزن فليتوود للأثاث والتجهيزات .

ورغم التنبؤات ـ من تحديقة ريتشارد ميسنر ويقظة ستيوارد مورغان ـ فإن قطعة صغيرة من السماء ومضت باليتاً من الألوان المائية : برتقالي كالدراق وأخضر كالنعناع وأزرق كالشاطئ . بقية السماء كان قصديراً قام بتلميع هذه الاندفاعة للشمس الأشبه بصورة من كتاب . وقد دامت ساعة كاملة وأثارت كل من رآها . ثم بهتت وتقستت سماء رصاصية فوق الريح العنيدة . مع الظهيرة وصلت الثلجة الأولى . كريات لاذعة ، فاخرة ، لا تذوب أمام الريح . أما الثلجة الثانية ، بعد ساعتين ، فلم تقفز . لقد هبطت بهدوء وغمرت كل شيء .

*

كانت سويتي قد قالت : «سنعود مباشرة يا آنسة مايبل» . لن نغيب أكثر من دقيقة يا آنسة مايبل» .

كانت تعني ما قالته . ربما قالته فعلاً ، وعلى أي حال كان في رأسها أن تقول ذلك . ولكن كان عليها أن تسرع قبل أن يقرقر أحدها .

على الرواق و الممشى كانت خطوات سويتي ذات هدف : كأنما كان هناك مكان ما هام عليها أن تكون فيه . شيء ما هام عليها أن تفعله وسيستغرق دقائق قليلة وستعود فوراً . ستعود في الوقت الملائم لتمسّد مؤخرة صغيرة لتبعد القروح . أو لتنزل البلغم أو تطحن الطعام أو تنظف الأسنان أو تقص الأظافر أو تغسل البول أو تهدهد طفلاً في ذراعيها أو تغني ولكن لتراقب معظم الوقت . لم تكن تستطيع رفع عينيها ما لم تكن حماتها هناك ، وأن تراقب حتى في ذلك الحين أيضاً ، لأن عيني الآنسة مايبل لم تعودا حادتين كما كانتا سابقاً . عرض الآخرون المساعدة تكراراً في البداية ، ثم دون انتظام الآن ، ولكنها كانت ترفض دائماً . كانت سويتي الأفضل في المراقبة . وكانت حماتها الثانية في ترتيب الأفضل . اعتادت آرنيت أن تكون جيدة ، ولكن ليس الآن . لم يكن جف وحموها قادرين على النظر ، ناهيك عن المراقبة .

لم تكن المشكلة أبداً المراقبة وهي مستيقظة . بل كانت المراقبة وهي نائمة . ولمدة ست سنوات كانت تنام على حشية قرب المهاد ، أو في السرير مع جف ، ونفسها منتظم ونفق أذنها جاهز ، تحلم قليلاً ، رغم أنها لم تستطع أن تتذكر أحلامها . ولكن أصبح أصعب فأصعب عليها المراقبة والنوم في آن معاً .

حين انبلج الفجر ودخلت مايبل إلى الغرفة المعتمة مع فنجان من القهوة ، نهضت سويتي وأخذته . كانت تعرف أن مايبل قد سبق لها وأجرت

ماء حوض الاستحمام وطوت منشفة وقميص نوم نظيفاً فوق الكرسي في غرفة النوم . وعرفت أنها ستعرض عليها أن ترتب لها شعرها ، تجدّله لها وتغسله وتلفّه أو تفرك لها فروة رأسها فحسب . ستكون القهوة رائعة ، داكنة محملة بالسكر . ولكنها كانت تعرف أيضاً أنها لو شربتها هذه المرة وذهبت إلى السرير في شمس الصباح هذه المرة فسوف لن تستيقظ أبداً ، ومن سيراقب أولادها حينها ؟

لذلك تناولت القهوة وقالت أو أنها عنت أن تقول : «عودي خلال دقيقة يا آنسة مايبل» .

في الطابق السفلي ، وضعت الفنجان والصحن على منضدة الطعام ، ثم ، دون أن تغتسل ودون معطف ودون تمشيط شعرها ، فتحت الباب الأمامي وغادرت بسرعة .

لم تكن تأمل أن تمشي حتى تسقط أرضاً أو يغمى عليها أو تتجمد من البرد ثم تنزلق إلى العدم لفترة . الشيء الصغير الذي أرادته هو ألا تشرب قهوة الفجر تلك ، والحمام الذي سبق تحضيره وقميص النوم المطوي ثم النوم الحذر على ذلك النحو ، إلى الأبد ، كل يوم وخاصة في هذا اليوم بالذات . والطريقة الوحيدة لتغيير هذا النظام ، كما فكرت ، لم يكن القيام بشيء ما على نحو مختلف ، ولكن أن تقوم بشيء مختلف . ولكن برزت أمامها إمكانية واحدة : مغادرة منزلها والنزول إلى الشارع الذي لم تطأه قدماها منذ ست سنوات .

سارت سويتي على امتداد الشارع المركزي : عبر الشوارع المسماة بأسماء الأناجيل ، وكنيسة «ماونت كالفاري» ، التفتت متجهة إلى « كروس بيتر» وغادرته ومشت عبر مخزن «سارجنتس فيد أند سيد » إلى الشمال من روبي ، حيث تتغير جودة الطريق مرتين ، كانت ساقاها تؤديان عملهما

على نحو لامع . وكذلك بشرتها ، لأنها لم تشعر بالبرد . هواء الخارج النقي ، الذي لم تكن قد اعتادت عليه ، أضرّ بمنخريها ، ورفعت وجهها لتتحمله . لم تعرف أنها كانت تبتسم ، ولا الفتاة التي راحت تحدق إليها من صندوق سيارة البيك آب الجديدة موديل عام (١٩٧٣) . ظنت الفتاة أن سويتي كانت تبكي ، وامرأة سوداء تبكي على طريق ريفي قد حطم قلبها مجدداً .

حدقت إلى سويتي من المكان الذي كانت تختبئ فيه بين الصناديق الفارغة . كانت شاحنة الفورد متجهة جنوباً ، وقد أبطأت حين مرت بسويتي ، ثم توقفت . في الكابين تبادل السائق وزوجته النظرات . ثم انحنى السائق من النافذة ولوى رأسه ليصيح على سويتي من الخلف : «هل أنت في حاجة إلى المساعدة ؟» .

لم تلتفت سويتي برأسها أو تقوم بإشارة تدل على أنها فهمت العرض . نظر الزوجان الواحد إلى الآخر ومصّا أسنانهما والزوج يعود لقيادة السيارة . لحسن الحظ كان الطريق ينحدر عند تلك النقطة ، وإلا فإن المرأة سيئة الحظ التي ركبت السيارة مجاناً كانت ستؤذي نفسها حين قفزت من مؤخرة الشاحنة . رأى الزوجان في المرآة العاكسة راكبة لم يعرفا أنها كانت معهما ، تركض لتلحق بالمخلوقة المثيرة للشفقة ذات التربية السيئة والتي لم تقل لهما حتى كلمة «لا ، شكراً» .

حين لحقت الفتاة ،التي كان قلبها آخذاً بالتحطم ، بالمرأة ، عرفت أنه ليس عليها أن تلمسها أو تكلمها أو تقحم نفسها في الفقاعة المصممة التي تحولت إليها المرأة . مشت عشر خطوات أو نحوها خلف المرأة وهي تتفحص العقبين الأسودين الجميلين فوق الحذاء الأبيض المهترئ . الثوب الأزرق ذو البلوزة المجعدة والجيوب المدلاة . شعر النائمة ـ المضغوط من

جهة والمشعث من الأخرى . وبين الحين والآخر كانت تصدر نشيجاً أشبه بقهقهة .

تحركتا بهذه الطريقة لأكثر من ميل . الماشية ذاهبة إلى مكان ما . الراكبة مجاناً لتذهب إلى أي مكان . الشبح وظله .

كان الصباح بارداً وغائماً . وكانت الريح تتغلغل في العشب العالي على كلا جانبي الطريق .

قبل خمسة عشر عاماً ، حين كانت الراكبة مجاناً ذات القلب المحطم في الخامسة من عمرها ، فقد أنفقت أربع ليالي وخمسة أيام تطرق على كل باب في بنائها .

«هل أختي هنا ؟» .

البعض قال لا والبعض قال : من ؟ البعض سألها : ما اسمك أيتها الفتاة الصغيرة ؟ ومعظمهم لم يفتح الباب إطلاقاً . كان ذلك في عام (١٩٥٨) ، حين كان الطفل يستطيع أن يلعب في كل أنحاء الأبنية الحكومية الجديدة في أمان .

في أول يومين ، بعد القيام بجولاتها على الطوابق أعلى ، فأعلى ، والتأكد أنها لم تفوت باباً واحداً ، راحت تنتظر ، «جين» أختها ستعود في أي وقت الآن ، لأن طعام الغداء على الطاولة : رغيف لحم ولوبياء وكتشأب وخبز أبيض ـ وكذلك إبريق مليء من «كول ـ ايد» في البراد . أشغلت نفسها بكتابي تلوين ، ومجموعة أوراق لعب ولعبة تمثل طفلة تبلل نفسها . شربت الحليب وأكلت رقائق البطاطا والموالح مع جلي التفاح ، وشيئاً فشيئاً كل رغيف اللحم . وحين أصبحت اللوبياء المكروهة هي كل ما تبقى من وجبة الغذاء ، كانت هذه قد أصبحت منكمشة وطرية إلى حد لا يحتمل .

في اليوم الثالث بدأت تفهم لم رحلت جين وكيف تستعيدها . نظفت أسنانها وغسلت أذنيها بعناية . كما كانت تشد السيفون في المرحاض بعد استعماله مباشرة وتطوي جاربيها داخل حذائها . أنفقت وقتاً طويلاً تمسح « كول ـ ايد » وتلتقط قطع الزجاج من الإبريق الذي تحطم حين حاولت رفعه من البراد . وقد تذكرت « لورنا دون » في علبة الخبز ولكنها لم تجرؤ على التسلق على كرسي لتصل إليها وتفتحها . كانت تلك صلواتها : إن فعلت كل شيء على النحو الصحيح دون أن يطلب منها أحد ذلك ، فإما أن جين ستدخل إلى البيت أو أن جين ستظهر لها وهي تقرع على أبواب الشقق! ستكون مبتسمة وقد مدت ذراعيها إليها .

في هذه الأثناء كانت الليالي رهيبة .

في اليوم الرابع ، وبعد أن استخدمت الفرشاة لتنظيف أسنانها اللبنية الثماني عشر حتى أصبحت فرشاة الأسنان حمراء من الدم ، حدقت إلى خارج النافذة عبر رذاذ المطر الدافئ ونظرت إلى الأشخاص الصباحيين الذاهبين إلى العمل ، والأطفال إلى المدرسة . ثم ولفترة طويلة لم يمر أحد . ثم مرت امرأة عجوز ترفع جاكيتاً رجالياً فوق رأسها لتتقي المطر الناعم . ثم ظهر رجل يرمي البذور في الأماكن العارية في الحشيش . ثم عبرت امرأة طويلة النافذة . دون معطف ولاشيء على رأسها ، لمست عينيها بقفا ذراعها ، والجزء الداخلي من رسغها . كانت تبكي .

فيما بعد في اليوم السادس ، حين جاء عامل الشؤون الاجتماعية ، فكرت في المرأة الباكية التي لم تكن تبدو كجين إطلاقاً ، ولم تكن حتى من اللون نفسه . ولكن قبل ذك ، في اليوم الخامس ، وجدت ـ أو رأت بالأحرى ـ شيئاً ما كان دائماً موجوداً أمامها طوال الوقت . وإذ شعرت بخيبة الأمل من صلواتها غير المستجابة ، وكانت لثتها الدامية والجوع قد نالا منها ،

فقد قررت التخلي عن الطيبة ، فصعدت على كرسي وفتحت علبة الخبز . على علبة «لورنا دونز» كان يستند مغلف عليه كلمة ميزنها فوراً : اسمها مكتوباً بأحرف كبيرة بأحمر الشفاه . فتحتها حتى قبل أن تمزق علبة الحلويات ، وأخرجت ورقة واحدة عليها كلمات أخرى مكتوبة بأحمر الشفاه . لم تستطع أن تفهم أي شيء سوى اسمها في الأعلى وكلمة «جين» في الأسفل ، وعلامات حمراء صارخة فيما بينهما .

طوت الرسالة وأعادتها إلى المغلف ثملة من السعادة ووضعته في حذائها وحملته باقي حياتها . لقد خبأت الرسالة أو قاتلت في سبيل أن تبقيها معها واستعادتها من سلال المهملات . كانت في السادسة ، تلميذة متحمسة في الصف الأول ، حين استطاعت أخيراً قراءة الصفحة بكاملها . مع الزمن ، أصبحت مجرد ورقة ملطخة بالأحمر الناري ، دون أن تكون كلمة واحدة منها قابلة للقراءة . ولكنها كانت الرسالة ، آمنة في حذائها ، والتي جعلت المغادرة مع عامل الشؤون الاجتماعية إلى المنزلين الأوليين من منازل الآباء المتبنين ممكنة . فكرت في المرأة الباكية آنئذ وباختصار ، وعلى نحو أكثر لاحقاً ، حتى جاء مشهدها كحلم محطم للقلب .

كانت الريح التي تحرك العشب تحمل الثلج الآن : نادراً ورملياً ولاذعاً كالزجاج . توقفت الراكبة مجاناً لتجذب شالا من حقيبتها الخاصة بالتخييم ، ثم عدت لتلحق بالمرأة الماشية وتلفه حول كتفيها .

ضربت سويتي بيديها حتى فهمت أنها كانت تدفأ ولا تمنع من شيء ما . لم تتوقف عن المشي ولا مرة واحدة ، بينما كان القماش الصوفي يُلف من حول كتفيها . تابعت التحرك وهي تضحك ضحكة خافتة ، أو هل كانت تبكي ؟

تذكرت الراكبة مجاناً المرور بمنزل كبير قبل أقل من نصف ساعة وهي

مختبئة بين الصناديق . إن ما يستغرق عشرين دقيقة في شاحنة سيستغرق من المشاة ساعات ، ولكنها ظنت أنهما ستتمكنان من الوصول إلى المكان قبل حلول الظلام . كانت المسألة هي البرد . والمسألة الأخرى كيف توقف المرأة الباكية ، تجعلها تستريح ، وما أن تصلا إلى المأوى ، ستدخلانه . عينان كتينك العينين لم تكونا غير مألوفتين . في المستشفيات تكونان للمرضى الذين يقضون نهارهم وليلهم وهم يمشون . في الطريق ، بحرية ، يمشي الناس بأعين كهذه إلى الأبد . قررت الراكبة مجاناً أن تقضي الوقت وهي تتكلم وبدأت بأن قدمت نفسها .

سمعت سويتي ما قالته ولأول مرة منذ أن غادرت منزلها ، تعثرت وهي تلتفت بوجهها المبتسم ـ أو الباكي ـ نحو الرفيقة التي لم تدعها . الخطيئة ، كما فكرت ، أنا أمشي إلى جانب الخطيئة وأتدثر بعباءتها . همهمت : «الرحمة» ثم ضحكت ضحكة صغيرة ، أو نشجت .

حين رأتا «الدير» ، كانت سويتي تشعر بالدفء . ورغم أنها لم تشعر بالبرد القارس يجتاح الطريق ، كانت تشعر بالراحة من الثلج الدافئ الذي يغطي شعرها ويملأ حذاءها . كانت ممتنة لكونها محمية بها على نحو واضح وغير مرتبطة بشكل الخطيئة السائر إلى قربها . كان الدليل على حالة الرحمة التي شملت سويتي هو إلى أي حد كان الثلج الدافئ يجلد الشكل ، يصمته ويجمده تاركاً إياه يتنفس بصعوبة ، وقادراً بالكاد على الاستمرار ، بينما هي ، سويتي ، تمشي دون انحناء عبر الريح اللاذعة .

بإرادتها خاضت سويتي الطريق نحو المدخل . ولكنها تركت الشيطان يفعل الباقي .

قالت المرأة التي فتحت الباب بعد القرع : «أوه!» وجذبتهما كلتيهما إلى الداخل .

بدت النسوة كالطيور أوالصقور لسويتي . كن ينقرنها وهن يخفقن بأجنحتهن . جعلنها تعرق . لو كانت أقوى ، وليست متعبة إلى ذلك الحد من النوبة الليلية في رعاية صغارها ، لكانت قد قاومتهن . وكما حدث ، ما كان ممكناً أن تفعل أي شيء سوى الصلاة . وضعنها في الفراش تحت العديد من البطانيات حتى أن العرق دخل أذنيها . رفضت أن تأكل أو تشرب أي شيء عرضنه عليها . كانت شفتاها مغلقتين ، وأسنانها مطبقة . بصمت وحماسة صلت لأجل الخلاص وشكرت سويتي ربها واستغرقت في نوم سكوني مضطرب . كانت بكاء الطفل هو من أيقظها وليس الارتعاش . وقد نهضت رغم ضعفها ، أو حاولت النهوض . آلمها رأسها وكان فمها جافاً . لاحظت أنها لم تكن في سرير بل على صوفا جلدية في غرفة مظلمة . كانت أسنان سويتي تطقطق حين دخل أحد الصقور بفم أحمر كالدم إلى الغرفة حاملاً مصباح الكيروسين . حاورتها بأعذب صوت ، كما قد يفعل شيطان ، ولكن سويتي ناجت « مخلصها » ، فغادر الغرفة . في مكان ما في المنزل تابع الطفل البكاء ، مالئاً سويتي بالنشوة : لم تسمع ذلك الصوت أبداً من أطفالها . لم تسمع ذلك النداء الواضح التواق الدائم الإيقاعي . كان أشبه بنشيد ، بترنيمة مهد ، أو الأوتار المنشطة للوصايا العشر . كل أطفالها كانوا صامتين . وفجأة في وسط الفرحة ، كانت غاضبة . الأطفال يبكون هنا بين هؤلاء الشياطين ولكن ليس في منزلها ؟

حين عاد اثنان من الصقور ، أحدهما يحمل صينية الطعام ، سألتها : « لماذا يبكي ذلك الطفل هناك ؟ » .

أنكرا ذلك بالطبع . كذبا عليها مباشرة خلال البكاء الذي كان يأتيها عبر الغرفة . حاول أحدهما أن يلهيها قائلاً :

« لقد سمعت أطفالاً يضحكون . يغنون أحياناً . ولكن لم أسمع بكاء أبداً » .

قوقأ الآخر .

ناضلت سويتي لتصرخ : « أخرجوني من هنا . أريد العودة إلى البيت » .

« سأصطحبك . ما أن تحمى السيارة » . لهجة الشيطان الماكرة نفسها .

قالت سويتي : « الآن » .

« خذي بعض الأسبرين وكلي شيئاً من هذا » .

« أخرجوني من هذا المكان الآن » .

قالت واحدة : « يالها من عاهرة » .

قالت الأخرى : « إنها الحمى فحسب . أغلقي فمك ، ألا تستطيعين ؟ » .

كان الصبر ، وإبعاد كل صوت باستثناء عتاب ربها الذي أخرجها من هناك . أولاً في سيارة حمراء صدئة تعطلت في الثلج عند نهاية المدخل ، وأخيراً راحت تسبح باسم الرب المقدس إذ رأت نفسها بين ذراعي زوجها .

كان مع آنا فلود . كانا في طريقهما من الدقيقة التي ناجت بها « منقذها » . سقطت سويتي حرفياً في ذراعي جف .

« ما الذي كنت تفعلينه هناك ؟ لم نستطع المرور طوال الليل . أين عقلك ؟ يا إلهي يا امرأة . يا حبيبتي . ماذا حدث ؟ » .

صرخ سويتي : « لقد جعلوني أفعل ذلك ، خطفوني يا إلهي ، خذني إلى البيت . أنا مريضة ، يا آنا ، وعليّ أن اعتني بأطفالي » .

« صه! لا تقلقي حول ذلك » .

« عليّ أن أفعل ذلك . علي أن أفعل ذلك » .

« كل شيء سيكون على ما يرام الآن . آرنيت عائدة إلى البيت » .

« شغلي السخان . أنا بردانة جداً . لم أنا بردانة إلى هذا الحد ؟ » .

* * *

حدقت سينيكا إلى السقف . كانت حشية السرير الصغير رقيقة جداً وقاسية . كانت البطانية الصوفية تخدش ذقنها ، وكانت كفاها تؤلمانها من جرف الثلج من المدخل . كانت قد نامت على أرضيات وألواح كرتونية وأسرة مائية تملأ النوم بالكوابيس ، ولأسابيع متواصلة في المرة الواحدة في المقعد الخلفي لسيارة إيدي . ولكنها لم تستطع أن تنام على هذا السرير النظيف الضيق الطفولي .

كانت المرأة الباكية قد تقلبت : في الليل وفي الصباح التالي أيضاً . أنفقت سينيكا الليلة كلها مستيقظة ، مصغية إلى مايفيس وجيجي . بدا المنزل كأنه ينتمي لهما ، رغم أنهما أشارتا إلى شخص ما يدعى « كوني » . طبختا لها ولم تكونا فضوليتين . وعدا عن مناقشة اسمها ـ ومن أين حصلت عليه ؟ ـ فقد تصرفتا وكأنهما تعرفان كل شيء عنها وكانتا سعيدتين إن بقيت . ولاحقاً ، في فترة العصر ، حين ظنت أنها ستقع أرضاً من الإرهاق ، أخذتاها إلى غرفة نوم فيها سريران .

قالت مايفيس : «خذي قيلولة . سأناديك حين يكون العشاء جاهزاً . أتحبين الدجاج المقلي ؟ » ظنت سينيكا أنها ستتقيأ .

لم تحبا الواحدة الأخرى إطلاقاً ، لذا عدلت سينيكا في توزيع ابتساماتها ولطفها . لو شتمت الواحدة وتلفظت بنكات قبيحة حول الأخرى ، كانت سينيكا تضحك . وحين كانت الأخرى تقلب عينيها في اشمئزاز ، كانت سينيكا ترمي نظرة متفهمة . كانت دائماً صانعة السلام . كانت الواحدة التي تقول نعم أو لا يهمني أو سأذهب . وإلا : ماذا ؟ قد لا يحبانه . قد تبكي . قد تغادر . لذا فعلت ما بوسعها لترضي ، حتى لو تبين أن الكتاب المقدس أثقل من الأحذية . ومثل جميع مسببي الإزعاج الأوليين ، فقد أرادهما كلاهما مباشرة . لم يكن لدى سينيكا مشكلة بقياس (١١)

«أديداس» ، ولكن برستون ، إنديانا ، لم تكن تزهو بالمكتبات ، سواء كانت دينية أو عادية . انعطفت إلى بلومينغتون ووجدت شيئاً يسمى «الكتاب المقدس الحيّ» ، وواحد دون صور ملونة ولكن بالكثير من الصفحات الفارغة لتسجيل تواريخ الميلاد والوفيات والزيجات وطقوس العماد . بدا شيئا رائعاً : لائحة من نشاطات الكاملة للأسر عبر السنين ، لذلك فقد اختارته . كان غاضباً ، بالطبع ، إلى حد كبير حتى أن ذلك أفسد متعته في حذاء الركض الأسود والأبيض المتقن .

«ألا تستطيعين القيام بأي شيء صحيح ؟ مجرد كتاب مقدس «صغير» ؟ وليس موسوعة ملعونة من الرب!» .

كان مذنباً حسب التهمة وقد عرفته لمدة ستة أشهر فحسب ، ولكنه كان يعرف مسبقاً كم كانت يائسة . لقد قبل الكتاب المقدس الضخم على أي حال وطلب منها أن تتركه مع الحذاء على المقعد مع اسمه ورقمه . لقد جعلها تكتبه وكأنها ستعاني من مشكلة في تذكر خمسة أرقام متتالية . كانت قد جلبت سندويشات لحم خنزير أيضاً (قالت رسالته إنه يمكن لهم أن يتناولوا غداء من النوع الذي يتم تناوله في النزهات في قسم الزوار) ولكنه كان عصبياً جداً وغاضباً جداً . بحيث لم يستطع الأكل .

بدا الزوار الآخرون وكأنهم يقضون وقتاً طيباً مع سجنائهم . كان الأطفال يغيظون واحدهم الآخر ، ويلتفون على أنفسهم بين أذرعة الآباء ، ويلعبون بوجوههم وشعرهم وأصابعهم . كانت النساء والفتيات يلمسن الرجال ويهمسن ويضحكن عالياً . كن المحترفات : اللواتي كن متعودات على سائقي الباص والحرس ومستخدمي عربة القهوة . كانت عيون السجناء لطيفة من السرور . لاحظوا كل شيء ، وعلقوا على كل شيء . كان أولاد صغار يجلبون بطاقات التقارير في مغلفات بنية سميكة . المشابك في شعور

الفتيات الصغيرات . حالة معاطف النساء . استمعوا بعناية إلى تفاصيل حول الأصدقاء والأسرة غير الموجودين هناك . تلقوا النصح والإرشادات لكل جزء من الأخبار المحلية . بدوا ذوي رجولة هائلة لسينيكا : كانوا قياديين في إدارتهم للزيارة . أين يكون الجلوس ، وأين يضعون لفات الورق ، إلى الاستشارة الطبية والكتب التي يجب أن ترسل . ما الذي لم يكونوا يتحدثون عنه كان ما يجري في الداخل ، ولم يقروا أبداً بوجود الحراس . ربما كانت « أتيكا » في أذهانهم .

ربما ، كما فكرت ، ومع انقضاء جملته ببطء وتثاقل ، فإن « إيدي » سيكون كذلك . ليس غاضباً ، يشعر أنه ضحية ، كما حدث في أول زيارة لهما منذ أن استدعي إلى المحكمة للإجابة عن تهمة . كان يئن ويلوم . الكتاب المقدس ضخم جداً إلى حدّ أنه أحرجه . الخردل بدل المايونيز على السندويشات . لم يكن راغباً في سماع أي شيء حول عملها الجديد في كافتريا مدرسية . كان مهتماً بصوفي وبرنارد فقط : طعامهما . هل كانت تخرجهما ليلاً ؟ كانا في حاجة إلى عدو طويل جيد . أن يستخدما خطميهما فقط حين يكونان في الخارج .

تركت إيدي تيرتل في قاعة الزوار وهي تعده بأربعة أشياء . أن ترسل صوراً للكلبين . أن تبيع الستيريو . أن تحضر أمه لصرف على صكوك التوفير نقداً . أن تهتف إلى المحامي . أن ترسل وتبيع وتحضر وتهتف . هكذا ستتذكر .

وبينما كانت سينيكا متجهة نحو موقف الباص ، تعثرت ووقعت على ركبة واحدة . تقدم أحد الحراس وساعدها على النهوض .

« انتبهي يا آنسة » .

« آسفة . شكراً » .

« كيف تتوقعن أنتن الفتيات أن تمشين في تلك الأشياء ، لا أعرف » .
« من المفروض أن تكون جيدة في نظركم » ، قالت مبتسمة .
« أين في هولندا ؟ » ضحك بلطف كاشفاً عن صفين من الحشوات الذهبية .
عدّلت سينيكا حقيبتها الخيطية وسألته : « كم تبعد ويتشيتا عن هنا ؟ » .
« هذا يعتمد على طريقة السفر . في سيارة يستغرق الأمر عشر أو اثنتي عشرة ساعة . بالباص فترة أطول » .
« أوه » .
« هل لك أسرة في ويتشيتا ؟ » .
« أجل . لا . حسناً ، صديقي لديه . سأذهب لأزور أمه » .
رفع الحارس قبعته ليملّس قصة شعره البحارية . قال « هذا لطيف . شواء جيد في ويتشيتا . تأكدي من حصولك على بعضه » .
في مكان ما من ويتشيتا ربما كان هناك شواء جيد جداً ولكن ليس في منزل السيدة تيرتل . كان منزلها نباتياً جداً . لم يظهر شيء له حوافر أو ريش أو صدفة أو حراشف على مائدتها . سبعة أنواع من الحبوب وسبعة أنواع من الخضار : كلي واحداً من كل نوع (واحدا فقطً) كل يوم ، وتعيشين إلى الأبد . وكانت تنوي ذلك ، وثم لا ، لم تكن تنوي صرف صكوك التوفير التي تركها لها زوجها لصالح أي شخص كان ، ناهيك عن شخص صدم بسيارته طفلاً وتركه هناك ، حتى لو كان ذاك الشخص ابنها الوحيد .
« أوه ، لا ، سيدة تيرتل . لم يكن يعرف أنه طفل صغير . حسبه إيدي... » .

«ماذا ؟» سألت السيدة تيرتل . «ما الذي حسبه إيدي ؟» .

«نسيت ما قاله لي ، ولكني أعرف أنه ما كان ليفعل ذلك . إيدي يحب الصغار . إنه كذلك بالفعل إنه لطيف جداً في الواقع . لقد طلب مني أن أحضر له الكتاب المقدس» .

«يكون قد باعه الآن» .

أشاحت سينيكا نظرها . لمعت شاشة التلفزيون . وعليها كان رجال بوجوه جادة يكذبون بنعومة وكياسة الواحد للآخر .

«أيتها الفتاة الصغيرة ، أنت عرفته لفترة أقصر من فصل زراعي . وأنا عرفته طوال حياته» .

«أجل يا سيدتي» .

«أتعتقدين أني سأدعه يضعني في مأوى الفقراء حتى يستطيع محام ماكر أن يبقى غنياً ؟» .

«لا يا سيدتي» .

«هل كنت تتفرجين على محامي ووترغيت تلك ؟» .

«أجل يا سيدتي . لا يا سيدتي» .

«حسناً إذن . لا تقولي كلمة أخرى حول ذلك . هل تريدين بعض العشاء أم لا ؟» .

كانت الحبوب خبز قمح . والخضار لفتاً . وساعد الشاي الثقيل المثلج على هضمهما .

لم تعرض السيدة تيرتل سريراً لقضاء الليل ، لذا حملت سينيكا حقيبتها وسارت في الشارع الهادئ في هواء ويتشيتا المسائي الناعم . لم تكن قد تركت عملها لتقوم بهذه الرحلة ، ولكن رئيسها أوضح لها أن غياباً سريعاً كهذا لم يكن ميزة لمستخدمة جديدة . ربما قد سبق لها وطردت من

عملها . ربما ستدعها السيدة تيرتل تهتف لزميلاتها في الغرفة لتعرف إن كان أحد ما قد هتف ليقول : «لا تكترثي بالعودة» . عادت سينيكا متقفية آثار خطواتها .

عند الباب ، رفعت براجمها لتطرق الباب ، فسمعت نشيجاً . إنه بكاء خفيف لأم عاجزة : صوت لا شبيه له في العالم . خطت سينيكا نحو الخلف ، ثم ذهبت إلى النافذة وهي تضغط يدها اليسرى على صدرها لتهدئ من روع قلبها . أبقتها هناك متخيلة صماماته الحمراء الصغيرة تفأفئ وتتعثر وتحاول العودة إلى الخط وهي تنزل الدرجات الآجرية خارجة إلى الممشى الجانبي ، ملتفة حول الشوارع الترابية ثم المرصوفة بالحصباء ثم البيتون طوال الطريق حتى محطة الباصات . وحين جلست متصالبة الساقين على مقعد بلاستيكي مقولب ، عندها فحسب استسلمت للعويل الذي استمر في رأسها لوحدها ، دون شاهد ، كانت السيدة تيرتل قد تخلت عن عقلها وشخصيتها ، وزعقت للعالم كله شأن الحيوانات ذات الريش والزعانف والأظلاف التي لم تذق طعم لحمها أبداً : كما يفعل النورس أو أنثى الحوت أو الذئبة الأم إن اختطف منها صغيرها . كانت يداها في شعرها . وكان فمها مفتوحاً في وجه مبلل .

توقفت سينيكا عن النشيج بأنفاس مبهورة وفم جاف . اندفعت عبر شوارع عريضة وضيقة وأبطأت حين اقتربت من القسم التجاري من المدينة لدى دخولها المحطة اشترت فستقاً وشراب جنجر إيل من آلات البيع وكانت آسفة على الفور ، حيث أنها كانت ترغب في شيء حلو وليس مالحاً . جلست على مقعد في غرفة الانتظار بكاحلين متصالبين وركبتين مفتوحتين . وضعت الفستق في جيبها وارتشفت الجنجر إيل . وأخيراً هدأ روعها وأصبحت صرخات المرأة المتألمة غير ممكن تمييزها عن ضجة السير اليومية .

اقترب حلول الظلام وكانت المحطة مزدحمة مثل موقف قطارا لصباح . لم يكن نهار أيلول (سبتمبر) الدافئ قد برد بعد حين غربت الشمس . لم يكن هناك فرق كبير بين الهواء الثقيل لغرفة الانتظار والهواء في الخارج . بدا الركاب ومرافقوهم هادئين ، غير مهتمين إلا بالكاد برحلة الوداع . كان معظم الأطفال نائمين ، على الجحور والأمتعة والمقاعد . أولئك الذين لم يكونوا نائمين ، كانوا يعذبون أي شخص يستطيعون تعذيبه . كان الكبار يعبثون بأصابعهم بالبطاقات ويمسحون الرطوبة من أعناقهم ويرتبون على الأطفال ويهمهمون واحدهم للآخر . كان الجنود وحبيباتهن يقرأون في الجداول الموضوعة خلف الزجاج . كان أربعة مراهقين يضعون قلنسوات مخروطية الشكل على رؤوسهم يغنون بهدوء قرب آلات البيع . كان رجل في بزة السائقين الرمادية يتمشى قاطعاً الأرضية وكأنه يبحث عن راكبه . وكان هناك رجل وسيم في كرسي متحرك يقود كرسيه برشاقة عبر المدخل ، دون أن ينزعج إلا قليلاً من تصميم الباب .

كان أمام سينيكا ساعتان وعشرون دقيقة قبل أن يغادر باصها ، لذلك تساءلت إن كانت ستنفق هذا الوقت في إحدى دور السينما التي مرت بها . كانت الخيارات الساخنة هي «سيربيكو» أو «طارد الشياطين» أو «اللسعة» ، ولكنها شعرت أنها ستكون خائنة لو رأت أياً منها دون ذراع «إيدي» من حول كتفها . تنهدت سينيكا بقوة وهي تفكر بورطته وبجهودها المتعثرة لمساعدته ، ولكن لم يكن هناك خطر البكاء . لم تكن قد ذرفت دمعة واحدة حتى حين رأت رسالة جين قرب «لورنا دونز» . وبما أنه تم الاعتناء بها جيداً وكانت محبوبة ربما من قبل الأمين كلتيهما في كلا المنزلين اللذين تبنياها ، فقد عرفت أن الأمين لم تكونا موافقتين عليها هي ذاتها بل على حقيقة أنها كانت تتلقى اللوم بهدوء ، وتأكل ما تعطى ، وتشارك فيما كانت تملكه ولم تكن تعرف البكاء حتى .

كان الجنجر إيل يقعقع في المصاصة حين وقف السائق أمامها وابتسم .

«عفواً يا آنستي . هل يمكن أن أتحدث إليك لبرهة ؟» .

«طبعاً . أعني طبعاً» . تنحت سينيكا جانباً لتعطيه حيزاً على المقعد ، ولكنه لم يجلس .

«أنا مفوض بمنحك بمنحك خمسمائة دولار لأجل بعض العمل المعقد إنما السهل جداً ، إن كنت مهتمة» .

فغرت سينيكا فمها لتقول : معقد وسهل ؟ كانت عيناه غائمتين رماديتين وأزرار بزته تلتمع كالذهب القديم .

«أوه ، لا . شكراً ، ولكني سأغادر هذا المكان ، باصي يغادر خلال ساعتين» .

«أفهم ذلك . ولكن العمل لن يستغرق وقتاً طويلاً . ربما لو تكلمت مع ربة عملي ـ هي في الخارج هنا ـ فقد تستطيع أن تصف لك العمل . ما لم تكوني على عجلة من أمرك ؟» .

«ربة عملك ؟» .

«أجل . السيدة فوكس . تفضلي من هنا . هذا سيستغرق دقيقة واحدة فقط» .

ارتجف محرك سيارة الليموزين تحت أنوار الشارع اللامعة على بعد ياردات قليلة من مدخل المحطة . حين فتح السائق الباب ، التفت رأس امرأة جميلة جداً نحو سينيكا .

«مرحباً . أنا نورما . نورما كين فوكس . ابحث عن بعض العون» . لم تمد يدها ، ولكن ابتسامتها جعلت سينيكا تريدها أن تفعل ذلك . «هل يمكنني أن أحدثك عن الموضوع ؟» .

كانت البلوزة البيضاء الكتانية التي ترتديها دون أكمام . وكانت

تنورتها البيج طويلة . وحين فكت تصالب ساقيها ، رأت سينيكا صندلاً لامعا ًوأظافر أصابع قدم مطلية بلون المرجان . اندفع شعر له لون الشمبانيا إلى الخلف وراء أذنين دون أقراط .

سألت سينيكا : «أي نوع من العون ؟» .

«أدخلي وسأشرح لك . من الصعب التحادث عبر باب سيارة مفتوح» .

ترددت سينيكا .

كانت ضحكة السيدة فوكس كومة دافئة من الأجراس . «حسناً يا عزيزتي . لست مضطرة إلى القيام بهذا العمل إن كنت لا تريدينه» .

«لم أقل إني لا أريده» .

«حسناً إذن . هيا . هنا الجو أبرد» .

كانت طقة الباب ناعمة إنما عميقة ، وكان عطر «بال أ فرساي» الذي تضعه السيدة فوكس ليقاوم .

قالت : شيء سري . لاشيء غير قانوني بالطبع ، مجرد خصوصي . هل تطبعين على الآلة الكاتبة ؟ قليلاً ؟ أريد شخصاً غريباً عن هذا المكان . آمل أن تكون الخمسمائة كافية . أستطيع أن أرفع المبلغ لفتاة ذكية فعلاً . سيوصلك دافيد بالسيارة إلى محطة الباص في طريق العودة حتى لو قررت ألا تقومي بالعمل .

عندئذ أدركت سينيكا أن الليموزين ما عادت متوقفة . كانت الأنوار الداخلية ما تزال مضاءة . كان الجو بارداً . وكانت الليموزين تعوم .

كان هذا جزءاً جميلاً من العالم ، كما تابعت نورما كلامها . ولكنه ضيق الأفق إن فهمت ما أعنيه . ومع ذلك فلن أقبل أن أعيش في أي مكان آخر . لا يصدقني زوجي ولا أصدقائي ، لأني من الشرق . حين أعود إلى هناك سيقولون «ويتشيتا» ؟ هكذا . ولكني أحب المكان . من أين أنت ؟ لقد

ظنت ذلك . لا يرتدون مثل هذا الجينز هنا . إلاّ أن عليهم أن يفعلوا ذلك . على أي حال ، لو كانوا يستطيعون . كما تفعلين . ابني في « رايس » . يعمل الكثير من الناس لأجلنا ، ولكن فقط حين يكون « ليون » بعيداً ـ ليون هو زوجي ـ وعندها فقط أستطيع إنجاز أي شيء . وهنا يأتي دورك ، لو وافقت ، كما أعني . هل أنت متزوجة ؟ حسناً ، ما أحتاج إلى فعله يحتاج إلى فتاة ذكية . أنت لا تستعملين أحمر الشفاه ، أليس كذلك . جيد . شفتاك جميلتان هكذا . لقد قلت لدافيد أن عليه أن يجد فتاة ذكية . ليس فتيات مزارع . لا ملكات الملابن ، إنه جيد جداً . لقد وجدك . مكاننا خارج البلدة بمسافة . لا ، شكراً . لا أستطيع هضم الفستق . يا إلهي ، لابد أنك جائعة جداً . حسناً سنتناول عشاء جيد جداً وسوف أشرح لك ما أريد فعله . إنه بسيط جداً إن استطعت اتباع التعليمات . إنه عمل سري ، لذلك أفضل استئجار شخص غريب وليس محلياً . هل هذه رموشك الحقيقية ؟ يا إلهي . دافيد ؟ هل تعرف إن كانت « ماتي » قد طهت عشاء حقيقياً الليلة ؟ ليس سمكاً على ما آمل ، أو هل تحبين السمك ؟ التراوت رائع في كنساس . أعتقد أن بعض الدجاج المقلي قد ينفع . لدينا دواجن جيدة التغذية هنا . وهي تأكل أفضل من معظم الناس . لا ، لا ترميها . أعطني إياها . من يعرف ؟ فقد تلزم .

أنفقت سينيكا الأسابيع الثلاثة التالية في غرف جميلة مع نورما الجميلة وطعام أجمل من أن يؤكل . سمتها نورما بأسماء حلوة جداً ولكنها لم تسألها مرة واحدة عن اسمها . لم يكن الباب الأمامي مقفلاً أبداً وكانت قادرة على المغادرة في أي وقت تشاء . لم تكن مضطرة إلى البقاء هناك ، منتقلة من ريش الطاووس إلى الذل المقنط ، من الدلال إلى الاستغلال العابث ، من فطائر الكافيار إلى القذارة . ولكن الألم كان يؤطر السرور ويمنحه حداً ماضياً . الذل جعل الاستسلام عميقاً ولطيفاً وطويل الأجل .

حين هتف ليون فوكس مبلغاً عن عودته الوشيكة ، أعطتها نورما الخمسمائة دولار وبعض الملابس ، بما فيه شال الكشمير . وكما وعدتها ، فقد أوصلها دافيد بالسيارة إلى محطة الباصات ، وأزراره تلمع على نحو رائع في نور الشمس . لم يتكلما خلال الرحلة .

تجولت سينيكا في ويتشيتا لساعات . توقفت عند المقهى ، وارتاحت في حديقة المدينة . كانت ضائعة لا تعرف أين تذهب أو تفعل . هل تحصل على عمل قريب من السجن وتقف إلى جانبه ؟ أي أن تتبع تعليماته وتعتذر لعدم الحصول على مدخرات أمه . أتعود إلى تشيكاغو ؟ أتعود لتستأنف حياتها كما كانت قبل تعرفها على إيدي ؟ أصدقاء فوريون . وظائف سريعة . سكن مؤقت . غذاء مسروق . كان إيدي تيرتل حياة مستقرة لها لمدة ستة أشهر ، والآن هو قد رحل . أم هل أن عليها أن تتابع مسيرتها ؟ لقد التقطها السائق لأجل نورما وكأنها جرو تائه . لا ، وليس حتى ذاك . ولكن كحيوان مدلل تريد أن تلعب معه لفترة من الزمن ـ فترة قصيرة ـ ولكن دون أن تحتفظ به . لا تحبه . لا تسميه . بل تطعمه فحسب وتلعب معه ، ثم تعيده إلى بيئته الأصلية . كان معها خمسمائة دولار ، وعدا إيدي ، لم يكن أحد يعرف أين كانت . ربما عليها أن تبقي الأمر هكذا .

لم تقرر سينيكا الكثير حين شاهدت أول مكان تختبئ فيه : صندوق شاحنة محمل بأكياس الإسمنت . حين اكتشفها السائق أمسك بها أمام دولاب ، ووصل أسئلته وسبابه وتهديداته بغزل رقيق . لم تقل سينيكا شيئاً في البداية ، ثم رجته فجأة أن يمنحها الإذن لتذهب إلى الحمام . «عليَ أن أذهب . مضطرة» . تنهد السائق وأطلق سراحها وهو يهتف بتحذير نهائي وراءها . وقد ركبت مجاناً عدداً قليلاً من المرات بعد ذلك ، ولكنها كرهت جداً الحوار الضروري حتى أنها رضيت خطر الاختباء في الشاحنات . كانت

تفضل السفر بتصميم إلى لا مكان ، بعيداً عن المجتمع ، مختبئة بين الشحنات الهادئة . لا أحد يعرف بوجودها . وحين وجدت نفسها في بيك آب موديل عام (١٩٧٣) جديد تماماً ، فقد قفزت منها لتلحق بسيدة دون معطف ، وكان ذلك أول عمل تفعله دون تعليمات .

المرأة الباكية ـ أول هل كانت تضحك ؟ ـ كانت قد رحلت الآن . توقف الثلج . في الطابق السفلي كان شخص ما ينادي اسمها .

«سينيكا ؟ سينيكا ؟ تعالي يا طفلتي نحن في انتظارك» .





ديفاين



«فلأخبركم عن الحب ، تلك الكلمة الحلوة التي تعتقدون أنها بشأن ما إذا كنتم تحبون شخصاً ما أو ما إذا كان شخص يحبكم أو ما إذا كنتم تستطيعون تحمل شخص ما للحصول على شيء ما أو أنه مكان ما تريدون أو تعتقدون أن له علاقة بكيفية استجابة جسدكم لجسد آخر مثل طائر أبي الحناء أو الجاموس البري أو ربما تعتقدون أن الحب هو كيف أن القوى أو الطبيعة أو الحظ كريمة معكم على نحو خاص فلا تشوهكم أو تقتلكم ولكنها لو فعلت ذلك فذلك لصالحكم بالذات .

«ليس الحب أي من هذه الأمور كلها . لاشيء في الطبيعة مثله . ليس في أبي الحناء أو الجاموس الوحشي أو في الذيول المهتزة بعنف لكلاب الصيد خاصتكم وليس في البراعم أو المهر الرضيع . الحب مقدس فحسب وصعب دائماً . ولو ظننتم أنه سهل لكنتم حمقى . لو ظننتم أنهم طبيعي فأنتم عميان . إنه التطبيق المكتسب بالتعلم دون منطق أو دافع باستثناء أنه الرب .

«أنتم لتستحقون الحب بغض النظر عن المعاناة التي مررتم بها . لا تستحقون الحب لأن شخصاً ما أخطأ في حقكم . أنتم لا تستحقون الحب

لمجرد أنكم ترغبون به : تستطيعون فقط أن تكسبوا ـ بالممارسة والتأمل الحريص ـ حق التعبير عنه وعليكم أن تتعلموا كيف تقبلونه . أي عليكم أن تكسبوا الرب . عليكم ممارسة الرب عملياً . عليكم أن تفكروا بالرب : بعناية . ولو كنت طالباً مجداً ومجتهداً فقد تضمن الحق في إظهار الحب . الحب ليس هدية . إنه شهادة تخرج . شهادة تخرج تمنح بعض المزايا : مزية التعبير عن الحب ومزية تلقيه .

« كيف تعرفون أنكم قد تخرجتم ؟ لا تعرفون . الذي تعرفونه هو أنكم بشر وبالتالي قابلون للتثقيف وبالتالي قابلون للتعلم وبالتالي فأنتم مهمون للرب ، الذي هو مهتم بنفسه فقط أي أنه مهتم فقط بالحب . هل تفهمونني ؟ الرب ليس مهتماً بكم . إنه مهتم بالحب وبالبركة التي يجلبها الحب لأولئك الذين يفهمون ذلك الاهتمام ويشاركون فيه .

«الأزواج الذين يدخلون السر المقدس للزواج وهم غير مستعدين لقطع المسافة أو غير راغبين في التصالح مع الرب الحقيقي لا يمكنهم أن يلاقوا النجاح . وقد يلتصقون الواحد بالآخر مثل طيور أبي الحناء أو النوارس أو أي شيء آخر يتزوج مدى الحياة . ولكنهم لو اتبعوا هذا الطريق القوي ، في هذه اللحظة ـ حين يحكم على الجميع بسبب تصرفهم بحيواتهم الأبدية ، فإن التصاقهم لن يعني أي شيء . يبارك الرب الأنقياء والأتقياء . آمين » .

كانت بعض هتافات « آمين » التي رافقت وتبعت القس سينيور بوليام عالية وأخرى ممتنعة . البعض لم يفتح فمه إطلاقاً . السؤال ، كما فكرت أنا ، لم يكن لماذا وإنما من . من كان بوليام يهاجم ؟ هل كان يوجه ملاحظاته إلى الشبان ، محذراً إياهم حتى يقوّموا حيواتهم الأنانية ؟ أو هل كان يستهدف آباءهم لسماحهم بالقلق والتحدي لدى الشباب مما كان يقلقه حتى قبل ظهور تلك القبضة على « الفرن » ؟ على الأرجح ، كما فكرت ، كان

هو يثقل بثقافته الميثودية على ريتشارد . إنها صخرة يكسر بها رسالة الرب خاصة زميله كمحرك داخلي دائم ، ما أن ينطلق مرة حتى يزمجر ويهر ويتحرك لتقوم بعملك وعمل الرب : ولكن لو كان خامداً وصدئاً فإنه يثبط الروح كقبضة جليدية .

لابد أن الأمر على هذه الحال ، فقد كان بوليام يستهدف ميسنر . ولأنه لن يقف حتماً أمام العروس والعريس ـ كقس ضيف يطلب منه إبداء قليل (قليل!) من الملاحظات قبل الاحتفال أمام مجموعة مؤلفة من كل سكان روبي ، ولكن ثلثهم فقط أعضاء في كنيسة بوليام ـ ويخيفهما حتى الموت في يوم زفافهما . لأنه لن يهين حتماً أم العروس وزوجة أخيها ، اللتين كانتا ترتديان كمعطف كآبة الاعتناء بالأطفال المحطمين ، واللتين لم تكتفيا بمعاقبة الرب لتلك الضربة القاضية لكل شيء حلمتا به ولكن بدا عليهما أنهما تزدادان قوة مع مرور كل عام . ورغم أن العريس كان يتيم الأبوين ، إلا أن بوليام لم يكن ينوي إحراج زوجتي خاليه : أن يضع أقدام تينك المرأتين الورعتين في النار لاهتمامهما (الكثير على ما يبدو) بـ«الابن الوحيد» الذي قد يتاح للأسرة إنجابه ، وبما أن ابنيّ سوآن قد توفيا كلاهما ، ودافي لم يكن لديها أولاد ، ولا يمكن السماح للحداد على أي من هاتين الخسارتين أن يمزقهما أو يغلق قلبيهما . حتماً لا . وحتماً فإن بوليام لم يكن يحاول أن يثير غضب خالي العريس ، ديكون وستيوارد ، اللذين تصرفا وكأن الرب كان شريكهما الموصي التجاري . بدا بوليام دائماً كأنه معجب بهما ، مشيراً باستمرار إلى أنهما ينتميان إلى «تسيون» وليس «كالفاري» ، حيث كان عليهما أن يصغيا إلى المواعظ الصبيانية لرجل كان يظن التعليم أن تترك الأطفال يتكلمون وكأن لديهم شيء هام يقولونه لم يسمعه العالم ويتعامل معه على نحو مسبق .

من غيره سيشعر بلسعة «الرب ليس مهتماً بكم» . أو يجعل من لذعة «إذا ظننتم أن الحب طبيعي فأنتم عميان» . من سوى ريتشارد ميسنر الذي كان عليه الآن أن يقف ويترأس أهم حفلة زفاف يمكن لأحد تذكرها ، تحت الأنفاس اللاهبة لسينيور بوليام «لا تأخذوا أي أسرى» ؟ ما لم يكن يتحدث إليها بالطبع ويقول لها : التصقي بالآخر إن أردت ، ولكن إن لم تلتصقي بالرب (أي رب بوليام) فإن زواجك لن يستحق الرخصة . لأنه كان يعرف أنها وريتشارد كانا يتحدثان عن الزواج ، وكان يعرف أنها ساعدته على تنظيم شؤون العصاة الشباب . «كونوا التغضينة» .

كان نعناع روغ يطغي على ترتيبات الزهور حول المذبح . كانت كتل منه ، مع نبات القبس المسمى ويليام الحلو البري ، تنمو تحت نوافذ الكنيسة التي كانت مفتوحة عند الساعة الحادية عشرة للشمس المتسلقة . كان النور المتساقط من سماء نيسان (أبريل) هدية . داخل الكنيسة كانت المقاعد المصنوعة من خشب القيقب ، والمصقولة حتى التمعت بالمعيار العسكري للالتماع ، على نحو ملائم للجدران البيضاء كالربيع والمنبر غير البارز ، والمظهر المريح الأشبه بالأوتاد للدرابزون ، حيث يستطيع المتناولون الركوع للترحيب بالروح مرة أخرى . فوق المذبح ، وعالياً في فراغه النظيف النقي ، كان معلقاً صليب من السنديان بطول ثلاثة أقدام . منظماً . غير مثقل . لا يوجد ذهب ينافسه في كماله أو يشوش توازنه . لا إكليل أو إغماء لجسد المسيح ينفخ في رعده الغنائي الشاعري .

لم تضع نساء روبي المساحيق على وجوههن ولا هن يستخدمن عطر البغايا . لذلك كانت رائحة النعناع الشهوانية والويليام الحلوة تبث الاضطراب في الحشد ، وتجعله يترنح توقعاً للوقت الطيب مع الكثير من الطعام في منزل سوآن مورغان . وستكون هناك موسيقى لأي شخص : جولاي على البيانو

العامودي . جوقة الذكور . سولو غنائي من كايت غولايتلي . رباعي الهولي ريديمر . غلام بعينين حالمتين اسمه «برود» على السلم مع الهارمونيكا . سيكون هناك ضغط الملابس الجيدة ، الملابس الحريرية والقمصان المنشاة المنسية والناس تتكئ على الأشجار وتجلس على العشب ، مع حصص ثانية سيئة التدبير من بازلاء الكريمة . ستكون هناك صرخات الأطفال الثمالى من السُكّر ، وخشخشة أوراق تغليف هدايا الزفاف المختطفة من الأرض والمطوية على نحو شديد الترتيب حتى تبدو أكثر قيمة من الهدايا التي تحويها . كان المزارعون وأصحاب المزارع والنساء اللواتي يزرعن القمح سيسمحون بأن يُجذبوا بعنف من كراسيهم وأن يصفقوا في خطوات رقص مكررة منذ آماد بعيدة . المراهقون سيضحكون ويرمشون بأعينهم في جهد لإخفاء رغباتهم .

ولكنهم كانوا يتطلعون إلى ما هو أكثر من المتعة والأطفال المنتشين بكعكة الزفاف ، أي إلى اتحاد أسرتين وإلى نهاية للعداء الذي كان قد تشرب في أعضاء وأصدقاء العائلتين منذ أربع سنوات . العداء الذي تركز على الطفل المحتمل الذي لم تعترف به العروس ولا صرحت عنه ولا ولدته .

والآن وقد جلسوا ، كما فعلت آنا فلود ، فقد راحوا يتساءلون عما يفعله القس بوليام . لماذا يرمي بطيلسانه الآن ؟ ولماذا يجعل رائحة النعناع والقبس تتلاشى ؟ لماذا يجعل طعم لحم الحمل وفطائر الليمون المنتظرة دون نكهة ؟ لماذا يشوش الاتساق ويزعزع السلام الذي حققه هذا الزواج ؟

نهض ريتشارد ميسنر من مقعده . كان منزعجاً . لا بل كان غاضبا . غاضبا إلى حد أنه لم يستطع أن ينظر في عيني زميله الواعظ ويجعله يرى كم كان الجرح عميقاً وخلال تعليقات بوليام كان يحدق دون تعبير إلى قبعات عيد الفصح الخاصة بالنساء الجالسات في المقاعد . في وقت مبكر من ذلك

الصباح كان قد خطط لخمس أو ست جمل افتتاحية تكون منطلقاً لطقوس الزواج ، وقد صاغها بعناية حول «سفر الرؤيا» ١٩ : ٧ ، ٩ مع التركيز على صورة «عشاء الزواج من لحم الحمل» ، مقولباً إياه لتكشف الوفاق الذي يعد به هذا الزفاف . كان قد شابك «سفر الرؤيا» مع «متى ١٩ : ٦» : «ومن هنا لم يعودا اثنين ، إنما جسد واحد» ، ثم يختم ليس بإخلاص الزوجين للواحد للآخر بل بالمسؤوليات المشتركة لآل مورغان وآل فليتوود .

والآن راح ينظر إلى الزوجين الواقفين بصبر أمام المذبح ويتساءل إن كانا قد فهما أو حتى سمعا ما كان قد ألقي عليهما . فيما يخصه هو ، فقد فهم . عرف أن وجهة النظر القاتلة هذه التي تخص عمله المختار كانت هجوماً متعمداً على كل ما آمن به . وفجأة فهم غضب أوغستين وشاركه في غضبه من «القس المعتد بنفسه» الذي صنفه مع الشيطان . كان أوغستين قد تابع قائلاً «إن رسالة الرب لم تكن مفسدة من قبل الرسول . ولو كان على [[النور]] أن يمر عبر الكائنات المدنسة ، فهو نفسه ليس مدنساً» . ورغم أن أوغستين لم يكن قد قابل سينيور بوليام ، إلا أنه قد عرف لابد قساوة من أمثاله . ولكن إحالته لهم إلى صحبة الشيطان لم تكن تعترف بالضرر الذي تسببه الكلمات المنطوقة من منبر . ما الذي سيقوله أوغستين كعقار مسكّن للسم الذي نشره بوليام للتو فوق كل شيء ؟ فوق رؤوس رجال يجدون من الصعب محاربة غرائزهم للتحكم بما يستطيعون ويسحقون بأسنانهم ما لا يستطيعون . في قلوب النساء اللواتي كن يروّضن المفترس دون كلل ؛ في وجوه الأطفال الذي لم يشفوا بعد من الضربة الموجهة إلى كرامتهم حين يعلمون أن الراشدين لا يعتبرونهم كائناتٍ بشرية حتى يتعاشروا كالأزواج ؛ عن العروس والعريس المتجمدين هناك ، التواقين لهذه

الرابطة أمام العموم للتخفيف من عارهما الخصوصي . كان ميسنر يعرف أن كلمات بوليام كانت توسيعاً للحرب التي أعلنها على نشاطات ميسنر : إغراء الشباب للتقدم خطوة خارج الجدار ، خارج حدود البلدة ، ورعايتهم وإجبارهم على التجاوز والتفكير بأنفسهم كمحاربين في حرب أهلية . كما عرف أيضاً أن السر العمومي حول طفل لم يولد أبداً كان ينخس عبر أسس النزاع كالمخلب .

خطرت لميسنر اللغة المناسبة لذهنه ، ولكنه إذ لم يكن واثقا من نفسه إلى حد إلقائها دون كشف ألمه الشخصي العميق ، فقد مشى مبتعداً عن المنبر ، إلى الجدار الخلفي للكنيسة . وهناك تطاول حتى وصل إلى فك الخطاف الذي يربط الصليب المعلق هناك . حمله عندئذ ، عبر مقعد الجوقة الفارغ ، عبر الأرغن حيث كانت كايت جالسة ، والكرسي الذي كان بوليام يجلس عليه ، وحتى المقرأ وحمله أمامه ليراه كل الناس : لو شاؤوا فحسب . ليروا ما كان بكل تأكيد أول دليل قام أي بشري في أي مكان بإعطائه : الخط العمودي ، الخط الأفقي . وحتى كأطفال ، كانوا يرسمونه بأصابعهم في الثلج أو الرمل أو الطين . كانوا يضعونه كعصي في التراب . يشكلونه من العظام على التوندرا المتجمدة والسافانا العريضة ، كحصى على ضفاف الأنهار ، يحفرونه على جدران الكهوف والبروزات الصخرية من «نوم» إلى جنوب أفريقيا . [قبائل] الألغونكوين واللابلاند والزولو والدرويديين! كلهم لديهم ذاكرة أصبعية لهذه العلامة الأصلية . لم تكن الدائرة هي الأولى ، ولا كان الخطين المتوازيين أو المثلث ، هذه العلامة ، هذه العلامة التي تكمن تحت كل علامة أخرى . هذه العلامة المستخلصة من تركيب ملامح الوجه . هذه العلامة للجسم البشري الواقف المتهيئ للعناق . قوموا بإزالتها كما فعل بوليام ، وتكون المسيحية مثل أي دين

وكل دين في العالم : مجموعة سكانية من المتضرعين المتوسلين الإرجاء من سلطة الحاسدين ، مؤمنون مضطهدون متهربون من كل شر ؛ الضعفاء يتلمسون طريقاً محتوماً عبر البراري ؛ وذوو النظر المحرومون من النور والمطروحون في العتمة الدائمة لحالة اللاخيار . ودون هذه الإشارة ، فإن حياة المؤمن قد اقتصرت على التسبيح للرب وتلقي الضربات . التسبيح كان انتماناً . والضربات كانت الفائدة المترتبة على دين لا يمكن تسديده أبداً . أو كما يقول بوليام : لا أحد يعرف من «تخرّج» . ولكن مع هذا ، في الدين الذي تكون فيه هذه العلامة شديدة الأهمية والجوهرية ، حسناً ، فإن الحياة مسألة أخرى بالكامل .

أترى ؟ إعدام هذا الرجل الأسود الوحداني مرفوعاً على هذين الخطين المتصالبين اللذين علق عليهما في محاكاة ساخرة للعناق البشري ، مربوطاً إلى عمودين كانا ملائمين جداً ، وقابلين جداً للتمييز ، ومشربين جداً بالوعي « كوعي » ، كان عاديا وساميا . أترى ؟ رأسه المجعد يبرز بالتعاقب على عنقه ويسقط نحو صدره ، وتوهج بشرته الداكنة كمنتصف الليل قد بهت بالتراب وتقلّم بالصفراء واتسخ بالبصاق والبول ، أصبح بلون القصدير في الهواء الحار الجاف ، وأخيراً ، وحين أعتمت الشمس من العار ، وحين شابه لحمه نور العصر المتناقص الغريب كأنما حل المساء ، ودائماً على نحو مفاجئ في ذلك الطقس ، مبتلعاً إياه والمجرمين في صف الموت ، اتحدت هذه العلامة الأصلية مع سماء الليل المزيف . أترى كيف أن هذا الاغتيال الرسمي للمئات قد حقق الفرق وحرك العلامة بين الرب والإنسان من GEO ومن متضرع إلى علاقة بين واحد وواحد ؟ الصليب الذي حمله كان مجرداً . والجسد الغائب كان حقيقياً ، ولكن تجمع كلاهما لجذب البشر من المسرح الخلفي إلى بقعة النور ، من الهمهمة في الكواليس إلى الدور الرئيسي في

حكاية حياتهم . هذا الإعدام جعل من الممكن احترام الذات ـ بحرية ليس خوفاً ـ واحترام الواحد للآخر . وهذا هو الحب : الاحترام دون دافع . وكل هذا لم يكن شاهداً على رب مشاكس بل على رب كان هو الحب ولكن على رب مكّن من وجود الحب البشري . ليس لأجل مجده الخالص : أبداً . أحب الرب الطريقة التي يحب بها البشر واحدهم الآخر . أحب الطريقة التي أحب بها البشر أنفسهم . أحب العبقرية على الصليب التي استطاعت أن تفعل كلا الأمرين وتموت عارفة بذلك .

ولكن ريتشارد ميسنر لم يستطع التحدث بهدوء عن هذه الأمور . لذا وقف هناك وترك الدقائق تتكتك وهي تمضي وهو يحمل الصليب السندياني بين يديه ، ويحثه على أن يقول ما لم يستطع هو قوله : أنه الرب فقط هو المهتم بك . إنه أنت . هل سيرون ؟ هل سيرون حقا ؟

*

بالنسبة لأولئك الذين استطاعوا رؤية وجه العريس ، فكان كان وجهه درساً . تطلع إلى الصليب الذي رفعه القس ميسنر ورفعه ورفعه . ودون أن يقول شيئاً ، بل كان يرفع الصليب هناك فحسب في وقت مقفل بينما الصمت الذي لا يحتمل كان مرشوشاً بالسعال والنخرات الناعمة المشجعة . كان الناس مصيبين على نحو مسبق حول زواج العريس هذا لأن الصقور الحوامة شوهدت تطير شمالاً فوق البلدة . السؤال في أذهانهم كان يتعلق فيما إذا كان ذلك نذير سوء (أحاطت [الصقور] بالبلدة) أو بشير خير (بعضها حط على الأرض) . بسطاء عقول ، كما فكر . إن كان هذا الزواج محتوماً ، فليس له أي علاقة بالطيور .

وفجأة لم تعد النوافذ المفتوحة كافية . بدا العريس يتعرق في بزته

السوداء جميلة الخياطة . انطلق الغضب عبره كمسدس عيار (٠,٣٢) . لماذا كان كل شخص يستخدم عرسه ويشوش احتفاله ليتوسع في نزاع ما كان يأبه له هو إطلاقاً ؟ لقد أراد للاحتفال أن ينتهي . أن ينتهي وخالاه قد خرسا . حتى يستطيع جف وفليت التوقف عن نشر الأكاذيب عنه ، وحتى يستطيع أن يحتل مكانه بين المتزوجين وأصحاب الأملاك من أهل روبي ، وحتى يستطيع إحراق كل تلك الرسائل من آرنيت . ولكن ليستطيع على نحو خاص أن يتخلص من تلك العاهرة جيجي ويخرجها من حياته نهائياً . كالسكر الذي ينقلب من متعة غير معقولة إلى العدو القاتل للجسم ، فقد كان توقه لها قد سمّمه وجعله مصاباً بداء السكري وغبياً وعاجزاً . بعد أشهر من الحلاوة الخطرة ، فقد أصبحت لا مبالية ومملولة وحتى كريهة . لقد انتظرها في حقول الذرة العالية . وفي ضوء القمر كان يزحف خلف أقنان الدجاج ليقابلها . كان ينفق مالاً ليس له ليسليها . ويكذب للحصول على شيء ما عدا الشاحنة ليصطحبها . لقد زرع محصولا من الماريجوانا لأجلها ، وحمل الثلج في آب ليبرد باطن فخذيها . اشترى لها جهاز راديو يعمل بالبطارية كانت تحبه كثيراً ، وكذلك ثوباً حريرياً ضحكت له . وعلاوة على ذلك كله فقد أحبها لسنوات ، حباً مؤلماً مذلاً كارهاً لذاته انجرف من التوق إلى السرقة .

لقد قرأ الرسالة الأولى التي وصلته من أرنيت ولكنه وضع الرسائل الأخرى في صندوق أحذية في سقيفة بيت زوجة خاله . كان على عجلة ليتلفها (أو حتى ليقرأها) قبل أن يكتشف أي شخص المغلفات الأحد عشر التي أرسلت بالبريد من لانغستون ، أوكلاهوما . افترض أنها جميعاً تدور حول الحب والحزن ، الحب رغم الحزن ، مهما يكن . ولكن ما الذي كان ممكناً لآرنيت أن تعرفه عن أي منهما شأنه هو ، هل جلست طوال الليل في أيكة من

شجر السنديان القصير لتختلس نظرة ؟ هل تتبعت أثر سيارك كاديلاك محطمة طوال الطريق إلى دمبي لمجرد أن تختلس نظرة ؟ هل طردت خارج منزل من قبل نساء ؟ هل لعنتها النساء ؟ ومع ذلك لا يزال غير قادر على الابتعاد ؟ أي حتى أجلسه خالاه وشرحا له القانون ونتائجه .

إذن هاهو الآن هنا ، واقفاً عند المذبح ، ومرفقه يدعم الخصر الرقيق لعروسه ، في جيبه طية نخيل عيد الفصح التي أعطته إياها للحماية . كان مدركاً للتنفس الثقيل لمن سيصبح ابن حميه على يده اليمنى ، وعداوة بيلي ديليا تحفر في مؤخرة رأسه . كان واثقاً أن هذا سيدوم إلى الأبد ، هذا الغضب المسدود ، لأن ميسنر بدا وكأنه قد أخرسه الصليب الذي كان يحمله .

صليب حدقت إليه العروس في رعب . وكانت سعيدة جداً . وأخيراً سعيدة جداً جداً . لقد تحررت من الحزن الكئيب الذي أحاط بها ما أن عادت إلى البيت من الكلية : الاختناق المتواصل في منزل أبويها ، الاشمئزاز الجديد الذي رافق اهتمام أولاد أخوتها وأخواتها المفلسين ، الحاجة إلى النوم الذي أقلقت أمها وأزعجت زوجة أخيها وأغضبت أخاها وأباها . الفراغ الواضح الذي لا يقطعه سوى الاستغراب والقلق حول «ك . د .» . ورغم أنه لم يجب أبداً على رسائلها الاثنتي عشرة الأولى ، فقد تابعت في الأسبوع وفي السنة الأولى كلها خلال غيابها . كانت تعتقد أنها تحبه على نحو مطلق لأنه كان كل ما عرفته على جسدها ـ أي بكلمات أخرى كل ما تعرفه عن جسدها كان متعلقاً به . باستثناء بيلي ديليا ، لم يقل لها أحد آخر عن وجود أي طريقة أخرى للتفكير بنفسها . ليس أمها ، ليس زوجة أخيها . في العام الماضي ، حين كانت في الصف الأخير من الكلية ، عادت إلى البيت من عطلة عيد الفصح وطلب هو مشاهدتها ، وجاء مرتين لحضور الغداء ،

واصطحبها إلى مزرعة ناثان دوبري لمساعدته في نزهة «يوم الأطفال» ، ثم اقترح عليها الزواج . كانت معجزة دامت طوال الطريق إلى هذا اليوم المشرق من أيام نيسان (أبريل) . كل شيء كامل : لقد مرت دورة طمثها الشهرية ، وكان ثوبها المصنوع بكامله من قماش سوآن مورغان المخرم سماوياً ، والشريط الذهبي المحشور في صدار أخيها كان قد زيّن بالحرفين الأولين من اسميهما وقد تشابكا . كان الثقب الذي في قلبها قد اغلق إلى الأبد ، والآن في الدقيقة الأخيرة كان الواعظ يتصرف على نحو غريب محاولاً إعاقة الزواج وتشويهه وربما تدميره حتى . كان واقفاً هناك بوجه كالغرانيت ، رافعاً الصليب كأنما لم يره أحد من قبل . ضغطت بأصابعها الذراع الذي كان يمسك بذراعها ، راغبة في أن يتابع ميسنر الطقوس . قلها ، قلها! «أحبائي الأعزاء ، لقد اجتمعنا هنا... لقد اجتمعنا هنا» . فجأة وبدون صوت ، في الصمت المكتوم الذي فرضه ميسنر ، فتح شق صغير في المكان الذي كان فيه ثقب قلبها بالضبط ، لقد أمسكت أنفاسها وأحست بشيء يزداد ، كما يكرّ خيط في جورب . سرعان ما سيتثاءب الشق الصغير ويتسع يتسع ممتصاً كل قوتها حتى يحصل على ما يحتاجه ليغلق نفسه ويسمح للقلب بالاستمرار في النبض . كانت على معرفة بذلك ، وفكرت بأن الزواج من «ك . د .» سيشفيه على نحو دائم ، ولكنها الآن ، وإذ راحت تنتظر «لقد اجتمعنا هنا...» ، وتتحرق إلى «هل تقبل بهذه...» ، فقد أصبحت تعرف على نحو أفضل ، إنها تعرف بالضبط ما كان مفقوداً وما سيكون مفقوداً على الدوام . قلها من فضلك ، راحت تلح ، من فضلك . أسرع . أسرع . لديّ أشياء أفعلها .

*

نقلت بيلي ديليا باقتها من يدها اليسرى إلى اليمنى ، كانت أشواك صغيرة تخزها عبر قفازيها القطنيين الأبيضين وكانت زهور الفريزيا مغلقة كما توقعتها ، زهور الشاي هي الوحيدة التي بقيت ثابتة بوعود تستطيع أن تعتمد على أنها سيتم الوفاء بها . لقد اقترحت «نسيم الطفل» لتزيين البراعم الصفراء ولكنها دهشت إذ وجدت أنه لا توجد حديقة واحدة تحويها . لا «نسيم الطفل» في أي مكان . ثم الألفية ، ولكن العروس رفضت أن تحمل إلى عرسها عشبة تأكلها المواشي . لذا ها هما هناك ، كلتاهما ، تحملان الفريزيا العطشانة وزهور الشاي التي أزيلت تيجانها على النحو غير الصحيح . عدا عن الضرر الذي حصل لكفيها ، فإن الانتظار الذي كان يفرضه ميسنر على الجميع لم يزعجها أو يفاجئها . كان مجرد قطعة أخرى من الحماقة تشكل هذا الزواج الأحمق الذي اعتقده الجميع وقفاً لإطلاق النار . ولكن الحرب لم تكن بين آل مورغان وآل فليتوود وأولئك الذين وقفوا إلى جانب هؤلاء أو هؤلاء . لقد كان صحيحاً أن جف اعتاد أن يحمل مسدساً ، وأن ستيوارد مورغان وآرنولد فليتوود قد صاح أحدهما على الآخر في الشارع ، وأن الناس كانت تتجول في غرفة آنا فلود الخلفية للتسكع في دكان مينوس للحلاقة ليس لقص شعورهم بل لينخروا ويتنهدوا تجاه الإشاعة التي تدور حول الذي حدث في «الدير» ، وأنه بناء على هذه الإشاعة فإن القس وليام قد ألقى موعظة بناء على «جرميا ١ : ٥» : «قبل أن أشكّلك في البطن عرفتك ، وقبل أن تولد من الرحم قدستك» . كما ردّ القس ميسنر بعبارات بولص التي وجهها إلى الكورينثيين : «... أعظمهم هو الحب» . ولكن فيما يخصّ بيلي ديليا ، فإن المعركة الحقيقية لم تكن حول حياة الطفل أو سمعة العروس بل حول العصيان ، الذي يعني بالطبع أن الأحصنة كانت تتقاتل حول من يتحكم بالأفراس ومهورها . كان إلى جانب سينيور بوليام

الكتاب المقدس والتاريخ . أما ميسنر فكان إلى جانبه الكتاب المقدس والمستقبل . والآن ، كما افترضت ، فقد كان يجعل العالم ينتظر حتى يفهم وضعه .

خفضت بيلي ديليا تحديقتها من عيني ميسنر الباحثتين إلى الشريط الثقيل على رأس العروس إلى مؤخر عنق العريس وفكرت على الفور بحصان أحبته ذات مرة . ورغم أن العريس الذي كان يحمل في اسمه ذكرى سباق الحصان الأسطوري ، فقد كانت هي التي تشوهت حياتها به . «هارد غودز» ،الحصان الرابح الذي ركبه «ك . د .» حين تأسست روبي ، كان يخص السيد ناثان دوبري . بعد سنوات من ذلك السباق ولكن قبل أن تستطيع المشي ، فإن السيد ناثان كان قد ألقى بها فوق ظهر «هاردغودز» العاري ، والذي ركبته بفرح هائل جعل الجميع يضحكون . منذ ذلك الحين ، وفي كل شهر أو نحوه ، حين كان يأتي إلى البلدة في مهمات ، كان ينزل السرج عن الحصان ويقوده حول ساحة المدرسة قرب منزلها ، ممسكا خصرها بكف يده . كان يقول : «ليركب هؤلاء الأطفال . نحتاج إلى المزيد من الفارسات في هذه الأرض . الكل يبكي لأجل سيارة والأفضل تعليم الأطفال ركوب الحصان في وقت مبكر! لم ينل هارد غودز أبداً مركزاً متخلفاً!» وقد استمر ذلك حتى أصبحت بيلي ديليا في الثالثة من العمر : لا تزال صغيرة جداً بعد للملابس الداخلية اليومية ، ولم يلاحظ أحد أو اهتم بكم كانت شعورها ببشرتها كاملا وهي تلتصق بالاتساع الفسيح للحم الحيوان المتحرك إيقاعياً . وبينما ناضلت لتمسك هاردغودز بكاحليها ، وتتحمل الاحتكاك بعموده الفقري ، كان الكبار يبتسمون ، ويستمتعون بسرورها وهي تدعو السيد ناثان بالزنجي المتقهقر الذي كان في حاجة ليتعلم كيف يغيّر السرعات حتى يستطيع الوصول إلى مكان ما في الوقت

الملائم . ثم حدث في أحد الأيام وكان يوم أحد أن جاء هاردغودز وهو يتبختر في الشارع والسيد ناثان يركبه . هرعت بيلي ديليا التي لم تكن قد رأت الحصان أو راكبه منذ فترة طويلة لترجوه أن يركبها على الحصان . وعد السيد ناثان بالمرور بعد الصلاة . كانت لا تزال في ملابس يوم الأحد حين انتظرت في باحتها . حين رأته قادماً ، محاولاً المرور عبر زحمة ما بعد الكنيسة ، ركضت إلى منتصف الشارع المركزي حيث خلعت لباسها الداخلي الخاص بيوم الأحد قبل أن ترفع ذراعيها حتى يتم رفعها لتركب على ظهر هاردغودز .

بدت الأمور وكأنها تنهار بعد ذلك . نالت ضرباً غير مفهوم من أمها وجرعة من الخجل لم تفهمها حتى مرت سنون بحالها . وكان ذلك حين بدأت الممازحة وكانت أشد قسوة لأن أمها كانت المعلمة . وفجأة كان هناك نور معتم في أعين الصبية الذين كانوا يشعرون بالراحة في التحديق إليها . وفجأة حدث نشاط غريب في النساء ، ونظرة متعالية لدى الرجال . وحدث انتباه دائم لدى أمها . لم يقم ناثان دوبري بتقديم عرض آخر . لقد فقد هاردغودز إلى الأبد ، وكانوا يتذكرونه علناً على أنه الحصان الذي ربح السباق و«ك . د .» على ظهره ، وفي السر على أنه متلقّي عار الفتاة الصغيرة . السيدة دافي مورغان وأختها سوآن هما فحسب من عاملتاها بلطف يسير : كانتا توقفانها في الشارع لتعدلا القوس في جدائلها ، ولتمتدحا عملها في حديقتي مطبخيهما ، ومرة حين أوقفتها السيدة دافي مورغان لتمسح ما ظنته حمرة شفاه عن شفتي بيلي ديليا الوردتين ، فقد فعلت ذلك بابتسامة ودون محاضرة كريهة . بل واعتذرت منها حين ظل منديلها نظيفاً . ولولاهما وعودة آنا فلود لكانت سني مراهقتها غير قابلة للعيش . كما لم تجعلها آنا ولا حتى السيدتين مورغان تشعر بغرابة كونها طفلة

وحيدة . ربما لأنهن كن ذوات عدد قليل من الأطفال أو بلا أطفال . كانت معظم العائلات تفاخر بتسعة أو أحد عشر أو خمسة عشر طفلاً . وكان محتوماً أن تصبح هي وآرنيت ، حيث لم تكن لهما أخوات بل أخ واحد ، أن تصبحا صديقتين .

كانت تعلم أن الناس يظنونها فتاة متهورة ، الفتاة التي لم يكن لديها خوف من ضغط عريها على ظهر حصان ، إنما كانت تفضل ذلك ، وكانت ستخلع لباسها الداخلي علناً في يوم الأحد لمجرد أن تنال الإثارة . كما كانت آرنيت هي من مارست الجنس في سن الرابعة عشرة (مع سائس خيل) ، وحملت بيلي ديليا العبء . لقد تعلمت بسرعة النظرة التحذيرية في عيون الفتيات اللواتي حذرتهن أمهاتهن بأن تبتعدن عن بيلي ديليا . وفي الواقع فقد كانت منبوذة . حتى الآن . ومنذ أن كانت مغرمة على نحو يائس بأخوين ، فإن عذريتها التي لم يصدق أحد وجودها ، قد أصبحت خرساء بقدر الصليب الذي كان يحمله القس ميسنر عالياً .

الآن كانت عيناه مغمضتين . كانت عضلات فكيه تعمل وقتاً إضافياً . حمل الصليب وكأنه مطرقة كان يحاول ألاّ ينزلها لئلا تؤذي أحداً . تمنت بيلي ديليا أن يفتح عينيه مجدداً ، وينظر إلى العريس ويضربه على رأسه بالصليب ، ولكن لا . هذا سيحرج العروس التي ربحت أخيراً الزوج الذي كانت إشبينتها تحتقره . زوج كان قد راود بيلي ديليا عن نفسها سابقاً وبعد حكايته مع آرنيت . زوج نسي آرنيت خلال ابتعادها عن البلدة وطارد أي ثوب نسائي كانت من ترتديه تحت سن الخمسين . زوج ترك عروسه المستقبلية حاملاً ولوحدها ، عارفاً أن الأم المستقبلية العازبة (وليس الأب المستقبلي) هي من سيكون عليها أن تطلب الغفران من كنيستها . سمعت بيلي ديليا عن هذه الأمور ، ولكن أي فتاة تحمل في روبي يمكنها الاعتماد

على أنها ستتزوج ، سواء كان الشاب تواقاً إلى ذلك أم لا لأنه سيكون عليه أن يعيش قرب أسرتها وأسرته . سيكون عليه أن يقابلها في الكنيسة أو أي مكان آخر يتجه إليه . ولكن ليس هذا العريس . هذا العريس ترك العروس تعاني أربع سنوات ووافق على الزفاف فقط حين رفس مطروداً من فراش امرأة أخرى . لقد رفس بقوة إلى حد أنه لم يستطع الوصول إلى المذبح بالسرعة الكافية . لقد تذكرت بحيوية اليوم الذي وصلت فيه الرفسة في حذاء مصمم مسبقاً لمؤخرة العريس . كانت كراهية بيلي ديليا للفتاة ذات المظهر الغريب فورية وكادت تكون أبدية لولا أنها لجأت إلى «الدير» هي نفسها في أحد أيام تشرين الأول (أكتوبر) الباردة بعد شجار مع أمها تحول إلى شجار قبيح . قاتلتها أمها كرجل في ذلك اليوم . كان عليها أن تهرب إلى آنا فلود التي طلبت منها الانتظار في الطابق العلوي بينما تعاملت هي مع عامل تسليم بضائع . بكت بيلي ديليا لوحدها لما بدا لها أنه ساعات بحالها ، وراحت تلعق شفتها المجروحة وتتلمس التورم تحت عينيها . وحين رأت شاحنة أبولو ، انزلقت إلى الطابق السفلي ، وبينما كان يشتري زجاجة صودا ، فقد دخلت إلى الكابين . لم يعرف أي منهما ما يفعل . عرض أبولو أن يأخذها إلى بيت أهله . ولكنها إذ شعرت بالخجل من أن تشرح لأبويه سبب الروح في وجهها ، قد طلبت منه أن يأخذها إلى «الدير» . كان ذلك في خريف عام (١٩٧٣) . وما رأته وتعلمته هناك غيّرها إلى الأبد . وإذا وافقت على أن تكون إشبينة آرنيت فقد كان ذلك آخر شيء عاطفي تفعله في روبي . لقد حصلت على عمل في دمبي واشترت سيارة وربما كانت ستقودها إلى سانت لويس ، لولا حبها المزدوج اليائس .

*

مع أو بدون مضغة في فمه ، لم يكن ستيوارد رجلاً صبوراً . لذلك دُهش حين وجد نفسه هادئاً وهو يراقب سلوك ميسنر ، بدأ الحشد من حوله يهمهم ويتبادل النظرات باستثناء ستيوارد ، الذي اعتقد أنه كان أقل انزعاجاً منهم ، فلم يهمهم ولم يتبادل النظرات رغم عدم وجود مضغة التبغ المهدئة . كصبي صغير كان قد أصغى إلى « بيغ دادي » يصف رحلة الأميال الخمسة والستين التي قطعها ليجلب المؤن إلى هايفن . كان ذلك في عام (١٩٢٠) . كان الحظر [قانون حظر المشروبات الروحية الذي صدر في ذلك العام نفسه في الولايات المتحدة الأمريكية] على مستوى الولاية قد أضحى شاملاً للدولة كلها في ذلك الحين . كان مرض يسمى الالتهاب الرئوي الهزاز قد أمسك بهايفن وكان « بيغ دادي » واحداً من الأجساد القوية القليلة القادرة على الذهاب . وقد مضى وحيداً على ظهر حصان . وقد حصل على ما كان في حاجة إليه في مقاطعة لوغان ، وبالأدوية المحزومة تحت معطفه ، والمؤن الأخرى مربوطة إلى الحصان ، فقد ضل ريقه ووجد نفسه بعد غروب الشمس غير متأكد من الطريق الذي عليه أن يتبعه . كان قادراً على شَم إنما ليس على مشاهدة نار مخيم بدت له قريبة إلى جهة اليسار . ثم فجأة إلى يمينه ، سمع هتافات وموسيقى وطلقات نارية . ولكنه لم ير أضواء في ذلك الاتجاه . وإذ أصبح عالقا في العتمة مع غرباء غير مرئيين على الجانبين ، كان عليه أن يقرر إن كان عليه أن يتجه نحو الدخان وروائح اللحم أو نحو الموسيقى والمسدسات . أو ولا أي واحد منهما . قد تكون نار المخيم للصوص يتدفؤون ، وقد تكون الموسيقى لتسلية عصابات الشنق دون محاكمة . وقد ترك الأمر لحصانه . وهذا إذ اشتمَ أحصنة من جنسه فقد سار خبباً نحو نار المخيم . هناك وجد « بيغ دادي » ثلاثة رجال « ساك أند فوكس » يجلسون قرب نار مخفية في حفرة . ترجل واقترب بحذر وقبعته في يده وقال « عمتم مساء » . رحب به

الرجال وحين علموا وجهته ، حذروه لئلا يدخل البلدة . فالنساء هناك يلاكمن بالقبضات كما أفادوا ، والأطفال سكارى والرجال لا يتجادلون أو يتشاجرون بل يتكلمون بالأسلحة النارية فحسب . قوانين المشروبات الروحية لا تطبق هناك . لقد وصلوا لإنقاذ عضو من أعضاء أسرتهم كان يشرب هناك منذ اثني عشر يوماً . لقد سبق لأحدهم أن كان هناك ، باحثاً عنه . ما اسم البلدة ؟ هكذا سأل «بيغ دادي» . أجابوا : «بورا سانغر» . عند الحافة الشمالية للبلدة كانت هناك لوحة تقول : «لا زنوج» . عند الحافة الجنوبية كان هناك صليب . أنفق «بيغ دادي» ساعات عديدة معهم ، وقبل انبلاج النور ، شكرهم وغادرهم : عاد متقفياً آثاره ليجد طريقه إلى بلدته .

حين سمع ستيوارد القصة للمرة الأولى ، لم يستطع إغلاق فمه ، مفكراً بتلك اللحظة حين كان والده لوحده في العتمة والمسدسات إلى اليمين والغرباء إلى اليسار ، ولكن الراشدين ضحكوا وفكروا في شيء آخر . «لا زنوج في من ناحية وصليب في الناحية الأخرى والشيطان منفلت بينهما» . لم يفهمها ستيوارد . كيف يمكن للشيطان أن يكون قريباً من صليب ؟ ما هي الصلة بين اللوحتين ؟ منذ ذلك الحين كان قد رأى صلباناً بين حلمات البغايا ، وصلباناً عسكرية منتشرة لمسافة أميال ، وصلباناً تحترق في باحات منازل الزنوج ، وصلباناً موشومة على أذرعة قتلة مكرسين للقتل . رأى صليباً متدلياً من المرآة الخلفية لسيارة مليئة بالرجال البيض القادمين لإهانة الفتيات الصغيرات في روبي . ومهما كان يفكر القس ميسنر ، فقد كان على خطأ . فالصليب لم يكن أفضل من حامله . والآن راح ستيوارد يعبث بشاربه بأصابعه مدركاً أن أخاه التوأم كان ينقل قدميه ، مستعداً للامساك بالمقعد الذي أمامه ووضع حد لسلوك ميسنر .

*

فهمت «سوآن» ، الجالسة إلى القرب من «ديك» والمستمعة إلى تنفسه الثقيل كم كانت غلطتها خطيرة . كانت على وشك أن تلمس ذراع زوجها لتحذره من النهوض ، حين أنزل ميسنر الصليب أخيراً ونطق بالكلمات الافتتاحية للاحتفال . استرخى ديك في جلسته وحرر أوتاره ، ولكن الضرر كان قد حصل . كانوا قد عادوا إلى حيث بدأوا حين شهر جفرسون فليتوود مسدسه في وجه «ك . د .» ، وحين كان على مينوس أن يقاطع مباراة عدوانية بين ستيوارد وآرنولد . وحين لم ترسل مايبل أي كعكة إلى «معرض بيع خبز الكنيسة» . السلام والإرادة الطيبة اللذان جلبهما الإعلان عن الزواج تلاشيا الآن . حفلة الاستقبال في منزلها ستكون تلخيصاً إضافياً للمشكلة من النوع المزعج جداً . لقد ارتكبت سوآن ـ دون معرفة الآخرين ـ خطيئة دعوة «كوني» وفتيات «الدير» إلى حفلة استقبال الزفاف ، لقد أساءت قراءة التحذير ، فكانت الآن على وشك استضافة أكثر الحفلات التي شهدتها روبي لخبطة وتخبيصاً . كان ابناها المتوفيان كلاهما مستندين على براد الكلفيناتور وهما يكسران قشور الفستق الإسباني . سألها إيستر «ما الذي في حوض الجلي ؟» نظرت فرأت ريشاً ـ ريشاً ملوناً بألوان لامعة مثل ريش الدجاج ـ مكوماً في كومة في حوض الجلي . جعلها ذلك تتساءل : لم يسبق لها أن ذبحت أو نتفت ريش أي طائر وما كانت لتضع الريش هناك . أجابت : «لا أعرف» . قال لها سكاوت : «عليك أن تلميها يا أمي . هذا ليس مكانها الملائم كما تعلمين» . ضحكا كلاهما وقضما الفستق بصوت مرتفع . استيقظت متسائلة أي نوع من الطيور كان ملوناً على ذاك النحو . وحين حامت أزواج وأزواج من الصقور حول البلدة ، فكرت بأن هذا هو تفسير الحلم : أنه مهما يكن من أمر هذا الزواج ، فهو لن يصلح شيئاً . والآن اعتقدت أن ابنيها حاولا أن يبلغاها شيئاً ما : كان تركز على الألوان ،

بينما كانت المسألة في حوض الجلي . «هذا ليس مكانها الملائم كما تعلمين» الريش الغريب الذي دعته لم يكن ينتمي إلى منزلها .

وحين لمست كايت غولايتلي أخيراً مفاتيح الأرغن ، والتفت الزوجان ليواجها الحشد ، بكت سوآن . وكان السبب في بكائها جزئياً هو الابتسامات اللامعة الحزينة للعروس والعريس ، وجزئياً هو الخوفَ من الشر الذي كان منطلقاً يتجول الآن وفي طريقه إلى منزلها .

*

كان قد لوحظ منذ زمن بعيد أن الأخوين مورغان نادراً ما كانا يكلمان الواحد الآخر أو ينظر إليه . اعتقد البعض أن السبب كان غيرتهما الواحد من الآخر ؛ أن وجهتي نظرهما كانتا تبدوان متسقتين فحسب ، وأنه في الأعماق كان هناك كره مشترك لا يظهر على السطح إلا بأساليب صغيرة . في خلافهما حول السيارات مثلاً : أحدهما يفضل بشدة الشيفروليت ، والآخر يدافع بعناد عن الأولدزموبيل . وفي الواقع فإن الأخوين لم يكونا متفقين فحسب على كل شيء تقريباً ، بل كانا في حوار أبدي وإن يكن صامتاً . كان كل واحد منهما يعرف أفكار الآخر بقدر ما يعرف وجهه ، ومرة واحدة فقط عبر مدة من الزمن كان في حاجة إلى تثبيت بنظرة .

والآن هاهما يقفان في غرفتين مختلفتين من منزل ديك ، مفكرين بالشيء نفسه . ولحسن الحظ فإن ميسنر تأخر ، وكان مينوس صاحياً وبوليام منتصراً وجف منهمكاً بسويتي . مايبل التي حضرت الاحتفال ، كانت قد أخلت سبيل كنتها لأجل حفلة الاستقبال . كان العروسان منسجمين ـ ابتسامات مصقولة في مكانها ، ولكنها منسجمة على أي حال . القس كاري ـ ملطفاً للجو ومرحاً ـ كان أفضل رهان للحفاظ على الأمور ثابتة . كان هو

وزوجته «ليلي» موضع الإعجاب بسبب غنائهما كثنائي ، لو استطاعا الحصول على بعض الموسيقى...

فتح ستيوارد البيانو بينما راح ديك ينتقل بين الضيوف . وعندما مرّ بالقس بوليام ، الذي كان يومئ رأسه ويبتسم مع سويتي وجف ، ربت ديك على كتفه مطمئناً . في غرفة الطعام كان المائدة تسبب في همهمات إعجاب ولكن الأطفال فقط هم من كان يتناول منها . كانت الأحاديث فوق مائدة الهدايا تبدو متوترة وفائضة عن الحاجة . انتظر سيتوارد عند البيانو ، وشعره الرمادي الفولاذي وعيناه البريئتان في توازن تام . الأطفال من حول كانوا يلتمعون مثل العقيق . كانت النساء لامعات إنما هادئات في ملابس عيد الفصح التي لازالت جديدة . وكانت أحذية الرجال الجديدة الزاعقة تلمع مثل بذور البطيخ . كان الجميع متيبسين ، ولطيفين على نحو مبالغ فيه . لا شك أن ديك كان يعاني من مشكلة في إقناع كاري وزوجته كما فكر . مدّ ستيوارد يده إلى التبغ ، وحث توأمه بصمت على أن يحاول مع شخص آخر - الجوقة الذكورية ، كايت غولايتلي - بسرعة قبل أن يفكر بوليام بالصلاة مجدداً مرجعاً إياهم إلى محطات المعارك أو ، ليساعدنا الرب ، فقد بدأ جف يتلو تظلماته من «إدارة المحاربين القدماء» . ما أن يبدأ بهذا حتى يكون هدفه التالي «ك . د .» الذي لم يسبق له أن خدم في الجيش . أين سوآن ؟ تساءل . استطاع ستيوارد مشاهدة دافي تفك دبوس الوشاح من شعر العروس واستمتعت عيناه البريئتان بشكل زوجته مرة أخرى . كان أي شيء ترتديه - سواء كان ثوب يوم الأحد أو رداء الكنيسة الخاص بيوم الأحد أو حتى في روب استحمامه هو - يجعله يبتسم لمنظر جسدها برضا . ولكن ديك كان يحذره الآن من أن يسرح بفكره ، لذلك تخلى ستيوارد عن تأمل دافي بإعجاب ورأى نجاح جهود أخيه . تقدمت كايت من البيانو وجلست .

ثنت أصابعها وبدأت تعزف . أولاً لازمة تحضيرية رافقتها كحّات ودودة وهمهمات التوقع . ثم وصل سايمون وليلي كاري ، مهمهمين ، مهمهمين ، بينما راحا يفكران فيما سيبدآن به . كانا قد غنيا ثلث أغنية «أيها الرب الغالي ، خذ بيدي» ، وكانت الابتسامات قد اتجهت نحو الموسيقى ، حين سمعوا صوت بوق كاديلاك عتيقة .

*

لم تأت «كوني» ، بل أتت نزيلاتها . قادت مايفيس الكاديلاك مع جيجي وسينيكا في الخلف وشخص ما جديد في المقعد الأمامي . لم تكن أي منهن ترتدي ملابس تناسب الزفاف . وقد خرجن دفعة واحدة من السيارة وهن يظهرن مثل فتيات المراقص الليلية : شورت وردي ، بلوزات قصيرة ، تنانير شفافة ، عيون مطلية ، لا أحمر شفاه ، ولا ملابس تحتانية وكان ذلك واضحاً ، ولا جوا رب . لقد كان مخزن جيزبيل قد تم غزوه لتزيين الأذرع والآذان والأعناق والكواحل وحتى الأنوف . كانت مايفيس وسوآن اللتان حيتا الواحدة الأخرى على المرج غير مرتاحتين . مشت امرأتان أخريان الهوينى إلى غرفة الطعام ومسحتا بأعينهما موائد الطعام . قالتا «مرحباً» ثم تساءلتا بصوت مرتفع إن لم يكن هناك شيء آخر عدا الليموناده والبنتش [شراب مسكر مؤلف من كحول وعصير ليمون وتوابل وشاي وماء] كشراب . لم يكن هناك غيرهما ، لذلك فعلتا ما فعله بعض الشبان الآخرين : خرجتا من باحة آل مورغان ومشتا عبر مخزن آنا فلود إلى «الفرن» . كانت الفتيات المحليات اللواتي تواجدن هناك على نحو مسبق قد تكتلن معاً وانسحبن ، تاركات المنطقة لفتيان آل «بول» : أبولو وبرود وهيرستون . وآل سيرايت : تيموثي الابن وسبايدر . وآل دستري : فاين وروريال . انضم

مـينوس إليـهم ، ولكن جف الذي كـان يحـادثه ، لم يفـعل ذلك . وكـذلك العريس المراقب . كـان دافي يزيل الدهن عن شريحة من لحم الحمل حين بدأت الموسيقى . لقد جرحت أصبعها عندما دوى البوق ومصته حين زعق أوتيس ردينغ «أوووو يا فـتـاتي الصـغـيـرة...» ، ملغيـاً الالتـمـاس الهـادئ للتـرنيـمـة . في الداخل والخـارج وعلى الطريق كـان الضـرب على الآلات والحرارة قاسيين لا يرحمان .

همس صوت من خلف القس ويليام : «أوه ، إنهم يستمتعون بوقتهم فحسب» . التفت ليرى ولكنه لم يستطع معرفة المتكلم ، لذلك تابع التحديق خارج النافذة . كان يعرف مثل هؤلاء النسوة . إنهن كالأطفال ، يبحثن دائماً عن المتعة ويكرسن أنفسهن لأجلها ولكنهن في حاجة دائمة إلى فرصة للوصول إليها . ركوب في السيارة ، يد ، ورقة الخمسة دولارات . شخص ما ليعذرهن ويدلّلهن . شخص ما ينظر إلى الأرض ولا يقول شيئاً حين يعكرن الصفو . تبادل النظرات مع زوجته التي أومأت برأسها وغادرت النافذة . كانت تعرف ، كما عرف هو ، أن الراشدين الذين تستحوذ عليهم المتعة كانوا علامات واضحة على فساد سبق له وأصبح متقدماً . سرعان ما تكون البلد كلها مغمورة بالدمى وصماء للدرجات الصوتية من الموسيقى الخشنة والضحك الأجوف . ولكن ليس هنا . ليس في روبي . ليس وسينيور بوليام لا زال حياً .

*

كانت فتيات «الدير» ترقصن ، ترمين أذرعتهن من حول رؤوسهن . وهن يفعلن هذا وذاك ثم الآخر . يضحكن ويعوين ولكنهن لا ينظرن إلى أحد . بل إلى أجسادهن الراقصة فحسب . تنظر الفتيات المحليات من فوق

أكتافهن وينخرن . برود ، أبولو وسبايدر ، وهم فتيان مزارع لهم عضلات فولاذية وعيون متكلفة ، يتأرجحون ويفرقعون بأصابعهم . هيرستون يغني مرافقاً . تركب فتاتان صغيرتان دراجتيهما بعيون مفتوحة وهما تراقبان النساء الراقصات . تسأل إحداهن ، ولها شعر محيّر ، إن كان ممكناً استعارة دراجة . ثم تسأل أخرى . تركبان الدراجتين على امتداد الشارع المركزي دون اعتبار لما يفعله النسيم بتنورتيهما الطويلتين الموردتين أو كيف كانت الدواسات الصاعدة الهابطة تفعل بنهودهما . تهبط إحداهما بفعل الجاذبية وكاحلاها فوق قضبان القيادة . والأخرى تركب على قضبان القيادة و« برود » على المقعد خلفها . واحدة في أقصر شورت وردي في العالم جالسة على مقعد وذراعاها ملفوفتان حول نفسها . تبدو ثملة . هل هن جميعاً كذلك ؟ يضحك الفتيان .

*

حملت آنا وكايت طبقيهما إلى حافة حديقة سوآن .

همست آنا : « أيهن ؟ » .

قالت كايت : « التي هناك . ذات الخرقة بدل البلوزة » .

قالت آنا : « هذا كابح » .

« كابح ؟ يبدو لي كأنه مفتاح تشغيل لي » .

« أهي التي كان « ك . د . » يعبث معها ؟ » .

« أجل » .

« أعرف تلك التي هناك . إنها تأتي إلى المخزن . من الاثنتان الأخريان ؟ » .

« لا أعرف » .

«انظري . هاهي بيلي ديليا تذهب» .

«طبعاً» .

«أوه ، هيا يا كايت . اتركي بيلي بحالها» .

وضعتا بالملعقة سلطة البطاطا في شدقيهما . خلفهما جاءت آليس بوليام مهمهمة : «يا إلهي!» .

«هل سبق أن رأيت في حياتك مثل هذا العبث ؟ أراهن أنك لا تستطيعين رؤية حاملة نهود واحدة في المجموعة كلها» . أمسكت آليس بأعلى قبعتها خشية النسيم . «لم تبتسمان ؟ لا أعتقد أن هذا مضحك البتة» .

«لا . طبعاً لا» . قالت كايت .

«هذا زفاف . أتتذكرين ؟» .

«أنت على حق يا عمة آليس . قد قلت إنك على حق» .

«ما رأيك لو أن شخصاً يرقص على نحو مزعج في عرسك ؟» كانت عينا آليس اللامعتان السوداوان تفتشان في شعر آنا .

أومأت كايت برأسها بتعاطف بينما راحت تضغط شفتيها لتبقيهما مغلقتين حتى لا تتسرب أي ابتسامة من بينهما . حاولت آنا أن تنظر بجدية وقد تحدتها زوجة الواعظ الشديدة هذه ، مفكرة : عزيزي السيد المسيح ، ما كنت لأبقى ساعة في هذه البلدة لو تزوجت ريتشارد .

قالت آليس : «سيكون علي أن أجعل القس نفسه يوقف هذا» . ثم انتقلت بتصميم نحو منزل سوآن .

انتظرت آنا وكايت عدة خفقات قلب قبل أن تنطلقا ضاحكتين بحرية . مهما يكن ، فكرت آنا ، فإن نساء «الدير» قد أنقذن المناسبة . لاشيء مثل خطايا الأشخاص الآخرين من أجل التسلية . كان الشبان على خطأ .

« كونوا التغضّنة على جبينها هي » . وبالمناسبة ، أين ريتشارد على أية حال ؟

*

راكعاً على ركبتيه ، كان ريتشارد ميسنر غاضباً من غضبه ولسوء معالجته له ، ولأنه اعتاد على العوائق وكان خبيراً في الخلاف ، فإنه لم يستطع أن يسوي ما بين مستوى غضبه الحالي وما بدا أنه مصدره . كان يحب الرب كثيراً إلى درجة الإيلام ، رغم أن هذا الحب نفسه جعله يضحك عالياً . كما أنه كان يحترم بعمق زملاءه . لقد صمدوا لقرون ، يعظون ويصرخون ويرقصون ويغنون ويتشرّبون ويجادلون ويشاورون ويلتمسون ويأمرون . كانت عاطفتهم تحترق أو تحترق ببطء مثل الحمم فوق الأرض التي شنت الحرب ضدهم وضد رعيتهم دون توقف . حرب جبانة دون شرف يكون علامة أو مكافأة لها ؛ حرب دون مبادئ ازدهرت على جبن المنتصر كما على كذبه . على المسرح وفي الكتب المطبوعة كان هو وأخوته قلب الكوميديا ، الظهر المختار لخنجر المحاكاة الساخرة . كانت اللعنات توجه إليهم من زملائهم المساجين المنتظرين في طابور الموت وتوجه السخريات إليهم من قبل القوادين . كانوا محسودين على أطباق التبرعات البخيلة . ومع ذلك كله ، لو بدت « الروح » تنزلق بعيداً فقد كانوا يتشبثون بها بأسنانهم لو اضطروا إلى ذلك ، ويتمسكون بها بقبضاتهم عند الحاجة . كانوا يأخذونها إلى أبنية جاهزة لأن تلعن وإلى كنائس هرب منها المصلون البيض ، إلى خيم من ألحفة ، إلى الوديان والجذوع في الأماكن المفتوحة . كانوا يهمسونها في الأكواخ المضاءة بنور القمر لئلا يراهم رجال القانون . كانوا يصلون لأجلها خلف الأشجار وفي المنازل التي هي مساقط الرؤوس ،

وأصواتهم شجاعة أمام الرياح المزمجرة . من «الحبشي» إلى واجهات المخازن ، من «المعمداني الحاج» إلى دور السينما المهجورة ، في أحذية ملمّعة وجزمات مهترئة وسيارات عتيقة وأخرى من طراز «لينكولن كونتيننتال» ، سواء كانوا جيدي التغذية أو سيئي التغذية ، فقد كانوا يشعلون نورهم الذي يومض على استحياء أو يتوهج كمذنب مخترقاً ظلمة الأيام . كانوا يمسحون بصقة البيض عن وجوه الأطفال السود ويوفرون المأوى للغرباء المطاردين من المجموعات التي تأخذ القانون بيدها والشرطة ، وينقلون المعلومات الحافظة للحياة أسرع من الصحيفة وأفضل من المذياع . عند فراش الموت كانوا ينظرون إلى الموت في عينه وفمه . كانوا يضغطون رؤوس الأمهات الباكيات على أكتافهم قبل أن يوصلوا بناتهن اللواتي سلبت منهن حياتهن إلى المقبرة . كانوا يبكون لأجل مجموعات السجناء الموثقين بسلسلة واحدة ، ويجادلون القضاة . يجعلون المحتشدين في الكنائس يبكون جميعاً . في نشوة . في إيمان . أن الموت هو «الحياة» ، ألا تعرفون ، وأن «كل» حياة ، ألا تعرفون ، هي مقدسة ، ألا تعرفون ، في نظر الرب . وإذ كان مشهد الشر يهزهم إلا أنهم كانوا معتادين عليه . كانت الروعة الحقيقية كامنة على أي حال في الأشكال والمواد المدهشة التي تتخذها نعمة الرب : الإنجيل في أيام الملاحقة ، والانتصارات الرائعة لأشخاص حرموا من التنافس ، والورع المباشر لأولئك الذين لا يسمحون لأي جزمة بأن تبقيهم في الأسفل : أناس جعلوا صبر يعقوب يبدو كأنه قلق . إنهم الأناقة حين يكون كل من حولهم في ملابس رثة .

كان ريتشارد ميسنر يعرف هذا كله . مع ذلك ، ومهما كانت معرفته واحترامه سليمين ، إلا أن الرجفة بداخله كانت الآن غير قابلة للتحكم بها .

كان بوليام قد عبث بغشاء يغلف شهية ضارية للانتقام ، شهية كان في حاجة إلى يفهمها حتى يكبتها . هل أثر فيه الزمن أخيراً ؟ هل كان الأسى الذي خلفه اغتيال كينغ [مارتين لوثر] أسى يتصاعد مثل الموجة المدية بحركة بطيئة ، وهاهو يطغى عليه الآن ؟ أو هل كان الأمر هو بدء مراقبة الذل المتطاول لرئيس جمهورية ذميم ؟ هل أصابته عدوى الحرب الطويلة غير المفهومة ؟ هل كان يتصرف كفيروس هاجع متبرعم كان يصل الآن إلى نهاية مشعثة ؟ كل عضو من أعضاء فريق كرة القدم في مدرسته الثانوية مات في تلك الحرب . أحد عشر فتى عريض المنكبين . كانوا قدوته ، وتمنى لو كان مثلهم . هل كان يتقيأ الآن فحسب لموتهم العبثي ؟ هل كان ذلك منشأ هذا الجوع الأولي للعنف ؟

أو هل كانت روبي ؟

ما الذي في هذه البلدة أو هؤلاء السكان يجعله غاضباً ؟ كانوا مختلفين عن المجتمعات الأخرى بطريقتين فقط : الجمال والعزلة . كانوا جميعاً وسيمين ، والبعض منهم إلى حد استثنائي . وباستثناء ثلاثة أو أربعة منهم كانوا سوداً كالفحم ، رياضي الأجسام مع عيون غير ذات دلالة . يحمل الجميع ارتياباً ثلجياً تجاه الغرباء . وخلاف ذلك كانوا مثل المجتمعات السوداء الصغيرة الأخرى ، تواقين للحماية ، مزدهرين إنما ليسوا بخيلين . كانوا يوفرون وينفقون ، يحبون المال وجود في المصرف والأشياء الجميلة أيضاً . حين وصل في البداية ظن أن أخطاءهم عادية ، وأن خلافاتهم عادية . كانوا مسرورين بإنجازات جيرانهم وكانت سخريتهم من الكسولين والمتحررين مليئة بالضحك . أو اعتادوا أن يكونوا كذلك ، وقد بدا الآن أن الحذر الجليدي الذي أبدوه فقط للغرباء ذات مرة قد أصبح موجهاً ضد واحدهم الآخر الآن . هل ساهم هو في ذلك ؟ لم يستطع مغالبة الاعتراف بأنه

لولا وجوده لما كان هناك أي خلاف ولا قبضات ملونة ولا نزاعات حول اللغة المفقودة على شفة «الفرن» . لا تحذيرات حول لقاءات أقامها هناك مع اثني عشر شاباً أو نحوه . وبالتأكيد لا عداوة عامة أو جسدية بين رجال الأعمال . ولا يوجد فيها هاربون . لا إدمان على المشروبات . وحتى لو أنه أقر بدوره في انحلال البلدة ، فإن ميسنر لم يكن راضياً . لماذا هذا العناد ، هذا السم ضد توكيد الحقوق والادعاء بدور أوسع في شؤون السود ؟ لقد عرفوا ، بين كل الناس ، ضرورة الإرادة المحض . عائدات الشجاعة والإخلاص . من بين كل الناس فإنهم يفهمون آلية سلطة الصراع . أليس كذلك ؟

مرة إثر أخرى وبأقل استفزاز كانوا يخرجون من مخزونهم حكايات حول أسلافهم القدماء ، حول أجدادهم وأجداد أجدادهم ، وآبائهم وأمهاتهم . مواجهات خطرة ، مناورات ذكية . شهادات على الجلَد والذكاء والمهارة والقوة . حكايات الحظ والغضب . ولكن لم تكن هناك حكايات حول أنفسهم ؟ عن حيواتهم التي أوصدوا عليها الأبواب ؟ لم يكن لديهم شيء يقولونه . وكأن البطولة الماضية كانت كافية لمستقبل يعيشون فيه . وكأنما أرادوا صوراً أخرى عنهم وليس ذرية .

كان ميسنر آملاً في أن تصله الإجابات وهو راكع على ركبتيه . وليس كاتالوغاً متنامياً من الأسئلة . وهكذا فعل ما كان معتاداً على فعله : طلب من الرب أن يأتي كما انطلق هو متأخراً ومستثاراً إلى حفلة استقبال الزفاف . وكونه في رفقة الرب فقد هدأ غضبه . ومع مغادرته مسكن الراعي وعودته إلى الشارع المركزي ، استطاع سماع التنفس اللطيف لرفيقه ، ولكن دون كلمة نصيحة أو تعزية . كان يمر بمخزن أدوية هاربرز حين رأى حشداً مجتمعاً قرب «الفرن» . ومنه ، وفي انطلاق مزمجر لمحرك اندفعت سيارة كاديلاك . وخلال أقل من دقيقة مرت به ، وميّز امرأتين من «الدير» بين

الراكبات . وما أن وصل إلى باحة منزل آل مورغان ، كان الحشد قد تناثر . كان الأطفال الثملين من السكر يتسابقون ويتعثرون بكلبي سيتوارد . كان «الفرن» مهجوراً . ولحظة دخوله منزل سوآن وديك ، استطاع أن يرى أن الكل كان متوهجاً . تقدم مينوس منه ليعانقه . قاطع بوليام وآرنولد وديك حوارهم العميق ليصافحوه . كان الزوجان كاري يغنيان أغنية ثنائية وجوقة تغني معهم . لذلك لم يذهل حين رأى جف فليتوود يضحك بسرور مع الرجل نفسه الذي شهر مسدسه في وجهه قبل بضعة أسابيع : العريس المتزوج للتو . العروس وحدها كانت تنظر شزراً .

*

لم يكن صمت الكاديلاك بالصمت المحرج . ولم يكن لدى أي من الراكبات آمال كبيرة على الرجال في البزات ، لذا لم يتفاجأن حين طلب إليهن مغادرة المكان . قال أحدهم : «أعطين هؤلاء الفتيات الصغار دراجاتهن» . قال آخر : «اخرجن من هنا» بفم مليء بالتبغ . الرجال الأصغر سناً الذين ضحكوا وحيوهن أمروا بالابتعاد دون كلام . مجرد نظرة وحركة من الرأس من رجل طوله سبعة أقدام . ولم يكن غاضبات من الطرد : ربما تضايقن قليلاً ولكن ليس جدياً . كانت إحداهن ، السائقة ، لم يسبق لها أن رأت رجلاً لم يكن يبدو كانفجار غير مشتعل . والأخرى التي كانت تجلس في المقعد الأمامي تذكرت الصور الجنسية المملة التي أثارتها وأعادت الالتزام أمام نفسها بالذهاب إلى مكان آخر . الثالثة التي كانت تستمتع فعلاً ، جلست في المقعد الخلفي مفكرة في أنه رغم معرفتها كيف يبدو الغضب ، لم تكن لديها فكرة كيف الشعور به . كانت دائماً تفعل ما تؤمر به ، لذا حين قال الرجل : «أعطين هؤلاء الفتيات الصغيرات...» فقد فعلت

ذلك بابتسامة . كانت الراكبة الرابعة ممتنة للطرد . كان هذا هو يومها الثاني في «الدير» واليوم الثالث الذي لم تكن قد تلفظت فيه بكلمة واحدة مع أي شخص . وباستثناء هذا اليوم حين اقتربت لتقف إلى القرب منها الفتاة المسماة بيلي «كذا» .

«أنت على ما يرام ؟» كانت ترتدي ثوباً زهرياً بلون الصدفة وبدلاً عن قبعة «الدوش» كانت قد ثبتت زهوراً صفراء صغيرة بدبابيس في شعرها .

« «بالاس» ؟ هل أنت على ما يرام ؟» .

أومأت برأسها وحاولت ألا ترتجف .

«أنت آمنة هناك ، ولكني سأحضر لزيارتك إذا احتجت إلى أي شيء . حسناً ؟» .

«أجل» همست بالاس . ثم قالت : «شكراً» .

إذن فتحت شفتيها هناك قليلاً لتقول كلمتين ، ولم يتسرب أي ماء أسود إلى الداخل . ما يزال البرد يهز عظامها ، ولكن الماء الداكن قد انحسر . مؤقتاً . في الليل ، بالطبع ، سيعود وستعود إلى الغرق فيه ـ محاولة ألا تفكر فيما كان يسبح تحت عنقها . كانت قد ركزت على أعلى الماء وعلى النور الكاشف الذي يلعق الحافة ، ثم ينطلق أبعد فوق الوهج الأسود . راحت تأمل ، تأمل بأن الأشياء التي تلمسها في الأسفل كانت أسماكاً ذهبية صغيرة مثل تلك التي في الوعاء الذي اشتراه لها أبوها حين كانت في الخامسة . أو هي سمك ملون لامع ، ملائكة . ليس تماسيح أو حيات . كانت هذه بحيرة وليس مستنقعاً أو حوضاً صنعياً في حديقة حيوانات سان دييغو . وإذ راحت تعوم فوق الماء ، كانت الهمسات أقرب من نداءاتها . «هنا أيتها القطة . بس بس بس» كان الصوت بعيداً ، ولكن «أعطني النور ، هناك ، دعها ، ربما غرقت . لا مجال» . انزلقت في البشرة وراء أذنيها .

حدقت بالاس خارج النافذة إلى سماء ثابتة جداً ومنظر طبيعي خال من الملامح المميزة فلم يكن لديها إحساس بأنها في سيارة متحركة . كانت رائحة علكة جيجي ذات البالون الممتزجة بدخان لفافتها تبعث على الغثيان .

« هنا يا قطتي . هنا » كانت بالاس قد سمعت ذلك من قبل . قبل حياة كاملة في أسعد أيام حياتها . في المصعد في آخر عيد ميلاد . تقولها المرأة المجنونة التي كانت قادرة على رؤيتها في تفصيل أوسع مما شاهدتها أول مرة .

كان الشعر على قمة رأسها المفروق بمشبك بلاستيكي أحمر ، يكاد يكون تسريحة بومبادور صغيرة أو تجعيده لو كان أطول من إنشين أو ثلاثة . وعلى أي حال لم يكن أياً من ذلك . مجرد خصلة ممسوكة على نحو قاس بمشبك طفولي . كان هناك ملقطا شعر أخريان ، واحد أصفر والآخر أرجواني نيوني ، يمسك بأصابع من الشعر عند صدغيها . كان وجهها المخملي الداكن مكشوفاً وغير مرني تماماً خلف الأقراص بحجم البسكويت من الحمرة القرمزية ، وأحمر الشفاه «الفوشيا» مسحوباً بانحراف وراء حافة شفتيها ، وكحل الحاجب الأسود الذي كان ينزل باتجاه عظام وجنتيها . كل شيء آخر حولها كان إبهاراً وصليلا : أقراط الآذان البلاستيكية البيضاء والأساور النحاسية والخرز الباستيل عند حنجرتها ، والكثير الكثير غير هذا حيث كانت تضع كل هذا في الحقائب التي تحملها : حقيبتا دعاية لـ«شركة الطيران البريطانية لما وراء البحار» ومحفظة نقود معدنية لها شكل علبة السيجار . كانت ترتدي بلوزة قطنية بيضاء قصيرة وتنورة حمراء قصيرة . الجورب الطويل على ساقيها القصيرتين بلون القرفة الذي يظن أنه يلائم سيقان النساء السوداوات ، كان درساً في العدو كما كان كعباها العاليان في القفز . كان لها بشرة داخلية لذراعها وكرش صغير قاس يوحيان بأنها في

الأربعين ، ولكن يمكنها أن تكون في الخمسين أوفي العشرين . الرقص الذي رقصته على السلم الكهربائي والوركان الدوّاران وطريقة أرجحتها لرأسها كان يذكر بفترة غابرة من الطحن البطيء في حجرة سيئة الإضاءة مليئة بأزواج الراقصين . وليس بالإيقاع السريع الكهربائي لعام (١٩٧٤) . كان يمكن للأسنان أن تكون مصنوعة في أي مكان : كينغستون ، جامايكا أو باس كريستيان ، ميسيسبي ، في أديس أبابا أو ولرسو . ذهب مذهل ، كانت أسنانها تجعل ابتسامتها عجوزاً بينما تعطيها الجدية لتي كانت بقية ملابسها تفتقر إليها .

كانت معظم العيون تبتعد عنها : نازلة الدرجات المعدنية العائمة تحت قدميها أو خارجة من ديكورات عيد الميلاد التي كانت تمنح الحياة للسوبر ماركت . أطفال على أي حال وبالاس ترو لف [الحب الحقيقي] كانت تحدق .

أعياد الميلاد في كاليفورنيا هي دائماً متعة وهذا العيد كان يعد بأعجوبة ، سماء لامعة وحرّ زاد من لمعان الثلج الصناعي ، والباقات الخضراء والذهبية والوردية والفضية . كانت بالاس ، المثقلة بالرزم ، قد استطاعت تجنب التعثر على السلم الكهربائي المتحرك . لم تفهم لماذا خلبت لها لبها المرأة ذات أحمر الشفاه والأسنان الذهبية . لم يكن بينهما شيء مشترك . الأقراط التي تدلت من شحمتي أذني بالاس كانت من عيار (١٨) قيراطاً . والجزمة في قدميها كانت صناعة يدوية ، والجينز الذي ترتديه مصنوع بناء على الطلب ، والبكلة على حزامها الجلدي كانت من الفضة المشغولة على نحو جميل .

كانت بالاس قد تعثرت على السلم الكهربائي المتحرك في ذعر خفيف ، مندفعة نحو الأبواب ، حيث ينتظرها كارلوس في الخارج . كان

النغم الرتيب المثير للغثيان للمرأة يندمج مع أغاني عيد الميلاد الصادرة عن السوبر ماركت : «ها هي القطة . هل تريدين بعضاً منها يا قطتي . قطتي» .

*

«ماي...... فيس!» .

لم تنظر مايفيس إليها . كانت جيجي تقبّح لها اسمها دائما وتجذبه كأنه خيط من علكتها البالونية .

«هل تستطيعين القيادة أسرع من عشرة أميال بالساعة ؟ يا للمسيح!» .

«السيارة في حاجة إلى حزام مروحة جديد . ولن أسير بها أسرع من أربعين ميلاً» . قالت مايفيس .

تنهدت جيجي : «عشرة . أربعون . هذا أشبه بالمشي» .

«ربما سأتوقف هنا وأدعك ترين ما يعنيه المشي . هل تريدين ؟» .

«لا تعبثي معي . اسحبيني إلى ذلك المتسكع... هل شاهدت ذلك الشخص يا «سين» ؟ مينوس . الذي برّز على نفسه عندما بقي معنا ؟» .

أومأت سينيكا برأسها . «لم يقل شيئاً دنيئاً على أي حال» .

«لم يتوقف عن قولها أيضاً» . قالت جيجي . «كل ذلك القيء وذلك الخراء الذي نظفته» .

«قالت كوني إن باستطاعته البقاء . ونحن جميعاً نظفناه» . قالت مايفيس . «ليس أنت فحسب . ولم يجبرك أحد . لم يكن عليك الذهاب» .

«كان معه d.t. للبكاء عالياً» .

سألت سينيكا : «أيمكنك إغلاق نافذتك من فضلك يا مايفيس ؟» .

«الكثير من الهواء في الخلف هناك ؟» .

«إنها ترتجف مجدداً . أعتقد أنها بردانة» .

«الحرارة تسعون درجة [فهرنهايت]! ما حكايتها بحق الجحيم ؟ » نظرت جيجي إلى الفتاة المرتجفة .

سألت مايفيس : «هل علي أن أتوقف ؟ قد تتقيأ مجدداً» .

«لا . لا تتوقفي . سأمسك بها» . ضمت سينيكا بالاس بين ذراعيها ، وفركت الذراعين المقشعرتين من البرد . «ربما أصيبت بدوار السيارات . ظننت أن الحفلة ستحسن حالتها المعنوية . يبدو أنها جعلتها في حال أسوأ» .

«تلك البلدة الغبية «المفعول بها» تجعل المرء يتقيأ . لا أستطيع أن أصدق أن تلك هي ما يسمونه حفلة . تراتيل دينية للبكاء عالياً!» ضحكت جيجي .

«كانت حفلة زفاف وليس ديسكو» . مسحت مايفيس العرق المتشكل تحت عنقها . «وعلاوة على ذلك ، فأنت أردت فحسب أن تري مهرك الحبيب مجدداً» .

«ذاك الأست ؟ » .

«أجل . هو» . ابتسمت مايفيس . «الآن بعد أن أصبح متزوجاً ، فأنت تريدين استعادته» .

«لو أردت استعادته لاستطعت ذلك . ما أريده هو أن أترك هذا المكان اللعين» .

«أنت تقولين ذلك منذ أربع سنين ، أليس صحيحاً يا «سين» ؟ » .

فتحت جيجي فمها ثم توقفت . هل كانت أربع ؟ ظننتها سنتين . ولكن على الأقل تم إنفاق سنتين من العبث مع «ك . د .» ، القضيب . هل تركته يبقيها طوال هذه الفترة وهو يعدها بالحصول على ما يكفي من المال ليأخذها

بعيداً ؟ أو هل كان وعداً آخر أبقاها هناك ؟ أشجاراً متشابكة قرب ماء بارد . «حسناً ، أنا الآن أسير باتجاه الشيء الحقيقي» . كما قالت لمايفيس وأملت أنها كانت كذلك .

بعد نخرة من عدم التصديق أصدرتها مايفيس ، ساد الصمت في السيارة مجدداً . تركت بالاس رأسها تستريح على صدر سينيكا ، متمنية لو أنهن رحلن ولو أن صدر كارلوس الصلب الأملس كان يدعم رقبتها كما فعل كلما أرادت لمسافة سبعمائة ميل . كانت هدية عيد ميلادها السادس عشر سيارة تويوتا حمراء مع مسجلة بثمانية مسارات وكانت مليئة بهدايا عيد الميلاد . أشياء كانت تحبها والدة أي شخص ، ولكن في تنوع من الألوان والطرازات لأنها لم تستطع أن تنال فرصة الحصول على أي شيء يرضي امرأة لم ترها منذ ثلاثة عشر عاماً . ركبت السيارة مع كارلوس على عجلة القيادة قبل عيد الميلاد مباشرة في رحلة العطلات لترى أمها . لم تكن هاربة من أبيها ، ولم تكن تهرب مع أبرد وأجمل رجل في العالم .

كل شيء تم تخطيطه على نحو جيد : الأشياء أخفيت والحركات موّهت ، لئلا يرى الرب ، مدبرة المنزل ذات عين النسر أو أخوها جيروم . لم يكن أبوها متواجداً بما فيه الكفاية ليلاحظ أي شيء . كان محامياً ذا لائحة صغيرة من الموكّلين ، ولكن كان اثنان منهما مغنيان أسودان شهيران . وطالما أبقاهما ميلتون فوق الجميع ، ما كان في حاجة إلى اكتساب المزيد ، رغم أنه كان يبقي عينه على المغنين الشبان الذين قد يصعدون إلى القمة ويبقون هناك .

وبمساعدة كارلوس كان الأمر سهلاً ومثيراً : الأكاذيب التي تقال لصديقاتها كانت يجب أن تدعم ، والأشياء المتروكة وراءها يجب أن تكون إشارة إلى العودة وليس هروباً (إجازة السياقة ـ نسخة عنها ـ ودمى الدببة

خاصتها ، وساعتها ، وأدوات التجميل والمجوهرات وبطاقات الائتمان) .
هذه الأخيرة جعلت من الضرورة القيام بصرف شيكات بمبالغ كبيرة وبتسوق في اليوم نفسه الذي رحلا فيه . أرادت شراء المزيد ، لأجل كارلوس ، ولكنه أصر على خلاف ذلك . لم يكن يأخذ هدايا منها طوال الوقت الذي عرفته خلاله : أي أربعة أشهر . وما كان يقبل حتى أن تشتري له وجبات الطعام . كان يغمض عينيه الجميلتين ويهز رأسه وكأن مجرد عرضها عليه كان يحزنه . كانت بالاس قد قابلته في مرآب المدرسة يوم أن رفضت سيارتها التويوتا الانطلاق . وقد قابلته فعلاً في ذلك اليوم ولكنها كانت قد رأته كثيراً في السابق . كان عامل الصيانة الذي له مظهر نجوم السينما في مدرستها الثانوية . كانت كل الفتيات مغرمات به . ويوم ضغط على دواسة البنزين حتى النهاية وقال لبالاس إن خط الوقود كان مشبعاً به ، كانت تلك هي البداية . عرض عليها أن يلحق بها إلى المنزل في سيارته الفورد ليتأكد من أنها لن تتعطل مجدداً . لم يحدث ذلك ولوح لها مودعاً . جلبت له بالاس هدية ـ ألبوماً ـ في اليوم التالي ووجدت صعوبة في جعله يقبلها . قال : «فقط إن سمحت لي أن أشتري لك سندويشة مقانق بالصلصة الحارة» . كان فم بالاس قد اصبح كاللباد من الإثارة . كانا يتقابلان مرة في كل عطلة نهاية أسبوع بعد ذلك . كانت تقوم بكل شيء تستطيع أن تفكر به لتجعله يمارس الحب معها . وكان يستجيب بانفعال لعناقهما ، ولكنه لم يسمح بالمزيد مدة أسابيع بحالها . كان هو من قال : «حين نتزوج» .

لم يكن كارلوس بواباً في الواقع . كان نحاتاً وحين حكت له بالاس عن أمها الرسامة وأين تعيش ، ابتسم وقال إنه المكان الكامل لفنان . كانت الأمور كلها ملائمة . كان كارلوس قادراً على ترك عمله مع احتجاج قليل . خلال العطل سيكون ميلتون ترولوف مشغولاً جداً بحفلات موكّليه ، والحفلات

الموسيقية والصفقات التلفزيونية . بحثت بالاس عبر ما تسلمته خلال سنوات من بطاقات ذكرى ميلادها السنوية وأعياد الميلاد بحثاً عن آخر عنوان لها [لأمها] ، وانطلق العاشقان دون أن ينخع المحرك أو وجود غيمة واحدة . باستثناء المرأة السوداء العجوز التي كانت تشوه أغاني عيد الميلاد .

التصقت بالاس بثديي سينيكا التي رغم أنها لم تكن مرتاحة ، إلا أن ذلك خفف من القشعريرة التي كانت ترهقها . المرأتان في المقعد الأمامي كانتا تتشاجران مجدداً بصوت مرتفع النبرة أوجع لها رأسها .

« القحبة الاستعراضية! سوآن صديقتنا ما الذي سأقوله لها الآن ؟ » .

« إنها صديقة كوني . لا علاقة لك بالأمر » .

« أنا من تبيعها الفلفل وتصنع لها الشراب المقوي... » .

« ما الذي يجعلك هذا ؟ كيميائية ؟ إنه مجرد حصى البان مع القليل من النخالة المخلوطة مع الأسبرين » .

« مهما يكن ، فهذه مسؤوليتي » .

« فقط حين تكون كوني ثملة » .

« أبقي فمك القذر مغلقاً . لم تكن تشرب حتى وصلت أنت » .

« هذا ما تقولينه . إنها تنام حتى في قبو الخمور » .

« غرفة نومها هناك! يا لك من حمقاء! » .

« لم تعد خادمة الآن . تستطيع النوم في الطابق العلوي لو أرادت . هي تريد فحسب أن تكون قريبة من الشراب » .

« يا إلهي . أكرهك » .

تدخلت سينيكا بصوت ناعم مخصص للانسجام . « كوني ليست سكيرة . إنها تعيسة . كان يجب أن تأتي معنا على أي حال . لكان الأمر قد اختلف » .

« كان الأمر جميلاً . جميلاً فحسب! » ، قالت جيجي . « حتى وصل نماذج الوعاظ أولئك » . أشعلت لفافة جديدة من تلك التي كانت قد أنهت تدخينها .

سألت مايفيس : « ألا تستطيعين التوقف عن التدخين ولو لدقيقتين ؟ » .

« لا! » .

« لا أرى ما رآه فيك ذاك الزنجي » . تابعت مايفيس .

« غيورة ؟ » .

« كالجحيم » .

« كالجحيم . كالجحيم . لم ينم معك رجل منذ عشر سنوات أيتها القشرة اليابسة » .

« اخرجي! » زعقت مايفيس ، وهي تكبح فرامل السيارة . « اخرجي من سيارتي بحق الجحيم! » .

« هل ستجبرينني على ذلك ؟ المسيني وسأمزق وجهك . أيتها الشريرة اللعينة! » ثم كبست لفافتها على ذراع مايفيس .

ما كان ممكناً لهما أن تتقاتلا في الحيز المتاح لهما ولكنهما حاولتا . أمسكت سينيكا بالاس بين ذراعيها وراقبتهما . حاولت ذات مرة التفريق بينهما ، ولكنها تعرف الآن أفضل من ذلك . حين تتعبان تتوقفان ويعود السلام ليحل فترة أطول ممّا لو تدخلت . كانت جيجي تعرف حساسيات مايفيس : أي شيء مهين لكوني وأي إشارة إلى وضعها كهاربة . في آخر رحلة لها علمت مايفيس من أمها عن المذكرة الصادرة بتوقيفها لارتكابها حريقاً متعمداً كبيراً وهجر أطفالها والشك في قتلها لاثنين منهم .

اهتزت الكاديلاك . كانت جيجي محبة للخصام إنما فارغة : لم تكن ترغب في أن تشوه الكدمات أو الخدوش وجهها الجميل وكانت قلقة

باستمرار حول شعرها . كانت مايفيس من النوع الذي يضرب ببطء إنما بثبات ومرح . حين رأت جيجي الدم افترضت أنه دمها ونزلت من السيارة ومايفيس تنطلق وراءها . وتحت سماء حارة معدنية خالية حتى من رف من الطيور تقاتلتا على الطريق وكتف الطريق .

عدلت بالاس جلستها ، وقد فتنت بالجسدين االمتمرغين بالتراب والمحطمين للأعشاب . جسدان مصممان غير واعيين بأي مراقب تحت سماء فارغة في أوكلاهوما أو أخرى مطلية بالدهان في ميهيتا ، نيو مكسيكو . بعد شهور من عناق وقبلات دي دي ترولوف المستثارة : شهور من التعجب على المنظر الرائع خلف نوافذ أمها ، شهور من تناول الطعام الرائع ، شهور من الحديث الفني بين أصدقاء دي دي ، كل أنواع الفنانين : ـ الهنود والنيويوركيون والعجائز والهيبيون والمكسيكيون والسود ، وأشهر من الحوار بين ثلاثتهم في الليل تحت نجوم ظنتها بالاس لا تصنع إلاّ من قبل «ديزني» . بعد كل تلك الأشهر ، قال كارلوس : «هنا أنتمي» . وتنهد بعمق «هذا هو الموطن الذي كنت أتطلع إليه» . كان وجهه ـ الذي تشرب بنور القمر ـ قد جعل قلب بالاس يتوقف . تثاءبت أمها . قالت دي دي ترولوف : «طبعاً هو كذلك» . تثاءب كارلوس أيضاً ، وعندها بالضبط كان يتوجب عليها أن ترى الأمر : هذه التثاؤبات في آن واحد والأصوات المستقرة . كان يتوجب عليها أن تحسب الحساب : كارلوس أقرب في العمر إلى دي دي منه إليها . لو أنها لاحظت لاستطاعت ربما أن تمنع الجسدين المتماسكين من تبادل التنهدات في العشب ، غير مكترثين بأي مراقب . عندها ما كان العدو المذهول إلى سيارة التويوتا ولا السياقة العمياء على طرق دون هدف ولا الاصطدام أو الضربات العرضية الجانبية مع الشاحنات . لا ماء مع أشياء طرية تلمس في الأسفل .

وإذ شعرت مجدداً بالوخز الكريه وتمسيدة المجسّات ، التفت بالاس بعيداً عن مشهد المرأتين المتصارعتين ورفعت ذراعها لتطوق عنق سينيكا وتضغط بوجهها على نحو أعمق في ذلك الصدر الصغير .

كانت سينيكا هي الوحيدة التي رأت الشاحنة تقترب . أبطأ السائق ، وربما ليدور من حول الكاديلاك التي كانت تعيق الطريق ، وربما ليعرض المساعدة ، ولكنه بقي فترة كافية ليرى امرأتين خارجتين عن القانون تتدحرجان على الأرض ، ملابسها ممزقة ، واللحم السري مكشوفاً . وأن يرى أيضاً امرأتين أخريين تتعانقان في المقعد الخلفي . للحظات طويلة كانت عيناه مفتوحتين واسعتين ثم هز رأسه وشغل محرك شاحنة .

وأخيراً تمددت جيجي ومايفيس على الأرض لاهثتين . جلست إحداهما ثم الأخرى لتتلمس نفسها ، وتقوم بجرد لجروحها . بحثت جيجي عن الحذاء الذي فقدته . وبحثت مايفيس عن المطاطة التي كانت تمسك لها شعرها . وبدون كلمات عادتا إلى السيارة . ساقت مايفيس بيد واحدة . أشعلت جيجي لفافة في الجانب غير المصاب من فمها .

في عام (١٩٢٢) كان العمال البيض قد ضحكوا في أنفسهم : دارة حجرية كبيرة في وسط اللا شيء . لم يضحك الهنود . في الطقس السيئ ، والحطب تدنيس للمقدسات في ريف يخلو من الأشجار إلا نادراً ، والفحم مكلف ، وروث البقر وسخ ، والدارة تبدو لهم فكرة شيطانية . كان المختلس قد طلب أطناناً من الفحم : ولكنه لم يستخدم أياً منه . كان للراهبات اللواتي استلمن العقار الصبر والكيروسين وطبقات من العادات المصنوعة على نحو جميل . ولكن في الربيع والصيف وخلال بعض فصول الخريف الدافئة ، فإن الجدران الحجرية للدارة كانت نعمة باردة .

صعدت جيجي الدرج مسرعة لتسبق مايفيس إلى ماء الحمام المتوفر .

وبينما سعلت المضخة خلعت ملابسها ونظرت إلى نفسها في المرآة الوحيدة التي لم تطل بالدهان ، عدا ركبة واحدة وكلا المرفقين ، فإن الضرر لم يكن سيئاً جداً . الأظافر كسرت بالطبع ولكن دون عين منفوخة أو أنف مكسور . قد يظهر المزيد من الكدمات غداً ، على أي حال . كانت الشفة المتورمة حول الجرح هي التي أقلقتها . وبالضغط نزّ منها قطرة من الدم وفجأة كان الجميع يعدون عبر شوارع أوكلاند ، كاليفورنيا . صفارات الإنذار ـ الشرطة ؟ الإسعاف ؟ سيارات الإطفاء ؟ ـ هزت طبلتي أذنيها . جدار من رجال الشرطة المتقدمين قطعوا المرور شرقاً وغرباً . رمى الراكضون ما كانوا جلبوه أو استطاعوا إيجاده وهربوا . كانت هي ومايكي يتماسكان بالأيدي أولاً ، وركضا عبر شارع جانبي خلف حشد ثانوي . شارع من المنازل الصغيرة والمروج أمام المنازل . لم تكن هناك طلقات نارية : لا إطلاق نار أبداً . بل مجرد الزعقات الموسيقية للفتيات والزمجرة المطردة لرجال بوجوه الحرب . صفارات الإنذار ، أجل ، وأبواق بعيدة ، ولكن دون كسر زجاج أو صفع للجسد أو إطلاق نار . إذاً لماذا برزت خريطة من اللون الأحمر على قميص الصبي الصغير الأبيض ؟ لم تكن ترى بوضوح . أصبح الحشد أكثف ثم توقف ، فقد كان شيء ما إلى الأمام يصدّه . كان مايكي وراءها بعدة مناكب ، يحاول شق طريقه . نظرت جيجي مجدداً إلى الصبي على المرج الأخضر النضر . كان جيد الملابس : ربطة عنق فراشة وقميص أبيض وحذاء لامع مربوط الشريط . ولكن القميص كان قذراً الآن ، مغطى بفاوانيات حمراء . كان يتلوى ويتدفق الدم من فمه . مدّ يديه بعناية ليمسكه حتى لا يفسد حذاءه كما سبق وأفسد قميصه .

أكثر من مائة أصيبوا بجروح ، كما قالت الصحف ، ولكن دون ذكر لإطلاق نار أو صبي مصاب بطلقة . لا ذكر لصبي ملون صغير ونظيف يحمل دمه بيديه .

سال الماء قليلا قليلا إلى حوض الاستحمام . وضعت جيجي لفافات في شعرها . ثم نزلت على بطنها لتفحص مجدداً التقدم الذي حققته مع العلبة المخبأة تحت الحوض . كانت البلاطة فوقه قد تخلخلت من مكانها تماماً ، ولكن العلبة المعدنية بدت وكأنها مثبتة بالإسمنت في مكانها . كانت المشكلة في الوصول إلى ما تحت الحوض . لو قالت لـ« ك . د . » لكان قد ساعدها ، ولكن كانت ستضطر عندئذ إلى مشاركته في المحتويات : ذهب ربما ، وربما ألماس ورزمات كبيرة من المال . مهما يكن في العلبة فهو ملك لها : وسوف تعطي ، « كوني » أيضا إن أرادت البعض . ولكن ليس أي شخص آخر . ليس مايفيس أبداً . ما كانت سينيكا لتريد أي شيء ، وهذه الفتاة الأخيرة ، ذات العينين اللتين تشبهان الزجاج المتشظي والرأس كثيف الشعر : من يعرف من تكون أو ما تكون ؟ وقفت جيجي ، ومسحت التراب والتربة عن بشرتها ثم دخلت الحوض . جلست هناك وهي تفكر في خياراتها . « كوني » ، فكرت ، « كوني » .

ثم ، إذ هي متمددة حتى تصل الفقاعات ذقنها ، فكرت بأنف سينيكا ، وكيف يتحرك منخراها وهي نائمة . فكرت في الميل الذي في شفتيها سواء كانت تبتسم أم لا ، وحاجبيها الكثيفين المجنحين تماماً . وصوتها ناعم جائع بلطف . كقبلة .

في الحمام الكائن عند الطرف الآخر من القاعة ، قامت مايفيس المبتهجة بتنظيف نفسها عند المغسلة . ثم غيرت ملابسها قبل أن تهبط إلى المطبخ لتحضر العشاء . بقايا فروج ، قطع مع الفلفل والبصل والطرخون وصلصلة من نوع ما ، وجبن وربما ملفوفة في تلك الفطيرة التي علمتها كوني كيف تصنعها . هذا سيسرها . ستأخذ طبقاً منه إلى كوني في الأسفل وتحكي لها ما حدث . لن تحكي لها عن الشجار . لم يكن هذا مهماً . وفي الواقع

لقد استمتعت به . كان ضرب جيجي ثم عضّها منعشاً ، مثل الطبخ . كان برهاناً إضافياً على أن مايفيس القديمة قد ماتت . تلك التي ما كانت لتدافع عن نفسها تجاه بنت في الحادية عشرة من عمرها ، ناهيك عن زوجها ، والتي كانت تتكل على المآكل الجاهزة ومحلات بيع المآكل للسيارات المارة ، هاهي تحضّر الآن مآكل مترفة مثل الفطائر المحلاة دون أن تتسوق كل يوم .

ولكنها كانت ملدوغة من تلميح جيجي إلى كونها لا جنسية ، وكان هذا أمراً مضحكا نوعاً ما . حين تزوجت من فرانك أحبت الأمر نوعاً ما . ثم أصبح تعذيباً مطلوباً ، أطول ولكن ليس أكثر اختلافاً من أن يصفع المرء ليقع من فوق كرسي . تلك السنوات في «الدير» كانت خالية من هذا كله . ومع ذلك ، وحين كان الأمر يأتيها ليلاً لم تعد تقاومه . مرة كان كابوساً عرضياً : شبل أسد ينهش عنقها . ومؤخراً اتخذ شكلاً آخر ـ بشرياً ـ ونام فوقها أو قاربها من الخلف . قالت كوني : «إنها الحضون . قاتليها» . [الحضون : روح شريرة يزعمون أنها تلم بالنيام وأنها ، بخاصة ، تجامع النساء ليلا] ولكن مايفيس لم تستطع أو لم ترغب بذلك . والآن كانت في حاجة إلى معرفة ما إذا كان ما قالته جيجي عنها هو سبب ترحيبها به . لا زالت تسمع ميرل وبيرل ، وتحس بوجودهما المرتعش في كل غرفة من غرف «الدير» . ربما كان عليها أن تقر وتعترف إلى كوني أنه إذا أضفنا الزيارات الليلية إلى الأطفال الضاحكين وإلى «أم» تحبها لشكّل هذا كله عائلة سعيدة . بل ما هو أفضل : حين تأخذ لكوني عشاءها ، ستحكي لها حول حفلة الاستقبال ، كيف أحرجت جيجي الجميع ، وخاصة سوآن ، ثم ستسألها عما ستفعلانه حول الزيارات الليلية . كوني ستعرف . كوني .

*

شال نورما فوكس الكاشمير قد أصبح مفيداً مرة أخرى . لفته سينيكا حول بالاس وسألتها إن كانت تريد شيئاً ما . ماء ؟ شيء تأكله ؟ أشارت بالاس بالرفض . لا تستطيع أن تبكي بعد ، كما فكرت سينيكا . كان الألم عميقا جداً . وحين كان يصعد فإن الدموع كان تتبعه وقد أرادت سينيكا أن تكون هناك حين يحدث ذلك . لذلك فقد دفأت الفتاة كأفضل ما يكون ، وحاولت أن تملّس الشعر الكثيف وقادتها إلى كوني.وهي تحمل شمعة .

جزء من القبو ، غرفة ضخمة باردة لها سقف مقبب ، ومبطنة برفوف من القناني . نبيذ عتيق بعمر « كوني » . نادراً ما لمسته الراهبات ، كما قالت لها كوني ، وكن يستخدمنه فقط حين لم يكن قادرات على تدبير قسّ ليدير القداس الذي كن جائعات له . وفي بعض مناسبات عيد الميلاد كن يصنعن كعكة طرية مشربة بنبيذ «فوف كليكو ١٩١٥» بدلاً عن الروم . وفي كل ما حولها في الظل كانت تقبع أشكال الصناديق والعلب الخشبية والأثاث المهجور والمحطم . نساء عاريات من رخام مصقول ورجال من الحجر الخشن . في النهاية البعيدة كان الباب المؤدي إلى غرفة كوني . ورغم أنها لم تكن قد بنيت لأجل خادمة ، كما قالت مايفيس ، إلا أن الغرض الرئيسي منها لم يكن واضحاً . كانت كوني تستخدمها لأجل عتمتها . لم يكن نور الشمس مزعجاً لها هناك .

قرعت سينيكا الباب فلم تحصل على جواب . دفعته فانفتح . كانت كوني جالسة على كرسي هزاز من القصب وهي تشخر شخيراً خفيفاً . وحين دخلت سينيكا استيقظت فوراً .

«من يحمل ذلك النور ؟» .

«إنها أنا : سينيكا . وصديقة» .

«ضعيه هناك» . أشارت إلى خزانة ذات أدراج خلفها .

«هذه بالاس . لقد وصلت قبل يومين . قالت إنها تريد مقابلتك» .

سألت كوني : «حقاً ؟» .

كان نور الشمعة يجعل الرؤية صعبة ، ولكن سينيكا ميزت «مريم العذراء» وزوجاً من أحذية الراهبات اللامعة ، والمسبحة على المزينة ، شيء ما متجذر في وعاء ماء .

سألت كوني : «من سبب لك الأذى يا صغيرتي ؟» .

جلست سينيكا على الأرض . كان لديها أمل ضعيف في أن بالاس ستقول الكثير هذا إن كانت ستقول أي شيء إطلاقاً . ولكن كوني كانت سحراً . مدت يدها فحسب ومضت بالاس إليها وجلست في حجرها وراحت تتكلم باكية في البداية ، ثم راحت تبكي فحسب ، بينما راحت كوني تقول : «اشربي القليل من هذا» . و«يا لهما من قرطين جميلين» ، و«ياللصغيرة المسكينة ، الصغيرة المسكينة المسكينة . لقد أساؤوا إلى صغيرتي المسكينة» .

كانت الحكاية مشربة بالنبيذ واستغرقت ساعة . كانت حكاية خجولة ومليئة بالثقوب وناقصة ، ولكنها خرجت ، حكاية الفتاة الصغيرة عمّن أساء إليها .

فقدت حذاءها ، قالت ، لذلك ما كان أحد ليتوقف لأجلها في البداية . ثم توقفت المرأة الهندية ذات القبعة اللباد الطرية . أو كان بالأحرى شاحنة مليئة بالهنود توقفت لأجلها عند الفجر بينما كانت تعرج حافية القدمين مرتدية الشورت على جانب الطريق . كان رجل يقود الشاحنة . وإلى جانبه كانت امرأة تحمل طفلاً في حجرها . لم تستطع بالاس أن تعرف إن كان الطفل ذكراً أم أنثى . جلس ستة شبان في المؤخرة . كانت المرأة هي التي جعلت من الممكن قبول ركوب الشاحنة . تحت حافة قبعتها كانت العينان

الرماديتان للمرأة بلون القطط دون تعبير ، ولكن وجودها بين الرجال جعلهم مهذبين ، وكذلك الطفل الذي في حجرها .

سألتها : «إلى أين ذاهبة ؟» .

كان ذلك حين اكتشفت بالاس أن حبالها الصوتية لم تكن تعمل . وأنها من حيث القدرة على صنع الصوت ما كانت قادرة على منافسة طاحونة الهواء المنعزلة التي تصرّ في الحقل خلفها . لذلك أشارت بيدها إلى الاتجاه الذي كانت الشاحنة ذاهبة فيه .

قالت المرأة : «اذهبي إلى الخلف إذن» .

صعدت بالاس لتجلس بين الذكور ـ كانوا في معظمهم من عمرها ـ وجلست بعيداً عنهم كأكثر ما تستطيع ، آملة أن تكون المرأة أمهم أختهم خالتهم أو أي امرأة ذات تأثير كابح .

حدق الفتيان الهنود إليها ولكن لم يتلفظوا بأي شيء أبداً . راحوا ينظرون وأذرعهم على ركبهم دون أن يبتسموا ، إلى شورتها الوردي ، وقميصها الـ«تي شيرت» من ماركة «داي ـ غلو» ، بعد فترة ، فتحوا أكياساً ورقية وبدأوا يأكلون . عرضوا عليها سندويشة سميكة من السجق مع بصلة من تلك التي كانوا يأكلونها كالتفاح . وخشية أن يشعرهم الرفض بالإهانة ، قبلت بالاس ، ثم وجدت نفسها تأكلها كلها ككلبة ، بسرعة ، مندهشة من جوعها . كان تأرجح الشاحنة قد جعلها تغفو لتنام دقائق قليلة بين الحين والآخر . وفي كل مرة كان ذلك يحدث كانت تستيقظ محاربة حلماً من ماء أسود متسرب إلى فمها وأنفها . مروا بأماكن ذات منازل متناثرة ، «أغوايز» ، محطة وقود ، ولكنها الشاحنة لم تتوقف حتى وصلوا إلى بلدة كبيرة . في ذلك الحين كان الوقت عصراً . سارت الشاحنة في شارع خال ، وأبطأت أمام كنيسة معمدانية كان في لوحتها كلمة «بداني» .

قالت المرأة : «انتظري هناك . سيأتي شخص ما ويهتم بك» . ساعدها الفتيان على الهبوط وانطلقت الشاحنة في طريقها .

انتظرت بالاس على درج الكنيسة . لم يكن هناك منازل تستطيع رؤيتها ولا أي شخص في الشارع . ومع غروب الشمس ، أصبح الهواء بارداً . كان أسفل قدميها المتورم يحرقها ويجعلها تشرد عن البرد الذي يصل إلى نقي عظامها . وأخيراً سمعت صوت محرك فرفعت بصرها لترى المرأة الهندية مجدداً ـ ولكن لوحدها هذه المرة ـ تقود الشاحنة لوحدها .

قالت : «اصعدي» وقادت الشاحنة لمسافة قصيرة إلى بناء منخفض له سقف ممعج . قالت : «ادخلي إلى هناك . إنها عيادة . لا أعرف إن كنت منزعجة أم لا . تبدين هكذا لي . مثل فتاة منزعجة . ولكن لا تقولي لهم ذلك هناك . لا أعرف إن كان هذا صحيحاً ، ولكن لا تذكريه ، أتسمعين ؟ الأفضل ألا تفعلي ذلك . قولي إنك تعرضت للضرب أو رميت خارجاً أو شيئاً ما» .

ابتسمت عندها وظنت عينيها جديتين جداً . «شعرك مليء بالطحالب» . رفعت قبعتها ووضعتها على رأس بالاس . «هيّا» .

جلست بالاس في غرفة الاستقبال مع المرضى الصامتين مثلها . امرأتان عجوزان بمنديلي رأس ، وطفل محموم على ذراع أمه النائمة . نظرت إليها موظفة الاستقبال ببعض الفضول ولكنها لم تقل شيئاً . كانت العتمة على وشك أن تهدد بالهبوط حين دخل رجلان ، أحدهما بيد مفصولة جزئياً عن جسمه . كان الدور لبالاس والأم النائمة ، ولكن الرجل الذي ينز دائماً في منشفة كانت له الأفضلية . وحين قادته موظفة الاستقبال هربت بالاس من المدخل واستدارت إلى جانب البناء ، حيث تقيأت كل البصل والسجق . وبينما كانت تتقيأ بعنف ، سمعت قبل أن ترى امرأتين تقتربان . كانتا كلتاهما ترتديان قبعة «الدوش» وبزة زرقاء .

قالت واحدة منهما : «انظري إلى تلك» .

اقتربا من بالاس ووقفتا برأسين مائلتين وهما تراقبانها تتقياً .

«هل أنت داخلة أم خارجة ؟» .

«لابد أنها حامل» .

«هل تحاولين مقابلة الممرضة يا حبيبتي ؟» .

«الأفضل لها أن تسرع» .

«فلنأخذها إلى ريتا» .

«خذيها يا بيلي . عليّ أن أذهب» .

«إنها ترتدي قبعة ولكنها دون حذاء . حسناً ، هيا . سأراك غداً» .

استقامت بالاس وهي تمسك بمعدتها وتتنفس بصعوبة عبر فمها .

«اسمعيني . العيادة تغلق الآن إلاّ إذا كنت في حالة إسعاف . هل أنت واثقة أنك لست حاملاً ؟» .

ارتجفت بالاس وهي تحاول مقاومة غثيان آخر .

التفتت بيلي لترى سيارة صديقتها تغادر المكان ثم نظرت إلى القيء . ودون أن تتغير ملامحها رفست التراب حتى اختفى .

سألتها : «أين جزدانك ؟» وهي تبعد بالاس عن القيء المدفون . «أين تسكنين ؟ ما اسمك ؟» .

لمست بالاس حنجرتها وأطلقت صوتاً مثل مفتاح يحاول أن يدور في القفل غير الصحيح . كل ما استطاعت فعله كان أن تهز رأسها . ثم كطفلة وحيدة في ملعب مهجور ، رسمت اسمها في التراب بأصبع قدمها . ثم ببطء ، ومقلدة محو الفتاة للقيء فقد رفست اسمها بعيداً ، مغطية إياه بالكامل بالتراب الأحمر .

رفعت بيلي قبعة الدوش خاصتها . كانت أطول بكثير من بالاس وكان عليها أن تنحني لتنظر في العينين المسدلتين .

. قالت بيلي : «تعالي معي يا فتاة ، أنت حالة مؤلمة لو سبق لي أن شاهدت واحدة . وقد رأيت بعضها» .

قادت السيارة عبر هواء المساء الأزرق متحدثة بهدوء وعلى نحو يبعث الاطمئنان . «تستطيعين المكوث في هذا المكان لفترة من الزمان . لا أسئلة : لقد فعلت ذلك مرة وكانوا لطيفات معي . ألطف من... حسناً ، لطيفات جداً . لا تخافي . لقد اعتدت أن أكون... أعني خائفة منهم . لا ترين الكثير من الفتيات هنا من هذا النوع هنا» . ضحكت . «المجنونات قليلاً ، ربما ، إنما المتحررات ، المسترخيات نوعاً ما . لا تكوني مندهشة إن كنّ دون أي ملابس . كنت في البداية ، ثم كان الأمر ، لا أعرف . لاشيء . كانت أمي ستضربني حتى أفقد وعيي أسبوعاً لو تجولت على ذاك النحوْ . وعلى أي حال تستطيعين أن تلملمي نفسك هنا وتفكري في الأمور ، دون أن يزعجك شيء أو شخص طوال الوقت . سيعتنون بك أو يتركونك وشأنك . كما تحبين» .

بدأ اللون الأزرق يدكن من حولهما باستثناء شريط من اللون الفضي في البعد . كانت الحقول تتموج تحت ريح دافئة ، ولكن بالاس كانت ترتجف وقت أن وصلوا «الدير» .

بعد أن سلمتها إلى مايفيس ، قالت الفتاة : «سأعود لأطمئن عليك . حسناً ؟ اسمي بيلي كاتو» .

*

كانت الشمعة قد احترقت إلا بوصة واحدة إلا أن شعلتها كانت عالية . مسحت بالاس فمها بظاهر يدها . كان الكرسي الهزاز يهتز . كان تنفس كوني عميقا إلى حد أن بالاس ظنتها نائمة . كانت تستطيع مشاهدة

سينيكا ، يدها على ذقنها ، ومرفقها على ركبتها ، تتطلع إليها ، ولكن لهب الشمعة مثل نور القمر في ميهيتا ، كان يشوه الوجوه .

تحركت كوني .

«سألتك من أساء إليك . وأنت تتحدثين عمّن ساعدك . هل تريدين حفظ ذلك الجزء الآخر سراً لفترة أخرى ؟» .

لم تقل بالاس شيئاً .

«كم عمرك ؟» .

كادت تجيب بأنه ثمانية عشر عاماً ، ولكنها اختارت الحقيقة . «ستة عشر عاماً ، كان من شأني أن أكون في آخر صف في الثانوية في العام القادم» .

كانت ستبكي مجدداً على السنة الأولى الضائعة ، ولكن كوني دفعتها بخشونة . «انهضي . أنت تكسرين حضني» . ثم قالت بصوت ألطف : «هيا ونامي الآن . بإمكانك البقاء هنا طالما كنت راغبة في ذلك واحك لي البقية حين ترغبين» .

نهضت بالاس وترنحت قليلاً من الهزّ والنبيذ .

«شكراً . ولكن . أفضل أن أهتف لأبي . على ما أعتقد» .

قالت سينيكا : «سنصطحبك . اعرف أين يوجد هاتف . ولكن عليك التوقف عن البكاء ، هل سمعت ؟» .

غادرتا المكان عندئذ ، وهما تخطوان بحرص عبر العتمة ، وقد تدربت أعينهما على النور الخفيض الذي كانت الشمعة تلقيه . كانت بالاس التي ترعرعت في النور الفائض للوس أنجليس ، وفي منازل ليست لها أقبية ، تربط في ذهنها ما بين الأقبية والشر السينمائي أو النفايات أو الأشياء الزاحفة . أمسكت بيد سينيكا بقوة وتنفست عبر فمها . ولكن الإيماءات

كانت تعابير عن انزعاج متوقع وليس أصيلاً . وفي الواقع ، ومع صعودهما الدرج ، فإن صور الجدة التي تهز بسلام والأذرع والحضن والصوت المغني قد واستها . أحست أن الدارة كلها كانت مشبعة بل ذكورية مباركة ، كمملكة محمية ، خالية من الصيادين ولكنها مثيرة أيضاً . وكأنها قد تقابل نفسها هنا ، نفسها غير المكبوحة والأصلية ، ولكنها تراها نفسها «الباردة» ، في إحدى الغرف الكثيرة من هذه الدارة .

كان طبق مليء بالكعكات المسطحة المدورة على المائدة . ها هي جيجي متأنقة وهادئة ، وليس سوى شفة مائلة تشوه مكياجها ، جالسة تعبث بمذياعها واسع الموجات ، محاولة أن تجد المحطة الوحيدة التي تبث ما أرادت سماعه : ليس الأخبار الزراعية أو موسيقى الكاونتري أو الكتاب المقدس . وكانت مايفيس ، التي راحت تهمهم تعليمات الطبخ لنفسها ، عند الموقد .

سألت مايفيس حين رأتهما تدخلان : «هل كوني على ما يرام ؟» .

«طبعاً . كانت طيبة مع بالاس . أليس كذلك يا بالاس ؟» .

«أجل . إنها لطيفة . أشعر أني أفضل الآن» .

قالت جيجي : «واو . إنها تتكلم» .

ابتسمت بالاس .

«ولكنها هل ستتقيأ بعد الآن ؟ هذا هو السؤال» .

«جيجي . اخرسي بحق الجحيم . نظرت مايفيس بتوق إلى بالاس . «هل تحبين الكريب ؟» .

أجابت بالاس : «هم... جائعة حتى الموت» .

«هناك الكثير . لقد وضعت حصة كوني جانباً ، وأستطيع صنع المزيد لو أردت» .

«إنها تحتاج إلى بعض الملابس» . كانت جيجي تتفحص بالاس عن كثب . «لاشيء لدي يناسبها» .

«توقفي عن تسميتها بـ« it » .

« كل ما لديها وله قيمة هو قبعة . أين وضعتها ؟ » .

«لدي جينز تستطيع استعماله» . قالت سينيكا .

نخرت جيجي . «تأكدي أن تغسليه أولاً » .

«بكل تأكيد » .

«بكل تأكيد ؟ لماذا تقولين ذلك ؟ لم أرك تغسلين شيئاً واحداً منذ أن جئت إلى هنا ، بما فيه شخصك» .

تكلمت مايفيس من وراء أسنان مطبقة : «توقفي عن ذلك يا جيجي! » .

«حسناً ، لم أفعل!» . انحنت جيجي على المائدة نحو سينيكا . «ليس لدينا الكثير ، ولكن لدينا صابون» .

«قلت إني سأغسله ، أليس كذلك» . مسحت سينيكا العرق من تحت ذقنها .

«لماذا لا ترفعين كميك ؟ تبدين كبائع خرداوات متجول» . قالت جيجي .

ضحكت مايفيس : «انظرن من يتحدث» .

« كلامي نفاية . ليس مجرد صرخة صغيرة...» .

نظرت سينيكا إلى جيجي : «لا أضع كيماويات في جسدي» .

«ولكنك اعتدت على ذلك ، أليس هذا صحيحاً ؟ » .

«لا ، لم أعتد ذلك» .

«دعيني أر ذراعيك إذن» .

« انصرفي! » .

« جيجي! » صرخت مايفيس . بدت سينيكا مهانة .

قالت جيجي : « حسناً . حسناً » .

سألت سينيكا : « لم أنت هكذا ؟ » .

« أنا آسفة . أهذا جيد ؟ » كان إقراراً نادراً ، ولكنه صادق على ما يبدو .

« لم يسبق لي أن تناولت المخدرات . أبداً! » .

« قلت إني آسفة . يا للمسيح! سينيكا » .

« إنها مدمنة على الإبر يا « سين » . دائماً تغرز الإبر » . نظفت مايفيس طبقها . « لا تدعيها تدخل تحت جلدك . هناك يوجد دم » .

« أغلقي هذا الفم اللعين! » .

ضحكت مايفيس . « ها هي تمضي مجدداً . الكثير لأجل كلمة « آسفة » » .

« لقد اعتذرت من سينيكا ، وليس منك » .

تنهدت سينيكا . « فلننس الموضوع . هل مسموح أن تفتحي الزجاجة يا مايفيس ؟ » .

« ليس مسموحاً بل هذا أمر . علينا أن نحتفل ببالاس ، أليس كذلك ؟ » .

ابتسمت سينيكا : « وبصوتها » .

« وبشهيتها . انظرن إليها » .

كان كارلوس قد قتل شهية بالاس . حين كان يحبها (أو يبدو هكذا) فإن الطعام ، عدا سندويشة المقانق الأولى بالشطة ، كان إزعاجاً لها ، عذراً لشرب الكوكاكولا أو سبباً للخروج . والكيلوغرامات التي كافحت ضدها منذ المدرسة الابتدائية ذابت . لم يسبق لكارلوس أن علّق على وزنها ، ولكن

الحقيقة كانت منذ البداية ، حين كانت بدينة ، أنه كان يحبها على أي حال ـ لقد اختارها ومارس الحب معها ـ وجعلها تثق به . كانت خيانته لها حين كانت في أنحف حالاتها قد زادت من عارها . كان الحادث الكابوسي الذي أجبرها على أن تختبئ في بحيرة قد حلّ ـ لفترة من الزمن ـ محل الخيانة والألم اللذين دفعاها إلى الهرب من منزل أمها . لم تكن قادرة حتى على الهمس بذلك في عتمة غرفة مضاءة بشمعة . كان صوتها قد عاد إليها ، ولكن الكلمات التي تعبر عن عارها التصقت مثل الورم المخاطي بحنجرتها .

كان الجبن المذوب الذي يغطي فطائر الكريب ـ التورتيلا ذا نكهة متميزة . قطع الدجاج لها طعم حقيقي ، مثل اللحم الحقيقي . والزبدة الشاحبة ، البيضاء تقريباً ، التي تنقط من الذرة الباكورية لم تكن تشبه شيئاً مما اعتادت عليه . كان لها مذاق كريمي حلو . كانت هناك صلصة سكرية دافئة سكبت فوق بودينغ الخبز . ثم الكأس بعد الكأس من النبيذ . الخوف ، الشجار ، الغثيان ، العراك الرهيب في التراب ، والدموع في العتمة : كل الدراما العاصفة لذلك اليوم تلاشت في متعة مضغ الطعام . حين عادت مايفيس من إيصال العشاء إلى كوني ، كانت جيجي قد وجدت محطتها وراحت ترقص والمذياع عند الباب الخلفي المفتوح للاستقبال الأفضل للبث . رقصت عائدة إلى المائدة ثم صبت لنفسها المزيد من النبيذ . وبعينين مغمضتين وردفين يتموجان ، فقد دورت ذراعيها لتعانق عنق الراقص السحري . وراقبتها النساء الأخريات وهن ينهين وجبتهن . وحين أذاع المذياع الأغنية التي حققت الدرجة الأولى في السنة الماضية « يقتلني برقة بأغنيته » ، سرعان ما فعلن فعلها . حتى مايفيس . في البداية كل واحدة لوحدها ، متخيلة وجود شريك . ثم كل واحدة مع شريكتها متخيلة أن الأخرى شريكها في الرقص .

لقد نمن نوماً عميقاً أشبه بالموت في تلك الليلة بعد أن فعل النبيذ فعله فيهن . جيجي وسينيكا في غرفة نوم واحدة . مايفيس لوحدها في أخرى . لذا نامت بالاس على الصوفا في المكتب/ غرفة الألعاب ، وهي من سمعت القرع على الباب .

كانت الفتاة ترتدي حذاء حريرياً أبيض وثوباً قطنياً . كانت تحمل قطعة من كعكة الزفاف على طبق صيني جديد . كانت ابتسامتها ملكية .

قالت : «أنا متزوجة الآن . أين هو ؟ أو هل كان «هي» ؟» .

لاحقاً في تلك الليلة ، قالت مايفيس : «كان علينا أن نعطيها واحدة من تلك الدمى . شيئاً ما» .

قالت جيجي : «إنها مجنونة . أعرف كل شيء حولها . حكى لي «ك . د .» كل شيء عنها ، وهي مأوى مجانين كامل . هل زوجها واقع في مشكلة ؟» .

سألت بالاس : «لم تأتي إلى هنا في ليلة عرسها ؟» .

«حكاية طويلة» . مسحت مايفيس ذراعيها بالكحول ، وراحت تقارن الخدوش المدماة مع تلك التي سببتها ا جيجي هناك في أوقت أسبق . «لقد جاءت إلى هنا قبل سنوات . ساعدتها كوني على وضع طفلها . لم تكن تريده على أي حال» .

«إذن أين هو ؟» .

«مع ميرل وبيرل على ما أعتقد» .

«من ؟» .

نظرت جيجي إلى مايفيس فجأة . «لقد مات» .

«ألا تعرف ذلك ؟» سألت سينيكا . «قالت إننا جميعاً قتلناه» .

«قلت لك إنها مأوى مجانين بكامله» .

قالت مايفيس : «لقد غادرت بعد ذلك مباشرة . لا أعرف ما تعرفه . لقد رفضت حتى النظر إليه» .

توقفن عندئذ ، وهن يرينه : الوجه الملتفت بعيداً واليدان اللتان تغطيان الأذنين حتى لا يسمع ذلك البكاء الجديد إنما الحزين . ولن تكون هناك حلمة ، لاشيء يوضع في الفم الصغير . لا كتف لأم يلتصق به . لم ترد أي منهن أن تتذكر أو تعرف ما حدث بعد ذلك .

قالت جيجي : «ربما لم يكن طفله . طفل «ك . د .» . ربما كانت تتهمه بذلك» .

«إذن ؟ وماذا لو لم يكن طفله ؟ كان طفلها هي» . بدا صوت سينيكا مجروحاً .

«لا أفهم» . تحركت بالاس نحو الموقد حيث كانت بقايا بودينغ الخبز .

«لا أفهم بطريقة ما» . تنهدت مايفيس . «سأعد بعض القهوة» .

«ليس لي . سأذهب إلى السرير» . تثاءبت جيجي .

«كانت مجنونة فعلاً . هل تظنين أنها ستعود إلى بيتها في حالة حسنة ؟» .

«القديسة سينيكا ، من فضلك» .

«كانت تصرخ» . قالت سينيكا ، وهي تحدق إلى جيجي .

«وكذلك نحن» . قاست مايفيس عيار القهوة في سلة راووق القهوة .

«حسناً ، ولكننا لم نسمّها أسماء» .

مصت جيجي أسنانها . «كيف تعرفين بماذا تسمين مريضة نفسانية ليس لديها ما تفعله في ليلة زفافها أفضل من أن تبحث عن طفل ميت ؟» .

«أسميها آسفة» .

«آسفة ، بل أستي» . أجابت جيجي . «إنها تريد فحسب أن تتمسك بذلك الفتى الصغير الذي تزوجته» .

«ألم تقولي إنك ستذهبين لتنامي ؟» .

«وأنا كذلك . تعالي يا سينيكا» .

تجاهلت سينيكا زميلتها في الغرفة . «هل علينا أن نخبر كوني ؟» .

«لماذا ؟» سألت مايفيس بعنف . «انظري . لا أريد أن تقترب تلك الفتاة من كوني إطلاقاً» .

«أعتقد أنها عضتني» . ظهرت بالاس مندهشة . «انظري ، هل هذه آثار أسنان ؟» .

«ما الذي تريدينه ؟ حقنة ضد داء الكلب ؟» .

تثاءبت جيجي . «هيا يا «سين» . هاي يا بالاس . ابتهجا» .

حدقت بالاس . «لا أعرف كيف أنام لوحدي هنا» .

«من قال إن عليك ذلك ؟ كانت تلك فكرتك» .

«ليست هناك أسرّة أخرى في الطابق العلوي» .

«أوه يا للمسيح» . انطلقت جيجي نحو البهو وسينيكا تتبعها ، «يا لها من طفلة صغيرة» .

«لقد قلت لك . الأسرة الأخرى مخزنة في القبو . سأنصب لك سريراً غداً . تستطيعين النوم معي هذه الليلة» . قالت مايفيس . «لا تقلقي . لن تعود» . أقفلت الباب الخلفي ثم وقفت تراقب راووق القهوة . «بالمناسبة ، ما اسمك ؟ أعني كنيتك» .

«ترولوف» .

«دون مزاح . وهل أطلقت أمك عليك اسم بالاس ؟» .

«لا ، أبي» .

«ما اسمها ؟ أمك ؟» .

«دي دي . الاسم المختصر لديفاين» . [مقدسة] .

«أوه . أحبه . جيجي! جيجي! هل سمعت ذلك ؟ اسمها ديفاين . ديفاين ترولوف» .

عادت جيجي راكضة لتدس رأسها في الباب . وكذلك سينيكا .

«ليس كذلك! هذا اسم أمي» .

«هل هي راقصة ستربتينر ؟» كانت جيجي تضحك .

«فنانة» .

«كلهن فنانات يا حبيبتي» .

«لا تغيظيها» . همهمت سينيكا . «كان يومها طويلاً» .

«حسناً ، حسناً ، حسناً . طابت ليلتك يا ديفاين» . اختفت جيجي عبر الباب .

قالت سينيكا : «لا تكترثي بها» . ثم همست بسرعة هي تغادر : «عقلها صغير» .

صبت مايفيس القهوة وهي لا تزال تبتسم وقطعت بودينغ الخبز . قدمت لبالاس القهوة ثم جلست قربها ، وهي تنفخ في بخار قهوتها . أكلت بالاس قطعة ثالثة من الحلوى .

قالت مايفيس : «أريني آثار الأسنان» .

أدارت بالاس رأسها وجذبت عنق قميصها «تي شيرت» وهي تكشف كتفها .

«أوه» ، تنهدت مايفيس .

سألتها بالاس : «هل كل يوم هنا كهذا اليوم ؟» .

مسدت مايفيس البشرة المجروحة . «لا ، هذا أكثر الأماكن هدوءاً في العالم» .

«هل ستصطحبينني لأهاتف أبي غداً» .

«أجل . أول شيء نفعله» . توقفت مايفيس عن التمسيد . «أحب شعرك» .

أنهيتا وجبة الليل الخفيفة في صمت . أمسكت مايفيس بالقنديل وتركتا المطبخ للعتمة . وحين أصبحتا أمام باب غرفة نوم مايفيس لم تفتحه . تجمدت .

«أتسمعين هذا ؟ إنهما سعيدتان» . قالت هي تغطي شفتيها الضاحكتين . «عرفت ذلك . إنهما تحبان ذلك الطفل . تحبانه جداً» . التفتت إلى بالاس . «وتحبانك أيضاً . تعتقدان أنك «مقدسة»» .



باتريشيا

أجراس وأشجار صنوبر قصت من ورق هندسي أخضر وأحمر مكومة على نحو مرتب على مائدة غرفة الطعام . كل شيء جاهز . كانت اللمعة فقط قد تركت للزينة . في العام الماضي أخطأت في ترك الصغار يقومون بذلك . بعد تنظيف أصابعهم ومرافقهم من الصمغ ، وبعد التقاط بقع الفضة من شعورهم وخدودهم ، كان عليها أن تقوم بمعظم الديكورات مجدداً على أي حال . في هذه المرة كانت ستسلم الأجراس والأشجار خلال مراقبة كل نقطة صمغ بنفسها . في إخراج مسرحية المدرسة الخاصة بعيد الميلاد ، فإن البلدة كلها ساعدتها أو تطفلت : أصلح الرجال الأكبر سناً المنصة ، وجمعوا المهد . صنع الشبان تماثيل لأصحاب النزل وجددوا الأقنعة بالدهان . صنعت النساء دمى أطفال ورسم الأطفال صوراً ملونة لطعام غداء عيد الميلاد ، وخاصة الحلوى ـ الكعك والفطائر وقضبان السكاكر والفاكهة ـ لأن رسم الديوك الرومية المشوية كان صعباً على الأصابع الصغيرة . وحين دهن الصغار الأجراس وأشجار الصنوبر باللون الفضي ، فإن باتريشيا نفسها كانت تضع حلقات في أعلاها . كانت نجمة الشرق من اختصاص هاربر . كان يفحصها ليرى إن كانت تحتاج إلى إصلاح كل عام متأكداً من أن رؤوسها حادة وأنها

ستتوهج على النحو الصحيح في السماء القماشية المعتمة . وافترضت هي أن ناثان دوبري العجوز سيلقي العبارات الافتتاحية مجدداً . رجل عذب ، ولكنها لا تستطيع تقديم الدعم لإنقاذه . كانت برامج الكنيسة أكثر رسمية ـ مواعظ وجوقات وقراءات من قبل الأطفال وجوائز للذين يستطيعون أداءها كلها دون فأفأة أو بكاء أو جمود ـ ولكن برنامج المدرسة الذي كان يشمل مسرحية « الميلاد » وبمشاركة البلدة كلها ، كان أقدم ، فقد بدأ حتى قبل أن تبنى الكنائس .

وعلى نحو مخالف للسنوات الماضية فإن أيام كانون الأول (ديسمبر) من عام (١٩٧٤) ، كانت دافئة وشديدة الرياح . كانت السماء تتصرف كفتاة الاستعراض : تبدل صباحاتها الشاحبة الحزينة بشرائط أنيقة ملونة في المساء . مع رائحة معدنية في الجو ، تجتاح هابطة من زمن ما من أزمان « سفر التكوين » حين كانت البراكين تثور والحمم تتبرد تحت ريح لا ترحم . كانت الريح تصقل الحجر البارد ، ثم تنحته وأخيراً تفتته إلى قطع تحبها كلاب الصخر . هذه الريح نفسها هي التي كانت ترفع ذات مرة جدائل شعر [قبائل] الشايان/ الأرباهو وتفرق أيضاً خصلاً منها عن أكتاف الجاموس البري ، وتقول لكل واحد متى يكون الآخر قريباً .

كانت قد لاحظت الرائحة المعدنية طوال اليوم ، والآن ، بعد أن انتهت من تدريج الورق وصنع الزينة ، فقد حدقت إلى سماء فتاة الاستعراض لترى الأداء المتكرر . ولكن الأمر كان قد انتهى . مجرد أشكال ليلكية تجري وراء شمس لامعة .

كان أبوها قد ذهب إلى فراشه مبكراً ، متعباً من المونولوغ الذي ألقاه على مائدة العشاء حول محطة الوقود التي كان يخطط لإنشائها . كانت شركة « إيغل أويل » تشجعه : لا فائدة من الحديث عن شركات النفط

الكبرى . كان ديك وسيتوارد مهتمين بالموافقة على القرض ، شريطة أن يستطيع إقناع شخص ما ببيعه العقار . لذلك كان السؤال : أين ؟ عبر الشارع من مخزن آنا ؟ بقعة جيدة ، ولكن كنيسة «هولي ريديمر» قد لا يكون لها الرأي نفسه . إلى الشمال إذن ؟ قرب مخزن «سارجنتس فيد أند سيد» ؟ سيكون هناك الكثير من الزبائن ـ سيكون على أي شخص أن يسافر مسافة تسعين ميلاً لشراء البنزين أو يبقي خزانات منه حيث يعيش . الطرق ؟ يمكن القيام بشيء ما للطريقين الترابيتين اللتين تمتدان شمالاً وجنوباً من طريق روبي المعبدة لتلاقي طريق المقاطعة . لو استطاع الحصول على الامتياز ، فإن المقاطعة قد تعبدهما كلتيهما . ستكون هناك مشكلة على أي حال في محاولة جعل السكان المحليين يوافقون على تقديم استدعاء لأجل ذلك : العجائز منهم سيحاربون . كانوا يحبون الابتعاد عن طريق المقاطعة ، الممكن الوصول إليها فقط من قبل التائهين عن الطريق والممكن الاعتراف بهم . «ولكن فكري في الأمر يا «باتسي» ، فكري فحسب . أستطيع أن أصلح السيارات والمحركات وأبيع الإطارات والبطاريات وأحزمة المراوح . وشراب الصودا أيضاً . شيء لا تستطيع آنا تخزينه . لا فائدة من جعلها تتكدّر» .

أومأت باتريشيا برأسها . فكرة جيدة جداً ، كما فكرت ، مثل كل أفكاره . كانت ممارسته للبيطرة (غير القانونية ـ لم تكن لديه رخصة ـ ولكن من ذا يعرف أو يهتم بما فيه الكفاية ليسافر مائة ميل لمساعدة رجل أبيض يانكي من «ويزدوم بول» في ولادة عجل متعسرة ؟) أما عمله كجزار (كانوا يحضرون له الثور الصغير المذبوح ـ وكان يسلخه ويقطعه إلى شرائح ويبرده لأجلك) ، وبالطبع كانت هناك ، مهنة الاسعاف/ دفن الموتى . ولأنه أراد أن يكون طبيباً وأن يدرس الطب ، فقد كانت معظم مشاريعه تتعلق بالعمل مع

المرضى أو الموتى . ولكن فكرة محطة الوقود كانت أول اقتراح غير جراحي تستطيع هي تذكره (رغم أن عينيه التمعتا حين تحدث عن فك المحركات) . تمنت لو كان طبيباً ، لو أنه قُبل في كلية الطب . هل كان ممكناً أن تبقى أمها حية حتى اليوم ؟ ربما لا . ربما كان بعيداً في « ميهاري» بدلاً عن أن يكون في معهد دفن الموتى حين ماتت ديليا .

صعدت «بات» الدرج إلى غرفة نومها وقررت أن تمضي بقية السهرة تعمل في مشروع التاريخ ، أو ما كان مشروعاً للتاريخ ، ولكنه ليس كذلك بعد الآن . بدأت كهدية لمواطني روبي : مجموعة من أشجار العائلة . تسلسل أنساب العائلات الخمس عشرة . أشجار مقلوبة عاليها سافلها . الجذوع نحو السماء والفروع نحو الأسفل . وحين اكتملت الأشجار ، بدأت بوضع أسماء الآباء والأبناء : مهنهم مثلاً ، وأين عاشوا ، والكنيسة التي كانوا ينتمون إليها . بعض اللمسات الألطف («هل كانت السيدة ريفرز ، زوجة توماس بلاكهورس ، مولودة قرب نهر الميسيسبي ؟ كان يبدو اسمها وكأنه يقترح...») كانت تجمع المعلومات من مواضيع إنشاء طلابها حول سير حياتهم . ليس المزيد من ذلك . كانت الآباء يشكون من أن يطلب إلى أطفالهم أن يتكلموا بالإشاعات ، وأن يفشوا ما يعتبر أنه معلومات خصوصية بل أسرار حتى . بعد ذلك ، أتت منظم معلوماتها من التحدث إلى الناس ، والطلب إليهم أن ترى كتبهم المقدسة وتتفحص السجلات الكنسية . هذا وقد خرجت الأمور من سيطرتها حين طلبت مشاهدة الرسائل وشهادات الزواج . ضيقت النساء أعينهن قبل الابتسام وعرض صب المزيد من القهوة . كانت أبواب غير مرئية تغلق وتتحول الحوارات إلى الطقس . ولكنها لم ترغب أو لم تكن في حاجة إلى أي بحوث إضافية . كانت الأشجار لا تزال تتطلب تعديلات ـ ولادات وزيجات ووفيات ولكن اهتمامها بالملاحظات الثانوية زاد

كما زاد حجم الملاحظات ، وقد تخلت عن كل التظاهر بالتعليق الموضوعي . أصبح المشروع غير ملائم لأي عينين باستثناء عينيها . لقد وصلت إلى مرحلة أصبح فيها حرف « m » الصغير وبعده نقطة نكتة أو حلماً أو انتهاكًا للقانون كان يجعلها تعض على إبهامها من خيبة الأمل . من هن أولئك النسوة اللواتي ، شأن أمها ، لهن اسم واحد فقط ؟ سيليست ، أوليف ، سورو ، ايفلين ، بانسي . من هن أولئك النسوة اللواتي لهن كنية شائعة ؟ براون ، سميث ، ريفرز ، ستون ، جونز . النساء اللواتي كانت شخصيتهن تعتمد على الرجال الذين تزوجوهن : إن كان الزواج ملائماً : مورغان ، فلود ، بلاكهورس ، بول ، فليتوود . تركتها دافي تحتفظ بكتاب آل مورغان المقدس لأسابيع ، ولكن الدقائق العشرين التي قضتها وهي تنظر إلى كتاب آل بلاكهورس المقدس هي التي أقنعتها أن نوعاً جديداً من الأشجار سيكون مطلوباً للتقدم ، والتسجيل الدقيق للعلاقات بين الأسر الخمس عشرة في روبي ، وأجدادهم في « هايفن » أيضاً إذا عدنا إلى الوراء في ميسيسبي ولويزيانا . لقد تحول العمل الطوعي لملء ساعات الفراغ إلى عمل مكثف مشوب بالمشاعر السيئة التي تعلق بالجلد مثل غبار الطلع ، حين يعرف الكثير عن جيران المرء . قصة البلدة الرسمية ، التي جمعت من المنابر ، في صفوف مدرسة يوم الأحد والخطابات الاحتفالية ، هذه القصة لها حياة عمومية قوية . أي هوامش أو صدوع أو أسئلة كانت تتطلب مخيلة حادة ومواظبة الذهن غير المرتاح للتواريخ الشفهية . أرادت بات براهين وثائقية حيث أمكن لمقارنة الحكايات ، وحين لم تكن البراهين متوفرة كانت تفسّر : بحرية ولكن ببصيرة حسب اعتقادها لأنها هي وحدها كانت تتمتع بالمسافة العاطفية المطلوبة . هي لوحدها كانت تتصور السبب الذي رسم لأجله خط عبر اسم إيثان بلاكهورس في كتاب آل بلاكهورس المقدس وما الذي كانت

تخفيه اللطخة السميكة من الحبر قرب اسم زكاريا في كتاب آل مورغان المقدس . لقد حكى لها والدها بعض الأمور ، ولكنه رفض التحدث عن أمور أخرى . كانت صديقاتها شأن كايت وآنا صريحات ، ولكن النساء الأكبر سناً ـ دافي وسوآن ولون دوبري ـ كن يلمّحن تلميحاً على الأغلب ويقلن أقل القليل . « أوه ، أعتقد أن هذين الأخوين مختلفان حول شيء ما » . كان هذا هو كل ما قالته سوآن حول اسم عم أبيها . ولا كلمة واحدة أخرى .

كانت هناك تسع أسر كبيرة كاملة قامت بالرحلة الأصلية ، وتعرضت للطرد والنبذ في « فيرلي » ، أوكلاهوما ، وقد تابعت طريقها لتؤسس « هايفن » . كانت أسماؤهم أسطورة : بلا كهورس ، مورغان ، بول ، فليتوود ، بوشامب ، كاتو ، فلود ، وكلتا أسرتي دوبري . ومع أنسبائهم وزوجاتهم وأطفالهم ، كانوا تسعة وسبعين أو واحداً وثمانين شخصاً كمجموع (اعتماداً على الأخذ أو عدم الأخذ في الحسبان الطفلين المسروقين أم لا) . وجاءت معهم أجزاء من أسر أخرى : أخت وأخ ، أربعة أولاد عم ، نهر من الخالات والعمات وخالات وعمات الأب أو الأم الراعيات لأطفال أخواتهن المتوفيات وأخوتهن المتوفين أو أطفال الأولاد المتوفين لأخوتهم أو لأخواتهن . القصص حول هذه الأجزاء من الأسر التي شكلت (٥٠) فرداً إضافياً ، كانت تبرز في مواضيع الإنشاء التي يكتبها تلاميذ بات ، والشائعات والذكريات في النزهات ووجبات الغذاء في الكنيسة وحديث النساء خلال الأعمال الروتينية وتحضير الشعر . الجدات الجالسات على الأرض بينما تفرك لهن حفيداتهن فروات رؤوسهن كن يحببن التذكر بصوت مرتفع . ثم كانت تبرز أجزاء صغيرة من الحكايات كشرارات تضيء الفراغات التي كان تحوم فوق طفولتهن والظلال التي تعتم فترة نضوجهن . كانت النوادر تحدد الفراغات التي جلست معهن عند نار المخيم . وكانت

النكات تصف التذكارات ـ خاتم ، ساعة جيب ـ التي كن يقبضن عليها بأيديهن وهن نائمات ووصف الملابس التي كن يرتدينها : أحذية كبيرة جداً تخص أخاً ، وشال عمة الأب ، والقبعة ذات التخريمة لأخت أصغر . تحدثن حول الأيتام ، الذكور منهم والإناث في أعمار تتراوح بين الثانية عشرة والسادسة عشرة ، والذين شاهدوا المسافرين وطلبوا منهم الانضمام إليهم ، والطفلان اللذان اختطفا لأن الظروف التي وجدا فيها ما كانت تترك لهم الفرصة لأن يفعلوا خلاف ذلك . ثمانية آخرون . إذن أكمل الرحلة حوالي (١٥٨) شخصاً .

حين وصلوا إلى ضواحي «فيرلي» ، تم الاتفاق على أن يعلن بلاكهورس وركتور مورغان وأخواه برايور وشبرد ، عن وجودهم ، بينما ينتظر الآخرون مع زكاريا الذي كان يعرج بشدة في ذلك الحين إلى درجة أنه لا يستطيع الوقوف مستقيماً ودون مساعدة أمام رجال مجهولين ويكون عليه أن يطلب احترامهم وستكون الشفقة قد شطرته إلى نصفين . لقد أصيبت قدمه بطلقة ـ لا يعرف أحد من أطلق النار أو السبب ولاعترف هو بذلك ، فالمغزى من الحكاية بدت وكأنها أنه حين اخترقته الرصاصة ، لم يصرخ ولم يعرج . كان ذلك الجرح هو من أجبره على البقاء وأن يدع صديقه وأبناءه يتحدثون نيابة عنه . وقد تبين أن ذلك كان نعمة من الرب لأنه لم يتح له مشاهدة «الرفض» ، كما فاتهم سماع كلمات غير ممكن تصديقها تشكلت في أفواه رجال موجهة رجال آخرين ، رجال مثلهم في كل النواحي باستثناء ناحية واحدة . لاحقاً لم يعودوا تسع أسر وبعض آخر . أصبحوا عصبة متماسكة من عابري السبيل توحدهم جسامة ما حدث لهم . كان رعبهم من البيض تشنجياً إنما مجرد ، لقد رؤوا وضوح كراهيتهم للرجال الذين أهانوهم بأساليب مخزية لغوياً : أولاً بنبذهم ثم بأن عرضوا عليهم المعايير التي

تسمح لهم بالتواجد ضمن ذلك النبذ بالذات . أي شيء أراد أي شخص معرفته حول مواطني هايفن أو روبي كان يكمن في تفرعات ذلك الرفض بين تفرعات كثيرة غيرها . ولكن تفرعات لتلك تفرعات كانت قصة أخرى .

مضت بات إلى النافذة ورفعتها . كان قبر أمها عند طرف الفناء . أنّت الريح كأنها تحاول أن تزيل النثرات المعدنية من السماء السوداء الكريب . كانت شجيرات الليلك تحتك بجانب المنزل مهمهسة . طغت رائحة طعام العشاء في الجو على الرائحة المعدنية . أغلقت بات النافذة ، وعادت إلى مكتبها لتحضر البند الجديد في دفترها .

تزوجت آرنيت و«ك . د .» في نيسان الماضي ، وهما يتوقعان طفلاً يولد في آذار القادم . أو هذا ما قالته لون دوبري التي يجب أن تعرف . كانت «لون» واحدة من الطفلين المسروقين . لاحظتها فيري دوبري جالسة هادئة كصخرة خارج باب بيت بائس . كان منظر الطفلة الصامتة في قميص متسخ يمكن أن تبقى صورة أخرى وحيدة يمرّون بها ، باستثناء أن إقفار المكان كان من النوع غير المتسم بالغفران . كانت فيري في الخامسة عشرة آنئذ وعنيدة . ذهبت مع ميسي ريفرز للاستقصاء . في الداخل كانت الأم الميتة ولا قطعة خبز واحدة يمكن أن ترى . أنّت ميسي قبل أن تبصق . «لعنة الرب . اعذرني أيها الرب» ، ثم حملت الطفلة الصغيرة . حين حكتا للآخرين عما وجدتاه ، مدّ سبعة رجال أيديهم إلى مجارفهم : درام بلاكهورس وابناه توماس وبيتر ، ركتور مورغان ، إيبل فلود ، برود بول سينيور ، وجوفينال والد ناثان دوبري . وبينما راحوا يحفرون ، بدأت فيري بإطعام الطفلة كعكة مشبعة بالماء . خلعت بريز كومبتون تنورتها التحتانية لتلفها بها . صنع فولتون بست صليباً متيناً . ألقى زكاريا ، وقد أحاطه ولداه : شبرد وبرايور من الجانبين ، صلاة جنازة ، وقد أراح قدمه الجريحة

على كعبها . جمعت بناته : لافينغ وإيلا وسيلاني ، نبات الألفية الوردية للقبر . جرى جدال جدي حول ما يجب فعله بالطفلة ـ أين يضعونها ـ لأن الرجال بدوا عنيدين فيما يخص عدم إضافة طفلة نصف ميتة من الجوع إلى أولادهم ربع الميتين من الجوع . ولكن فيري كافحت بشدة حتى أنهكتهم ثم جادلت بيتي كاتو حول الاسم . وقد كسبت فيري الجولة في ذاك أيضاً ، وأسمت الطفلة «لون» [وحيدة] لأنهم وجدوها كذلك . وهي لا تزال وحيدة لأنها لم تتزوج أبداً ، وحين ماتت فيري ، التي ربتها وعلمتها كل شيء تعرفه عن القبالة ، حلت «لون» محلها واستلمت مهمة توليد الجميع ، باستثناء أن آرنيت كانت تلح على الذهاب إلى المستشفى في دمبي للولادة ، وقد جرح هذا «لون» في الصميم (فهي لا تزال تؤمن أن النساء المحتشمات يجب أن يلدن في المنزل أما فتيات الحانات فيلدن في المستشفيات) ، ولكنها عرفت أن آل فليتوود لم يتخلوا عن التفكير في أنها كانت مسؤولة جزئياً عن أطفال سويتي وجف ، رغم حقيقة أنها ولدت اثنين وثلاثين طفلاً صحيحي الأجسام لأمهات في صحة جيدة منذ آخر طفل غير سليم ولد لآل فليتوود . لذلك لم تقل شيئاً باستثناء أن آرنيت ستلد في آذار ١٩٧٥ .

وضعت بات ملف آل مورغان وذهبت إلى الغصن الذي يحوي حتى الآن سطراً واحداً :

« كوفي سميث (المعروف أيضاً باسم «ك . د .» [[كما في كنتاكي ديربي]] تزوج من آرنيت فليتوود » .

تساءلت مجدداً من كان ذلك الشاب الذي تزوجته روبي مورغان ؟ رفيق سلاح لأخويها ، كما قيل . ولكن من أين هو ؟ كان اسمه الأول ، كوفي ، مثل اسم زكاريا قبل أن يغيرّه ليرشح نفسه لمنصب نائب الحاكم . أما كنيته فكانت شائعة كأكثر ما يكون الاسم شيوعاً . وقد قتل في أوربا ،

لذلك لم يعرفه أحد جيداً ، ولا حتى زوجته . تستطيع أن تعرف من صورته أنه لم يكن هناك أي شبه بين الجندي سميث وابنه . لقد كان «ك . د .» مرآة لآل بلاكهورس ومورغان .

لم يكن هناك فراغ كبير تحت بند «ك . د .»/ أرنيت ، ولكنها ظنت أنهما لن يحتاجا إلى المزيد . لو عاش الطفل ، الطفل الذي كانا يتوقعانه ، فسيكون بالتأكيد طفلاً وحيداً . كان لدى أم آرنيت طفلان فقط ، أحدهما لم يرزق إلا بأولاد معلولين . وعلاوة على ذلك ، فهؤلاء الأخيرون من آل مورغان لم يكونوا كثيري النسل كالأولين . لم يكونوا مثل

«زكاريا مورغان (المعروف أيضاً باسم «بيغ بابا» ، المولود كوفي) تزوج من ميندي فلود [[ملاحظة : عمة أب آنا فلود]] » .

الذي رزق بأربعة عشر طفلاً بقي منهم تسعة على قيد الحياة . مررت بات أصبعها على هذه الأسماء : برايور مورغان ، ركتور مورغان ، شبرد مورغان ، إيلا مورغان ، لافينغ مورغان ، سيلاني مورغان ، غوفرنور مورغان ، كوين مورغان وسكاوت مورغان . على الهامش بحبر أسود «سكريب» ، كانت إحدى ملاحظاتها السابقة تقول : «لقد عرفوا سبع ولادات حتى استطاعوا إعطاء وليدة أنثى اسماً إدارياً له وقع رسمي ، وأعتقد أنهم سموها «كويني» . تعليق آخر تمت صياغته من اسم زكاريا ويدل عليه بأسهم ، كان ينتشر إلى قفا الصفحة : «غيّر اسمه . كوفي Coffee كان اسمه عند الولادة ، خطأ في تهجئة اسم «Kofi» على الأرجح . وبما أنه لم يعمل أي من آل مورغان من ولاية لويزيانا أو أي من سكان هايفن لدى أي رجل أبيض اسمه مورغان ، فلابدّ أنه اختار كنيته وكذلك اسمه الأول من شيء ما أو مكان ما كان يحبه . (زكريا) هو اسم والد يوحنا المعمداني ؟ أو هو زكاريا الذي كانت له رؤى ؟ ذاك الذي رأى لفافات اللعنات والنساء في

السلال . ذاك الذي رأى ملابس «يشوع» الوسخة تتغير متحولة إلى أخرى فاخرة ، ورأى ما يؤول إليه العصيان . عقوبة عدم إظهار الرحمة أو العطف كانت متناثرة بين كل الأمم ، والأرض الطيبة تحولت إلى قفر . كل هذا سيلائم جيداً زكاريا مورغان : اللعنة ، النساء المحشورات في السلة التي لها غطاء من الرصاص ومخبأة في منزل ، ولكن التناثر على نحو خاص . التناثر سيكون قد أخافه . تفكك المجموعة أو القبيلة أو ائتلاف العائلات أو في حالة كوفي : تشظي تلك الفرقة من العائلات التي عاشت الواحدة مع الأخرى أو إلى القرب منها منذ ما قبل «بانكر هيل» . ما كان سيعاني من مشكلة في تخيّل الخشية من أن يكون كل شخص يعرفه قد تشتت بعيداً ، وألقي في أماكن مختلفة في أرض أجنبية وأن يصبح الجميع غرباء الواحد عن الآخر . كان سيخشى من عدم معرفة خط الحنك الذي يميّز عائلة ما ، ونظره العين أو المشية التي تميز أخرى . من عدم القدرة على رؤية نفسه وقد أعيد تشكلها في جيل ثالث أو رابع من الأحفاد . من عدم معرفة أين دفنت الأجيال التي قبله أو كيف يمكن الاتصال بها إن لم تكن تعرف . سيكن هذا ما اختاره لنفسه زكاريا كوفي . كان هذا سيعجبه لو سمع واعظاً قوياً يحكي حكاية جوشوا «يشوع» المتوج . ما كان سيسمي نفسه جوشوا ، الملك ، ولكن باسم الشاهد الذي تحدث معه الرب والملائكة على أساس منتظم حول الأشياء التي عرفها كوفي» .

حين سألت ستيوارد أين حصل جده على كنيته ، فقد نخر وقال إنه يظن أنه كان «موين» في الأصل ، وليس مورغان ، أو «لوموان» أو شيئاً من هذا القبيل ، ولكن بعض الناس كانوا يسمونه «بلاك كوفي» . كنا نسميه «بيغ بابا» . كنا نسمي أبي «بيغ دادي» ،وكأن الأمر أنهى الموضوع كله . كان يشعر بالإهانة لأنه هو نفسه لم يكن بابا أو أباً ، لا كبيراً ولا صغيراً . لأن

نسل آل مورغان كان ضعيفاً . أحد أبناء زكاريا (بيغ بابا) واسمه ركتور ، رزق بسبعة أطفال من زوجته ، بيك ، ولكن لم يبق منهم على قيد الحياة سوى أربعة : إلدر والتوأمان ديكون وستيوارد وأم «ك . د .» أي روبي . مات إلدر تاركاً زوجته سوزانا (سميث) مورغان مع ستة أطفال : وكلهم انتقلوا من هايفن إلى ولايات شمالية . كان زكاريا سيكره ذلك . الانتقال سيعني «التناثر» بالنسبة إليه . وكان على حق ، فبالتأكيد ، واعتباراً من ذلك الحين اضمحلت الخصوبة ، حتى حين كانت الغنيمة تتزايد . كلما زاد المال ، كلما قل عدد الأطفال . وكلما قل عدد الأطفال كلما زاد المال لإعطائه لهؤلاء الأطفال الأقل عدداً . وإذا افترضنا أنك كومت ما يكفي من المال . لهذا كان الأغنى ـ ديك وستيوارد ـ حريصين جداً على قضية زواج «ك . د .» أو هكذا افترضت بات .

كانوا جميعاً على أي حال ، كل واحد من أفراد العائلات التسعة الكاملة لديه علامة صغيرة اختارت أن تضعها بعد أسمائهم . (٨-ص) اختصار للصخرة الثامنة ، مستوى عميق عميق في مناجم الفحم . الأشخاص السود الزرق ، الطوال والرشيقون ، الذين لا تعطي أعينهم الواسعة أي دليل عما يشعرون به حول أولئك الذين ليسوا (٨-ص) مثلهم . إنهم نسل أولئك الذين كانوا في منطقة لويزيانا حين كانت خاضعة للفرنسيين لاتزال ، وحين كانت خاضعة للإسبان ، ثم خضعت للفرنسيين مجدداً ، حين بيعت إلى جفرسون وأصبحت ولاية في عام (١٨١٢) . كانوا يتحدثون بلغة خاصة هي في جزء منها إسبانية وفي جزء آخر فرنسية وفي جزء ثالث إنكليزية . لغة خاصة بهم وحدهم ، نسل أولئك الذين تحدوا البيض بعد «الحرب الأهلية» ، أو اختبؤوا من البيض الذين فعلوا كل ما بوسعهم لإجبار هؤلاء على البقاء والعمل كمحاصصين في لويزيانا . نسل أولئك الذين كانت جدارتهم شديدة

الاستقرار إلى حد أن ثلاثة من أولادهم انتخبوا ليحكموا في الهيئات التشريعية للولاية ومكاتب المقاطعة ؛ والذين بعد أن طردوا من مناصبهم دون احتفال أو برهان على ارتكاب الخطأ ، رفضوا أن يصدقوا ما كانوا يخمنون أنه السبب الحقيقي الذي جعل من المستحيل عليهم أن يجدوا عملاً ذهنياً آخر . تقريباً كل الرجال الزنوج الذين طردوا أو طلب إليهم ترك مناصبهم (في ميسيسبي ولويزيانا وجورجيا) حصلوا على عمل أبيض الياقة [وظائف تتطلب المظهر الأنيق] إنما أقل مستوى من حيث التأثير ، وذلك بعد عمليات التطهير في عام (١٨٧٥) . وقد أنهى أحدهم في كارولاينا الجنوبية أيامه كعامل نظافة في الشوارع . ولكن هؤلاء وحدهم (زكاريا مورغان وجوفينال دوبري في لويزيانا ، ودرام بلاكهورس في ميسيسبي) نزلت مرتبتهم إلى العمل المدقع و/أو في الحقول . خمسة عشر عاماً من التوسل لأجل عمل يدوي في القطن أو قطع الأخشاب أو الأرز بعد خمس سنوات مجيدة أعادت صنع بلد . ربما شكّوا إنمّا لم يتجرؤوا على القول إن «سوء حظ سوء حظهم» كان يعود إلى الصفة الوحيدة التي ميزتهم عن أندادهم من الزنوج . «الصخرة الثامنة» . في عام (١٨٩٠) كانوا في البلد منذ (١٢٠) عاماً . لذلك أخذوا ذلك التاريخ ، تلك السنوات ، وأخذوا واحدهم الآخر وجدارتهم غير الممكن إفسادها واتجهوا نحو «الهروب» . ساروا من ميسيسبي ولويزيانا إلى أوكلاهوما ووصلوا إلى المكان الذي يوصف في الإعلانات المطوية بعناية في أحذيتهم أو المحشورة في حواف قبعاتهم ، ولكن كان يطردون بعيداً . في هذه المرة كان الوضوح واضحاً ؛ لعشرة أميال كانوا قد اعتقدوا أن الهوة التي قاتلوا لسدها كانت هوة الأحرار ضد العبيد والأغنياء ضد الفقراء . في العادة ، وليس دائماً ، البيض ضد السود . والآن هاهم يرون فصلاً جديداً ؛ ذوو البشرة الفاتحة ضد السود .

أوه ، لقد عرفوا أن هناك فرقاً في أذهان البيض ، ولكن لم يخطر لهم سابقاً أنه كان ذا أهمية ، ذا أهمية خطيرة ، للزنوج أنفسهم . أنه كان خطيراً بما فيه الكفاية حتى أن بناتهم سيتم تجنبهن كعروسات ، وأن أبناءهم سيختارون في آخر الصف ، وأن الرجال الملونين سيحرجون إن شوهدوا مع أخواتهم اجتماعياً . علامة النقاء العرقي التي أخذوها كمسألة مفروغ منها قد أصبحت وصمة . التناثر الذي أقلق زكاريا لأنه اعتقد أنه سيستنزفهم كان الآن عبارة عن مستوى أخطر من الشر ، لأنهم لو انفرط عقدهم وأسيء تقييمهم من قبل غير الأنقياء ، عندها ، وعلى نحو أكيد كالموت ، فإن هذه الأجيال العشرة ستقلق سلام أولادهم إلى الأبد .

كانت بات على قناعة بأنه حين تتناثر الأجيال التالية من ذكور الـ (٨-ص) ، وكما كان يخشى زكاريا بالضبط ، في الجيش ، كان يمكن للأمر أن ينتهي ويتم . وكان يجب أن ينتهي ويتم سابقاً . هذا الرفض ، الذي سموه «النقض» ، كان حرقاً أصبح نسيجه المتندب ميتاً مع حلول عام (١٩٤٩) ، أليس كذلك ؟ أوه ، كلا . أولئك الذين بقوا أحياء بعد تلك الحرب عادوا إلى الوطن على الفور ، ورأوا ما حلّ بـ«هايفن» ، وسمعوا عن الخصيات المفقودة للجنود الملونين الآخرين ، وعن الميداليات التي انتزعتها عصابات من «الردنك» و«أبناء الكونفدرالية» ، واعترفوا بـ«النقض» ، «الجزء الثاني» . وكان الأمر أشبه بمراقبة بيرق في عرض عسكري كان مكتوباً عليه : «الجنود المنهكون من الحرب! غير مرحب بهم في الوطن!» وهكذا فعلوا مجدداً . ومع عدم قيام عابري السبيل الأصليين أبداً بالبحث عن موقع آخر لبلدة ملونة بعد أن أعرضوا عن الأولى ، لم يلتحق هذا الجيل بأي تنظيم ولم يحارب في أي معركة مدنية . لقد عززوا سلالة الـ (٨-ص) وكانوا فخورين بأنفسهم أكثر من أي وقت مضى ، وتحركوا نحو الشمال الأقصى .

الآباء الجدد : ديكون مورغان ، ستيوارد مورغان ، ويليام كاتو ، إيس فلود ، آرون بول ، ناثان دوبري ، أرنولد فليتوود ، أوسي بوشامب ، هاربر جوري ، سارجنت بيرسون ، جون سيرايت ، إدوارد ساندز ووالد «بات» : روجر بست ، كانوا أول من انتهكوا قاعدة السلالة . تلك التي تأسست حين لاحظت رعية ميسيسبي وتذكرت أن «النقض» جاء من رجال ملونين ذوي بشرات فاتحة . رجال صفر بعيون زرقاء وعيون رمادية يرتدون بزات جيدة . كانوا لطيفين على أي حال ، كما تقول الحكاية . لقد منحوهم الطعام والبطانيات ، وجمعوا لهم التبرعات ، ولكنهم لم يتراجعوا عن رفضهم في أن يتركوا جماعة الـ(٨-ص) تبقى أكثر من ليلة واحدة للراحة . وتمضي الحكاية لتقول إن زكاريا مورغان ودرام بلاكهورس حرموا على النساء أكل الطعام . إن «جوب كاتو» ترك البطانيات في الخيمة مع التبرعات التي جمعت البالغة ثلاثة دولارات وتسعة سنتات مستفة بترتيب في الأعلى . ولكن سوآن قالت إن جدتها سيليست بلاكهورس ، تسللت عائدة وأخذت الطعام (ولكن ليس النقود) ، ومررته سراً إلى أختها سالي بلاكهورس وبيتي كاتو وبرايز كومبتون ، لتوزيعه على الأطفال .

لذلك وضعت القاعدة وعاشت هذه حياة هادئة خافقة لأنها لم تكن تذكر أبداً ، باستثناء التلميح بالكلمات التي صاغها زكاريا لـ«الفرن» . أكثر من قاعدة . لغز : «احذروا تغضينة جبينه» وفيها «أنتم» (المتضمنة) ، ذات صيغة المنادى ، لم تكن أمراً للمؤمنين بل تهديداً لأولئك الذين نقضوها . لابد أنه استغرق شهوراً وهو يفكر في تلك الكلمات حتى يكون لها معاني عديدة : أن تبدو صارمة ، تحث على طاعة الرب ، ولكنها على نحو ماكر لا تشخص اسم العلم أو تنص على ما قد تسبب التغضينة أو لمن . لذلك كان المراهقون الذين نظمهم ميسنر والذين أرادوا تغييرها لتصبح «كونوا تغضينة

جبينه» كانوا أقل بصيرة مما أدركوا . انظروا ما فعلوه بمينوس ، فقد أجبروه على أن يعيد المرأة التي جلبها إلى البلدة ليتزوجها . كانت الفتاة الجميلة ذات الشعر الرملي من فيرجينيا . لقد فقد مينوس (أو اضطر إلى أن يتخلى عن) المنزل الذي اشتراه لأجلها ولم يصح من السكر منذ ذلك الحين . ورغم أنهم عزوا سكره في عطلة نهاية الأسبوع إلى ذكرياته عن حرب الفييتنام ، ورغم أنهم كانوا يشاركونه الضحك وهو يقص شعورهم ، إلا أن «بات» عرفت الحب في حالته اليائسة حين رأته . لقد اعتقدت أنها رأته في عيني مينوس كما في عيني أبيها ، وقد غطي على نحو ضعيف بمغامراته التجارية .

قبل أن تبعد صفحات «ك . د .» ، كتبت بات على الهامش : «أحدهم ضرب أرنيت . هل هن نساء «الدير» كما يقول الناس ؟ أم هل هو «ك . د .» ؟ ولكن الأمر يبقى سراً ؟» ثم أخذت ملف بست ، روجر .

كانت هناك لصاقة تقول :

«روجر بست .m [متزوج] من ديليا»

فكتبت : «بابا ، لا يكرهوننا لأن ماما كانت أول زبائنك . يكرهوننا لأنها كانت تبدو متبجحة وكان عليها أن تنجب أطفالاً يبدون متبجحين شأني أنا ، ورغم أني تزوجت بيلي كاتو الذي كان (٨-ص) شأنك ، وشأنهم ، إلا أنني ورّثت ابنتي بشرتي ، كما كنت تعرف أنت والجميع أني كنت سأفعل . لاحظ كيف أن الكثيرين من آل ساند الذين تزوجوا من آل سيرايت حريصون على التأكد من أن أطفالهم يتزوجون من عائلات (٨-ص) أخرى . كنا أول glitch مرئيين ، ولكن كان هناك واحد مرئي لا علاقة له بلون البشرة . أعرف أن كل الأزواج أرادوا زيجات يحضرها الواعظ ، وكثير منهم حصلوا على ما يريدون ، ولكن كثيرا من الآخرين مارسوا ما سمته «فيري

دوبري» : «استيلاءات» . فالأرملة الشابة قد تستولي على منزل شاب أعزب . وقد يسأل الرجل الأرمل صديقاً أو قريباً بعيداً إن كان يستطيع الاستيلاء على فتاة شابة ليس لديها أي آمال . مثل عائلة بيلي . أمه «فون» ولدت لآل بلاكهورس ، وقد استولى عليها عم جدته أوغوست كاتو . أو إذا أردنا أن نعبر عن المسألة بطريقة أخرى لقلنا : والد زوجي أوغوست كاتو هو أيضا عم جدته (بيتي كاتو بلاكهورس) وبالتالي فهو عم أم بيلي أيضا . (والد بيتي كاتو : سيترل كاتو استولى على امرأة اسمها أونستي جونز . لابد أنها هي من ألح على تسمية ابنتها فريندشيب [صداقة] ، وكانت تتكدر ربما عند سماع الطفلة ينادى عليها بـ«بيتي» بقية حياتها) . وبما أن بيتي كاتو تزوجت من بيتر بلاكهورس ، وبما أن ابنتها فون بلاكهورس تزوجت عم بيتي ، وبما أن بيتر بلاكهورس هو جد بيلي كاتو : حسناً : تستطيع أن ترى مشكلة قواعد النسل . إنها بعيدة عما أعرف ، وأوغوست كاتو كان عجوزا حين استولى على فون بلاكهورس الصغيرة . وهو ما كان ليفعل ذلك أبداً دون إذن بلاكهورس . وهو ما كان ليتلقى الإذن لو كانت لديه سمعة مهلهلة لأن المعاشرة خارج الزواج أو الاستيلاءات لم تكن أمراً غير مرضي عنه فحسب ، بل يمكن أن يسبب لك النبذ إلى حد كامل إلى حد يضطر معه الزناة إلى أن يحزموا حقائبهم ويغادروا . وكما كان عليه الحال (فهذا سيشرح الخط الذي رسم فوق أسمه) ، مع إيثان بلاكهورس ـ شقيق درام الأصغر ـ وامرأة اسمها «سولاس» ، والتي يعتقد أنها حال مارثا ستون ، أم مينوس . رغم أن هاربر جوري لم يستطع أن يقرر مع من خانته زوجته) . لذلك ابتعد أوغوست كاتو عن الإغراء أو أي فكرة تتعلق بالنظر خارج العائلات وطلب من توماس وبيتر بلاكهورس يد ابنة بيتر ، فون . وربما كان عمره المتقدم هو السبب في أنها أنجبت طفلاً واحداً فقط هو

زوجي ، بيلي . ومع ذلك ، فإن دم بلاكهورس لا يزال موجوداً ، وهذا يجعل ابنتي ، بيلي ديليا ، ابنة عم خامسة ؟ لسوآن ودافني ، لأن بيتر بلاكهورس كان شقيق توماس بلاكهورس وسالي بلاكهورس ، وكان توماس بلاكهورس أباً لسوآن ودافني . والآن تزوجت سالي بلاكهورس آرون بول وأنجبت ثلاثة عشر طفلاً . كان آرون سيسمي أحدهم «ديب» [عميق] ، ولكن سالي ادعت أنها أصيبت بنوبة ، لذلك فإن آرون ، وبروح فكاهة أكثر كآبة مما يتوقعه أي شخص ، سماه «ديبر» [أعمق] . ولكن اثنين آخرين من أولئك الأطفال الثلاثة عشرة قد وقعت بيلي ديليا في حبهما ، وهناك شيء ما على غير ما يرام في ذلك ، ولكن لا أستطيع معرفة ما هو باستثناء الرقم وقواعد النسل» .

وضعت بات خطاً تحت الكلمات الخمس الأخيرة ثم كتبت اسم أمها ، ورسمت خطاً تحته ، ثم رسمت قلباً من حوله وتابعت :

«حاولت النساء فعلاً يا ماما . لقد فعلن حقاً ، أم كايت ، كاثرين جوري ، تتذكرينها ، وفيري دوبري (إنها ميتة الآن) ، مع لون ودافني مورغان وتشاريتي فلود . ولكن ما كانت أي منهن قادرة على قيادة سيارة في ذلك الحين . لابد أنك اعتقدت أنهن يكرهنك في أعماقهن ، ولكن ليس جميعهن ، وربما ولا واحدة منهن ، لأنهن توسلن إلى الرجال كي يذهبوا إلى «الدير» للحصول على المساعدة . سمعتهن . كانت دافي مورغان تبكي وهي تغادر لتجد شخصاً ما يذهب من منزل إلى منزل : إلى هاربر جوري ، زوج كاثرين ، إلى زوج تشاريتي ، إيس ؛ فلود ، وإلى سارجنت بيرسون Person (كيف لا يعرف هذا الزنجي الجاهل أن كنيته هي Pierson ؟) كانت كل الأعذار صحيحة فقد جاؤوا بأعذار لأنهم يزدرونك يا ماما ، أعرف ذلك ، ويحتقرون بابا لأنه تزوج امرأة دون كنية ، زوجة دون أهل ، زوجة بشرتها

فاتجة ، زوجة ذات تلاعب عرقي . كانت كلتا القابلتين واقعتين في ورطة (كانت الولادة سريعة جداً والساقان مطويتان في الأسفل) وكل ما أرادتاه هو الحصول على إحدى الراهبات من «الدير» . قالت الآنسة فيري إن إحداهن كانت تعمل ذات مرة في مستشفى . مضت كاثرين جوري إلى منزل سوآن لترى إن كان ديك هناك . لم يكن موجوداً ، ولكن دافي كانت هناك . كانت دافي هي من ذهبت إلى منزل آل سيرايت ، ثم فليتوود . ذهبت إلى كل منزل قريب يمكن الوصول إليه مشياً . كان آل موس دوبري يعيشون على مسافة بعيدة ، وكذلك ناثان (الذي كان من شأنه أن يركب هارد غودز [الحصان] ويعدو به إلى المسيح طلباً للمساعدة) . وكذلك ستيوارد وآل بول وساند والبقية منهم . وأخيراً حصلت على موافقة سينيور بوليام . ولكن الوقت كان قد تأخر حين انتهى هو من ربط شريط حذائه . اندفعت الآنسة فيري من جانب سريرك إلى منزل بوليام وصاحت عبر بابه ـ كانت متعبة جداً إلى حد أنها لم تستطع أن تقرع الباب ، وغاضبة جداً إلى حد أنها لم تدخل ـ وقالت : «تستطيع أن تخلع حذاءك يا سنيور! وعليك أن تحضر أيضاً ملابس الواعظ خاصتك حتى تلحق بالجنازة!» ثم ابتعدت عن المكان» .

«حين عاد بابا كان الجميع قلقين إلى أبعد حد حول ما يتوجب فعله ومدى الفترة التي يمكن للجثمانين فيها أن يبقيا قبل أن يدفنا في الأرض ، سواء بوجود أب أم عدم وجوده ووجود زوج أم عدم وجوده . لا وقت للسهر عند جثة الميت قبل دفنها . لذا كنتما كلاكما أول عمل له . وقد قام بعمل جيد أيضاً . كنتما جميلين . الطفل في انحناءة ذراعك . كنت ستفخرين به جداً» .

«إنه لا يلوم أحداً باستثناء نفسه لأنه كان في حفل تخرج جنائزي . كنا قد تشاجرنا حول الموضوع ولم يتفق معي في أن أولئك الرجال

الـ(٨-ص) لم يكونوا راغبين في الذهاب لجلب امرأة بيضاء إلى البلدة ، أو لم يرغبوا في السفر إلى منزل رجل أبيض متوسلين النجدة ، أو أنهم كانوا يحتقرون بشرتك الشاحبة كثيراً إلى حد أنهم فكروا في أسباب تجعلهم لا يستطيعون الذهاب . يقول بابا إن أكثر من امرأة واحدة ماتت خلال وضعها لطفلها وأنا أقول : من ؟ وهكذا ماتت الأم والطفل ـ الذي كنت ستسميه فوستين إن كان بنتاً وريتشارد ، إن كان صبياً ، كما هو اسم الأخ الأكبر لبابا ـ مات هو أيضاً . كانت بنتاً يا ماما . فوستين . أختي الطفلة . كنا سنكبر معاً . باتريشيا وفوستين . لوننا فاتح جداً ربما ، ولكن معاً ما كنا سنكترث . كنا سنكوّن فريقاً . ليست لدي عمات أو أعمام ، كما تذكرون ، لأن كل أخوات وإخوة بابا ماتوا بسبب ما سمي بالالتهاب الرئوي الماشي ولكنه كان دون شك وباء الأنفلونزا لعام (١٩٣٩) . لذلك تزوجت بيلي كاتو لأنه كان جميلاً جداً من ناحية ولأنه كان يجعلني أضحك من ناحية أخرى و(على الأغلب ؟) لأنه كانت له بشرة منتصف الليل التي لآل كاتو وآل بلاكهورس ، شأنه شأن شعر سوآن ودافي وإيستر وسكاوت . ولكنه مات . مات بيلي ، أجل لقد مات ، وأخذت طفلتي فاتحة اللون إنما ليست بيضاء اللون وعدت إلى منزلك الصغير الجميل مع قبرك وشاهدتك في مؤخرة المنزل وكنت أدرس الأطفال لفترة طويلة وكانوا ينادونني الآنسة بست باستخدام كنية أبي كما يفعل الجميع لأني دعيت لفترة قصيرة جداً باسم «بات كاتو» [حسب كنية الزوج] » .

كانت الكلمات قد غطت منذ فترة طويلة قفا الصفحة لذلك كانت تستخدم أوراقاً جديدة للاستمرار .

« وقد أقول لك إنه باستثنائك وأم «ك . د .» لم يكن أحد في روبي قد مات بعد . يرجى أن تلاحظي أني قلت في روبي وهم كانوا فخورين حقاً

بالاعتقاد بأنهم مباركون وذلك لأنه بعد عام (١٩٥٣) كان كل من يموت يفعلها في أوربا أو كوريا أو في مكان خارج هذه البلدة . حتى أطفال سويتي لازالوا أحياء والرب يعلم أنه لا سبب هناك يدفعهم إلى يكونوا كذلك . حسناً ، ومهما بدا كلامي مجنوناً ، فأنا أعتقد أن الزعم بالخلود وهو توبيخ من هذه البلدة لعمل أبي الجنائزي ، بما أنه كان عليه أن ينتظر من يقتل في الحروب أو شخصاً ما من «الدير» أو حادثاً في مكان آخر ، وإلاّ فإن سيارة الإسعاف خاصته لن تتحول أبداً إلى سيارة جنائزية . (حين توفي بيلي لم يكن قد تبقى شيء يدفن منه سوى بعض «الممتلكات الشخصية» بما فيها خاتم ذهبي التوى إلى حد يصعب معه إدخال أصبع فيه) . يعتقدون أن بابا يستحق التوبيخ لأنه كسر قاعدة النسل أولاً ، وما كنت لأستبعد أن رفضهم الموت كان لمجرد أن يبعدوا النجاح عن مهنة والدي . وكما تبين فإن قتلانا في الحروب والحوادث في البلدات الأخرى (ماتت الآنسة فيري خلال رحلتها العودة إلى هايفن ، وماتت إيس فلود في مستشفى دمبي ولكنها دفنت في هايفن) كانوا كل العمل الذي ناله والدي وهو لا يكفي إلا بالكاد . وكذلك عمل سيارة الإسعاف . لذلك أحاول أنا بجد أن أقنعه أن المال الذي تدفعه البلدة لي لأجل التدريس هو للتدبير المنزلي وليس عليه أن يقترض على حصته في مصرف ديك ويجب أن ينسى محطات البنزين وغيرها من الأمور» .

وإذ أسندت ظهرها إلى كرسيها ، طوت بات يديها خلف رأسها ، متسائلة عما كان سيحدث حين يصبح المزيد عجائز بعمر «ناثان» أو «لون» . ثم ستصبح مهنة أبيها مطلوبة أو هل سيفعلون ما فعلوه وهم في الطريق خارجين من لويزيانا ؟ يدفنون الموتى حيث يسقطون . أو هل كانوا على حق ؟ هل كان الموت ممنوعاً من دخول روبي ؟ كانت باتريشيا متعبة الآن ومستعدة للنوم ، ولكنها لم تستطع أن تترك ديليا تذهب الآن .

« كانت تلك رحلة هائلة يا ماما ، من هايفن إلى هنا . أنت وأنا يا ماما بين أولئك المردة السود النحيلين ذوي البشرة السوداء المزرقة ، ولكن لاهم ولا زوجاتهم كانوا يحدقون إلى شعرك البني الطويل وعينيك المنقطتين بالعسل . هل قال لك بابا : لا تقلقي ، سيكون كل شيء على ما يرام ؟ أتتذكرين كيف احتاجوا إليك واستخدموك لتدخلي مخزناً تحضرين منه المؤن أو صفيحة حليب بينما كانوا قد أوقفوا سياراتهم عند الزاوية ؟ كان ذلك الشيء الوحيد الذي كانت بشرتك ملائمة له . وخلاف ذلك فقد كانت تزعجهم . لقد كانت تذكرهم بسبب وجود هايفن ، ولماذا كان على بلدة جديدة أن تحل محلها . كان قانون السقطة الواحدة الذي اخترعه البيض صعباً على التعايش معه إن لم يكن هناك من يستطيع أن يقول إنه موجود . حين كنا نمرّ ببلدة ، أو حين كانت سيارة « الشريف » قريبة ، كان بابا يطلب منا أن ننحني ، أن تتمدد على أرض السيارة ، لأنه لم يكن هناك من جدوى إخبار شخص غريب أنك ملونة بل والأسوأ من ذلك أن تقولي إنك زوجته . هل تكلمت معك سوآن أو دافي ، وكانتا عروسين جديدتين أيضاً ، كلاماً نسائياً ؟ ظننت نفسك حاملاً مجدداً وهما كذلك . لذلك هل تحدثتن معاً حول شعوركن حيال ذلك ؟ هل حضرتن الشاي لأجل البواسير وأعطيتن الواحدة للأخرى ملحاً تلعقه أو خبث النحاس لتأكله في السر ؟ لقد توحمتُ على صودا الخبز حين حملتُ ببيلي ديليا . هل حصل ذلك معك حين حملت بي ؟ هل نصحتك النساء الأكبر سناً من ذوات الأطفال ، مثل زوجة آرون ، سالي ، ذات الأطفال الأربعة حينها ؟ ماذا عن آليس بوليام ـ لم يكن زوجها قساً بعد ولكن كان سبق له وسمع « النداء » وقرر أن يصبح قساً ليكون لديهم بعض المشاعر الخيرية والربانية وهما لا يزالان شابين بعد . هل رحبوا بك مباشرة أم هل انتظروا جميعاً « الفرن » حتى تتم عملية إعادة

تجميعه ، أو في السنة التالية ، حين عاد ماء الجدول يجري ، ليعمدوك حتى يستطيعوا مخاطبتك مباشرة وينظروا إليك في العينين ؟ » .

« ما الذي قاله لك أبي في نزهة « إي إم إي تسيون » ؟ تلك التي جرت للجنود الملونين المعسكرين عند القاعدة في تنيسي ؟ كيف استطاع أي منكم أن يعرف ما كان يقوله الآخر ؟ كان يتحدث باللغة « اللويزيانية » وأنت « بالتنيسية » . الموسيقى مختلفة تماماً ، والصوت يأتي من جزء مختلف من الجسم . لابد أن ذلك كان أشبه بسماع أغان لحنها مؤلفان موسيقيان مختلفان . ولكن حينما مارستما الحب لابد أنه قال إنه يحبك وقد فهمت ذلك وكان ذلك صادقاً أيضاً ، لأني رأيت اليأس في عينيه منذ ذلك الحين ، مهما تكن المهنة التي يفكر في امتهانها » .

توقفت بات وفركت الجسأة على أصبعها الوسطى . كان مرفقها وكتفها يؤلمانها من الإمساك بالقلم بتلك الشدة . عبر القاعة ، عبر باب غرفة النوم ، استطاعت سماع أبيها يشخر . وكما هي الحال دائماً تمنت له أحلاماً سعيدة : شيئا يخفف عن تعاسة أيامه ، الأيام التي قضاها محاولاً أن يسر الآخرين ويعوض عنهم . وباستثناء الزواج من أمها ، ما استطاعت أن تعرف القاعدة التي انتهكها مما جعله تواقاً إلى ذلك حد للحصول على موافقة أولئك الذين ما كانوا يحترمونه . لقد وصف لها مرة كيف كانت هايفن تبدو حين خرج من الجيش . قال إنه جلس على رواق منزل أبيه يسعل ، حتى لا يعرف أحد أنه كان يبكي لأجلنا . كان أبوه فولتون بست وأمه أوليف في الداخل ، يقرآن بأسف عظيم الاستمارات التي عبأها للحصول على تمويل لفاتورة الجيش . كان يريد أن يتعلم في كلية حتى يستطيع الذهاب إلى كلية الطب ، ولكنه كان أيضاً ولدهم الوحيد المتبقي على قيد الحياة ، فقد مات الآخرون جميعاً في وباء الانفلونزا . لم يستطع والداه تحمل فكرة أن

يغادرهما مجدداً أو يبقى في بلدة تنزلق إلى النسيان إلى الأبد في كل مكان عدا القلب .

كان يتطلع إلى أول وآخر الأسمنت المشقق للشارع الرئيسي حين مرّ إيس فلود وهاربر جوري به ، قائلين إن هناك خطة . كان لدى ديك وستيوارد مورغان خطة . وحين سمع ما كان الأمر ، فإن أول شيء فعله كان أن كتب إلى الفتاة ذات العينين الكستناويتين والشعر البني الفاتح التي حملت طفله خلال الحرب . كان الأمر الحسن أنه لم يخبرهم بشأنها . كانوا سيقنعونه بالتخلي عن الزواج بهذه الطريقة ، كما فعلوا بمينوس لاحقاً . وربما عرف هو أنهم سيفعلون ، ولهذا فقد أرسل وراءنا فحسب . «حبيبتي ديليا ، تعالي . الآن فوراً . هاهو إيصال النقود . سيكون هناك الكثير من المعاناة إذا أردت أن أبقي قلبي هادئاً . حتى تصلا كلاكما إلى هنا سأكون مجنوناً...» لابد أنهم فغروا أفواههم حين وصلنا ، ولكن عدا ستيوارد ، لم يقل أحد أي شيء مباشرة . لم يكونوا مضطرين إلى ذلك . ذهبت أوليف إلى سريرها . بقي فولتون لينخر ويفرك ركبتيه . ستيوارد كان الوحيد الذي تجرأ فقال بصوت عال : «إنه يجلب الروث الذي تركناه خلفنا» . أسكتته دافي . وكذلك سوآن . ولكن فيري دوبري لعنته قائلة : «الرب لا يحب الوسائل البشعة . انتبه لئلا يحرمك ممّا تحب أيضاً» . وهذه الملاحظة فكرت فيها دافي طويلاً حتى عام (١٩٦٤) ، حين اكتملت اللعنة . ولكنهن كن مجرد نسوة ، وما كن يقلنه كان يتم تجاهله من قبل الرجال الطيبين الشجعان في طريقهم إلى «الفردوس» . لقد وصلوا إلى هناك ، أيضاً ، وفي النهاية وصلوا إلى الرضا الكامن في مشاهدة الروث وهو يدفن . معظمه على أي حال . بعض منه لازال فوق الأرض ، يعلّم أحفادهم بمستوى ذكاء لم يسبق لآبائهم أن وصلوا إليه .

مضت بت أسنانها ودفعت بعيداً ملف آل بست . اختارت دفتر إنشاء ودون لصاقة أو مقدمة تابعت الكتابة :

«ما كانت لتصغي إليَ . ولا كلمة واحدة . إنها تعمل في «دمبي» في عيادة : في التنظيف على ما أعتقد ، ولكنها تدعي أنها مساعدة ممرضة بسبب البزة التي عليها أن ترتديها . لا أعرف كيف تعيش . أعني إن كان لديها غرفة ، كما تقول ، في منزل أسرة لطيفة . لا أصدقها . ليس كل شيء على أي حال . يزورها أحد ولدي آل بول أولئك ، وربما كلاهما . أعرف ذلك لأن الصغرى «دينا» ، حكت للصف كيف أن أخاها الضخم أراها منزلاً بـ«سانتا كلوز» وأنوار عيد الميلاد وقد غطت الرواق كله . حسناً ، كان ذاك مكاناً آخر غير روبي ، لا شك . هي تكذب وأتمنى أن يعضني ثعبان ولا أن أرزق بطفلة كاذبة . لم أكن أنوي أن أضربها بتلك الشدة . لم أعرف أني فعلت . فقط أردت أن أمنع فمها الكاذب من إخباري أنها لم تفعل شيئاً . لقد رأيتهم . ثلاثتهم جميعاً خلف «الفرن» وكانت في الوسط . كما أنني من يغسل الشراشف في هذا المكان» .

توقفت بات ، وضعت قلمها على الطاولة وغطت عينيها بيدها ، محاولة فصل ما رأته عما خشيت أن تراه . وما علاقة الشراشف بذلك ؟ هل كانت هناك دماء حيث لا يجب أن يكون أو لا دماء حيث كان يجب أن يكون ؟ كان ذلك منذ أكثر من عام مضى ، ظنت أن كل شيء كان قد ذبل في ذاكرتها . جرى الشجار في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣ . وبعد ذلك هربت بيلي ديليا ومكثت في «الدير» لأسبوعين ويوم واحد . عادت خلال جلسة الصباح ، بينما كانت بات تدرس التلاميذ تحت سن الثانية عشرة ، وبقيت فترة طويلة كافية لتقول إنها لن تفعل . تبادلتا كلمات بشعة كريهة ، ولكنهما كانتا كلتاهما خائفتين من الاقتراب الواحدة من الأخرى لئلا يصبح

الشجار جسدياً كما حدث سابقاً . غادرت مع أحد ولدي آل بول ولم تعد حتى بداية هذا العام لتصف عملها وتكتب عنوانها . ومنذ ذلك الحين رأتها بات مرتين : مرة في آذار وأخرى في زفاف آرنيت ، حيث كانت إشبينة للعروس ووصيفة شرف في آن معاً ، بما أن آرنيت ما كانت لتقبل أحداً آخر غيرها ، ولم ترغب أي فتاة أخرى في الحصول على ذلك الشرف على أي حال لو كان يعني السير عبر الممر في الكنيسة مع بيلي ديليا . أو هذا ما فكرت بات فيه . لقد ذهبت إلى العرس ، وليس إلى حفل الاستقبال ، ولكن لم يفتها شيء بما أنها كانت تستطيع مشاهدة كل ما يجري عند «الفرن» مع أولئك الفتيات من «الدير» . لقد رأتهن . ورأت ولدي آل بول . ورأت بيلي ديليا تجلس وتتحدث مع واحدة من الفتيات كأنهما صديقتان قديمتان . وشاهدت القس بوليام وستيوارد مورغان يتجادلان مع الفتيات ، وحين انطلقن في سيارتهن رأت بيلي ديليا ترمي بباقة الزهر خاصتها في صفيحة قمامة آنا قبل أن تنطلق مبتعدة ، وأبولو وبرود بول في رعايتها .

غادرت بيلي ديليا في اليوم التالي في سيارتها ولم تقل كلمة واحدة لها حول الزفاف وحفل الاستقبال وفتاة «الدير» أو أي شيء . حاولت بات أن تتذكر كيف كانت تلك المكواة في يدها ، وما الذي قيل حتى جعلها تصعد الدرج وفي يدها مكواة من نوع «جي إي» من طراز الخمسينات تسمى «رويال إيز» ممسوكة بين أصابعها لتضرب بها رأس ابنتها . هي ، أرق الناس روحاً ، كادت تقتل ابنتها لولا أنها أخطأتها بمسافة بوصات قليلة . هي التي تحب الأطفال وتحميهم ليس فقط الواحد من الآخر ومن الآباء القساة ، هجمت على ابنتها بالذات . لقد دربت نفسها على التحلي بالمنطق والأسلوب اللطيف وحرية الاختيار والكرامة ، فسقطت عن الدرج وسببت لنفسها كدمات شديدة إلى حد أنها اضطرت للتغيب عن المدرسة ليومين .

كانت متعلمة ، علمت نفسها بنفسها لتثبت للجميع أن البنت التي ولدت بالزنى لامرأة ذات بشرة فاتحة كنور الشمس وليس لها كنية لم تكن جميلة فحسب بل ذات قيمة كبيرة لا يمكن تقديرها . ولتحاول أن تفهم كيف يمكن لها أن تمسك بتلك المكواة ، أدركت بات أنه منذ أن كانت بيلي ديليا طفلة ، فقد كانت تفكر بها كمسؤولية على عاتقها على نحو ما . كانت عرضة لإمكانية أن تكون السيدة التي أرادتها باتريشيا كاتو أن تكونها . هل كانت تلك قصة خلع سروالها التحتاني في الشارع ؟ كانت بيلي ديليا في الثالثة من عمرها فحسب في ذلك الوقت . عرفت بات أنها لو كانت (٨-ص) ، لما كانوا سيتحاملون ضدها . كانوا سيرون الأمر على ما هو عليه حقاً : الطفلة البريئة فحسب تفعل ما فعلته ، لاشك في ذلك . هل فاتني شيء ؟ هل كان هناك شيء آخر ؟ ولكن السؤال بالنسبة لها الآن في صمت هذه الليلة كان ما إذا كانت قد دافعت عن بيلي ديليا أو ضحت بها . وهل كانت لا تزال تضحي بها ؟ كانت مكواة «رويال إيز» في يدها وهي تصعد الدرج لتهشم بها الفتاة الشابة التي عاشت في أذهان (٨-ص) وليس الفتاة التي كانت ابنتها .

لعقت بات شفتها السفلى وتذوقت الملح وتساءلت لمن تكون تلك الدموع بالضبط .

*

رحب ناثان دوبري ، الذي يعتقد أنه أكبر الذكور سناً في روبي ، بالجمهور . وقد كان يجادل في الزعم بكونه الأكبر سناً في كل عام ، مشيراً إلى ابن عمه موسى ، ثم يقول إن القس سايمون كاري كان اختياراً أكثر ملائمة . ولكنه سمح للبلدة أن تقنعه في النهاية لأن القس كاري تحدث

مطولاً جداً ، إلى جانب أنه لم يكن بين العائلات الأولى ، لذلك كان وصوله مرتبطاً ليس بالحرب العالمية الثانية ، ولكن بالحرب الكورية . كان ناثان رجلاً شجاعاً ولطيفاً محباً حتى أن ستيوارد مورغان أعجب به ، فتزوج ناثان هذا من ميرث ابنة إلدر مورغان الكبرى . ولأنه لم يكن لديهما أولاد على قيد الحياة ، فقد أحب كثيراً أولاد الآخرين : وكان يستضيف نزهة «يوم الأطفال» السنوي ، ويصفّي أجهزة الصوت في تمارين الجوقة ، ويحتفظ بأقراص السعال والألعاب النارية في جيبه ليعطيها للأطفال .

والآن ، وقد صدرت عنه إلى حد خفيف رائحة الحصان الذي ترجل عنه للتو ، صعد إلى المنصة ومسح الجمهور بعينيه . تنحنح ناثان وفاجأ نفسه . لقد طار ما كان قد حضر نفسه ليقوله والكلمات التي قالها بالفعل بدت ملائمة لمناسبة أخرى .

قال : «كنت في الخامسة حين غادرنا لويزيانا وفي الخامسة والستين حين قفزت إلى الشاحنة التي غادرت هايفن إلى هنا ، إلى هذا المكان الجديد . أعرف أني ما كنت لأفضل ذلك لو كانت ميرث أو أي من أولادنا على قيد الحياة . كلكم تعرفون أن أولادي ـ كلهم ـ ماتوا في إعصار عام (١٩٢٢) . وجدناهم أنا وميرث في حقل قمح لشخص غريب . ولكني لم أندم أبداً على القدوم إلى هنا . أبداً هناك عسل في هذه الأرض أحلى من أي عسل آخر عرفته ، وقد قطعت قصب السكر في أماكن كان التراب فيها له مذاق السكر . لا ، لم يسبق لي أن ندمت لدقيقة واحدة . ولكن هناك حزناً في نفسي الآن . هذا الجفاف في حلقي . الماء الذي يبقى في عيني . أعرف أني رأيت سنوات أكثر مما يسمح به الرب عادة للإنسان ، ولكن هذا الجفاف جديد . ماء العين أيضاً . حين أتذكر ذلك ، كل ما أستطيع الخروج به هو حلم حلمته قبل فترة» .

في الصف ما قبل الأخير كانت لون دوبري جالسة قرب ريتشارد ميسنر ، وكانت آنا تجلس إلى الجانب الآخر منه ، انحنت إلى الأمام لتنظر إلى آنا وتعلم منها إن كانت هي أيضاً آخذة بفقدان عقلها . ابتسمت آنا ولكنها لم تبادلها النظرة ، لذلك استندت إلى الخلف لتتحمل حلماً آخر من أحلام ناثان العجوز المشوشة .

مرّر ناثان أصابعه من فوق رأسه وأغلق عينيه كأنما ليصحح التفاصيل .

« كان هندياً جاء إلي في حقل الفاصولياء . من [قبائل] الشايان ، على ما أعتقد . الكرمة كانت خضراء وطرية . وكانت البراعم تتفتح في كل مكان . نظر إلى الحقل وهزّ رأسه بأسف . ثم قال لي إنه لأمر سيئ أن الماء كان سيئاً . قال إن هناك الكثير منه ولكنه قذر . قلت انظر هنا ، انظر إلى كل الأزهار . يبدو لي محصولاً ممتازاً . قال إن أعلى نبتات القطن لا تعطي المحصول الأفضل ، كما أن للأزهار لونا غير صحيح . فهي حمراء . نظرت وكانت بالتأكيد تميل إلى اللون الوردي ، ثم الأحمر . مثل نقاط الدم . لقد أخافني ذلك بما فيه الكفاية . ولكن حين نظرت إلى الخلف كان قد رحل . وكانت البتلات بيضاء مجدداً . أعتقد أن مثل هذه الرؤيا هي مثل هذه القصة التي سأرويها مجدداً في هذه الأمسية . إنها تظهر قوة محصولنا إذا فهمناها . ولكنها يمكن أن تحطمنا إن لم نفهمها . وأن تدمينا أيضاً . فليبارك الرب الأنقياء والمقدّسين وألاّ يبقينا بعيدين الواحد عن الآخر ولاعن الرب الذي يقوم بالمباركة ، آمين » .

حين غادر ناثان المنصة ، بين همهمات اللطف إن لم يكن الامتنان ، فقد استغل ريتشارد ميسنر الوقفة ليهمس شيئاً ما في أذن آنا ويغادر مقعده . كان يأمل في أن يرتاح من الموجات الوليدة من رهاب الاحتجاز الذي لم يصبه منذ أن سجن مع ثمانية وثلاثين رجلاً آخر في زنزانة ضيقة في

ألاباما . لقد أحرج نفسه آنئذ ، لأن العرق والغثيان كانا دليلاً على الخوف بالنسبة إلى رفاقه . وكان درساً قاسياً مع العلم أنه مهما كانت المخاطر التي تحملها ، ومهما كان تواقاً إلى المواجهة الخطرة ، فإن الزنزانة المزدحمة استطاعت أن تذله أمام مراهقين لا شفقة فيهم . والآن ، وهو يشعر بهجوم الاختناق في هذه المدرسة المزدحمة ، فقد انضم إلى بات بست ، واقفاً في القاعة يراقب المسرحية والجمهور عبر الباب . كانت مائدة طويلة من الكعك والحلويات وشراب البنتش موضوعة عند الجدار خلفها .

قالت بات : «أهلاً بالمحترم» . ولكنها لم تنظر إليه بل عدلت جسمها لتتيح له الوقوف عند المدخل .

قال : «مساء الخير يا بات» ، وهو يمسح العرق عن عنقه بمنديله . «هنا في الخارج أفضل لي» .

«أنا أيضاً . أرى كل شيء من هنا دون أن أمد عنقي أو أتلصص من بين قبعتين» .

نظرا من فوق رؤوس الجمهور وإلى الستارة المصنوعة من قماش قطني والمغسولة والمكوية بعناية وهي تتموج . كان هناك أطفال في مدرعات بيضاء قد اصطفوا عبر المفترق ، وكمال وجوههم الجدية والشعر الممشط يُفسده أحياناً جارب طويل إلى ما فوق الركبة ينزلق إلى كاحل أو ربطة عنق فراشة تنزاح إلى اليمين . وبعد نظرة إلى كايت غولايتلي ، فقد تنفسوا جميعاً باتساق ليبدأوا بترتيلة : «أيتها الليلة المقدسة... النجوم تلمع بشدة...» .

عند المقطع الثاني من الترتيلة انحنى ريتشارد ميسنر ليقول لبات : «هل تسمحين لي أن أطلب منك شيئاً» .

«لا . هيا» . ظنت أنه سيطلب منها تبرعاً لأنه كان يعاني صعوبة في

إيجاد المال (بالكميات التي كان يأمل بها) للمساعدة في الدفاع القانوني عن مراهقينا الذين يعتقلون في نورمان ويتهمون بالاقتناء أوالمقاومة أو الحريق المتعمد أو الفوضى أو إثارة الشغب أو أي مهمة أخرى تستطيع النيابة أن تستخرجها من قوانينها ضد الفتيان السود الذين كانوا يقولون لا أو يفكرون في ذلك . كانوا في السجن ، كما قال ريتشارد ميسنر لحشد الكنيسة ، منذ عامين تقريباً . لدى استدعائهم إلى المحكمة ، يكونون قد قضوا عشرين شهراً خلف القضبان . تاريخ المحاكمة كان وشيكاً ، والمحامون في حاجة إلى أن يتلقوا أجراً لقاء الخدمات التي سبق تقديمها والمزيد من الخدمات القادمة . حتى الآن كان ريتشارد قد جمع ما دفعته النساء فقط . النساء اللواتي كن يفكرن في الألم الذي تشعر به أمهات الفتيان أكثر من تفكيرهن في ظلم أوضاع أبنائهن . وكان الرجال على أي حال : آل فليتوود وبوليام وسارجنت وآل مورغان عنيدين في رفضهم . من الواضح أن ريتشارد لم يصغ إلى طلبه بعناية . كان عليه أن يؤسس مؤسسة للأبناء المبذرين وليس مؤسسة سياسية . وعندئذ ، وبينما كان يقف خارج كالفاري ، مستمراً في طلباته ، ما كان عليه أن يصغي إلى «لا أحبذ العنف» من رجال تعاملوا بالمسدسات طوال حياتهم . أو «أولئك الزنوج الصغار اللاقانونين حاملو المسدسات والذين لم يتلقوا تربية صالحة في بيوتهم يجب أن يبقوا في السجن» . هذا الكلام صدر عن ستيوارد بالطبع . وعلى أي فإنه كلما ألح ريتشارد على أنهم لم يحملوا المسدسات ، وأن المظاهرات ليست أمراً لا قانونياً ، فإن الرجال أبقوا حافظات نقودهم مغلقة . قررت بات ، لو طلب إليها مباشرة ، أن تتبرع بأكبر مبلغ تستطيعه . كان أمراً يبعث السرور التفكير في حاجته إلى كرمها ، لذلك شعرت بالانزعاج إذ علمت أن هذا لم يكن كل ما هو في ذهن ريتشارد .

«أحاول أن الطف الأوضاع لدى آل بول ، وأعتقد أني سأقوم بعمل جيد إن تحدثت إلى بيلي ديليا ، إن لم يكن لديك مانع . هل هي هنا الليلة ؟ » .

بقيت بات مستندة إلى مرفقيها والتفتت لتنظر إليه : «لا أستطيع مساعدتك أيها المحترم» .

«هل أنت واثقة من ذلك ؟» .

«أنا على ثقة من أنه مهما كان يحدث هناك فلا علاقة له ببيلي ديليا . وعلاوة على ذلك ، فهي لا تعيش هنا الآن . لقد انتقلت إلى «دمبي» . كانت تود أن تتوقف عن معاداته ، ولكن ذكر علاقة ابنتها مع ذينك الشابين من آل بول ، جعلها لا تستطيع التحكم بذلك .

«لقد ذكر اسمها مرة أو مرتين . ولكن ويزدوم بول لن يعطيني الفرصة . هناك شيء ما يمزق تلك العائلة» .

«لا يحبون التطفل أيها المحترم . هذا شيء يخص روبي» .

«أفهم ذلك ولكن شيئاً كهذا له خاصية الانتشار ، مما يصيب أكثر من عائلة واحدة . حين وصلت إلى هنا في البداية ، كان الأمر واضحاً : لو كانت هناك مشكلة آخذة بالتطور ، فإن وفداً قد تم تشكيله للنظر في المسألة . إبعاد الناس عن السقوط الواحد مع الآخر . لقد رأيت ذلك بأم عيني وكنت طرفاً في ذلك أيضاً» .

«أعرف» .

«كان هذا المجتمع متماسكاً كالشمع» .

«لا يزال . في حالة حدوث كارثة . ولكنهم يبقون منعزلين في الحالات الأخرى خلاف ذلك» .

«ألا تعنين أن تقولي «نحن» ؟ أي نبقى نحن منعزلين ؟» .

«لو فعلت ، فهل ستطلب مني أن أفسر الأمور ؟» .

«بات ، من فضلك . لا تحملي أي شيء أقوله على محمل الخطأ . لقد تذكرت للتو الشبان في «صف الكتاب المقدس» يقولون «هم» أيضاً حين يتحدثون عن آبائهم» .

«صف الكتاب المقدس ؟ إنه أشبه بصف حربي . نوع من التنظيم العسكري ، كما سمعت» .

«ربما مناضلون وليس عسكريين» .

«أليسوا «فهوداً» مبرعمين ؟» .

«أهذا ما تظنينه ؟» .

«لا أعرف ما أفكر به» .

«حسناً دعيني أخبرك. شأن معظم الناس هنا ، نحن نقرأ الجرائد ومختلف أنواع الكتب . نحن نتابع ما يجري ونحن نناقش استراتيجيات الدفاع . ليس العدوان . الدفاع» .

«وهل يعرفون الفرق ؟» .

لم يكن مضطراً إلى الرد عليها مباشرة لأن التصفيق بدأ ودام حتى اختفى آخر عضو من أعضاء جوقة الأطفال خلف الستارة .

أطفأ شخص ما أنوار السقف . السعال الهادئ يجعل العتمة مألوفة . ببطء ، على بكرة جيدة التزييت ، افترقت الستارتان . تحت أنوار موضوعة في الجناحين ، وتلقي بظلال كبيرة خلفها ، ظهرت أربعة أشكال في قبعات من اللباد وبزات كبيرة جداً على طاولة ، تعدّ دولارات ذات حجم كبير . كان وجه كل منهم مغطى بقناع أصفر وأبيض يصور عينين لامعتين وشفتين غاضبتين ، حمراوين كالجرح الجديد . وفوق لوحة مثبتة على الطاولة الأمامية ، كانت كلمة «نزل» ، هاهم يعدون النقود ويصدرون أصواتاً كصوت المضغ ولا يتوقفون حين يقترب منهم موكب من العائلات المقدسة

ترتدي ملابس ممزقة وتتحرك ببطء كل خطوتين معاً . يصطف سبعة أزواج أمام طاولة النقود . يحمل الفتيان عصياً والفتيات يحتضنّ دمى .

نظر ميسنر إليهم وإذ منح نفسه المزيد من الوقت ليفكر في رد على سؤال بات ، فقد راح يركز على تشخيص الأطفال على الخشبة . بنات آل كاري الأربعة الأصغر سناً : هوب ، تشيست ، لافلي ، بيور . لينا بول ، وإحدى بنات بايوس دوبري : ليندا . ثم الصبيان ، يحملون العصي برجولة بينما يخطون خطوتين نحو عدّادي النقود . حفيدا بيس وسولارين جوري : آنسل والمسمى « فروت » . كان جو ـ توماس بول يشكل زوجاً مع أخته دينا . ابن درو وهارييت بيرسون : جيمس . ابن باين ساندز : لوركاس . واثنان من أحفاد تيموثي سيرايت : سيفن وميكائيل . كان اثنان من المقنعين من آل بوشامب على نحو واضح : رويال ودستري ، في الخامسة عشرة والسادسة عشرة تقريباً ، وكان الواحد منهما قد سبق له وأصبح أطول من ستة أقدام ، ولكنه لم يكن واثقاً من الاثنين الآخرين . كانت هذه أول مرة يحضر فيها المسرحية . وكانت تعرض قبل أعياد الميلاد بأسبوعين ، حين يعود إلى جورجيا لأجل زيارته السنوية لأسرته . في هذه السنة تأجلت الرحلة لأنه سيكون هناك إعادة لم شمل العائلة كلها في عيد رأس السنة . سيصطحب آنا إن وافقت ، ويدع الناس ينظرون إليها بتفحص وكما افترض ، فسيدعها تتفحصهم . لقد لمح للأساقفة بأنه كان راغباً في أبرشية جديدة . لاشيء عاجل . ولكنه لم يكن واثقاً من أنه كان مفيداً جداً في روبي . كان يظن أن أي مكان جيد طالما كان هناك شبان يتوجب تعليمهم وإطلاعهم ، على أن المسيح كان قاضياً ومحارباً أيضاً . وأن البيض ليس لديهم براءة اختراع للمسيحية . بل غالباً ما كانوا عائقاً في طريقها . وأن المسيح كان متحرراً من الدين الأبيض ، وأنه أراد لأولئك الأولاد أن

يعرفوا أنه ليس عليهم أن يتوسلوا الاحترام . فالاحترام سبق له ووجد فيهم ، وكانوا في حاجة فقط إلى كشفه . ولكن المقاومة التي وجدها في روبي كانت تنهكه . هاهم طلابه يتلقون المزيد من العقاب بسبب المعتقدات التي كان يساعد على ترسيخها . والآن ها هي بات بست ـ التي علم معها «تاريخ الزنوج» كل عصر يوم خميس ـ تنتقد «صف الكتاب المقدس» خاصته ، وتخلط احترام الذات بالوفاق والاستعداد للطاعة . هل كانت تظن أن التعليم هو معرفة ما يكفي للحصول على عمل ؟ لم يبد عليها أنها تثق في عنيدي روبي فيما يخص المستقبل أكثر منه ، ولكنها لم تكن تشجع التغيير أيضاً . تاريخ الزنوج ولوائح الإنجازات القديمة كانت كافية لها وليس لهذا الجيل . كان على شخص ما أن يتحدث إليهم ، وكان على أحد ما أن يستمع إليهم . وإلاّ .

«تعرفين أكثر من أي شخص آخر كم هم أذكياء هؤلاء الشبان . أفضل من أي شخص آخر» . ثم خفت صوته مع غناء «الليلة الصامتة» .

«أتعتقد أن ما أعلّمه لهم ليس جيداً بما فيه الكفاية ؟» .

هل قرأت أفكاره . «طبعاً هو جيد . ولكنه ليس كافياً . العالم كبير ، ونحن جزء من هذا الكبر . يريدون أن يعرفوا عن أفريقيا» .

«أوه ، من فضلك أيها المحترم . لا تكن عاطفياً معي» .

«لو قطعت نفسك عن جذورك ، فسوف تذوين» .

«الجذور التي تتجاهل الأغصان تتحول إلى تراب للنمل الأبيض» .

قال بدهشة لطيفة : «بات ، أنت تحتقرين أفريقيا» .

«لا . لا أحتقرها . ولكنها لا تعني لي شيئاً فحسب» .

«وما الذي يعني لك شيئاً يا بات ؟ ما الذي يعني شيئاً ما لك يا بات ؟» .

«الرسم البياني الدوري للعناصر والتكافؤات» .

قال : «هذا حزين . حزين وبارد» . ثم التفت ريتشارد ميسنر بعيداً .

*

يغادر لوكارس ساندز مجموعة العائلات ويخاطب الأقنعة بصوت مرتفع إنما ثاقب : «هل هناك مجال ؟» .

تلفتت الأقنعة الواحد تجاه الآخر ، ثم نحو المنادي ، ثم الواحد نحو الآخر ، وبعد ذلك تزمجر وهي تهز رؤوسها مثل الأسود الغاضبة : «ابتعد من هنا . هيا . لا مجال لك» .

يشير لوكارس بالعصا : «ولكن زوجاتنا حوامل» .

ترفع بيور كاري دمية وتقول : «أطفالنا سيموتون من العطش» .

يهز المقنعون رؤوسهم ويزمجرون .

*

«لم يكن ذاك شيئاً لطيفاً تقوله لي يا ريتشارد» .

«أنا آسف ؟» .

«لست حزينة ولاباردة» .

«كنت أعني الرسم البياني وليس أنت . أن تقصري إيمانك على الجزيئات وكأن» .

«لا أقصر شيئاً . بل أنا لا أعتقد أن إخلاصاً غبياً لبلد أجنبي ـ وأفريقيا بلد أجنبي ، بل هي بلدان أجنبية قذرة ـ حل لهؤلاء الأطفال» .

«أفريقيا وطننا يا بات ، سواء أحببت ذلك أم لا» .

«لست مهتمة في الواقع يا ريتشارد . تريد أن تجد زنوجاً أجانب لتجد صلة بهم ، فلماذا ليس أمريكا الجنوبية ؟ أو ألمانيا ، مثلاً . لديهم بعض الأطفال السمر وتستطيع قضاء وقت جميل لتجد الصلة بهم . أم هل هو ماض دون عبودية ما تسعى إليه ؟» .

«لم لا ؟ كانت هناك حياة طويلة جداً قبل العبودية . وعلينا أن نعرف ما هي . هذا إن كنا سنتخلص من ذهنية العبودية» .

«أنت على خطأ ، وإن كان هذا حقلك فأنت تفلح فيه وهو رطب . العبودية ماضينا . لا يمكن لأي شخص أن يغير هذا ، ليس أفريقيا دون شك» .

«نحن نعيش في العالم يا بات . العالم كله . فصلنا وعزلنا : كان هذا هو سلاحهم دائماً . العزلة تقتل الأجيال . ليس لها مستقبل» .

«أو تعتقد أنهم لا يحبون أطفالهم ؟» .

ربت ميسنر على شفته العليا وتنهد تنهيدة طويلة «أعتقد أنهم يحبونهم حتى الموت» .

* * *

راح المقنعون ، وهم يتمايلون وينحنون ، يمدون أيديهم إلى ما تحت الطاولة ويرفعون مربعات كرتونية لينة ألصقت عليها صور الطعام . «إليك . خذ هذه واخرج من هنا» . راحوا يرمون صور الطعام على الأرض ، يضحكون ويقفزون . العائلات المقدسة تراجعت إلى الخلف وكأن الثعابين ألقيت عليهم . راحوا يشيرون بسباباتهم وقبضاتهم الملوحة ويغنون : «سيقوضك الرب . سيقوضك الرب» .

«محولاً إياك إلى تراب» كان هذا صوت لون دوبري .

« إياك أن تخطئيه . إياك » .

« سيطحنك إلى ما هو أنعم من الدقيق » .

« قوليها يا لون » .

« يضربك في لحظة اختياره! » .

وبالتأكيد فإن الأشكال المقنعة ارتعشت ثم انهارت إلى الأرض ، بينما أشاحت سبع أسر برؤوسها بعيداً . شيء في داخلي يطرد الألم . شيء في داخلي لا أستطيع تفسيره . كانت أصواتهم الضعيفة ترافق بأصوات أقوى من الجمهور ، وفي اللحن الأخير كان أكثر من عدد قليل من الناس يمسحون أعينهم . تجمعت الأسر بأسلوب التجمع حول نار المخيمات إلى يمين الخشبة . كانت الفتيات تهدهد الدمى . وبعيداً هناك في المذود ، لم يكن هناك مهد لرأسه [المسيح] . ويدخل صبي ببطء من الجناح وهو يرتدي قبعة عريضة ويحمل حقيبة جلدية . تصنع الأسر نصف دائرة خلفه . يركع الفتى ذو القبعة الكبيرة ويسحب زجاجات ورزماً من الحقيبة ، ثم يرتبها على الأرض . يريح المسيح الصغير رأسه الجميل .

*

ما المغزى ؟ سأل ريتشارد نفسه . استمتع بالعرض فحسب ودع بات لشأنها . أراد أن يناقش لا أن يجادل . راقب حركات الأطفال بعاطفة رقيقة في البداية ، ثم باهتمام متزايد . كان قد افترض أنه لإرضاء العدد الأكبر الممكن من الأطفال كان هناك أربعة يؤدون دور صاحب النزل وسبعة يؤدون دور ماري ويوسف . ولكن ربما كانت هناك أسباب أخرى . سبع عائلات مقدسة ؟ ربت ريتشارد على كتف بات . «من نظم هذا الأمر ؟ ظننت أنك قلت لي إنه كانت هناك في الأصل تسع عائلات مقدسة . أين

هما العائلتان الأخريان ؟ ولماذا رجل حكيم واحد ؟ ولماذا إعادة الهدايا إلى الحقيبة ؟ » .

« أنت لا تعرف أين تذهب ، أليس كذلك ؟ » .

« حسناً ساعديني على تصور هذا المكان . أعرف أني غريب ، ولكنني لست عدواً » .

« لست كذلك . ولكن في هذه البلدة هاتان الكلمتان تعنيان الشيء نفسه » .

*

رشاقة مذهلة ، وكم هو الصوت عذب . ضمن وابل من النجوم الورقية ، وضعت العائلات الدمى أرضاً وكذلك العصي وشكلوا حلقة . تدوي أصوات الجمهور معاً . لقد ضعت مرة ولكني وجدت الآن .

*

أحسّ ريتشارد بالمرارة تحلّ محل الغثيان الذي دفعه ليقوم من مقعده . بعد عشرين أو ثلاثين سنة من الآن ، كما فكر ، فإن كل أنواع الناس سيطالبون بمناصب محورية وتحكمية ومحددة في حركة الحقوق . القليل منها يمكن تبريره . ومعظمها سيكون مزيفاً . ما لا يمكن نقضه ولكن سيبقى غير مرئي في الصحف والكتب التي كان يشتريها لطلابه ، هو الناس العاديون . البواب الذي عطل الكهرباء حتى لا يستطيع رجال الشرطة أن يروا شيئاً ، والجدة التي أبقت لديها كل الأطفال حتى تستطيع الأمهات الخروج في المسيرة ، ونساء المناطق النائية المتخلفة ذوات المناشف النظيفة في يد والبندقية في الأخرى ، الأطفال الصغار الذين حملوا البطاريات والطعام إلى

الاجتماعات السرية ، القساوسة الذين أبقوا الجماهير المطاردة التي ملأت الكنائس ، أبقوها هادئة حتى وصل العون ، والعجائز الذين لملموا الأجسام المحطمة للشبان ، والشبان الذين نشروا أذرعتهم لحماية العجائز من الهراوات التي لا تستطيع أجساد هؤلاء تحمل ضرباتها والبقاء على قيد الحياة ، الآباء الذين مسحوا البصاق والدموع عن وجوه أولادهم وقالوا : «لا تهتم يا حبيبي . لا تهتم أبداً . أنت لست أبداً ولن تكون أبداً nigger, a coon, a jig, a jungle bunny [هذه كلها تسميات يطلقها البيض على الزنوج في أمريكا بصيغة تحمل الاحتقار] ولا أي شيء آخر يعلّم هؤلاء البيض أطفالهم أن يقولوه . «أنتم أطفال الرب» . أجل بعد عشرين أو ثلاثين سنة من الآن ، سيكون هؤلاء الناس قد ماتوا أو تم نسيانهم ، وقصصهم الصغيرة ستكون جزءاً من سجل ليس بالكبير ولا حتى في هوامشه ، رغم أنهم سيشكلون العمود الفقري الذي يقف عليه أولئك الأشخاص «المتلفزون» . والآن بعد سبع سنين من اغتيال الرجل الذي كان سيسعده أن يحمل السيف محله ، فقد كان يرعى قطيعاً لا يؤمن فحسب أنه خلق المرعى الذي يرعاه بل أن العشب من المروج الأخرى كان ساماً . من وجهة نظرهم فإن حلول «بروكر ت .» كانت تحل مسائل «دوبوا» كل مرة . كائناً من كانوا ، أو مهما كانوا يظنون أنفسهم خاصين ، فإن مجتمعاً دون سياسة ، كما راح يفكر ، محتوم عليه أن ينفجر شأن الخشب السمين الجيورجي . كنت أعمى ولكني أرى الآن» .

«هل هم ؟» لقد صيغت كسؤال ولكنها بدت كاستنتاج لبات .

قالت : «إنهم أفضل مما تظن» .

قال لها : «إنهم أفضل مما يظنونه هم . لماذا هم قانعون بهذا النزر اليسير ؟» .

«هذا وطنهم ووطني . الوطن ليس بالشيء القليل» .

«لا أقول! إنه كذلك . ولكن ألا تستطيعين حتى أن تتخيلي موطناً حقيقياً ؟ لا أعني السماء . أعني موطناً أرضياً حقيقياً . ليس قلعة تشترى وتشاد ويكون على كل امرئ أن يكون إما داخلها أو خارجها . وطن حقيقي . ليس مكاناً تذهبين إليه وتغزينه وتذبحين شعبه للحصول عليه . ليس مكاناً ما ادعيته لنفسك واستوليت عليه لأن معك البنادق . ليس مكاناً سرقته من الناس القاطنين فيه ، ولكن موطنك أنت ، حيث لو عدت فيه عبر أجداد أجدادك وأجداد أجدادهم وأجداد أجداد هؤلاء ، وعبر كل التاريخ الغربي وبداية المعرفة المنظمة ، والأهرامات والأقواس المسمومة ، إلى البداية حين كان المطر جديداً ، وقبل أن تنسى النباتات أنها قادرة على الغناء وكانت الطيور تحسب نفسها أسماكاً ، إلى البداية حين قال الرب : «حسن! حسن» : هناك ، هناك حيث تعرفين أن شعبك قد ولد وعاش ومات . تخيلي ذلك يا بات . ذلك المكان . من الذي كان يحدثه الرب إن لم يكن شعبي الذي يعيش في وطني ؟» .

«أنت تعظ ، أيها المحترم» .

«لا ، أنا أحدثك يا بات . أحدثك» .

*

بدأ التصفيق النهائي حين كسر الأطفال الحلقة واصطفوا لينحنوا للجمهور . نهضت آنا فلود حين فعل الجمهور وشقت طريقها إلى حيث وقفت بات وريتشارد ، منتعشين وبعيون مغمضة . كانت المرأتان كلتاهما خاضعتين للتخمين حول من منهما سيختار الواعظ الجديد الشاب الأعزب والوسيم . كانت آنا وبات المرأتين العازبتين الوحيدتين من سن معينة ،

المتاحتين للزواج . وما لم يكن القس الجديد يفضل امرأة أصغر سناً بكثير ، لكان عليه أن يختار إحداهما . قبل سنتين ، كانت آنا ستربح - وكانت واثقة من ذلك تماما . حتى الآن . وها هي تتحرك الآن نحو ريتشارد مبتسمة ابتسامة عريضة ، آملة في تجميد ألسنة كل من قد يفكر خلاف ذلك وقد رآه يفضل صحبة بات على صحبتها خلال مسرحية عيد الميلاد . كانا حريصين في غزلهما ، لا يتلامسان في الأماكن العامة . حين كانت تطهو العشاء له كانا يتأكدان من أن دار الأبرشية تضاء كلها بالأنوار ، وكان يقود سيارته أو يمشي إلى منزلها في السابعة والنصف حتى تراه روبي كلها . ومع ذلك ، لم يتم تحديد موعد ، لذلك فالألسنة قد بدأت تضجر . كان في ذهنها ما هو أكثر من السلوك الملائم : نور عين ريتشارد . بدا لها هذا النور وقد اربدّ مؤخراً لكأنه فقد معركة كانت حياته تعتمد عليها .

وصلت إليه قبل أن يبدأ الجمهور بالخروج مندفعاً ، مندفعاً نحو موائد الطعام ، مثرثراً وضاحكاً .

«مرحباً يا بات . ما الذي حدث لك يا ريتشارد ؟» .

قال : «أصبت بالغثيان هناك لمدة دقيقة . هيا . لنقف في الخارج قبل أن يبدأ الأمر مجدداً» .

قالا وداعاً وتركا بات تقرر ما إذا كانت تريد أن تتحدث مع الآباء السعداء ، وتهتم بمائدة الطعام أو تغادر . كانت قد قررت أن تفعل هذا الأمر الأخير حين داس كارتر سيرايت على قدمها .

«أوه ، اعذريني يا آنسة بست . آسف» .

«حسناً يا كارتر ، ولكن هدئ نفسك من فضلك» .

«أجل يا سيدتي» .

«ولا تنس . بعد العطل مباشرة ، لدينا أنت وأنا دروساً في الماكياج . السادس من كانون الثاني (يناير) ، هل تسمع ؟» .

«أكون هناك ، يا آنسة بست» .

«هل تعني أنك ستكون هناك ؟» .

«نعم يا سيدتي . آنسة بست . سوف أكون هناك ؟» .

*

في المطبخ وبينما راح بات تسخن الماء للشاي ، أغلقت باب الخزانة بقوة شديدة حتى أن الفناجين صلصلت . كانت لعبة «طرة ونقش» حول من كان سلوكها قد أزعجها أكثر . سلوك آنا أم سلوكها هي . على الأقل استطاعت أن تفهم آنا : تحمي حصتها . ولكن لماذا دافعت عن أشخاص وأمور وأفكار بحماسة لم تشعر بها ؟ كان سرور البكاء العميق الذي استمده الجمهور من المسرحية قد أثار اشمئزازها . كل ذلك الهراء الذي تربت معه بدا لها كعذر ليكون كريهاً . كان ريتشارد محقاً في أن يسأل : لماذا سبع وليس تسع ؟ كانت بات قد رأت المسرحية طوال حياتها ، رغم أنها لم يتم اختيارها أبداً لأي دور عدا ضمن الجوقة . حدث ذلك حين كانت سوآن تدرّس في المدرسة : قبل أن تلاحظ أن الأرقام كانت دائماً مفردة . وبعد مرور بعض الوقت رأت أن هناك ثمانية فقط . ومع الزمن فهمت أن خط نسل كاتو كان قد انقطع ، فقط . وأن هناك محواً آخر . من ؟ كانت هناك عائلتان فقط لم تكونا جزءاً من الأسر التسع الأصلية التي أتت إلى هايفن في وقت مبكر بما فيه الكفاية ليكون لها نوع من الوضعية الزميلة : آل جوري (رغم أن حفيدهم هاربر قد تزوج واحدة من آل بلاكهورس الأصليين ـ وهذا حسن له) وجدها لأبيها : فولتون بست . لم يكونوا يعدون بين الأصليين ، إذن

من ؟ طبعاً ليس آل فلود . لو تزوجت آنا من رينشارد ميسنر ، ألن يكون لذلك أهمية ؟ هل يستطيع ريتشارد إنقاذ خط نسل آل فلود ؟ أو هل كانوا آل بول ، بسبب بيلي ديليا ؟ لا ، كانت هناك حمولة سفن من الذكور في تلك العائلة . سيكون ذلك برهاناً على تواني أبولو أو برود ، ولكن لو كان ذلك عائقاً ، فإن آل مورغان أنفسهم كانوا في خطر داهم حتى تزوج «ك . د .» من آرنيت . ولو رزقت آرنيت بابن وليس بابنة ، فكم سيكون وضعهم أكثر أماناً . وآل فليتوود أيضاً . بما أن جف وسويتي لم يكونا بالمستوى المطلوب ، فإن آرنيت انتقدت كلتا العائلتين .

كان الشاي جاهزاً ، واتكأت بات فوقه ، عابسة ومصممة جداً على حل المشكلة حتى أنها لم تسمع روجر يدخل حتى وقف ضمن إطار الباب .

قال : «لقد غادرت في وقت مبكر جداً . لقد غنينا بعض الأغاني» .

«حقاً ؟ حسناً» . رسمت بات ابتسامة .

«افتقدنا بعض الكعك الجيد أيضاً» . تثاءب . «لقد كانت مجموعة جيدة لـ«لون» ، لاحقاً . يا إلهي ، إنها امرأة مجنونة» . ولأنه كان منهكاً إلى حد عدم القدرة على الضحك ، فقد هز روجر رأسه وابتسم . «ولكن كانت جيدة في زمانها» . التفت ليغادر وهو يقول : «حسناً ، تصبحي على خير يا طفلتي . عليّ أن أجعل الدواليب تزعق في الصباح الباكر» .

«بابا» . خاطبته بات دون أن تلتفت .

«ها هه ؟» .

«لماذا يغيرونها ؟ كانت هناك في العادة تسع عائلات في المسرحية . ثم ثمان لسنوات وسنوات . والآن سبع» .

«عم تتحدثين ؟» .

« أنت تعرف » .

« لا . لا أعرف » .

« المسرحية . لماذا يقل عدد العائلات المقدسة ؟ » .

« كايت هي من تقوم بذلك العمل كله . وناثان . أعني أنهما يختاران الأطفال . ربما لم يكن لديهما عدد كاف للعدد المعتاد » .

« بابا ؟ » لابد أنه سمع الشك في لهجتها .

« ماذا ؟ » لا يظهر عليه أنه سمع بالشك .

« كان لون البشرة ، أليس كذلك ؟ » .

« ماذا ؟ » .

« الطريقة التي يتم فيها اختيار الناس وتصنيفهم في هذه البلدة » .

« لا . حسناً قد يكون هناك بعض الإساءة التي جرت منذ فترة طويلة . ولكن لاشيء خطير » .

« لا ؟ وماذا عمّا قاله ستيوارد حين تزوجت أنت ؟ » .

« ستيوارد ؟ أوه ، حسناً ، آل مورغان جديون جداً فيما يخص أنفسهم . جديون زيادة عن اللزوم أحياناً » .

نفخت بات في فنجانها .

قابل روجر صمتها بمثله ثم عاد إلى موضوع أقل إزعاجاً .

« ظننت المسرحية جميلة ، شخصياً . علينا أن نقوم بشيء ما لأجل ناثان على أي حال . لم يعد الأفضل الآن » . ثم جاءته فكرة لاحقة : « ما الذي كان المحترم ميسنر يقوله عن نفسه ؟ بدا جدياً جداً هناك » .

لم ترفع بصرها إليه . « مجرد حديث » .

« هل من شيء يحدث بينكما » .

« بابا ، من فضلك » .

«لا ضرر في السؤال ، أليس كذلك» ؟ توقف ينتظر جواباً ، وحين لم يتلق واحداً غادر ، وهو يهمهم بشيء ما حول الفرن .

أجل هناك . أذى . ارتشفت بات الشاي بعناية بالملعقة . اسألي ريتشارد ميسنر . اسأليه ما الذي فعلته له للتو . أو ما يفعله كل شخص آخر . حين يطرح الأسئلة ، فإنهم لا يعطونه جواباً حول أي شيء عدا ما هو واضح وسطحي . وأنا بين كل الناس أعرف بالضبط معنى ذلك الشعور . ليس جيداً بما فيه الكفاية ليمثل من قبل أشخاص في الثمانين من عمرهم على مسرح .

بعد خمس عشر دقيقة وقفت بات في الحديقة ، على مسافة سبعين ياردة من شاهدة قبر ديليا . كان المساء قد أصبح بارداً ولكن ليس بارداً إلى حد كاف لهطول الثلج . كان نعناع الليمون قد ذوى ، ولكنَ أشجار الخزامى والمريمية كانت مليئة وعطرة . لا هواء يذكر ، لذا فإن النار في برميل الزيت كانت محتواة بسهولة . وواحداً إثر واحد راحت تسقط الملفات الكرتونية وصفائح الورق ـ المحزوزة منها وغير المحزوزة ـ في اللهيب . كان عليها أن تمزق الغلافات عن دفاتر الإنشاء وتمسكها على نحو مائل بعصا حتى لا تخنق النار . كان الدخان مراً . عادت إلى الخلف وقطفت بعض الخزامى وألقت به في النار أيضاً . استغرق الأمر بعض الوقت ، ولكنها التفتت أخيراً بظهرها إلى الرماد ودخلت إلى منزلها تجرجر عطر الخزامى المحروقة . في حوض المطبخ غسلت يديها ووجهها بالماء . أحست بالنظافة . ربما كان هذا السبب في جعلها تبدأ بالضحك . بخفة أولاً ثم بشدة ، ورأسها إلى الخلف وهي جالسة إلى المنضدة . هل ظنوا فعلاً أنهم يستطيعون متابعة هذا ؟ الأرقام وخطوط النسل ومن ينكح من ؟ كل تلك الأجيال من (٨-ص) التي لازالت موجودة وذلك لتنتهي ضيقة مثل سلك

البالة ؟ حسناً البقاء أحياء أمر ربما استطاعوا فعله ، وربما عليهم فعل ذلك ، حيث لا يموت أحد في روبي .

مسحت عينيها ورفعت الفنجان من صحنه . تجمعت أوراق الشاي في قعره . المزيد من الماء المغلي ، بعض النقع ، وتعطي الأوراق السوداء المزيد . والمزيد حتى . والمزيد حتى . حتى . حسناً الآن . ما الذي تعرفينه ؟ كان الأمر واضحاً كالماء . على الأجيال أن تكون ليس صافية عرقياً فحسب إنما خالية من الزنى أيضاً . « يبارك الرب في النقي والورع » بالفعل . كان ذلك هو نقاؤهم . كان ذلك هو ورعهم . كانت تلك هي الصفقة التي أبرمها زكاريا خلال صلاته المهمهمة . لم يكن جبين الرب هو الذي يجب أن يخشى منه . بل جبينه هو ، جبينهم . ألهذا كانت عبارة : « كونوا تغضينة جبينه » تدفعهم إلى الجنون ؟ ولكن الصفقة كانت قد خرقت أو تغيرت ، لأنه كان قد بقي سبع الآن فقط . ولكن من غيرها ؟ آل مورغان ، ربما إنهم يديرون كل شيء ، ويتحكمون بكل شيء . ما هي الصفقة الجديدة التي أبرمها التوأمان ؟ هل اعتقدا فعلاً أنه لا أحد يموت في روبي ؟ فجأة فكرت بات أنها كانت تعرف هذا كله . دم (٨-ص) الصافي وغير الزاني كان يمارس سحره طالما بقي في روبي . كانت تلك هي وصفتهم . كانت تلك هي صفقتهم . لأجل الخلود .

كانت ابتسامة بات ملتوية في تلك الحالة ، كما فكرت ، فإن كل شيء ، كان يقلقهم لابد أن يأتي من النساء .

همهمت : «أيها الرب العزيز . أيها الرب العزيز . لقد أحرقت الأوراق» .



كونسولاتا

في العتمة الجيدة النظيفة للقبو ، استيقظت كونسولاتا على خيبة الأمل المريرة لأنها لم تمت في الليلة السابقة ، في كل صباح ، وقد أحبطت آمالها ، كانت تتمدد على سرير صغير تحت الأرض ، متقززة من وجودها البليد ، وكانت تتدبر أمر قضاء كل ساعة منه بالارتشاف من زجاجات سوداء ذات أسماء جميلة . في كل ليلة كانت تغرق في النوم مصممة على أنها ستكون الليلة الأخيرة ، وتأمل أن قدماً ضخمة محومة ستنزل وتهرسها كحشرة من حشرات الحديقة .

ولأنها في فراغ ضيق كالتابوت على نحو مسبق ، ومعتادة على العتمة على نحو مسبق ، وقد ابتعدت طويلاً عن الشهية إلى الطعام ، فلم تعد تشتهي سوى النسيان ، فقد ناضلت لتفهم التأجيل . سألت : «لماذا ؟» وكان صوتها بين أصوات كثيرة ازدحم بها القبو من الرافدة إلى أرضية القبو . كانت تخرج إلى ما فوق الأرض عدة مرات في الأسبوع ، ليلاً في القسم الظليل من النهار . ثم ستقف خارج الحديقة وتتمشى حولها ، تتطلع إلى السماء لترى النور الوحيد الذي تستطيع تحمّله . إحدى النساء ، مايفيس في العادة ، كانت تصر على مرافقتها . تتكلم وتتكلم وتتكلم دائماً .

أو أن اثنتين من الأخريات ستأتيان . الارتشاف من القناني المغبرة ذات الأسماء الجميلة «جارناك» ، «ميدوك» ، «أوت - بريون» و«سانت إيميليون» ـ جعل من الممكن لها الاستماع إليهن ، بل والرد عليهن أحياناً . عدا عن مايفيس ، التي كانت قد مكثت في المكان لفترة أطول من غيرها ، فقد كان صعباً عليها التمييز بين الواحدة والأخرى . ما كانت قد عرفته عنهن قد نسيت معظمه ، وقد بدا لها أمر تذكر أي منها أقل فأقل أهمية ، لأن جرس كل صوت من أصواتهن كان يقص الحكاية نفسها : الاضطراب والخداع ، وما نبهت ضده الأخت روبرتا الفتيات الهنديات : الانحراف . كان تلك هي الأمور الثلاثة التي رصفت الطريق إلى الهلاك ، وأعظمها كان الانحراف .

كن قد وصلن عبر السنين الثماني الماضية . الأولى مايفيس ، خلال المرض الطويل لـ«الأم الرئيسة» . والثانية بعد وفاتها بالضبط . ثم جاءت امرأتان أخريان . وكل واحدة كانت تطلب الأذن للبقاء أياماً قليلة ولكنها لا تغادر بالفعل . بين الحين والآخر كانت واحدة أو الأخرى تحزم حقيبة صغيرة حقيرة ، وتقول وداعاً وتبدو على أنها اختفت لفترة : ولكن لفترة فحسب . كنّ دائماً يعدن للبقاء والعيش كالفئران في منزل لم يكن أحد راغباً فيه ، حتى جابي الضرائب ، مع امرأة تعشق المقبرة . نظرت كونسولاتا إليهن عبر نظاراتها الشمسية العديدة البرونزية أو الرمادية أو الزرقاء ، ورأت فتيات محطمات وفتيات خائفات ، وضعيفات وكاذبات . حين كانت ترتشف السانت ايميليون أو الجارناك المدخن ، كانت تستطيع احتمالهن ، لكنها رغبت أكثر فأكثر في كسر أعناقهن . أي شيء لإيقاف الطعام غير الممكن هضمه والمطبوخ على نحو سيئ ، والموسيقى الطارقة الشرهة ، والشجارات ، والضحك الفارغ الأجش ، والمطالبات . ولكن الانحراف على

نحـو خـاص . كـان من شـأن الأخت روبرتا أن تلبّب أيديهن . ولم يكن متبطلات لا يفعلن شيئاً إلا ما هو ضروري على نحو مطلق فحسب ، بل لم تكن لديهن أي خطط للقـيـام بأي شيء . بدلاً عن الخطط كـانت لديـهن رغبات : رغبات حمقاء طفولية . كانت مايفيس تتحدث باستمرار عن مشاريع موثوقة لجني الأموال : خلايا نحل ، شيء يسمى «سرير وفطور» ، شركة إطعام ، ميتم . أما واحدة أخرى منهن فقالت إنها وجدت كنزاً هو درج من المال أو المجوهرات أو شيء ما وأرادت المساعدة في غش الأخريات فيما يخص محتوياته . أما الثالثة فكانت تجرح فخذيها وذراعيها . كانت تريد أن تكون ملكة الندوب ، فجرحت نفسها جروحاً رقيقة حمراء بأي شيء كان يقع بين أيديها : موسى أو دبوس أمان أو سكين تقليم . والرابعة كانت تتوق لما بدا كأنه نوع من حياة الكاباريه ، مكان مزدحم حيث تستطيع أن تغني أغاني مليئة بالأسى وعيناها مغمضتان . كانت كونسولاتا تصغي إلى تلك الأحلام الطفولية بتساهل خافت مرطب بالنبيذ ، لأنهن لم يكن يغضبنها بقدر ما كانت تغضبها همساتهن عن الحب والتي كانت تبقى طويلاً بعد مغادرة النسوة . والواحدة بعد الأخرى كن ينزلن الدرج حاملات مصباح الكيروسين أو شمعة ، مثل عذارى يدخلن معبداً أو سرداباً للدفن ، ليجلسن على الأرض ويتحدثن عن الحب وكأنهن يعرفن أي شيء عنه إطلاقاً . تحدثن عن رجال كانوا يأتون ليتلمسوا أجسادهن وهن نائمات . عن رجال ينتظروهن في الصحراء أو عند الماء البارد ، عن رجال أحبوهن على نحو يائس ؟ أو رجال كان يجب أن يحبوهن ، أو أحبوهن أو سيحبوهن .

في أسوأ أيامها ، حين كان فم الكآبة يلوث العتمة النظيفة ، أرادت أن تقتلهن كافة . وربما لهذا طالت حياتها الرائدة حتى الآن . ذلك والرزانة الباردة لغضب الرب . الموت دون غفرانه كان سيدين روحها . ولكن أن

تموت دون ماري ماغنا «سيجعل الأمر قذرا وشريرا وغير مقدس» [وردت باللاتينية] . كان يمكنها أن تهبها بحرية لو قالت لها كونسولاتا في الوقت الملائم ، لو اعترفت قبل أن يذوي ذهن المرأة العجوز إلى نغمة رتيبة . في ذاك اليوم الأخير ، كانت كونسولاتا قد صعدت إلى السرير خلفها وبعد أن رمت الوسائد على الأرض ، رفعت الجسد الريشي وأمسكته بين ذراعيها وساقيها . كان الرأس الأبيض الصغير قد استكان بين ثدييها ، ودخلت السيدة الموت كولادة ، وقد راحت تهدهد وتصلي للمرأة التي خطفتها طفلة . خطفت ثلاثة أطفال بالفعل . أسهل شيء في العالم في عام (١٩٢٥) . رفضت ماري ماغنا ، وكانت راهبة وليس أماً رئيسة في ذلك الحين ، أن تترك طفلين في قمامة الشارع التي كانا يجلسان فيها . ببساطة حملتهما وأخذتهما إلى المستشفى حيث كانت تعمل ، ونظفتهما بالتسلسل التالي : صودا الخبز من نوع «أودورنو» ، فدواء الجرب نوع «غلوفر» فالصابون فالكحول فالمرهم الأزرق فالصابون فالكحول ثم اليود الذي وضع بعناية على قروحهما . ألبستهما وبمشاركة أخوات البعثة الأخريات ، أخذتهما معها إلى السفينة . كانوا ست راهبات أمريكيات في طريق عودتهن إلى الولايات [المتحدة الأمريكية] بعد اثنتي عشرة سنة من التدريب لدى الرهبانيات البرتغالية الأشد صرامة . لم يستجوب أحد الأخوات المكرسات لخدمة الهنود والملونين اللواتي دفعن رسوم مرور مخفضة لثلاثة أطفال ليسوا من البيض حتماً موجودين تحت تصرفهم . كان هناك ثلاثة الآن : كونسولاتا كانت قراراً في الدقيقة الأخيرة لأنها كانت في التاسعة من عمرها . وحسب معيار أي شخص فإن المقارنة كانت إنقاذاً ، لأنه مهما تكن الحياة التي ستجرهم إليها الراهبة الغاضبة العنيدة ، ستكون أفضل ممّا كان ينتظرهم في الممرات الملينة بالبراز لمدينتهم . حين وصلوا إلى «بويرتو ليمون» ،

وضعت الأخت ماري ماغنا اثنين منهم في ميتم ، فقد كانت حينها قد وقعت في حب كونسولاتا . العينان الخضراوان ؟ الشعر بلون الشاي ؟ ربما سهولة انقيادها ؟ ربما بشرتها المدخنة بلون الغروب ؟ أخذتها معها كقاصر تحت الحماية إلى الموقع الذي عينت فيه الراهبة العنيدة : مأوى ومدرسة داخلية للفتيات الهنديات في جزء من الغرب الأمريكي الشمالي .

بأحرف بيضاء على خلفية زرقاء ، كانت اللوحة قرب طريق الوصول تقول : «مدرسة يسوع الملك للفتيات المحليات» وربما كان ذلك هو الاسم الذي قصد الجميع إطلاقه على المدرسة ، إلا أنه ظلّ في ذاكرة كونسولاتا الحية الاسم الصحيح الذي تستخدمه الراهبات فقط : وخاصة في الصلاة . وضد كل منطق ، فإن الطالبات وموظفي الولاية وأولئك الذين يواجهونهم في البلدة كانوا يدعونه «الدير» .

ولمدة ثلاثين سنة عملت كونسولاتا بجد وأصبحت وبقيت عروساً لماري ماغنا ، واحدة من إنجازاتها الفريدة في حياة طويلة من التدريس والتربية والعناية في أماكن ذات أسماء لم يسمع بها أبو الراهبة نفسها ولم تستطع تكرارها حتى لفظتها بنتهما . عبدتها كونسولاتا . حين سرقت وأخذت إلى المستشفى ، وخزوها بالإبر في ذراعيها لحمايتها كما قالوا من الأمراض . والمرض العنيف الذي تبع ذلك ، تتذكره على أنه سار ، لأنها وهي ممددة في جناح الأطفال كان وجه جميل مؤطر يراقبها . كان له عينان زرقاوان ، ثابتان ، صافيتان ، مع لمحة من الفزع خلفهما ، قلق لم يسبق لها أن رأته . كان الأمر يستأهل أن تمرض من شأنه بل وحتى أن تحتضر ، لترى ذلك النوع من الاهتمام في عيني شخص راشد . بين الحين والآخر كانت المرأة ذات الوجه المؤطر تمدّ يدها لتلمس جبين كونسولاتا بقفا سلامياتها أو تمسّد شعرها المبلل المتشابك . كانت الخرز الزجاجي المعلق من خصرها

أو من أصابعها يغمز لها . أحبت كونسولاتا تينك اليدين : الأظافر المسطحة والبشرة القاسية المسطحة للكف . أحبت الفم الذي لا يبتسم ، الذي ما كان يضطر إلى إظهار أسنانه ليشع بالسعادة أو الترحيب . كانت كونسولاتا قادرة على رؤية نور أزرق بارد يشع بلطف تحت الرداء . وقد كان يأتي كما فكرت من قلبها .

من المستشفى رافقت كونسولاتا الراهبات، في ثوب بني نظيف يصل إلى كاحليها ، إلى سفينة تسمى «أتيناس» . بعد المرور بمرفأ في بنما ، غادرن السفينة في نيو أورليانز ، ومن هناك سافرن في سيارة وقطار وباص ثم سيارة أخرى . وكان السحر قد بدأ بإبر المستشفى المكومة عالياً فعالياً ، والمراحيض التي تدير ماء نظيفاً إلى حد أنه قابل للشرب . خبز أبيض طري سبق تقسيمه وقد وضع في غلاف . حليب في زجاجات . وطوال النهار وكل يوم اللغة لجميلة التي خصصت للتحدث إلى السماء . «أيها المناصر : الكثير من التشكرات فليتقدس اسمك ولتكن مشيئتك في السماء كما في الأرض ولكن حررنا من الألم من الألم من الألم» [وردت باللاتينية] . وفقط حين وصلن إلى المدرسة بدأ السحر يتباطأ . رغم أن الأرض ما كانت شيئاً يستحق المديح ، إلا أن الدار بدت كقلعة ، مليئة بجمال قالت ماري ماغنا إنه لابدّ من إزالته فوراً . كانت أولى مهام كونسولاتا هي تدمير التماثيل الرخامية المؤذية والعناية بحرق الكتب ورسم إشارة الصليب على نفسها حين كان العشاق العراة يحاولون الخروج من النار وكان لابدّ من إعادتهم إليها . كانت كونسولاتا تنام في حجرة المؤونة ، وكانت تنظف البلاط وتطعم الدجاج وتصلي وتقشر وتعمل في الحديقة وتعلب وتنظف . كانت هي ، وليس أي واحدة من الأخريات ، التي اكتشفت الغابة البرية المليئة بالفلفل الحار اللاذع وهي من زرعته . تعلمت مهارات الطبخ المختلفة من الأخت

روبرتا وأصبحت ماهرة بما فيه الكفاية لاستلام المطبخ والحديقة . كانت تحضر الدروس مع الفتيات الهنديات ولكنها لم تشعر بارتباط بها .

لثلاثين سنة كانت تعرض جسدها وروحها لابن الرب وأمه على نحو كامل وكأنها انضمت هي نفسها إلى سلك الرهبنة . لها القلب الدامي والحب الذي لا قرار له . بالنسبة إليها من كان طريقه ضيقاً إنما مضمخ بحلاوة الزعتر . له [للرب] من كان حبه متوفراً بالكامل حتى أنّه يذهل الرجال الحكماء والملعونين . هو من أصبح بشراً حتى نعرفه ونلمسه ونراه في أكثر الطرق دقة . أصبح بشراً حتى تعكس معاناته معاناتنا ، وإن آلام احتضاره ، وشكه ويأسه وفشله ، ستنطق عن وتستوعب في هذا الزمان الأرضي ما كنا عرضة له . وتلك السنوات الثلاثين من الاستسلام للرب الحي تشققت مثل ساق دجاجة حين قابلت الرجل الحي .

كان ذلك في عام (١٩٥٤) . كان الناس يبنون المنازل والحواجز ويفلحون الأرض ، على بعد حوالي سبعة عشر ميلاً جنوباً من «يسوع الملك» . كانوا قد شرعوا ببناء مخزن للأغذية وآخر للبقالة وكذلك صيدلية أقرب من تسعين ميلاً ، ممّا جعل ماري ماغنا مسرورة . هناك كانت تستطيع شراء لفافات من القطن المضاد للخمج لأجل الدورة الشهرية للفتيات وكذلك الإبر الدقيقة والخيطان بوزن ستين مثقالاً التي تبقى الفتيات مشغولات بالرتق ، رتق «ليديا بنكهام» ، وكذلك بودرة «ستان باك» وكلوريد الألومنيوم الذي تصنع منه مزيلا للروائح .

في إحدى تلك الرحلات ، حين رافقت كونسولاتا ماري ماغنا في سيارة المدرسة من طراز «ميركوري ستيشن واغن» ، وحتى قبل أن تصلا إلى الطريق الذي شق حديثاً ، فقد كان من الواضح أن شيئاً ما كان يحدث . شيء غير مكبوح يجري تحت الشمس المحرقة . استطاعتا سماع هتافات

عالية ، وبدلاً عن ثلاثين شخصاً حيوياً أو نحوه يقومون بهدوء ببناء بلدة ، رأوا أحصنة تعدو في الباحات ، على الطريق ، وأشخاصاً يضحكون عالياً . كانت فتيات صغيرات بأزهار حمراء وأرجوانية في شعورهن يقفزن وكان صبي يتمسك بعنق حصان قد رفع عالياً وأعلن أنه الرابح . كان الشبان والفتيان يرمون بقبعاتهم في الهواء ، ويطاردون الأحصنة ويمسحون عيونها الطافحة . وبينما راحت كونسولاتا تراقب تلك الفرحة العارمة ، سمعت صوتاً ضعيفاً إنما ملحاً يقول : «شا شا شا ، شا شا شا» . ثم ذكرى لمثل تلك البشرة ومثل أولئك الرجال ، يرقصون مع نساء في الشوارع على موسيقى تدق كقلب مجنون ، والجذوع ثابتة ، والأرداف تصنع دوائر صغيرة فوق سيقان تتحرك بسرعة كبيرة إلى حد أنه كان من العبث تفسير كيف كانت مثل هذه السهولة ممكنة . كان هؤلاء الرجال هنا لا يرقصون على أي حال . كانوا يضحكون ويركضون وينادون الواحد الآخر وللنساء المنحنيات في مرح . ورغم أنهم كانوا يعيشون هنا في كوخ ، وليس في مدينة صاخبة مليئة بأشخاص سود لامعين ، إلا أن كونسولاتا عرفت أنها تعرفهم .

لقد مرّ بعض الوقت قبل أن تستطيع ماري ماغنا لفت اهتمام الصيدلي . وأخيراً ترك الحشد وسار بهما إلى منزله ، حيث كان جزء مغلق من الرواق الأمامي يستخدم كدكان . فتح الباب المنخلي ، وبينما أمال رأسه بلطف ، فقد سمح لماري ماغنا بالدخول . كانت أول مرة تراه فيها كونسولاتا وهي تنتظر على الدرج . «شا شا ، شا شا شا» . رجل نحيل شاب على حصان ، يقود حصاناً آخر . كان قميصه الخاكي مبللاً من العرق ، وعند نقطة محددة رفع قبعته العريضة المسطحة ليمسح العرق عن جبينه . كان ردفاه يتأرجحان في السرج ، إلى الخلف وإلى الأمام . «شا شا شا» . شاهدت كونسولاتا جانب وجهه ، ورفرف جناح شيء مريش ، غير ميت ، في

معدّتها . مضى بجواده واختفى في مرتع الأبقار . ظهرت ماري ماغنا حاملة مشترياتها وهي تتذمر قليلاً من شيء ما أو من آخر ـ السعر ، النوعية ـ وأسرعت إلى السيارة ، وكونسولاتا خلفها ، حاملة لفافات ذات نسيج أزرق من القطن الجراحي . وما أن فتحت باب السيارة الأمامي حتى مرّ مرة أخرى . كان راجلاً ، يركض بخفة ، تواقا إلى العودة إلى تلك المجموعة المحتفلة من الناس على الطريق . نظر بالصدفة ودون مبالاة باتجاهها . ردت كونسولاتا النظرة وظنت أنها رأت التردد في عينيه إن لم يكن في مشيته . وبسرعة دخلت في سيارة الميركوري التي شوتها الشمس حيث بدت الحرارة وكأنها تفسّر تنفسها الصعب . لم تره ثانية إلا بعد شهرين من الزمن قضتهما دون استقرار بسبب الشيء المريّش الذي يقاتل ليفرد جناحيه . شهور من الصلاة الحارة والعناية الزائدة تبذل في العمل النظامي . شهور من التوتر أيضاً ، لأن المدرسة كانت قد أمرت بالإغلاق . ورغم أن منحة المرأة الثرية التي أسست وموّلت الرهبانية قد بقيت فعالة حتى الثلاثينات ، إلا أنها نضبت في الخمسينات . كانت الفتيات الهنديات العذبات قد رحلن منذ زمن طويل ـ اختطفتهن أمهاتهن وأخوتهن أو تخرجن إلى حياة ورعة تقية . منذ ثلاث سنوات كانت المدرسة تستقبل قاصرات تحت وصاية الولاية : فتيات وقحات كن يظنّن بوضوح أن الأخوات كن مرحات معظم الوقت ، وغريبات الأطوار بقية الوقت . كانت اثنتان منهما قد هربتا مسبقاً . ولم يتبق سوى أربعة منهن . وما لم تستطع الأخوات إقناع الولاية بإرسال (ودفع المال) للمزيد من الفتيات الهنديات الأكثر شراً وتمرداً ، فإنه كان على الرهبانية أن تستعد للإغلاق وإعادة تحديد مهمتها . كان لدى الولاية فتيات قاصرات تحت وصايتها ، حسناً ، لأن الوصاية يمكن أن تعني أي شيء من تبليل الفراش إلى الهرب من المدرسة إلى الفأفأة في الصف ، ولكنها فضلت وضعهم في

مدارس بروتستانتية ، حيث يستطعن فهم الملابس إن لم يكن السلوك الديني للمعلمات . كانت الكنائس والمدارس الكاثولكية نادرة في أوكلاهوما كما جيوب السمك . ولهذا اشترت المحسنة الدارة في المقام الأول . كانت فرصة للتدخل في قلب المشكلة : لإحضار الرب في اللغة إلى السكان الأصليين الذين كان يفترض أنهم لا يملكون أياً منهما ، وتغيير عادات طعامهم وملابسهم وعقولهم . ومساعدتهم على احتقار كل شيء حقق قيمة لحياتهم سابقاً ، وأن يعرض عليهم بدلاً عن ذلك مزية معرفة رب واحد وحيد وفرصة بالتالي للخلاص من الخطيئة . كتبت ماري ماغنا الكتاب إثر الكتاب ، وسافرت إلى مدينة أوكلاهوما وما وراءها ، على أمل إنقاذ المدرسة . في ذلك الجو من الذهول ، كانت ارتباكات كونسولاتا وإسقاطها للأشياء وحرق أخرى ، والقيام بزيارات فجائية وسريعة للمصلى ، أمور مزعجة للأخوات ، ولكنها لم تكن أمارات إنذار يمكن تمييزها عن أماراتهم . وحين كانت تسأل ما الحكاية أو تقرّع عن سهو غير ممكن احتماله ، كانت تخترع الأعذار أو تقطب جبينها . وبينما هي سارحة في هذا الاضطراب ، وتجدد يومياً ورعها المفاجئ ، فقد كانت هناك خشية من الطلب إليها أن تخرج إلى خارج «الدير» ، أو أن تذهب للتبضّع في البلدة مجدداً . لذلك كانت تقوم بالأعمال اليومية في الباحة عند أول ضوء نهار وتنفق بقية اليوم في الداخل ، وهي تخطئ في أداء عملها . ولكن هذا كله لم يكن ليساعد على حل المشكلة في النهاية . لقد جاء هو إليها .

في يوم صيفي صاف ، وبينما كانت راكعة تزيل الأعشاب الضارة من الحديقة مع فتاتين عنيدتين تحت وصاية الولاية ، قال صوت ذكري من خلفها :

«اعذريني يا آنستي» .

- كل ما كان يريده بعض الفلفل الأسود .

كان في التاسعة والعشرين وكانت هي في التاسعة والثلاثين . وقد فقدت عقلها تماماً .

لم تكن كونسولاتا عذراء . أحد الأسباب الذي قبلت من أجله بامتنان يد ماري ماغنا التي امتدت فوق القمامة كجناح حمامة ، كان نخزات الأصابع القذرة التي عرّفتها عليها سنتها التاسعة . ولكنها لم تعرف أي ذكر أو رغبت به بعد أن أطبقت اليد البيضاء على يدها القذرة ، ولهذا فإن انصعاقها بالحب بعد ثلاثين سنة من التبتّل اتخذ صفة القابلية للأكل .

ما الذي قاله ؟ تعالي معي ؟ ما اسمك ؟ كم سعر نصف «البك» [مكيال] ؟ أم أنه ظهر في اليوم التالي لأكثر من مجرد شراء الفلفل الأسود الحار ؟ هل سارت باتجاهه لتراه على نحو أفضل ؟ أم أنه تحرك باتجاهها ؟ على أي حال ، وبشيء ما أشبه بالانذهال ، قال : «عيناك كورق النعناع» . وهل أجابت : «وعيناك كبداية العالم» بصوت مرتفع ، أو هل كانت هذه الكلمات محصورة في رأسها ؟ هل سقطت فعلاً على ركبتيها وطوقت ساقه ، أو كان ذلك ما أرادته فحسب ؟

«سأعيد لك سلتك . لكن قد يكون الوقت متأخراً حينها . هل أستطيع إزعاجك ؟» .

لم تتذكر أن تقول أي شيء كجواب لذلك ، ولكن وجهها قال له دون شك ما كان في حاجة إلى أن يعرفه ، لأنه كان هناك في الليل وكانت هي أيضاً هناك وقد اخذ يدها في يده . لا وجود لسلة بحجم «البك» في مرمى النظر . «شا شا شا» . ما أن كانا في شاحنته ، وقد أبطأ السير على المدخل المفروش بالحصى ، والطريق الترابي الضيق ، ثم أسرع على طريق إسفلتي أعرض ، لم يتكلما على أي حال . قاد السيارة ، كما يبدو ، لأجل

متعة المحرك : استمرت الزمجرة ، مغطاة بقبعة من فولاذ : بطريقة بارعة فارقت السيارة في آن واحد العتمة القريبة ووثبت إلى العتمة الأبعد : إلى ما وراء الممكن توقعه . سارا بالسيارة لفترة اعتقدتها كونسولاتا ساعات بحالها ، دون كلمات تتبادل بينهما . تركز الخطر وضرورته عليهما ، وجعلهما هادئين . لم تعرف أو تكترث أين كانا يتجهان أو ما قد يحدث حين يصلان . أسرعت نحو ما لا يمكن توقعه ، جالسة قربه ، قرب ذاك الذي كان أدكن من العتمة التي كانا يشقانها ، فتركت كونسولاتا الريش ينتشر ويأتي دون التصاق من جدران الرحم . هنا حيث لم تكن الريح عوناً أو تهديداً لأزهار عباد الشمس ، ولا القمر لغة للزمن والطقس والبذار أو الحصاد ، ولكن مجرد ملمح من ملامح العالم الأصلي المصمم لهما فحسب .

أخيراً أبطأ السيارة والتفت بها إلى مسار قابل للمرور بصعوبة ، حيث كانت أعشاب الذئب تحتك برفاريف العجلات . في وسط ذلك كله كبح السيارة وكان سيأخذها في ذراعيه لولا أنه كان قد سبق لها وكانت هناك .

في طريق العودة لم ينطقا مجدداً . ما قيل خلال تبادلهما للحب اقترب من اللغة ، وأوحى بشيء قريب منها ، ولكنه كان في الواقع غير ممكن تذكره أو السيطرة عليه أو تفسيره . قبل الفجر ابتعد الواحد عن الآخر وكأنهما قد ألقي القبض عليهما ، فكان كل واحد منهما يواجه عقوبة السجن دون عفو . حين فتحت الباب ونزلت ، قال : «الجمعة ، ظهراً» . وقفت كونسولاتا هناك بينما عاد بالشاحنة لينطلق في طريقه . لم تكن قد رأته بوضوح حتى مرة واحدة خلال الليل كله ولكن في يوم الجمعة . ظهراً . سيمارسان الحب الحب الحب في ضوء النهار . عانقت نفسها وركعت وانحنت على الأرض . كان جبينها يضرب الأرض فعلاً وجسمها يهتز من المتعة .

. انزلقت إلى المطبخ وتظاهرت أمام الأخت روبرتا بأنها كانت في قن الدجاج .

« حسناً إذن ، أين البيض ؟ » .

« أوه ، نسيت السلة » .

« لا تستغفليني ، من فضلك » .

« كلا أيتها الأخت . لن أفعل » .

« كل شيء في حال من الفوضى » .

« نعم أيتها الأخت » .

« حسناً ، تحركي إذن » .

« نعم ، أيتها الأخت . اعذريني أيتها الأخت » .

« هل كان هناك شيء مضحك ؟ » .

« كلا أيتها الأخت . لا شيء ، ولكن » .

« ولكن ؟ » .

« أنا . ما هو هذا اليوم ؟ » .

« القديسة مارتا » .

« أعني بين أيام الأسبوع ؟ » .

« الثلاثاء لماذا ؟ » .

« لا شيء ، أيتها الأخت » .

« نحتاج إلى عقلك وليس لاضطرابه » .

« نعم أيتها الأخت » .

اختطفت كونسولاتا سلة وركضت خارجة من باب المطبخ .

*

يوم الجمعة . ظهراً . كانت الشمس تجبر الجميع على الاختباء خلف الجدران الحجرية ليرتاحوا . الجميع عدا كونسولاتا والرجل الحي ، كما تأمل . ليس لديها خيار عدا تحمل الحرارة وليس سوى قبعة من القش لحمايتها من إسفين الشمس . تقف عند المنحنى الخفيف في الممر المؤدي إلى الدارة ، ولكنها ترى من الدارة بشكل واضح . هذه الأرض هنا مسطحة مثل ظلف ، مفتوحة كفم طفل . لو نادتها الأخت روبرتا أو ماري ماغنا أو طلبت تفسيراً ستخترع شيئاً ما : أو لاشيء . تسمع صوت شاحنة قبل أن تراها وحين يصل يمر بها ولا يلتفت برأسه ولكن يقوم بإشارة . يرتفع أصبعه عن عجلة القيادة ويؤشر إلى الأمام . تلتفت كونسولاتا إلى اليمين وتتبع صوت عجلاته ثم صمتها وهي تلمس الزفت . ينتظرها عند كتف الطريق .

داخل الشاحنة ينظر الواحد منهما إلى الآخر لفترة طويلة بجدية ، بعناية ، ثم يبتسمان .

يقود السيارة إلى منزل مزرعة محترق فوق بروز من الأرض المراحة . يتوقف خلف السن الأسود لمدخنة محطمة بعد أن يتخطى الحشائش الزرقاء وعشب الطير . ويداً بيداً يشقان طريقهما عبر الشجيرات والعليق حتى يصلا ، إلى أخدود ضحل . ترى كونسولاتا فوراً ما أرادها أن تراها : شجرتا تين تنموان الواحدة ضمن الأخرى . وحين يتمكنان من النطق بجمل كاملة ، يحدق إليها قائلاً :

«لا تطلبي مني تفسيراً . لا أستطيع» .

«لا شيء يستدعي التفسير» .

«أحاول تدبير أموري في هذه الحياة . الكثير من الناس يعتمدون عليّ» .

« أعرف أنك متزوج » .

وأهدف إلى البقاء هكذا » .

« أعرف » .

« وما الذي تعرفينه أيضاً ؟ » يضع سبابته في سرتها .

« إني أكبر منك سناً » .

ينظر إلى الأعلى ، بعيداً عن سرتها إلى عينيها ، ويبتسم . « لا أحد أكبر مني سناً » .

تضحك كونسولاتا .

يقول : « طبعاً ليس أنت . متى حدث ذلك آخر مرة ؟ » .

« قبل أن تولد » .

« إذن فأنت كلك لي » .

« أوه ، أجل » .

يقبلها بخفة ، ثم يستند على مرفقه . « لقد سافرت في كل مكان . لم أر أي شيء يشبهك . كيف يمكن لأي شيء أن يُجمع كما أنت ؟ هل تعرفين مدى جمالك ؟ هل نظرت إلى نفسك ؟ » .

« أنا أنظر الآن » .

*

لم تظهر أي ثمار تين على تينك الشجرتين طوال فترة لقائهما هناك ، ولكنهما كانا ممتنين لظل الأوراق المغبرة وحماية الجذعين المعذبين . البطانيات التي جلبها كانا يتمددان عليهما قدر الإمكان . لاحقاً شاهدا كلاهما الشقوق والرضوض التي سببها حوض النهر الجاف .

تم استجواب كونسولاتا . رفضت الإجابة ، حولت الاستفسارات إلى

نواح : «ما الذي سيحدث لي حين يغلق كل هذا ؟ لم يقل لي أحد ما الذي سيحدث لي» .

«لا تكوني مضحكة . تعرفين أني سأهتم بك . دائماً» .

بوّزت كونسولاتا فمها ، مدعية أنها مجنونة بالقلق وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليها . وكلما حصلت على المزيد من التطمينات ، كلما ألحت على التجوال «لأكون لوحدي» ، كما قالت . كان هذا الباعث يصيبها أيام الجمع على الأغلب . عند الظهر .

حين غادرت ماري ماغنا والأخت روبرتا في رحلة عمل في أيلول (سبتمبر) ، تابعت الأخت ماري إليزابيث وثلاثة طالبات لا مباليات ، الترتيب والتنظيف والدراسة والصلاة . اثنتان من الطالبات : «كلاريسا» و«بني» ، بدأتا تضحكان حين شاهدتا كونسولاتا . كانتا في الرابعة عشرة من عمرهما ، فتاتان بعظام صغيرة وعيون جميلة عارفة يمكن أن تصبح فارغة فجأة . عاشتا لتهربا من ذلك المكان ، وكانتا في معنويات عالية الآن لأن النهاية باتت وشيكة . كانتا قد بدأتا مؤخراً تعتبران كونسولاتا كحليف وليس كعدو من خلال حطام حياتهما . وكانت تهمسان الواحدة للأخرى بلغة كانت الأخوات قد حظرت عليهما استخدامها . وكانت تغطيان عليها غيابها ، وتجمعان البيض الذي هو من مسؤولية كونسولاتا . وتستأصلان الأعشاب الضارة وتقومان بالغسيل . أحياناً كانتا تراقبان من نوافذ غرفة الصف ، برأسين متلامسين ، وعيون متقدة ، المرأة التي يعتقدان أنها عجوز بما فيه الكفاية لتكون جدتهما تقف تحت أي نوع من أنواع الطقس تنتظر شاحنة الشيفروليت .

«هل يعرف أي شخص ؟» تدور كونسولاتا أظفر إبهامها حول حلمة الرجل الحي .

يجيب : «لن أفاجأ بذلك» .

«زوجتك ؟» .

«لا» .

«هل حكيت لأحد ؟» .

«لا» .

«هل رآنا أحد ؟» .

«لا أظن ذلك» .

«إذن كيف يمكن لأي شخص أن يعرف ؟» .

«لي توأم» .

تعدل كونسولاتا جلستها . «هناك اثنان منكما ؟» .

«لا» . يغمض عينيه . حين يفتحهما ينظر إلى البعيد . «لا يوجد سوى واحد مني» .

*

سار أيلول (سبتمبر) ملطخاً كل شيء بالألوان الزيتية : مساحات من الأصفر بلون الهال ، والبرتقالي المحترق ، وأميال من التراب البني ، والوديان الزرقاء اللازوردية والليلية ، مع سماوات بنفسجية على نحو يُحطم القلب . وحين حلّ تشرين الأول (أكتوبر) وكان القرع ينتفخ في الأماكن التي زرع فيها الفجل سابقاً . عادت ماري ماغنا والأخت روبرتا ، وهما غاضبتان جداً من القساوسة والمحامين والكتبة ورجال الدين . لم تكن الأخبار أخباراً . كان مصير الجميع قد تقرر في «سان بير» باستثناء مصيرها . ذلك القرار سيأتي لاحقاً . كانت ماري ماغنا في الثانية والسبعين ، وهذا العمر أخذ في الاعتبار ، ولكنها رفضت المكوث في بيت هادئ . وكان

هناك أيضاً الإشراف على الأملاك . كان حق الملكية بين يدي مؤسسة المرأة المحسنة (التي هبطت موجوداتها إلى رأس المال الأصلي الآن) ، لذا كانت الدارة والأرض غير مملوكين للكنيسة بالضبط . لذلك كان الجدال حول ما إذا كانتا خاضعتين للضرائب الجارية والمتأخرة . ولكن السؤال الحقيقي لمخمّن الضرائب كان لماذا يحق في ولاية بروتستانتية لمجموعة من نساء كاثوليكيات غريبات دون بعثة من الذكور للرقابة عليهن ، أن يتمتعن بمعاملة خاصة . لحسن الحظ أو لسوئه ، لم تكن هناك موارد طبيعية مكتشفة حتى حينه في الأرض ، مما جعل الأمر مستحيلاً بالنسبة للمؤسسة أن تحررها من العبء . لم يستطيعوا ببساطة التخلي عنها ، أليس كذلك ؟ استدعت ماري ماغنا الجميع لتشرح لهن . كانت فتاة أخرى قد هربت ، ولكن الاثنتين الأخيرتين : بني وكلاريسا ، كانتا تصغيان باهتمام جذل بينما مستقبلهما ـ السنوات الأربع التالية منه على أي حال ـ الذي كان قد اتخذ شكلاً كرجل عجوز ما في بزة ، يقدم لهما . لقد أحنتا رأسيهما الجميلتين في قبول رزين ، متأكدتين أن المساعدة التي كانتا في حاجة إليها للخلاص من قبضة الراهبات كانت على الطريق .

لم تبذل كونسولاتا الكثير من الاهتمام إلى كلمات ماري ماغنا . لم تكن ذاهبة إلى أي مكان . ستعيش في الحقل لو اضطرت إلى ذلك ، أو ما هو أفضل ، في المنزل المحترق الذي أصبح منزل ذهنها . كانت قد لحقت به حتى الآن ثلاث مرات عبره ، توازن مشيتها على ألواح الأرضية الخشبية الملتوية وتشم رائحة الحريق الذي عمره اثنتا عشر سنة . هناك في الخارج دون وجود خط شجرة واحد مرئي ، مثل منزل بنى على أمواج رملية في «الصحارى» الوحيدة ، دون أي شيء أو أي شخص يعيقه ، فالمنزل قد احترق بحرية تحت عبث الريح وزهوه بنفسه . هل بدأ [الحريق] في الليل

والأطفال ينام ؟ أم هل كان خالياً حين بدأت ألسنة اللهيب بالانطلاق ؟ هل كان الزوج بعيداً مسافة ستين آكراً ، يرزم ويسم القطيع وينظف ويبذر ؟ هل كانت الزوجة منحنية فوق طشت الغسيل في الباحة وخصلات من الشعر تجعل جبينها يحكها ؟ كانت سترمي دلواً أو دلوين ، وتصرخ على الأطفال وتندفع لتجمع ما تستطيع جمعه . كانت ستكوم كل ما تستطيع الوصول إليه أو تختطفه ، في الباحة . لاشك أنه كان لديهم جرس ، مثلث صد : شيء ما يرنونه أو يقرعونه ليحذروا من الآخرين من الخطر المحدق . حين وصل الزوج كان الدخان قد أجبره على البكاء . ولكن الدخان فقط ، لأنهم لم يكونوا من النوع الذي يبكي . كان سيقلق أولاً على الماشية ويوجهها إلى مكان آمن أو يطلقها حرة ، ويتذكر أنه ليس لديه تأمين على الأملاك . عدا ما كان في الباحة ، فكل شيء آخر قد تمت خسارته . حتى زهور عباد الشمس في الزاوية الشمالية الغربية من المنزل ، قرب المطبخ ، حيث كانت الزوجة تستطيع رؤيتها وهي تحرك السخينة المصنوعة من دقيق الذرة .

استكشفت كونسولاتا في دروج قضمت فيها فئران الحقل إيصالات غاز البروبان . رأت كيف أن الريح قد ملّست الأثاث المتفحم حتى أصبح كالحرير . احتلت الأشكال تحت الأرضية الحيّز الذي هرب منه البشر . نوع من دستور أناس الرماد . رجل طوله ثمانية أقدام ، كان يحوم قرب الموقد ، أجابت ساقاه ، وهما ساقا راعي بقر قويتان ، وشكل فكه وهو يواجههما ، عن الأسئلة الفورية عن الملكية . الأصبع عند رأس ذراعه الأسود الطويل كان يشير إلى اليسار نحو السماء حيث تداعى جدار ، يطلب خروجاً سريعاً من مبناه . قرب الرجل المشير بأصبعه ، كان قد رسم على الجدار الأصفر على نحو باهت ، فتاة ذات جناحين كجناحي الفراشة بطول ثلاثة أقدام . أما

الجدار المقابل فكان مسكوناً بما ظنته كونسولاتا صياد سمك ، ولكن الرجل الحي قال : لا ، إنه أشبه بعيني الإسكيمو .

«الإسكيمو ؟» سألت وهي تبعد شعرها عن عنقها . «ما هو الإسكيمو ؟» .

ضحك ، ثم جذبها بعيداً ، مطيعاً لأمر راعي البقر ، فوق كومة مخلفات الجدار المنهار ، عائداً بها إلى الأخدود ، حيث تنافسا مع شجرتي التين على التماسك الواحد بالآخر .

*

في منتصف تشرين الأول (أكتوبر) تغيب أسبوعاً . جاء يوم الجمعة وانتظرته كونسولاتا ساعتين ونصف حيث يلتقي الطريق الترابي مع طريق الإسفلت . كانت ستنتظر لمدة أطول ، ولكن جاءت بني وكلاريسا واقتادتاها بعيداً .

لابد أنه مات ، كما فكرت ، ولن يقول لها أحد ذلك . طوال الليل قلقت : على فراشها القش في حجرة المؤونة أو وهي منحنية في العتمة على مائدة المطبخ . جاء الصباح ليجدها تراقب عالم الأشياء الحية يزول تدريجياً بغيابه . كان قلبها المسدود بالرعب قد أصيب بالوهن . بدت لها شرايينها وكأنها تحولت إلى أنابيب من السيلوفان المجعّد . الثقل في صدرها كان يزداد بسرعة كبيرة حتى أنها ما عادت تستطيع التنفس بسهولة . وأخيراً قررت أن تكتشف أو أن تجده .

كان يوم السبت يوماً مليئاً بالعمل . زمر الباص الأسبوعي فجعلها تنزل عن الطريق وهي تمشي في وسط الطريق الريفي . مشت كونسولاتا على كتف الطريق وتابعت السير ، وشعرها غير المضفور يرتفع في نسيم ماسورة

العادم . بعد دقائق قليلة مرّت شاحنة نفط وسائقها يصرخ بشيء ما عبر النافذة . بعد نصف ساعة كان هناك شيء يلمع عن بعد سيارة ؟ شاحنة ؟ هو ؟ تدفق قلبها وبدأ يضخ الدم مجدداً في عروقها السيلوفان . لم تجرؤ على ترك الابتسامة التي كانت تنمو في فمها تنتشر إلى وجهها . كما أنها لم تجرؤ على التوقف عن المشي بينما بدأت العربة تبدو لنظرها . أجل ، أيها الرب العزيز ، شاحنة . وهناك شخص واحد عند المقود ، يا يسوع . والآن أبطأت الشاحنة . التفتت كونسولاتا لتراقب الشاحنة تتوقف ولتتمتع بوجه الرجل الحي .

أطل من النافذة مبتسماً .

« أتريدين توصيلة ؟ » .

ركضت كونسولاتا عبر الطريق وانطلقت نحو باب السيارة . وما أن وصلت إلى هناك حتى فتح الباب . صعدت ، ولسبب ما ـ رغبة أنثوية في توبيخ أو قتل أربع وعشرين ساعة من اليأس ، ولتتظاهر ، على الأقل ، أن المعاناة التي سببها لها تتطلب اعتذاراً ، تفسيراً ليكسب غفرانها ـ فإن غريزة مثل تلك حفظتها ولم تترك يدها تنزلق إلى منفرج ساقيه كما أرادت تلك اليد .

كان صامتاً بالطبع . ولكنه لم يكن صمت رحلات ظهيرة الجمعة . عندها كان الصمت مفعماً بالوعد وسهلاً . صوتياً . هذا الصمت كان عقيماً ، بُكْمٌ مبطّن بالأسيد . ثم لاحظت الرائحة . لم تكن من النوع غير السار ، ليس إطلاقاً ، ولكنها ليست رائحته . تجمدت كونسولاتا . ثم ودون أن تتجرأ على النظر إلى وجهه ، نظرت جانبياً إلى قدميه . لم يكن يرتدي الحذاء الأسود العالي بل جزمة راعي البقر ، مما أقنعها أن شخصاً غريباً كان يجلس خلف المقود ، مرتدياً جسده ، ولكن ليس هو .

فكرت في الصراخ ، في أن ترمي نفسها إلى الطريق . كانت ستقاتله لو لمسها . لم تكن لديها فرصة تخيل خيارات أخرى ، لأنهما كانا يقتربان من الطريق الترابي المؤدي إلى «الدير» . كانت على وشك أن تفتح الباب ، حين كبح الغريب السيارة وأبطأها حتى توقفت . انحنى ولمس بذراعه نهديها ورفع مقبض الباب . نزلت بسرعة والتفتت لترى .

لمس حافة قبعته الستتسون مبتسماً : «في أي وقت» ، قال ، «في أي وقت كان» .

تراجعت ، محدقة إلى الوجه الذي هو نسخة دقيقة عن وجهه ، وأحست بالاشمئزاز من عينيه إنما أحست أسيرة لهما ، عينان طاهرتان وواسعتان بالحقد .

*

لم توقف هذه الحادثة لقاءات شجرتي التين فقد أتى في يوم الجمعة التالي مرتدياً الحذاء الصحيح ويفوح بالعطر الصحيح وقد تجادلا قليلاً .

«ما الذي فعله هو ؟» .

«لا شيء . لم يسألني حتى أين كنت ذاهبة . بل عاد بي فحسب» .

«حسناً فعل» .

«لماذا ؟» .

«لقد أدى لنا كلينا معروفاً» .

«لا ، لم يفعل . كان...» .

«ماذا ؟» .

«لا أعرف» .

«ما الذي قاله لك ؟» .

قال : «أتريدين توصيلة» ، ثم قال : «في أي وقت» . كأنما هو سيفعلها مجدداً . «أستطيع أن أقول إنه لم يحببني» .

«ربما لا . ولماذا عليه أن يحبك ؟ هل تريدين منه ذلك ؟ أن يحبك ؟» .

«لا . أوه ، لا ، ولكن» .

«ولكن ماذا ؟» .

جلست كونسولاتا منتصبة ونظرت بثبات نحو مؤخرة المنزل المحترق المهدم . هناك شيء ما بني وذو فراء كان يعدو داخلاً بقايا برميل مطر متفحم .

سألته : «هل حدثته عني ؟» .

«لم أقل له أي شيء عنك» .

«إذن كيف عرف أني كنت قادمة لأبحث عنك ؟» .

«ربما لم يفعل . ربما لم ظن أنه ليس عليك أن تدخلي البلدة على هذا النحو ؟» .

«إنه لم يدر بشاحنته . كان يقودها نحو الشمال . ولهذا حسبته أنت» .

يقول : «انظري» . يقعي على ركبتيه ويرمي بالحصى . «يجب أن تكون لدينا إشارة . لا أستطيع القدوم دائماً يوم الجمعة . فلنفكر بشيء ما ، حتى تعرفي» .

لم يخرجا بشيء يصلح للأمر . في النهاية قالت له إنها ستنتظر أيام الجمعة ، ولكن لساعة واحدة فقط . قال إن لم أصل في الوقت المحدد ، فلن آتي أبداً .

كان انتظام لقاءاتهما قبل ظهور توأمه قد جعل جوعها كالشفرة

المثلمة . والآن فإن اللاانتظام قد جعله حاداً كسكين . ورغم ذلك ، فقد حملها مرتين إلى المكان الذي كانت فيه شجرتا التين تصران على البقاء حيتين . لم تكن تعرف حينها ، ولكن المرة الثانية كانت الأخيرة .

إنها نهاية شهر تشرين الأول (أكتوبر) . يقوم هو ببناء جدار في جزء من المنزل المحترق المهدم بواسطة بطانية حصان ، ويتمددان على فراش عسكري قابل للفّ . السماء الشاحبة خلفهما مطوقة بعتمة قادمة ، لم يكونا ليستطيعا رؤيتها لو تطلعوا إليها . لذلك فإن الثلج الهاطل الذي يضيء شعرها ويبرد ظهره المبلل يدهشهما . لاحقاً يتحدثان عن وضعها . فالطقس والظروف تعيقهما ، يتحدثان على الأغلب حول «المكان» . يذكر بلدة تبعد تسعين ميلاً إلى الشمال ولكنه يصحح نفسه بسرعة ، لأنه لن يقبل بها أي موتيل أو فندق . تقترح «الدير» لأن أماكن الاختباء فيه كثيرة في كل مكان . يشخر معبراً عن رفضه .

تهمس : «اسمع . هناك غرفة صغيرة في القبو . لا . انتظر . اسمعني فحسب . سأرتبها ، وأجعلها جميلة . مع شموع . إنها باردة ومعتمة في الصيف ، ودافئة كالقهوة في الشتاء . سيكون لدينا مصباح لنرى واحدنا الآخر ، ولكن لن يستطيع أحد مشاهدتنا . نستطيع أن نصرخ بقدر ما نريد ولا أحد يستطيع سماعنا . هناك أجاص وجدران مليئة بالنبيذ . تنام القناني على جوانبها ، ولكل واحدة اسم ، مثل «فوف كليكو» أو «ميدوك» ، ورقم مثل (١٩١٥) أو (١٩٢٦) ، مثل السجناء الذين ينتظرون تحريرهم . فلنفعلها» ، تحثه ، «أرجوك . تعال إلى منزلي» .

بينما يفكر هو في الموضوع ، يسبقها ذهنها بالخطط . خطط لوضع حصى البان في أكياس الوسادة ، وأن تغمس شراشف الكتان في ماء حار شرب بالقرفة . سوف يرويان ظمأهما بالنبيذ السجين ، كما قالت له .

يضحك ضحكة خفيفة قانعة وتعض هي شفته وكان ذلك ، لدى الاستعادة ، غلطتها الكبرى .

فعلت كونسولاتا هذا كله وأكثر منه . كان غرفة القبو تلتمع في نور شمعدان بثماني شعب من هولندا وتفوح منه رائحة الأعشاب القديمة . كانت الأجاصات مزدحمة في وعاء أبيض . ولم تعجبه أي واحدة منها فهو لم يصل . لم يشعر أبداً بانزلاق الكتان القديم على بشرته ، ولا قطف رقاقات من قضبان القرفة من شعرها . أما قدحا النبيذ اللذين أنقذتهما من صناديق مليئة بالقش وصقلتهما حتى أصبحا لامعين إلى حد شاذ فقد جمّعا ذرات الغبار ، ثم في تشرين الثاني ، قبل يوم عيد الشكر ، دخل عنكبوت مجدّ إلى الداخل .

كانت بني وكلاريسا قد غسلتا شعرها وجلستا عند الموقد ، وراحتا تجففانه بأصابعهما . كانت الواحدة منهما تقوم بين الفينة والأخرى بهز ضفيرة سوداء لامعة منه قرب مصدر الحرارة . وبينما راحت تغنيان بصوت رقيق أغاني المهد المحظورة للألغونكوين [قبائل من الهنود الحمر] ، فقد راحتا تراقبان كونسولاتا كما فعلتا دائماً : أيام استثارتها وطاقتها المجنونة وتغيرها البطيء إلى السهو مع عض الأظافر . كانتا تحبانها لأنها كانت فتاة مسروقة ، كما هما ، وتشعران بالأسف عليها أيضاً . لقد اعتبرا سلوكها كتعليمات جدية حول مدى وإمكانية الحب والسجن ، وتعلما الدرس لأجل توازن حياتهما . والآن كان مستقبلهما الفوري يطالب بالأفضلية . حزمتا الحقائب ووضعتا الخطط ، وكانتا في حاجة إلى النقود فحسب .

«أين تضعين النقود ياكونسولاتا ؟ من فضلك يا كونسولاتا . الأربعاء سيأخذوننا إلى «الإصلاحية» . القليل من المال يا كونسولاتا . في حجرة

المؤونة ، أليس كذلك ؟ حسناً ، أين ؟ كان هناك دولار واحد وعشرون سنتاً من يوم الاثنين لوحده» .

تجاهلتهما كونسولاتا . «توقفا عن إزعاجي» .

«لقد ساعدناك يا كونسالاتا . والآن عليك مساعدتنا . ليس هذه سرقة : لقد عملنا بجد هنا . من فضلك ؟ تذكري كم عملنا بجد» .

كان صوتاهما يسحران ويريحان ، وكانتا تمرجحان شعرهما وتنظران إليها بعيون رائعة كما للعذارى في حالة الخطر .

لم يكن القرع على باب المطبخ عالياً ، ولكن ثقته كانت من النوع الذي لا يمكن أن يخطئ به المرء . ثلاث دقات . لا أكثر . توقفت الفتاتان عن الحركة وهي تمسكان بشعرهما . نهضت كونسولاتا من كرسيها كأنما استدعاها «الشريف» أو أحد الملائكة . وعلى نحو ما فقد كان الاستدعاء من كليهما ، في شكل امرأة شابة ، متعبة ، تتنفس بصعوبة ولكنها مستقيمة كالمدك .

قالت : «ياله من مشوار . أرجوكن . اسمحن لي بالجلوس» .

اختفت بني وكلاريسا كالدخان .

أخذت المرأة الشابة الكرسي الذي أخلته بني .

سألت كونسولاتا : «هل أستطيع إحضار شيء لك ؟» .

«هل لي بكأس ماء ؟» .

«ليس الشاي ؟ تبدين متجمدة» .

«نعم . ولكن الماء أولاً . ثم بعض الشاي» .

صبت كونسولاتا الماء من إبريق وانحنت لتفحص نار الموقد .

سألت الزائرة : «ما تلك الرائحة ؟ مريمية ؟» .

أومأت كونسولاتا بالإيجاب . غطت المرأة شفتيها بأصابعها .

«هل تزعجك ؟» .

«ستمر . شكراً» . شربت الماء ببطء حتى فرغت الكأس

عرفت كونسولاتا ، أو ظنت أنها عرفت ، ولكنها سألت على كل حال .

«ما الذي تريدينه ؟» .

كان صوتها لطيفاً وملتبساً . لا حكم لا توسل .

«لا أستطيع مساعدتك» .

«تستطيعين لو أردت» .

«ما نوع المساعدة التي تطلبين ؟» .

«لا أستطيع إنجاب هذا الطفل» .

اندلق ماء ساخن من فم الإبريق إلى الصحن . أنزلت كونسولاتا الإبريق ونشفت الماء بمنشفة . لم تكن قد رأت المرأة من قبل ـ فتاة في الواقع ، لم تكن تتجاوز العشرينات من عمرها ـ ولكن لم يكن هناك تشوش منذ لحظة دخولها حول من كانت . كانت رائحته تغطيها كلها ، أو رائحتها هي تغطيه كله . كانا قد عاشا معاً على نحو وثيق ولفترة طويلة بما فيه الكفاية ليستنشقا الفلوكس وصابون «كامي» والتبغ ، وليزفرا في صحوتهما . هذا وشيء آخر : رائحة الأطفال الصغار ، الشذا الجميل للزيت الحلو وبودرة الأطفال والطعام الخالي من اللحم . هذه أم هنا تتلفظ بأشياء فظة لاعلاقة لها بالأمومة اندفعت نحو كونسولاتا كلسان ذي شعبتين . تفادت اللسان ، لكن السمّ الذي خلفه صدمها بماعرفته ولكن لم تتخيّله : كانت تشاركه زوجته . والآن رأت الصور التي مثلت بالضبط ماتعنيه كلمة : «مشاركة» .

«لا أستطيع مساعدتك في هذا . ما خطبك ؟» .

«لقد أنجبت طفلين في سنتين . إذا أنجبت طفلاً آخر» .

«لم أتيت إلي ؟ لم تطلبين ذلك مني ؟» .

«لمن ألجأ إذن ؟» سألت المرأة بصوتها الواضح الواقعي .

انتشر السم . لقد خسرته كونسولاتا . بالكامل إلى الأبد . قد تعرف زوجته ذلك ، ولكن كونسولاتا تذكرت وجهه ، ليس حين عضت شفته ، ولكن حين همهمت ملتذة بالدم الذي لعقته منها . لقد تنفس بحدة . قال : «إياك أن تفعلي هذا مجدداً» . ولكن عينيه ، المذهولتين أولاً ، ثم المشمئزتين ، قالتا بقية ما كان عليها أن تعرفه على الفور . النفل والقرفة والكتان القديم الطري : من يخاطر بالأجاص والجوار من النبيذ السجين مع امرأة مصممة على أكله كوجبة طعام ؟

«هيا اخرجي من هنا . لم تأت إلى هنا لأجل ذلك . جئت لتقولي لي ، لتريني ، من أنت . وتعتقدين أني سأتوقف حين أعرف ما تنوين فعله . حسناً ، لن أفعل» .

«لا ، ولكنه سوف سيتوقف» .

«ما كنت ستأتين إلى هنا لو كنت تظنين ذلك . تريدين أن تري من أنا ، وإن كنت حاملاً أيضاً» .

«اسمعيني . لا يستطيع الفشل فيما يفعله . ولا واحد منا يستطيع ذلك . نحن نصنع شيئاً ما» .

«ما الذي يهمني من بلدتكم الصغيرة الرثة ؟ اخرجي من هنا . هيا . لديّ عمل أقوم به» .

هل عادت إلى بيتها مشياً على الأقدام ؟ أم كانت تلك كذبة أيضاً ؟ هل كانت سيارتها متوقفة في مكان ما في الجوار ؟ أم إن كانت قد مشت ، فلم يكن هناك من ينتظرها ليقلها بسيارة ؟ ألهذا فقدت الطفل ؟

كان اسمها سوآن ، وحين أصبحتا هي وكونسولاتا صديقتين حميمتين ، حكت لها سوآن أنها لم تظن ذلك . كان الشر الذي في قلبها هو

من سبَّب في ذلك . الوقاحة التي تقطر مع الاعتقاد بالتفوق الأخلاقي على الآخرين ، كما قالت . لقد ادعت التضحية بما لم تكن تنوي التضحية به مما علمها ألا تعبث بإرادة الرب . الحياة التي عرضتها كصفقة سقطت بين ساقيها في مستنقع من السوائل الحمراء والشراشف التي عصفت بها الريح . كانت صداقتهما وشيكة . في هذه الأثناء ، بعد أن غادرت المرأة ، رمت كونسولاتا بكيس قماشي من النقود المعدنية إلى بني وكلاريسا ، صارخة : «أغربا عن وجهي!» .

وبينما راح النور يتغير ووجبات الطعام تتغير أيضاً ، فإن الأيام القليلة التالية كانت حصاراً طويلاً من الأسى ، كانت خلالها كونسولاتا تنقب في فتات حبها الالتهامي . قصة الحب التي تم شدها حتى نقطة الانهيار قد انهارت ، كاشفة عن تحول بسيط غافل . من المسيح ، الذي يمنحه المرء الاستسلام الكامل ثم يبتلع فكرة لحمه ، إلى رجل حي . العار . العار دون لوم . زحفت كونسولاتا فعلياً إلى المصلى الصغير (متمنية بحماسة أن يكون [الرب] هناك ، وقد شع منه اللون الأحمر في العتمة) . قفلت عائدة ، كما تفعل النساء ، إلى ذراعين تفهمان أين الجسد ، مثل التشنج في عضلة ، ليس لديه ذكرى عن انكماشة . لم تظهر أي صلاة توسل . «لا يا سيدي لا تكن متعجرفا» [وردت باللاتينية] . ببساطة أحنت ركبتيها اللتين كانت سعيدة جداً في فتحهما وقالت : «أيها الرب العزيز ، لم أكن أرغب في أكله . بل أردت الذهاب إلى البيت» .

دخلت ماري ماغنا المصلى ، وإذ ركعت معها ، وضعت ذراعاً حول كتف كونسولاتا وقالت : «أخيراً» .

قالت كونسولاتا : «أنت لا تعرفين» .

«لا حاجة إلى ذلك يا طفلتي» .

«ولكن هو . ولكن هو» . شا شا شا ، شا شا شا ، أرادت أن تقول ، أن تعني أنه وأنا الشيء نفسه .

قالت ماري ماغنا : «ش ش ش ، ش ش ش . لا تتحدثي عنه أبداً من جديد» .

قد لا تكون قد وافقت بهذه السرعة ، ولكن حين قادتها ماري ماغنا إلى خارج المصلى إلى غرفة الصف ، فإن أشعة الشمس لفحت عينها اليمنى ، معلنة بداية بصرها الوطواطي ، وبدأت ترى على نحو أفضل في الظلام . لقد خوطبت كونسولاتا .

أنفقت ماري ماغنا نقودا ما كانت قادرة على تحمل خسارتها لتأخذ الجميع في رحلة إلى ميدلتون ، حيث اعترفت كل واحدة ، وخاصة كونسولاتا ، وحضرن القداس . ألحت كلاريسا وبني ، مثالان للتوبة ، ولكن دون نجاح ، على القيام بزيارة إلى المتحف الهندي والوسترن المعلن عنه على الطريق . قالت الأخت ماري إليزابث إنها طريقة غير حكيمة في إنفاق فترة ما بعد الاعتراف . كانت الرحلة الطويلة في طريق العودة صامتة باستثناء «حفيف» صفحات كتاب القداس والهمهمة بين الحين والآخر من آخر زبائن المدرسة .

سرعان ما كانت الأم الرئيسة والأخت روبرتا هما الوحيدتان المتبقيتان . فقد قبلت الأخت ماري إليزابث منصباً تعليمياً في إنديانا . أما بني وكلاريسا فقد أخذتا شرقاً ، وكما علم لاحقاً ، فقد هربتا من الباص في إحدى الليالي في فاييتفيل ، أركنسو . وباستثناء حوالة بريدية أرسلت إلى كونسولاتا وموقعة باسم عنوان لقصة ، لم يسمع منهما أبداً فيما بعد .

أنفقت النسوة الثلاث الشتاء في حالة انتظار ، ثم دون انتظار ، لبديل ما عن التقاعد أو «مأوى» . كان الاستقلال الذي صممت له الإرسالية قد بدأ

يبدو كأنه هجران . في هذه الأثناء اتخذن خطوات للحفاظ على الأملاك دون أن يترتب عليها دين لا تستطيع المؤسسة دفعه . وافق سارجنت بيرسون على أن يستأجر أرضاً منهن ليزرعها بالذرة والفصّة . كن يصنعن الصلصة والجيلي والخبز الأوربي ، ويبعن البيض والفلفل والبهار الحار وصلصة اللحم المشوي الحار ، وقد أعلن عنها على مربع من الكرتون غطى اسم المدرسة الأبيض الأزرق الذي بهت . كان معظم زبائنهن في عام (١٩٥٥) يقودون الشاحنات بين أركنسو وتكساس . نادراً ما كان سكان روبي يتوقفون لشراء أي شيء عدا الفلفل ، بما أنهم كانوا هم أنفسهم طباخين ممتازين وكانوا يصنعون أو يزرعون ما يريدونه . ولكن في الستينات ، حين ازدهرت الأحوال ، انضم هؤلاء إلى سائقي الشاحنات ونظروا إلى ما سموه الدجاج المربى في الدير على أنه متفوق على دجاجهم ويستحق الرحلة . ثم كانوا يجربون بعضاً من جيلي «خالابينيو» ، أو نكهة الذرة . كانت شجيرات زوج البيكان التي زرعت في الأربعينات قد أصبحت قوية في عام (١٩٦٠) . باع «الدير» الجوز ، وحين كانت الفطائر تصنع من الحصاد ، كانت تباع فوراً . كانوا يصنعون فطائر الراوند اللذيذة إلى حد أنها كانت تجعل الزبائن يهذرون ، كما حصلت صلصة اللحم المشوي على سمعة سماوية بناء على الفلفل الحار كالجحيم .

كانت حياة جيدة لكونسولاتا . وأفضل من جيدة ، فقد علمتها ماري ماغنا الصبر على أنه الأمر الأول في التجارة . بعد أن تم تثبيت عماد كونسولاتا ، كانت تأخذ كونسولاتا الشابة جانباً وتراقبان معاً القهوة وهي تغلي أو تجلسان في صمت عند حافة الحديقة . قالت إن لطف الرب لا يمكن أن يرى على نحو أفضل مما هو في نعمة الصبر . وهذا الدرس جعل كونسولاتا في حالة جيدة ، فلم تلاحظ إلا بالكاد الأمور التي كانت

تخسرها . كان أول شيء خسرته هو بقايا لغتها الأولى . بين الحين والآخر كانت تجد نفسها تتحدث وتفكر في مكان هو بين بين ، الوادي بين أنظمة اللغة الأولى ومفردات اللغة الثانية . والشيء التالي الذي بدأ يختفي كان الإحراج . أخيراً فقدت القدرة على تحمل الضوء . ومع وصول مايفيس ، كانت الأخت روبرتا قد رحلت إلى مأوى للعجزة ولم يكن في ذهن كونسولاتا شيء سوى الاهتمام بماري ماغنا .

ولكن قبل ذلك ، قبل أن تصل المرأة الشعثاء في الشبشب ذي السير الجلدي وتصرخ عند حافة الحديقة ، وقبل مرض ماري ماغنا ، وبينما كانت لا تزال في حالة من التقوى والعمى الخفيف ، وبعد عشر سنوات من ذلك الصيف الذي اختبأت فيه في أخدود خلف منزل مليء بأشخاص رماديين غير مضيافين ، فقد جُرَّت كونسولاتا بالحيلة إلى بعث الموتى .

كانت سنوات مكبوتة . كانت تهتم بالكفارة ولكنها لم تكن تستغرق وقتها كله . كان هناك وقت وتفكير في الأشياء اليومية . تعلمت كونسولاتا كيف تدبر أمر أي شيء وكل شيء لم يكن يتطلب الكتابة والقراءة : فقد أتقنت صنع صلصة اللحم المشوي التي جعلت سكان مناطق القطعان معجبين بها إلى حد الجنون . كانت تتشاجر مع الدجاج وتبتعد عن الأوز الكريه وتعتني بالحديقة . كانت هي والأخت روبرتا قد وافقتا على أن تحاولا مجدداً الحصول على بقرة وكانت كونسولاتا واقفة في الحديقة ، متسائلة أين ستبنى لها حظيرتها ، حين بدأ العرق ينهمر من عنقها وحد شعرها في فروة رأسها ، مثل المطر . لقد غبّش العرق إلى حد كبير النظارات الشمسية التي كانت ترتديها الآن . خلعت النظارات الشمسية عن عينيها . وعبر ذلك الماء المالح رأت ظلاً يتحرك باتجاهها . حين اقترب منها تحول إلى امرأة صغيرة الحجم . حاولت كونسولاتا ، التي غلبتها الدوخة ، أن تتمسك بعمود حقل

الفاصوليا، ولكنها فشلت وسقطت أرضاً . حين استيقظت وجدت نفسها تجلس في كرسي أحمر ، والمرأة صغيرة الحجم تهمهم وهي تمسح لها جبينها .

قالت : «تحدثي عن الحظ» ، وابتسمت حول حشوة من العلكة .

نظرت كونسولاتا نحو الدارة : «ما الذي يحدث لي ؟» .

«تغيير ، كما أتوقع . ها هي نظاراتك . لقد التوت على أي حال» .

كان اسمها لون دوبري ، كما قالت ، ولو لم تأت للحصول على بعض الفلفل ، فمن يعرف كم من الوقت كانت كونسولاتا سترقد بين الفاصولياء .

وجدت كونسولاتا نفسها ضعيفة جداً لا تقدر على الوقوف ، لذلك تركت رأسها يسقط على تاج الكرسي مجدداً وطلبت ماء .

قالت لون : «حسناً ، لقد سبق لك وشربت منه الكفاية . كم عمرك ؟» .

«تسعة وأربعون قريباً» .

«حسناً ، أنا فوق السبعين وأعرف الموضوع . افعلي كما أقول لك ، وسيكون تغيّرك أسهل وأقصر» .

«أنت لا تعرفين أن هذا هو ما تظنين» .

«أراهنك على ذلك . وهذا ليس العرق فحسب . أنت تشعرين بما هو أكثر منه ، أليس كذلك ؟» .

«مثل ماذا ؟» .

«لعرفت لو أنك أحسست به» .

«كيف يكون الشعور به ؟» .

«أنت قولي لي . بعض النساء لايستطعن احتماله . وأخريات يقلن إنه يذكرهن ، حسناً ، أنت تعرفين» .

قالت كونسولاتا : «حلقي جاف» .

بحثت لون في حقيبتها . «سأغلي لك شيئاً يساعدك» .

«لا . الأخوات . أعني لن يعجبهن ذلك . لن يدعنك تدخلين وتعبثين بالموقد» .

«أوه ، كل شيء سيكون على ما يرام» .

وقد كان ذلك صحيحاً . أعطت لون إلى كونسولاتا شراباً ساخناً مذاقه ملح صاف . وحين وصفت ما حصل لها لماري ماغنا وعلاج لون ، ضحكت قائلة : «كمعلمة أظن هذا «هراء» . وكامرأة أظن أن أي شيء يساعد هو شيء جيد . ولكن خذي الحذر» . خفضت ماري ماغنا صوتها : «أعتقد أنها تمارس [السحر] » .

لم تكن لون تزورهن كثيراً ، ولكن في كل مرة كانت تعطي كونسولاتا معلومات تقلقها . اشتكت كونسولاتا من أنها لا تؤمن بالسحر ، وأن الكنيسة وكل ما هو مقدس حظرت ادعاءاتها بالمعرفة وممارستها . لم تكن لون عدائية . قالت ببساطة : «أحياناً يحتاج الناس إلى المزيد» .

قالت كونسولاتا : «أبداً . في إيماني ، الإيمان هو كل ما أحتاج إليه» .

أنت في حاجة إلى كل ما نحن في حاجة إليه : الأرض والهواء والماء . لا تفصلي الرب عن عناصره . لقد خلق كل شيء . وأنت مصرة على فصله عن أعماله . لا تخلي بميزان عالمه» .

أصغت كونسولاتا بفتور . كان فضولها خفيفاً ، وعاداتها الدينية متجذرة . لم تكن سلامتها كامنة في سقوط مكنسة أو روث الذئب . لم تكن سعادتها لتزيد أو تنقص بمشاهدة حيوان أشوه . لم تتخيل أي حوار مع الماء . ولا هي صدقت أن الناس العاديين يستطيعون أو يجب أن

يتدخلوا في النتائج الطبيعية . كان الطريق من دمبي مستقيماً كالمنشار ، على أي حال ، وكان المراهق الذي يقود سيارة عليه لأول مرة سيعتقد أنه ليس قادراً فحسب على القيادة فيه معصوب العينين ولكنه أنه يستطيع القيادة فيه وهو نائم ، وهذا ما كان يفعله سكاوت مورغان ، وهو يسافر في أوائل إحدى الأماسي على الطريق الذي يمر بـ«الدير» . كان في الخامسة عشرة من عمره ، ويقود شاحنة والد أفضل أصدقائه (ولم تكن شيئاً يقارن بالسيارة «ديري» الصغيرة التي علمه عمه كيف يقودها) ، بينما كان أخوه إيستر ينام في صندوق الشاحنة وينام أفضل أصدقائه إلى جانبه . كانوا قد تسللوا إلى «ريدفورك» ليشاهدوا «الروديو الأسود» الذي حظر آباؤهم عليهم حضوره وقد شربوا من جعة «فولستاف» حتى النشوة . وخلال واحدة من سهوات سكاوت اللاإرادية وهو على المقود ، مالت الشاحنة عن الطريق وربما ما كانت ستسبب أي ضرر خطير إلا للأعمدة على جانب الطريق التي كانت مكدسة وجاهزة ما أن يفوض طاقم الطاقة الكهربائية بتركيبها . ضربت الشاحنة بالأعمدة وتشقلبت . رمى جولاي بيرسون وإيستر خارجاً . علق سكاوت في الداخل بينما كانت خطوط حمراء متعرجة تبرز بشرة صدغه السوداء .

أحست لون ، التي كانت جالسة إلى مائدة كونسولاتا ، ولم تسمع بالأحرى بالحادث : صرخات جولاي وإيستر ما كان يمكن لها أن تصل إلى تلك المسافة البعيدة . نهضت وقبضت على ذراع كونسولاتا :

«تعالي!» .

«إلى أين ؟» .

«إلى مكان قريب ، على ما أعتقد» .

حين وصلتا ، كان إيستر وجولاي قد سحبا سكاوت خارج كابين الشاحنة

وهما يصرخان فوق جسده الميت . التقتت لون إلى كونسولاتا وقالت : «أنا عجوز جداً الآن . لا أستطيع فعل ذلك الآن ، ولكنَ أنت تستطيعين» .

«أأرفعه ؟» .

«لا ، اذهبي في داخله . أيقظيه» .

«داخله ؟ كيف ؟» .

«ادخلي . اخطي إلى الداخل . ساعديه يا فتاة» .

نظرت كونسولاتا إلى الجسد ودون تردد خلعت نظارتيها وركزت على خيوط الدم التي تغيّر لون شعره . لقد خطت إلى الداخل . رأت امتداد الطريق الذي حلم به وأحست بانقلاب الشاحنة ، والصداع وضغط الصدر وعدم الرغبة في التنفس . وكأنما من مسافة سمعت إيستر وجولاي يرفسان الشاحنة ويئنان . داخل الفتى رأت نقطة صغيرة من النور تتراجع . حشدت الطاقة التي أحست بها كخوف ، وحدقت إليها حتى اتسعت . ثم المزيد والمزيد حتى يستطيع الهواء أن يأتي متسرباً في البداية ثم مندفعاً إلى الداخل . ورغم أنه آلمها كالشيطان أن تنظر إليه ، إلا أنها ركزت وكأن الرئتين المحتاجتين إلى الهواء كانتا رئتيها .

فتح سكاوت عينيه وأنّ وجلس . قالت المرأتان للولدين اللذين لم يتأذيا أن يحملاه إلى «الدير» . ترددا ، وتبادلا النظرات . صرخت لون : «ما حكايتكما بحق الجحيم ؟» .

كانا كلاهما قد شعرا براحة عميقة لاسترداد سكاوت لوعيه ، ولكن كلا يا سيدتي ، يا آنسة دوبري ، كما قالا ، علينا العودة إلى البيت . قال إيستر : «لنر إن كانت الشاحنة لا تزال تعمل» . عدّلا الشاحنة ووجداها صالحة بما فيه الكفاية ليقوداها . ذهبت لون معهم ، تاركة كونسولاتا نصف منتعشة ونصف خجولة مما فعلته . لقد مارست السحر .

مرت أسابيع قبل أن تعود لون لتهدئ من روعها حول استرداد الصبي لعافيته .

« أنت موهوبة . عرفت ذلك منذ البداية » .

قلبت كونسولاتا شفتيها إلى الأسفل ورسمت إشارة الصليب على نفسها وهي تهمس : « آفيه ماريا ، حمداً كثيراً » . كان الانتعاش قد تلاشى الآن ، وبدا الأمر كريهاً بالنسبة لها . مثل أعمال الشيطان . مثل السحر الشرير . شيء سيخزيها أن تحكيه لماري ماغنا أو يسوع أو العذراء . لم تكن تعرف ما كانت تفعله . كانت واقعة تحت تأثير السحر . سحر لون . وقالت لها ذلك .

« لا تكوني حمقاء . الرب لا يرتكب الأخطاء . احتقار عطيته الآن خطأ . أنت تدعينه بالأحمق ، مثلك ؟ » .

« لا أفهم أي شيء تقولينه » . قالت لها كونسولاتا .

« بل تفهمين . دعي عقلك ينمو واستخدمي ما وهبك الله إياه » .

« أعتقد أنه يريد مني تجاهله » .

قالت لون : « عنيدة » . رفعت حقيبتها ومشت إلى المدخل لتنتظر في الشمس السيارة التي ستقلّها .

ثم جاءت سوآن قائلة : « حكت لون دوبري ما فعلته . جئت لأشكرك من كل قلبي » .

بدت لكونسولاتا كما كانت في السابق باستثناء أن شعر عام (١٩٥٤) الطويل ، اللزج من الحزن ، كان مقصوصاً الآن . كانت تحمل سلة ووضعتها على المائدة . « ستكونين في صلواتي إلى الأبد » .

رفعت كونسولاتا الفوطة . كان فيها حلويات سكرية مدورة موضوعة في ورق مشمع . « ستحب الأم الرئيسة هذه مع الشاي » ، قالت . ثم وهي تنظر إلى سوآن : « وهي جيدة مع القهوة أيضاً » .

«أود فنجاناً منها الآن . أكثر من أي شيء آخر» .

وضعت كونسولاتا الحلويات على طبق . «تعتقد لون...» .

«لا يهمني ذلك . لقد أعدته إليّ» .

زعق ذكر إوز في الباحة ، مبعثراً الأوزات أمامه .

«لم أكن أعرف أنه ابنك» .

«أعرف ذلك» .

«وكان الأمر شيئاً لم أستطع مغالبة فعله . أعني كان الأمر خارج يدي ، لو أردت الحقيقة» .

«أعرف ذلك أيضاً» .

«ما رأيه هو» .

«يعتقد أنه أنقذ نفسه» .

«ربما هو على حق» .

«ربما» .

«ما رأيك ؟» .

«رأيي أنه كان محظوظاً في أن تكون كلتانا لديه» .

نفضت كونسولاتا الفتات من السلة وطوت الفوطة بترتيب في داخلها . وقد ظلت هذه السلة موضع تبادل بينهما لسنوات .

*

كانت «الخطوة» دون فائدة إلا مع ماري ماغنا . لم يكن هناك طلب عليها . والنور الذي لم تكن كونسولاتا تستطيع تحمله يقترب من عينيها ، كانت تتحمله لأجل «الأم المقدسة» حين مرضت هذه . في البداية جربت الأمر مدفوعة بضعف الحب الشديد الذي تحول إلى فزع ـ لم يبد أن هناك

شيئاً قد يفرّج عن المرأة المريضة ـ عندها ، وقد أغضبها العجز ، اتخذت وضعية السلطة . «الخطو» لإيجاد نقطة النور الصغيرة . كانت تتعامل معها ، توسعها وتقويها . كانت تحييها وحتى ترفعها بين الحين والآخر . وكانت «الخطوات» كثيفة جداً حتى أن ماري ماغنا كانت تتوهج كمصباح حتى آخر نفس لها بين ذراعي كونسولاتا . لذلك مارست السحر ، ورغم أن ذلك كان لفائدة المرأة التي أحبت ، إلا أنها عرفت أن ذلك كان لعنة ، وأن ماري ماغنا كانت ستتراجع في اشمئزاز وغضب لو عرفت أن حياتها تطول بالشر . إن نعمة ذلك الدخول الأخير كانت تؤجل عن عمد من قبل شخص كان عليه أن يعرف على نحو أفضل . لذلك لم تقل لها كونسولاتا أبداً . ومع ذلك ، ومهما كانت موهبتها مثيرة للاشمئزاز ، إلا أنها لم تتبخر . ورغم أنه كان مثيراً للقلق ، إخضاع خطيئة الغرور إلى السحر ، إلا أنها تصالحت مع الأمر . بحيث أقنعت نفسها بأنها لن تغضب الرب أو تضع روحها موضع الخطر . كانت المسألة مسألة لغة . سمتها لون «الخطوة» . وأسمتها كونسولاتا «البصيرة» . لذلك كانت الموهبة «بصيرة في الداخل» . شيء جعله الرب متاحاً لأي شخص أراد تطويره . كانت أمراً مراوغاً ولكنها سوت الخلاف بين نفسها وبين لون وجعلت ممكناً لها قبول علاجات لون لكل أنواع الأمراض والتجريب على أخرى بينما كانت «البصيرة في الداخل» تتوهج مبتعدة . وكلما أصبح العالم المرئي أقتم ، كلما أصبحت «البصيرة في الداخل» أكثر إبهاراً .

حين ماتت ماري ماغنا ، كانت كونسولاتا في الرابعة والخمسين ، قد أصبحت يتيمة على نحو ما ، ليس كطفلة شوارع ولم تكن خادمة أبداً . كان هناك سبب في أن الكنيسة حذرت من الحب البشري المفرط ، وحين غادرتها ماري ماغنا ، قبلت كونسولاتا تعاطف صديقتيها ،

المساعدة والهمهمة الداعمة من مايفيس ، والجهود لرفع معنوياتها من قبل غريس ، ولكن حبلها الذي يوصلها مع العالم كان قد انزلق من بين أصابعها . لم يكن لديها هوية شخصية ولا تأمين ولا أسرة ولا عمل . كانت تواجه الانقراض ، منتظرة أن تطرد [من «الدير»] ، محترسة من الرب ، فأحست أنها لفة ورق ـ لاشيء مكتوب عليها ـ مرمية في زاوية حجرة فارغة . لقد وعدن بالاهتمام بها على نحو دائم ولكن لم يقلن لها إن على نحو دائم لم تكن بكل الطرق ولا إلى الأبد . ساعدها النبيذ السجين حتى لم يعد كذلك ووجدت نفسها ، مليئة بشر المدمن على الشراب ، متمنية لو كانت لديها القوة لإخراج الحياة بالقوة من هؤلاء النسوة اللواتي كن يحتللن الدارة . «الرب لا يرتكب أخطاء» هذا ما صرخت لون في وجهها . ربما لا يرتكبها ، ولكنه كان أحياناً مفرط الكرم . مثلاً في منحه مواهب شيطانية لامرأة سكيرة جاهلة مفلسة تعيش في العتمة غير قادرة على النهوض من السرير لتفعل شيئاً مفيداً أو الموت عليه وتخليص العالم من رائحتها الكريهة . لقد شاب شعرها وتلاشى من عينيها ما تصلح له العينان ، فراحت تتخيل كيف هو مظهرها . لم تكن عيناها الخاليتان من اللون تريان أي شيء بوضوح سوى ما يجري في أذهان الآخرين . وهذا هو بالضبط ضد ذلك الموسم الأعمى حين كانت تمارس نزوتها في التراب مع الرجل الحي وتظن أنها كانت ترى للمرة الأولى لأنها كانت تنظر بشدة . ولكنها خوطبت ، ولعنت نصف لعنة وبوركت نصف مباركة . لقد أحرق هو الأخضر واستبدله بصيرة نقية كانت ستلعنها لو استخدمتها .

*

قاطعت خطوات ثم طرق على الباب أفكارها الحزينة التي لا منفذ لها .
فتحت الفتاة الباب .
« كوني ؟ » .
« من غيرها ؟ » .
« هذه أنا ، بالاس . لقد هاتفت والدي مجدداً . إذن أنت تعرفين . سيلاقيني في تولسا . جئت أودعك » .
« أجل » .
« كان الأمر عظيماً . لقد كنت في حاجة إلى هذا . حسناً ، لقد مرّ أبد كامل منذ أن شاهدته لآخر مرة » .
« ألهذا الحد ؟ » .
« هل تستطيعين تصديقه ؟ » .
« من الصعب ذلك . لقد سمنت » .
« نعم ، أعرف ذلك » .
« ما الذي ستفعلينه حيال ذلك ؟ » .
« ما أفعله دائماً . الحمية » .
« لا أعني ذلك . أعني الطفل . أنت حامل » .
« لست حاملاً » .
« لا ؟ » .
« لا! » .
« لم لا ؟ » .
« أنا في السادسة عشرة فحسب! » .
« أوه » ، قالت كونسولاتا ، وهي تتطلع إلى رأس قمر يعوم فوق عمود فقري ، والأطراف الأربعة الصغيرة : مخالب أو أيدي أو أظلاف أو أقدام .

كان من الصعب معرفة ذلك في تلك الرحلة . ربما تكون بالاس حاملة حَمَلاً أو طفلاً أو نمراً . قالت بينما بالاس تهرب من الغرفة : « يا للأسى » . ويا للأسى مرة أخرى وهي تتخيل الحياة المحتملة للطفل مع أمه الشابة الحمقاء . تذكرت فتاة أخرى ، لها العمر نفسه ، وكانت قد وصلت قبل سنوات قليلة ، في وقت سيئ جداً . كانت كونسولاتا في الداخل لمدة سبعة عشر يوماً ، وحيدة ، مبقية أنفاس ماري ماغنا تروح وتجيء ، والنور البارد الأزرق يرتعش حتى طلبت ماري ماغنا الإذن بالرحيل ، محرومة على أي حال من نعمة السر المقدس . كانت الفتاة الثانية ، غريس ، قد وصلت في الوقت الملائم لتبعد الوحدة المخيفة التي حلت مع لحظة نقل الجثمان ، تاركة كونسولاتا نائمة . كانت مايفيس قد عادت للتو حاملة « ماء الورد » ومضادات ألم محظورة قانونياً . رحبت كونسولاتا بالرفقة التي سلتها عن أفكار رثاء النفس المتعلقة بالطرد والتجويع والموت دون ندم . دون وثائق رسمية أو راعية أضحت مكشوفة ودون حصانة كما كانت وهي في التاسعة حين تشبثت بيد ماري ماغنا على درابزون سفينة « أتيناس » . ومهما كانت المساعدة التي قد تعرضها عليها لون دوبري أو سوآن ، فإنها لن تشمل المأوى . ليس في تلك البلدة .

ثم وصلت الفتاة من روبي . فنجان من الدموع وراء عينيها مباشرة . وشيء ما آخر . لم تكن قلقة ، كما كان متوقعاً ، ولكنها مشمئزة من حركة رحمها . كان الاشمئزاز شديداً جداً إلى حد أنه قطع العقل عن الجسد ورأت لحمها المنتج للحم على أنه غريب ، متمرد ، غير طبيعي ومريض . لم تستطع كونسولاتا أن تفهم سبب الاشمئزاز ، ولكنه كان موجوداً . وهاهو يتحدد ثانية في صرخة « لا! » من واحدة أخرى : رعب دون مزج . ومع أول واحدة فعلت كونسولاتا ما تعرف أن ماري ماغنا

كانت ستفعله : هدأت من روع الفتاة ونصحتها بالانتظار حتى يحين أوانها . قالت لها إنه موضع ترحيب لتلد جنينها هناك لو أرادت ذلك . كانت مايفيس مرحة وغريس مسرورة . قبضتا إيجار الحقل ومضتا بالسيارة للتبضع لأجل الوليد المتوقع ، وعادتا بحذاء صغير وحفاضات ودمى تكفي لمدرسة حضانة أطفال كاملة . والفتاة التي رفضت بحدة أن تحضر القابلة ولادتها ، انتظرت بهدوء وكآبة لمدة أسبوع أو نحوه . أو هكذا ظنت كونسولاتا . كان ما لم تعرفه حتى بدأ المخاض هو أن الأم الشابة كانت تضرب بطنها دون توقف . لو كان بصر كونسولاتا أفضل ولو أن بشرة الفتاة لم تكن سوداء مثل ليل عاشق المحيط ، لرأت الرضوض فوراً . وكما حدث ، رأت أوراماً ومساحات واسعة ظهرت فيها البشرة بنفسجية تحت البشرة ، وليس كالفضة . ولكن الضرر الحقيقي كان قبضة الممسحة التي أقحمت بمهارة محترف للاغتصاب ـ دون رحمة وبتكرار ـ بين ساقيها . وبحيوية وتصميم الذكر المسحور ، حاولت أن تسحق الحياة من حياتها . وبطريقة ما ، كانت ناجحة بانتصار . لقد تمرد الطفل ذو الأشهر الخمسة أو الستة . لقد حاول غاضباً وخائفاً أن يهرب من الضرب ومن السفينة المحطمة التي كانت تحمله ، والضرب على جمجمته الصغيرة والجلد الذي أصيبت به مؤخرته . الرجفات في عموده الفقري . عدا ذلك لم يكن هناك أمل لو لم يحاول إنقاذ نفسه فسوف يتحطم أو يغرق في طعام أمه . لذلك ولد ، قبل أوانه وكان متعباً من الهروب ، ولكنه كان يتنفس . نوعاً ما . استلمت مايفيس الأمر . ذهبت غريس إلى الفراش . نظفت كونسولاتا ومايفيس معاً عينيه وحشرتا أصابعهما في حلقه حتى تنظفانه للمزيد من الهواء ، وحاولتا إطعامه . وقد كان ذلك فعالاً لأيام قليلة ، ثم أسلم نفسه لرفقة ميرل وبيرل . في ذلك الحين كانت الأم قد رحلت دون

أن تلمس الطفل أو تنظر إليه أو تستفسر عنه أو تسميه . سمته غريس «تشي» ولم تعرف كونسولاتا حتى هذا اليوم أين دفن . همهمت بصلاة : «يا حمل الرب» باللاتينية فوق الباوندات الثلاثة من الحياة الشجاعة إنما المهزومة قبل أن تحمل مايفيس الطفل بعيداً وهي تبتسم وتهدل .

فكرت كونسولاتا إن هذا حسن . فالحياة مع تلك الأم ستكون جحيماً لتشي . والآن هاهو واحد آخر يصرخ أن «لا»! وكأنها ستفيده . يا للأسى .

مدّت كونسولاتا يدها إلى زجاجة فوجدتها فارغة . تنهدت وعادت لتجلس في الكرسي . دون نبيذ كانت أفكارها ، كما تعرف ، غير ممكن احتمالها : يومض الاستسلام والإشفاق على الذات ، والغضب الأخرس والاشمئزاز والعار مثل الحجر في نار ميتة . وحين نهضت لتعيد تغذية خطيئتها ، فإن إرهاقاً كبيراً قد ألم بها مما جعلها تعود إلى الكرسي ، واضعة ذقنها على صدرها . نامت لتستيقظ صاحية من السكر . استيقظت بصداع وبطعم رملي في فمها وقد أحست بحاجة سريعة لدخول المرحاض . في الطابق الثاني ، استطاعت أن تسمع شهقات خلف باب ، وغناء خلف آخر . حين عادت ونزلت الدرج ، قررت أن تشم بعض الهواء وانتقلت إلى المطبخ وخارج الباب . كانت الشمس قد غربت تاركة نوراً أكثر ملاءمة . مسحت كونسولاتا بعينيها الحديقة التي ابتلاها الشتاء . كانت عروق البندورة معلقة بإنهاك فوق الثمار المتساقطة ، سوداء وممعوسة في الطين . كان الخردل أصفر شاحباً مع عفونة ودون رعاية . كان صف كامل من البطيخ قد انهار على نفسه قرب رؤوس من الأقحوان التي أصبحت بنية بلون الطين . كانت بضع ريشات دجاج ملتصقة على الحاجز السلكي المنخفض الذي يحمي الحديقة من أي شيء يستطيعه . دون مساعدة بشرية فإن هناك الكثير من جحور السنجاب وقلاع النمل الأبيض ودلائل

على غزوات الأرانب والغربان المصممة . بدت أخاديد الذرة في الحقول المحصودة جيداً في البعيد مهجورة . أما شجيرات الفلفل ، التي كانت تستند إلى الأصابع المجعدة للمحصول ، قد تصلبت من البرد . ورغم حبوب التربة التي كانت تهب على ساقيها ، فإن كونسولاتا جلست في الكرسي الأحمر الباهت .

همست «لا تكن متعجرفا» [باللاتينية] . ولكن قل لي . أين بقية الأيام ، وممر الزعتر ورائحة زهرة الحواشي التي وعدت بها ؟ أين القشدة والعسل اللذين قلت إني استحققتهما ؟ والسعادة التي تأتي من العمل اليومي متقن الصنع والهدوء الذي يمنحه لنا الواجب ، وبركات العمل الطيب ؟ هل كان ما فعلته لأجل حبك رهيباً إلى هذا الحد ؟» .

لم يكن لدى ماري ماغنا ما تقول . أصغت كونسولاتا إلى الصمت الرافض ، متسائلة أكثر مما هي منزعجة من السماء ، التي أصبحت ذات ريش الآن ، ريش ذهبي وأخضر أزرق ، متباهية مثل الحب المكافأ على الأفق . كانت تخشى من الموت وحيدة ، دون أن يحزن عليها أحد في أرض غير مقدسة ، ولكنها عرفت أن هذا بالضبط ما كان سيحدث لها . كم كانت تتوق إلى موت جيد . قالت له [للرب] : «سأفتقدك . فعلاً» . خفق نور السماء .

*

اقترب رجل . طوله متوسط وخطوته خفيفة . وصل عن طريق الممر مباشرة . كان يرتدي قبعة راعي بقر أخفت ملامحه ، ولكن كونسولاتا لم تكن قادرة على رؤيتها على أي حال . وحيث جلس على درج المطبخ وقد أطره الباب ، كان مثلث من الظل يحجب وجهه ولكن ليس ملابسه : صدرة

خضراء فوق قميص أبيض وحمالات بنطال حمراء معلقة على مستوى منخفض على بنطاله الأصفر مع حذاء عمل أسود لامع .

«من هذا ؟» سألت .

«هيا يا فتاة . أنت تعرفينني» . انحنى نحو الأمام ورأت أنه يرتدي نظارات شمسية : من النوع ذي المرآة الذي يلمع .

قالت : «لا . لا أستطيع أن أقول ذلك» .

«حسناً ، ليس هاماً . أسافر إلى هنا» . كان بينهما عشرة ياردات ، ولكن كلماته لعقت وجنتها .

«أنت من البلدة ؟» .

«هاهه . أنا من بلد بعيد . هل لديك شيء للشرب ؟» .

«سأبحث لك في المنزل» . كانت كونسولاتا قد بدأت تنزلق نحو لغته مثل العسل الذي ينزّ من قرص شهد .

«أوه ، حسناً» ، قال ، وكأنه قد وجد حلاً وفضل أن يبقى ظمآن .

قالت كونسولاتا : «اصرخ فحسب . يمكن للفتيات أن يحضرن ذلك شيئاً ما» . أحس بالخفة ، أنها بلا وزن ، وكأنها تستطيع أن تتحرك ، لو أرادت ذلك ، دون الوقوف .

«ألا تعرفينني أفضل من ذلك ؟» سأل الرجل . «لا أريد رؤية فتياتك . أريد أن أراك أنت» .

ضحكت كونسولاتا . «لديك نظارات مثلي تماماً» .

وفجأة كان قريباً منها دون أن يكون قد تحرك : مبتسماً وكأنه كان يستمتع بوقته (أو يتوقع ذلك) . ضحكت كونسولاتا مجدداً . بدأت كونسولاتا بالضحك مجدداً . بدت مضحكة جداً ، بل كوميدية بالفعل ، الطريقة التي انتقل فيها نحوها من الدرج وكيف كان يتطلع إليها : متغزلاً ،

مليئاً بالمرح السري . لم يكن أبعد من ستة بوصات عن وجهها ، حين رفع قبعته العالية . هبط شعر نضر بلون الشاي كالشلال على كتفيه وحتى ظهره . رفع نظارتيه عندئذ وغمز ، حركة بطيئة مغوية لهدب العين . كانتا عيناه مستديرتين وخضراوين كالتفاح الجديد .

*

في نور الشمعة في مساء يوم بارد من كانون الثاني (يناير) ، راحت كونسولاتا تنظف وتغسل مجدداً دجاجتين مذبحوتين حديثاً . إنهما دجاجتان صغيرتان بطبقات ضعيفة من الريش الصغير الصعب نتفه . القلبان والعنقان والحوصلتان والكبدان تتقلب ببطء في ماء يغلي . ترفع الجلد لتصل إلى ما تحته ، محاولة الوصول بأصابعها إلى أبعد حد تستطيعه . تحت الصدر تبحث عن جيب قريب من الجناح . ثم وإذ تمسك بالصدر في كفها الأيمن ، فإن أصابع يدها اليمنى تحفر نفقاً في الجلد الخلفي ، وتدفع بلطف نحو العمود الفقري . في كل هذه الأماكن ـ حيث أصبح الجلد مهلهلاً والغشاء منفصلاً عن اللحم الذي حماه مرة : هناك تضع الزبدة . زبدة سميكة باهتة اللون . زلقة .

*

مسحت بالاس عينيها بمؤخر يدها ثم تمخطت . «والآن ماذا ؟» .

المحادثة الهاتفية الأخيرة التي ذكرتها لـ« كوني » لم تكن مختلفة جداً عن الأولى . بل أقصر فحسب . ولكنها سببت لها الإحباط نفسه الذي سببه لها آخر حوار لها مع أبيها في الصيف الأخير .

«يا يسوع المسيح! أين كنت بحق الجحيم ؟ ظنناك مت . شكراً

للرب . لقد وجدوا السيارة ولكنها محطمة تماماً من جهة وقام شخص ما بسلب محتوياتها ـ أنت في حالة جيدة . أوه يا طفلتي . (بابا) . أين هو ؟ قول ما حدث . أمك المومس لا أحد يفهم ما تقول كالعادة . هل آذاك ؟ (بابا ، لا) . حسناً ، ماذا ؟ هل كان لوحده ؟ نحن نقاضي المدرسة يا طفلتي . نحن نمسكهم من مواجعهم . (لم يكن هو . طاردني بعض الفتيان) . ماذا ؟ (بشاحنتهم . وقد أصابوا سيارتي وأجبروني على الخروج عن الطريق . ركضت ثم) . هل اغتصبوك ؟ (بابا!) تماسكي يا حبيبتي . جوآن نادي على ذلك التحري . قولي له إني وصلت إلى بالاس . لا ، إنها بخير ، نادي عليه ، هل لك أن تفعلي ؟ هيا طفلتي . (أنا...) أين أنت ؟ (هل تأتي لتصطحبني يا أبي ؟) طبعاً سأفعل ذلك . فوراً . هل أنت في حاجة إلى نقود ؟ هل تستطيعين الوصول إلى مطار ، محطة قطار ؟ فقط قولي أين ستكونين . انتظري . ربما عليك أن تتصلي بالشرطة . الشرطة المحلية أعني . يستطيعون إيصالك إلى مطار . اطلبي منهم أن يخابروني . لا . اهتفي لي من المحطة . أين أنت ؟ بالاس ؟ من أين تهتفين ؟ بالاس ، أأنت هناك ؟ (مينيسوتا) . مينيسوتا ؟ يا يسوع ظننتك في نيومكسيكو . ماذا هناك بحق الجحيم ؟ بلومينغتون ؟ لا . سانت بول ؟ هل أنت قرب سانت بول ياحبيبتي ؟ (لست قرب أي شيء يا بابا . هذا أشبه بالريف .) اهتفي للشرطة يابالاس . اجعليهم يحضروا ليأخذوك ، أتسمعين ؟ (حسناً يا بابا) . ثم اهتفي لي من المخفر . (حسناً) هل فهمت ؟ لست متأذية أو ما شابه ؟ (لا يا بابا) . جيد . حسناً الآن . سأكون هنا أو ستكون جوآن إذا خرجت . يا لهول ما جعلتني أعانيه . ولكن كل شيء سيكون على ما يرام الآن . سنتحدث حول ذلك الحقير حين تعودين . حسناً الآن ؟ اهتفي لي . علينا أن نتحدث . أحبك يا ابنتي » .

حديث . أكيد . لم تهتف بالاس لأحد : لا الشرطة ولا دي دي ولا هو : حتى شهر آب (أغسطس) . كان غاضباً ولكنه حول لها برقياً مصاريف السفر على أي حال .

لو ضحكوا من وراء ظهرها أمام كارلوس ، لو حكوا النكات على حسابها عندئذ ، فقد كان الأمر بالنسبة لها كإحساس باهت : إيماءة مكسورة لدى دخول قاعة الدرس ، عين تنزلق وهي تلتفت بعيداً عن خزانتها ، ابتسامة غير ثابتة وهي تنضم إلى مائدة الغداء المزدحمة . لم تكن هي ذات شعبية عن حق ، ولكن عنوانها وأموال أبيها كانتا تخفيان الحقيقة . والآن كانت نكتة مفتوحة (بالاس ترولوف هربت مع البواب ، ألا تحب ذلك ؟) لا يحاول أحد أن يخفيها . لقد عادت إلى ذلك المكان حيث تشن الحروب النهائية ، حيث الخنادق المنظمة للمدرسة الثانوية ، وحيث العار هو زمن نقل الأطباق المطلوب لعبور القاعة ، والفشل في العبث بالقفل ذي تركيبة الأرقام السرية والكره هو غشاء الواقي الذكري الذي يسد حنفية الماء . حيث لا يوجد بعيداً عن تبادل الملابس والدمى أي نوايا طيبة . حيث يسود الإعجاب بالنفس وتكون الأحكام فورية وعمليات الطرد دائمة . وليس لدى الراشدين مفتاح . يمكن للسجن فحسب أن يكون صاخباً ومخيفاً ، فبموجب أحكامه وطقوسه كانت ترتسم حياة من العنف الناخر ، أولئك الذين يأتون من بيوت جيدة التنظيم يباغتون بقسوة ما أن يدخلوا من البوابات . القسوة المزينة بالمرح الشاب .

حاولت بالاس . ولكن الإذلال أنهكها . انتزع منها ميلتون معلومات حول أمها . كان قد جرى تحذيره حول نتائج الزواج من خارج أناسه ، وكل تحذيرقد تحقق : كانت دي دي لا مسؤولة ولا أخلاقية ، مومساً لو أردنا قول الحقيقة . كانت بالاس غامضة ، ملتبسة في أجوبتها . كان لا يزال يتابع

دعوى قضائية ضد المدرسة لبيئتها المهملة والخطرة ، ناهيك عن مستخدميها ذوي النزعة الإجرامية . ولكن ضحية «الخطف» قد ذهبت بإرادتها ، ومكان الوصول للرحلة «عبر حدود الولايات» كان منزل أم «الضحية» . إلى أي حد يمكن لهذا أن يكون إجرامياً ؟ هل كان هناك شيء ما جار في منزل الأب عليهم أن يعرفوه ؟ شيء جعل الابنة تريد وتتوق الهروب إلى أمها ؟ وعلاوة على ذلك ، لم يحدث أي شيء غير ملائم في حرم المدرسة ـ باستثناء إصلاح سيارة «الضحية» والتوجيه الآمن إلى المنزل . كما أن «الخطف» حصل خلال العطلة والمدرسة مغلقة أبوابها . وعلاوة على ذلك فإن «الضحية» لم تذهب بإرادتها فحسب ، بل تعاونت ومارست الخداع لترافق طوعاً رجلاً (فناناً حتى) ليست لديه أي سوابق وكان سلوكه وعمله في المدرسة الثانوية مثالياً . واعتدى عليها جنسياً ؟ قالت «الضحية» لا ، لا ، لا ، لا . هل خدرها ؟ هل أعطاها شيئاً محظوراً بموجب القانون لتدخنه ؟ هزت بالاس رأسها بأن لا ، متذكرة أن أمها هي من فعل ذلك . من كان أولئك الأشخاص الذين صدموا سيارتك ؟ لا أعرف . لم أر وجوههم أبداً . خرجت من هناك . إلى أين ؟ طلبت ركوب سيارة مجاناً وأقلني بعض الناس بسيارتهم . من ؟ أشخاص . في مكان كالكنيسة . في مينيسوتا ؟ لا ، أوكلاهوما . ما هو العنوان ، رقم الهاتف ؟ بابا ، تخلّ عن الأمر . لقد عدت إلى البيت ، حسناً ؟ أجل ولكني لا أريد أن أشعر بالقلق عليك . لا تفعلي . لا تفعلي .

لم تشعر بالاس أنها في حالة جيدة . كان كل ما تأكله يضيف باونداً إلى وزنها رغم حقيقة أنها كانت تتقيأ معظمه ، لقد أمضت يوم عيد الشكر لوحدها ، مع طعام دبرته العناية الإلهية . في عيد الميلاد طلبت الإفراج راجية . قال ميلتون : لا . تبقين هنا . شيكاغو فحسب قالت ، لزيارة أخته . وافق أخيراً وقامت سكرتيرته التنفيذية بالإجراءات . بقيت بالاس مع خالتها

حتى الثلاثين من كانون الأول (ديسمبر) حين انطلقت تاركة رسالة قصيرة مضللة مطمئنة . في مطار تولسا ، استغرق منها الأمر ساعتين ونصف ساعة لاستنجار سيارة وسائق يأخذها إلى «الدير» . مجرد زيارة ، قالت . لترى كيف كان الجميع ، كما قالت . ومن تستطيع خداع عدا نفسها . لا أحد على ما يبدو . ألقت «كوني» نظرة خاطفة للحظة . والآن ماذا ؟

*

أزاحت كونسولاتا الدجاجة وحدقت في التجاويف الفضية والزهرية . تضع الملح وتقلبها ، ثم تفرك الجلد الخارجي بالقرفة ومزيج الزبدة . يضاف البصل إلى قطع من لحم العنق والقلوب والقوانص التي تبقع المرق . ما أن تقلي الدجاجتين ليصبح لونهما بنياً بما فيه الكفاية ، تضعهما جانباً حتى تستطيع استرجاع سوائلهما .

*

كان ماء حوض الاستحمام الفاتر والضحل قد وصل إلى خصرها . أحبته جيجي عميقاً ، حاراً ، ثقيلاً وذا فقاقيع . كانت أنابيب المياه في الدارة محطمة : فهي تعطي ماء ملوناً وله جيشان وأحياناً لا يصل إلى الطابق الثاني . كان ماء البئر يصل عبر مرجل يعمل على الحطب ما كان أحد سواها مهتماً في المحافظة عليه . كانت شخصاً مزعجاً بطبيعتها ، فحاولت جمع غالونات من ماء الأنابيب الساخن من نظام بالٍ كان أسوأ في الشتاء من أي فصل آخر . ساعدتها سينيكا طبعاً بجلب العديد من دلاء الماء الساخن من موقد المطبخ إلى الحمام . بالنسبة للفقاقيع كانت تصب حبوباً من «أيفوري سنو» ثم تضرب الماء على أفضل نحو تستطيعه ، رغم أن النتيجة كانت مادة

لزجة مخيبّة للآمال . كانت قد طلبت من سينيكا الانضمام إليها في الحوض وحصلت على الرفض المعتاد ، ورغم أنها كانت تفهم لماذا كانت صديقتها تفضل عدم رؤيتها عارية ، إلا أن جيجي لم تكن تستطيع مقاومة إغاظتها حول ندرة استحمامها . كانت قد رأت ورق التواليت الدامي ، ولكنها تلمست النتوءات على بشرة سينيكا فقط من تحت الغطاء . رغم كونها فظة ومشاكسة ، لم تستطع جيجي أن تسألها عن أسبابها . فقد يكون الجواب قريباً جداً من مشهد الفتى الأسود النازف .

مدت ساقيها ورفعت قدميها لتتأملهما ، كما فعلت مرات كثيرة حين كانت تمررهما على عمود «ك . د .» الفقري بينما تكون متمددة في الدور العلوي ويجلس هو وظهره العاري باتجاهها . كانت تفتقده ، بين الحين والآخر . كان حبه الفوضوي مليئاً بالمزاجات والأذى والتوق والكثير الكثير من الاستسلام . حسناً كانت قد تعقبته قليلاً . كما استمتعت بمتاحيته وعبادته لأنه لم يكن لديها سوى خبرة قليلة بهما . «مايكي» . لم يكن ذاك حباً . ولكن طريقة «ك . د .» لم تدم طويلاً . كانت قد أغاظته وأهانته ورفضته مرات كثيرة ، وكان يطاردها حول الدارة ، ويمسك بها ، ويضربها . كانت مايفيس وسينيكا تبعدانه عنها وتستخدمان أدوات المطبخ لتخرجاه من المكان : كن يجبن على سبابه بأقذع عنه .

آه ، حسناً . هذه سنة جديدة ، كما فكرت . سنة (١٩٧٥) . خطط جديدة ، بما أن القديمة كانت فاشلة . وحين أخرجت العلبة أخيراً من تحت بلاطة الحمام شهقت حين وجدتها مليئة بالشهادات . تدغدغ موظف المصرف أيضاً وعرض عليها خمسة وعشرين دولاراً لمتعة تأطيرها وعرضها على الزبائن ليستمتعوا بها . فلا تستطيع في كل يوم أن ترى وثائق عن أكبر سرقات في «الغرب الأمريكي» . تمسكت بخمسين

دولاراً وخرجت من المصرف وهي تأمر مايفيس بالانطلاق بالسيارة فحسب من فضلك .

كانت ستجعل سينيكا تغادر معها ، على أساس عدم العودة هذه المرة . العودة إلى الشجار . في مكان ما . لم يكن ممكناً معرفة مكان تواجد أمها ، وأبوها ينتظر دوره في صفوف الموت . كان لديها جدّ في مقطورة ممتازة في ألكورن ، ميسيسبي . لم يكن قد فكرت في ذلك بعناية ، ولكنها تساءلت الآن بالضبط عن سبب مغادرتها . الشجار ، هو السبب . لم يكن مجرد فتى نازف أو حيلة مايكي المتعلقة بالزوجين اللذين يمارسان الحب في الصحراء أو نصيحة الرجل القصير حول الماء الصافي والشجرتين المتعانقتين . قبل مايكي ، كان الأمر يقتصر على التسلية والمغامرة . المظاهرات الاستفزازية والمنشورات والشجارات والشرطة والجلوس القرفصاء احتجاجاً وقادة وكلام وكلام ، الكثير من الكلام . لم يكن أي منها جاداً . رفعت جيجي يدين مغطاتين بالصابون لتعيد تثبيت لفافة في شعرها . لم تكن طالبة ثانوية ولا طالبة كلية ، لم تكن أحداً ، ولا حتى الفتيات الأخريات كن يأخذن جديتها على محمل الجد . لو لم تكن قادرة على الطباعة ، لما أحس أحد بوجودها . باستثناء مايكي . قالت بصوت مرتفع « أولاد الزنى » . ثم دون أن تعرف أياً من أولاد الزنى أغضبها إلى أقصى حد ، فقد صفعت ماء الحمام المريع وهي تهسهس : « خراء! » مع كل ضربة . وقد هدأها هذا بعد فترة ، بما يكفي لتسترخي في الحوض ، تغطي وجهها وتهمس في كفيها اللذين ينقطان ماء : « لا ، أيتها العاهرة الغبية ، الغبية لأنك لم تكوني قوية بما فيه الكفاية . ذكية بما فيه الكفاية . كما حصل مع كل شيء لعين لم تكن لديك قوة مثابرة . ظننت أن الأمر سيكون مسلياً وأن الأمر سيكون فعالاً . خلال فصل أو فصلين . ظننت أننا كنا حمماً حارة وأنهم حين يحطموننا إلى رمل ، ستهربين » .

لم تكن جيجي من النوع البكّاء ، وحتى الآن ، حين أدركت أنها لم تكن راضية عن نفسها منذ زمن طويل ، فإن عينيها كانت جافتين مثل جمجمة في الصحراء .

*

تقشر كونسولاتا وتقطع بطاطا صغيرة بنية اللون . إنها تغليها في ماء معالج بعصير التنبول ، وورق الغار والمريمية قبل ترتيبها في مقلاة حتى تصبح ذهبية داكنة اللون . ترش الفليلفة وبذور الفلفل الأشد سواداً عليها . تقول : «أوه ، أجل . أوه ، أجل» .

*

أفضل شيء ملعون على عجلات ، هكذا عبر عن الأمر ، وأملت مايفيس في أن حبه للسيارة الكاديلاك ذات الأعوام العشرة قد عنى أنه سيعطيها استراحة . لن تعرف أبداً إن فعل ، ولكن قبل أن يغلق دكانه ذلك النهار ، أنهى الميكانيكي عمله وتقاضى خمسين [دولاراً] كأجرة يد واثنين وثلاثين لقاء القطع وثلاثة عشر لقاء الزيت والوقود ، لذلك فإن كل نقود [أجرة] حقل الذرة قد اختفت تقريباً . ولن يدفع السيد بيرسون الأجرة التالية قبل ثلاثة أشهر أخرى . ومع ذلك بقي ما يكفي للتبضع المعتاد إضافة إلى الدهان الذي طلبته كوني (للكرسي الأحمر ، كما خمنت ، ولكنها طلبت دهاناً أبيض أيضاً ، ربما لقن الدجاج) ، وكذلك عصي البوظة . كان التوأمان مغرمين بالبوظة ويأكلانها فوراً . ولكن دمى عيد الميلاد لم تلمس ، لذلك أنفقت مايفيس فترة الساعات الخمس من الانتظار حتى تنتهي دوزنة وإصلاح السيارة وهي تبادل بشاحنة «فيشر ـ

برايس » دمية « تونكا » وبـ« تايني تينا » دمية تتكلم . سرعان ما ستكون بيرل في عمر تحتاج فيه إلى دمية « باربي » . كان مدهشاً كيف كانا يتبدلان وينموان . لم يكونا قادرين على رفع رأسيهما حين رحلا ، ولكن حين سمعتهما لأول مرة في الدارة ، كان قد سبق لهما وأصبحا طفلين يدرجان ، في السنتين من عمرهما ، بناء على ضحكاتهما ، كانت قادرة على معرفة عمرهما بالضبط . وبناء على كيفية اندماجهما مع الأطفال الآخرين الذين كانوا يطاردون بعضهم بعضاً في الغرف ، كانت تعرف مدى نموهما . كانا الآن في سن دخول المدرسة ، في السادسة والنصف ، وكان على مايفيس أن تفكر في هدايا مناسبة للعمر في ذكرى ميلادهما ولعيد الميلاد .

كانت تشعر بوحدة شديدة دونهما حين سافرت عائدة إلى ماريلاند في عام (١٩٧٠) . وبينما راحت تراقب فترة الاستراحة في المدرسة التي سجلت فيها سال وفرانكي وبيلي دجيمز ، أدركت مصدومة أن سال ستكون في آخر صف من المدرسة الابتدائية الآن بينما سيكون بيلي دجيمز في الصف الثالث وفرانكي في الصف الخامس . ومع ذلك ، لم يكن هناك في ذهنها أبداً سؤال يتعلق بأنها ستميزهم ، رغم أنها لم تكن واثقة من أنها ستتعرف على نفسها . وربما كانت أصابعها التي تكمشت بحاجز الملعب أو شيئاً ما منحرفاً في وجهها ، أو أي شيء آخر هو الذي أخاف الطلاب لأن رجلاً تقدم منها وطرح عليها بعض الأسئلة التي لم تستطع الإجابة على أي منها . أسرعت محاولة الاختباء والنظر في آن واحد . أرادت الذهاب إلى منزل « بيغ » ولكن دون أن يراها « فرانك » أو الجيران . وحين وجدته ـ كانت الفتاة ذات القبعة لاتزال تقود البطات ـ بكت . كانت شجرة « زهرة شارون » القوية والبرية والجميلة إلى ذلك الحد قد اجتثت بالكامل . ما دفعها

إلى عدم الركض في الشارع كان الخوف من أن يتم تمييزها . وبوضوح سريع ولامع ، فهمت أنها لم تكن آمنة هناك أو في أي مكان آخر لا يوجد فيه ميرل وبيرل . وكان ذلك قبل أن تهاتف بيردي وتعلم عن وجود مذكرة إلقاء القبض .

كانت مايفيس قد دفعت شعرها في قلنسوة صوفية خضراء داكنة ، واشترت نظارات رخيصة وركبت الباص إلى واشنطن ، مقاطعة كولومبيا ، ثم إلى تشيكاغو . هناك تبضعت المشتريات التي أرادتها «كوني» لأجل «الأم الرئيسة» ، ثم استقلت باصاً آخر ، وآخر ، وصلت إلى مرآب مستودع الباصات في ميدلتون ، حيث تركت الكاديلاك . وإذ هرعت لتوصل المشتريات إلى كوني ، ولتكون في صحبة توأميها ، فقد قادت السيارة مسرعة طوال المسافة . عبرت مايفيس وهي في حالة عصبية وضيق في النفس الممر [المؤدي إلى الدارة] وتوقفت قرب جيجي العارية من الملابس والتي سبق لها وأقامت في مأواها . ولسنوات ثلاث تشاجرتا وتقاتلتا وتدبرتا الأمر ، لأجل خاطر كوني ، بحيث لم ترتكبا جريمة قتل . كانت مايفيس تعتقد أن علاقة جيجي مع الرجل من «روبي» هي التي منعتهما كلتيهما من الإمساك بسكين . كانت مايفيس ستفعل ذلك ، ستقاتل حتى النهاية أي شخص كان ، حتى هذه المومس التي تربت في الشوارع وهددت بقتلها وترك أطفالها دون حماية . لذلك رحبت بسينيكا الحلوة ترحيباً صادقاً وحتى مبالغاً به . وقد شاركتها جيجي في الترحيب تماماً ، لأنه حين وصلت سينيكا ، بصقت ذاك الشخص المسمى «ك . د .» مثل بزرة عنب . في التصور الجديد ، فإن مكانة مايفيس كانت مضمونة . حتى الفتاة الغنية الصغيرة الحزينة ذات الوجه الجميل المتألم لم تعكره . كان التوأمان سعيدين ، وكانت مايفيس لا تزال أقرب إلى كوني

من الثلاث الأخريات . وبسبب أنهن كن على صلة وثيقة جداً ويفهمن الواحدة الأخرى جيداً ، فإن مايفيس بدأت بالقلق . لم تكن تقلق حول عادات كوني الليلية أو تناولها الشراب : أو عدم شربها في الواقع ، فالاهتياجات الشائعة قد اختفت مؤخراً . شيء ما آخر . الطريقة التي كانت كوني تومئ بها برأسها وكأنها تصغي إلى شخص قريب كيف كانت تقول «هاهه» أو «إن كان ذاك هو رأيك» ، مجيبة على أسئلة لم يطرحها أحد . كما أنها لم تتوقف فحسب عن استخدام النظارات الشمسية ولكنها أصبحت ترتدي كل يوم واحداً من الفساتين التي كانت سوآن مورغان قد اعتادت أن تحضرها لها حين لم تعد في حاجة إليها . وكانت ترتدي في قدميها حذاء الراهبات اللامع الذي كان موضوعاً فوق خزانة أدراجها . ولكن بالضحك المرح الذي يرن في أذنيها ، وعصي البوظة الذي تذوب في عز الشتاء ، فقد كانت في موقف ضعيف تجاه الحكم على مثل هذه الأمور . لم تسأل كوني أبداً عن واقعية وجود التوأمين ، وبالنسبة إلى مايفيس ، التي لم تكن لديها نية في الدفاع عما تعرف أنه حقيقي ، فإن ذلك القبول كان مركزياً . كان زائر الليل يظهر أقل فأقل ، وبينما كان هذا يقلقها ، فإن ما كان يشغلها هو السرعة التي ينمو بها ميرل وبيرل . وقضية ما إذا كانت قادرة على المتابعة .

*

ست تفاحات صفراء ، مجعدة من تخزين الشتاء ، قد نزعت بذورها وراحت تطفو في الماء . الزبيب يسخن في مقلاة من النبيذ . تملأ كونسولاتا فراغ كل تفاحة بمزيج من الكريم مؤلف من صفار البيض والعسل وجوز البيكان والزبدة ، وتضيف عليها ، واحدة واحدة ، الزبيب الذي انتفخ

بالنبيذ . تصب النبيذ المنكّه في مقلاة وترمي التفاحات فيها . يتحرك السائل الدافئ الحلو .

*

كانت الشوارع الصغيرة ضيقة ومستقيمة ، ولكن ما أن تصنعها حتى كانت تنغمر . أحياناً كانت تمسك بورق التواليت لتوقف الدم ، ولكنها كانت تحب أن يجري أيضاً . والحيلة كانت تتجلّى في أن تشق الجلد بالعمق المطلوب . ليس شقاً خفيفاً جديداً أو أن الجرح سيعطي خيطاً أحمر ضعيفاً جداً . وليس عميقاً جداً . بحيث يخرج الدم وينبثق بسرعة كبيرة لا تعودين معها قادرة على رؤية الشارع . ورغم أنها نقلت الخريطة من ذراعيها إلى فخذيها ، فقد كانت تميز آثار الطرق والجادات القديمة التي كانت حتى نورما تشمئز منها . كان الواحد منها يكفي أحياناً لمدة شهور . ثم كانت هناك أوقات حين كانت تصنع اثنين في اليوم الواحد ، بدون أن تعطي الشارع الوقت لينغلق قبل أن تفتح واحداً آخر . ولكن لم تكن متهورة . كانت أدواتها نظيفة ، وكان اليود (أفضل من الميركوروكروم) كثيراً . وقد أضافت كريم الصبر إلى طقم عدتها .

بدأت العادة في إحدى دور التبني ، وبدأت كحادثة . قبل أن ينزل لها أخوها بالتبني ـ طفل آخر في منزل «الأم كرير» ـ لباسها الداخلي لأول مرة ، كان دبوس أمان يمسك بخصر بنطالها الجينز وضع مكان زر مقطوع إلا أنه كان قد انفتح وخدش بطنها وهاري ينزعه . وما أن رمي ببنطال الجينز بعيداً ووصل إلى لباسها الداخلي ، فإن خيط الدم أثاره على نحو أشد حتى . لم تبك . لم يؤلمها ذلك . وحين حممتها الأم كرير ، صاحت هذه : «يا طفلتي المسكينة . لم لم تقولي لي ؟» ثم وضعت الميركوروكروم على

الجرح . لم تكن متأكدة مما كان عليها أن تخبرها عنه : خدش دبوس الأمان أم سلوك هاري . لذلك جرحت نفسها بالدبوس عمداً وأرت الجرح للأم كرير . ولأن التعاطف الذي لقيته أصبح أخف ، فقد حكت لها عن هاري . «لا تذكري هذا الشيء مرة أخرى أبداً . أتسمعينني ؟ أتسمعينني ؟ لاشيء كهذا حدث هنا» . وبعد وجبة من الأشياء التي تحبها ، نقلت إلى منزل آخر . لم يحدث شيء لسنوات . حتى دخلت المدرسة الثانوية ، ثم الصف الحادي عشر . في ذلك الحين كانت قد عرفت أن هناك شيئاً ما في داخلها يجعل الفتيان يخطفونها والرجال يبتسمون لها . لو كانت تشرب الكوكاكولا مع خمس فتيات عند نضد مخزن الأشياء الرخيصة ، كانت هي الواحدة التي يقرص حلمتها صبي يكون أصدقاؤه الضاحكون قد أرسلوه في مهمة تحدٍ . أربع فتيات ، أو واحدة ، قد يمشين على امتداد الشارع ، ولكنها حين تمر فإن الرجل الجالس مع طفلته على مقعد الحديقة ، سيقوم عندئذ برفع قضيبه وإصدار أصوات التقبيل باتجاهها هي . لم يكن اللجوء إلى الأصدقاء الذكور أفضل . كانوا يعتبرون ولعها بهم أمراً مفروغاً منه ، ولكن لو تذمرت لهم حول قيام الأصدقاء أو الغرباء بمداعبتها ، كان غضبهم يوجه إليها ، لذلك عرفت أنه شيء ما في داخلها هو المسألة وما فيها .

دخلت الخطيئة كشاعر تحت المراقبة كان قاموسه المتهم شديد الطواعية ، ويسبب صدمة شديدة جداً عند نشره . لقد أثارها ذلك . جعلها تتوازن . الوصول إلى هذه الحياة تحت الثياب أبقى عينيها جافتين مما يحفز على هدوء لا يهزه سوى النساء الباكيات ، حيث كان منظرهن يثير ألمها المنتصر على نحو مجنون حتى أنها لتفعل أي شيء لإخماد جذوته . كانت في العاشرة ولا تقطع أرصفة المشاة حين اغتيل «كينيدي» وبكى العالم كله علناً . ولكنها كانت في الخامسة عشرة حين اغتيل «كينغ» في أحد أيام

الربيع و« كينيدي » آخر في صيف ذاك العام نفسه . كانت تدعي المرض كيلا تذهب إلى عملها كجليسة أطفال في كل مرة وتبقى في داخل البيت لتجرح الشوارع والجادات والحارات في ذراعها . كان من السهولة بمكان إخفاء عملها الدموي . وشأنها شأن إيدي تيرتل ، فإن معظم أصدقائها الذكور كانوا يمارسون الأمر في الظلام . وبالنسبة لأولئك الذين يصرون على أجوبة كانت تخترع مرضاً ما . وكان التعاطف فورياً للندوب التي بدت جراحية .

كان الأمان المتوفر في منزل كوني قد أصبح أقل سلامة حين وصت بالاس . كانت قد أنفقت الكثير من الوقت محاولة أن ترفع معنوياتها وتغذيها ، لأنه حين لم تكن بالاس تأكل كانت تبكي أو تحاول ألاّ تبكي . والراحة التي هبطت حين غادرت الفتاة في شهر آب (أغسطس) الماضي اختفت حين عادت في كانون الأول : أجمل وأسمن ومدعية أنها قد توقفت فحسب للقيام بزيارة . في سيارة ليموزين أيضاً . معها ثلاث حقائب . إنه شهر كانون الثاني الآن وكان شهيقها الليلي يسمع في كل أرجاء الدارة .

خدشت سينيكا شارعاً جديداً . نقطة تقاطع ، فقد عبرت الشارع الذي خدشته قبل لحظة .

*

أعدت المائدة ووضع عليها الطعام . تخلع كونسولاتا مئزرها . وبالنظرة الأرستقراطية التي للعميان تمسح وجوه النساء وتقول : « أسمي نفسي كونسولاتا سوسا . إذا أردتن أن تبقين هنا عليكن أن تفعلن ما أقول . تأكلن كما أقول . تنمن كما أقول . وسوف أعلمكن ما أنتن جائعات له » .

. تنظر النساء الواحدة إلى الأخرى ثم إلى شخص لا يميّزنه . لديها ملامح كوني العزيزة ، ولكنها منحوتة على نحو ما : عظام وجنات أعلى وذقن أقوى . هل كانت أهدابها سميكة دائماً على هذا النحو وأسنانها بيضاء كاللؤلؤ ؟ لا يبدو على شعرها الشيب . بشرتها ناعمة مثل خوخة . لماذا تتحدث على هذا النحو ؟ عم تتحدث ؟ هم يتساءلون . هذه السيدة العجوز العذبة غير المهدّدة التي بدت كأنها تحب كل واحدة منهن على النحو الأمثل ، والتي لم توجه نقداً أبداً وكانت تشاركهن في كل شيء ، ولكنها لا تحتاج إلا إلى القليل ولا تحتاج إلى عناية . لم تكن تتطلب أي استثمار عاطفي . كانت تصغي . لم تكن تقفل أبواباً وتقبل كل واحدة منهن كما هي . ما الذي تتحدث عنه هذه الأم والصديقة والرفيقة المثالية التي كانوا يشعرون برفقتها بالأمان من الأذى ؟ ما الذي تفكر به صاحبة الأملاك الكاملة هذه التي لم تكن تطلب أجراً وترحب بكل شخص . هذه الأوزة العجوز التي يمكن الوثوق فيها أو تجاهلها ، الكذب عليها أو تحريضها ، هذه الأم الدمية التي يمكن معانقتها أو التخلي عنها ، اعتماداً على مزاج الابنة ؟

تابعت قائلة : «لو كان لديكن مكان يجب أن تتواجدن فيه وشخص ما يحبكن ينتظر هناك ، إذن فامضين في طريقكن . وإلا فابقين هنا واتبعنني . شخص ما قد يرغب في مقابلتكن» .

لم تغادر أي منهن . كانت هناك أسئلة عصبية ، انفجار واحد من القهقهة الخائفة ، وقليل من الاستياء والغضب المصطنع ، ولكنهن لم يرين أبداً أنهن قادرات على مغادرة المكان الوحيد الذي كن حرات في مغادرته .

وتدريجياً فقدن الأيام .

* * *

في البداية كان أهم شيء هو العارضة . أولاً كان عليهن أن يفركن أرضية القبو حتى أصبحت أحجاره نظيفة مثل الصخور على شاطئ . ثم طوقن المكان بالشموع . قالت كونسولاتا لكل واحدة منهن أن تخلع ملابسها وتتمدد على الأرض . تحت النور الراهن تحت بصر كونسولاتا الضعيف فعلن ما أمرن به . كيف علينا أن نتمدد ؟ كيفما تشعرين . حاولن وضع الذراعين عند الجانبين ، أو ممتدتين فوق الرأس أو متصالبتين فوق الصدر أو المعدة . تمددت سينيكا فوق معدتها أولاً ثم انقلبت على ظهرها ، ويداها تمسكان بكتفيها . رقدت بالاس على جانبها ، والركبتان مسحوبتان نحو الداخل . نشرت جيجي ساقيها وذراعيها جانباً بينما اتخذت مايفيس وضعية العوّام ، والذراعان بزاوية والركبتان تشيران إلى الداخل . وحين وجدت كل واحدة الوضعية التي تستطيع تحملها فوق الأرضية الباردة العنيدة ، مشت كونسولاتا من حولها ورسمت صورة ظلية لها . ما أن اكتملت الخطوط الخارجية ، وكان يطلب من كل واحدة أن تبقى هناك . دون كلام . عارية تحت نور الشمعة .

رحن يتلوين في أسى حاد إلا أنهن ترددن في التحرك خارج القالب الذي اخترنه . فكرن مرات كثيرة في أنهن ما عدن يحتملن ثانية أخرى ، ولكن لم ترغب أي واحدة في أن تكون أول من تستسلم أمام العينين الشاحبتين المراقبتين . تكلمت كونسولاتا أولاً .

«جسدي الطفل ، الذي تعرض للأذى والقذارة ، يقفز إلى ذراعي امرأة تعلمني أن جسدي لاشيء وروحي كل شيء . وقد وافقتها مع ذلك حتى قابلت شخصاً آخر . كان لحمي جائعاً جداً لنفسه حتى أنه أكله . حين هرب أنقذتني المرأة من جسدي مجدداً . لقد أنقذتني مرتين . حين مرض جسدها اعتنيت به بكل طريقة ممكن بها العناية باللحم . أمسكته بين

ذراعيّ وساقي . نظفته وهدهدته ودخلت فيه لأبقيه يتنفس . بعد موتها لا أستطيع تجاوز ذلك . عظامي فوق عظامها هي الأمر الجيد . ليس الروح . العظام . ليست مختلفة عن عظام الرجل . عظامي فوق عظامه هي الشيء الحقيقي الوحيد . لذلك أتساءل أين تضيع الروح هنا ؟ هذا صحيح مثل العظام . إنه جيد مثل العظام . الواحد حلو والآخر مرّ . أين فقدت ؟ اسمعنني ، وأصغين إليّ . لا تكسرنها إلى اثنتين . لا تضعن الواحد فوق الآخر . حواء أم مريم . مريم بنت حواء » .

ثم بكلمات أوضح من خطابها التقديمي (الذي لم تفهمه ولاواحدة منهن) ، حكت لهن عن مكان تتقابل فيه أرصفة المشاة البيضاء مع البحر وأسماك بلون الخوخ تسبح إلى جانب الأطفال . تحدثت عن الفاكهة التيْ لها مذاق أشبه بمنظر أحجار الصفير والصبيان يستخدمون الياقوت كنرد . ومن الكاتدرئيات المعطرة المصنوعة من الذهب حيث الآلهة والآلهات يجلسون في مقاعد الكنيسة ضمن حشد المصلين . عن أزهار قرنفل طويلة كالأشجار . أقزام لهم أسنان من الألماس . حيات أيقظها الشعر والأجراس . ثم حكت لهن عن امرأة اسمها «بيداد » كانت تغني إنما لا تقول ولا كلمة .

هكذا بدأ الحلم مرتفع الصوت . كيف ظهرت القصص في ذلك المكان . أنصاف الحكايات واللواتي لم يحلمن أبداً هربنا من شفاههن ليحلقن عالياً فوق شموع ذات قنوات ، ناقلات الغبار من الصناديق والزجاجات . ولم يكن مهماً أبداً معرفة من قال الحلم أو إن كان له معنى . رغم أن أو بسبب أجسادهن كانت تؤلمهن ، فقد خطون بسهولة نحو حكاية الحالم . يدخلن القيظ في الكاديلاك ، يشعرن بلفحة الهواء البارد في الفوضى . يعرضن أحذية التنس خاصتهن غير مربوطة وأن شريط حمالات الصدر يزعجهن في كل مرة ينزلق فيها من الكتف . رزمة أرمور لزجة . يتنشقن عطر الأطفال

النائمين الذين يشعرون براحة أبوية رغم أنهن يلاحظن أن رأس أحدهم كان ملتفتاً على نحو غير مريح . يعدلن الرأس النائم للطفل ثم يرفضن ، يرفضن مباشرة ، ما يعرفنه ويقدن السيارة إلى البيت . يتسلقن درج الرواق حاملات المقانق والأطفال والحقائب في أذرعتهن . يقلن : «لا يبدو أنهم يريدون أن يستيقظوا ، يا سال . سال ؟ انظر هنا . لا يبدو أنهم يريدون ذلك» . يرفسن بأقدامهن تحت الماء ، ولكن ليس بقوة كبيرة خشية إيقاظ الزعانف أو الحراشف في الأسفل هناك أيضاً . تقول الأصوات الذكرية تقول إلى الأبد تقول ادفع بما يخصهن في حلوقهن . تقول ، تقول ، حتى لا يعود هناك نفس للصراخ أو الاعتراض . كل واحد يرفّ بأجفانه ويخفي فمه بالكمامة من الغاز المسيل للدموع ، تحرك يدها ببطء إلى الساق المكشوطة ، والرباط الممزق . تركض ذهاباً وجيئة في القاعات وتنام في كرة والأنوار مضاءة في الليل . تطوي الخمسمئة دولار في كعب جوربها . تصرخ من الألم من قضيب رجل غريب والمنافسة مع الأم : جذاب وأكّال مثل الكوكائين .

في الحلم بصوت مرتفع ، فإن المناجاة الذاتية لا تختلف عن الزعيق ، اتهامات موجهة إلى الموتى والراحلين منذ زمن طويل وقد بطلت بواسطة همهمات الحب . لذلك ، فهن ينهضن متعبات وغاضبات ويذهبن إلى أسرتهن وقد آلين على أنفسهن ألاّ يستسلمن لذلك مجدداً ولكن مع المعرفة التامة بأنهن سيفعلن ذلك . وهن يفعلن ذلك .

الحياة الحقيقية والمكثفة ، المنقولة إلى هناك في الأسفل في برك محدودة من النور ، في هواء مدخن من مصابيح الكيروسين وشمع الشموع . كانت العوارض تجذبهن كالمغناطيس . كانت بالاس هي من أصرت على أن يتبضعن أنابيب الطلاء وعيدان الحكك الملون . مرقق الدهان وقماش شاموا . فهمن وبدأن العمل . أولاً بالملامح الطبيعية : النهود والفروج

وأصابع القدمين والأذنين وشعر الرأس . قامت سينيكا بمضاعفة واحد من ندوبها الأكثر أناقة بالأزرق الذي يشبه لون بيضة طائر أبي الحناء ، نقطة واحدة من الأحمر على رأسها . لاحقاً ، حين جاءت لتشق فخذها الداخلي ، اختارت بدلاً عن ذلك أن تضع علامة على الجسد المفتوح الممدد على أرض القبو . تحدثن الواحدة مع الأخرى حول ماحلمن به ومارسنه . هل أنت متأكدة أنها كانت أختك ؟ ربما كانت أمك . لماذا ؟ لأن الأم قد تفعل مثل ذلك إنما ليس الأخت . غطت سينيكا أنبوبها بغطائه . رسمت جيجي مدلاة على شكل قلب حول نحرها ، وحين سألتها مايفيس عنها ، قالت إنها هدية من أبيها كانت قد رمتها في خليج المكسيك . هل كان فيها صور ؟ سألت بالاس . نعم ، صورتان . لمن ؟ لم تجب جيجي . بل عززت ببساطة النقاط التي تعلّم سلسلة المدلاة . وضعت بالاس طفلاً في معدة عارضتها . وحين سئلت من كان الأب ، لم تقل شيئاً بل رسمت إلى جانب الطفل وجه امرأة ذات أهداب طويلة وفم زغب ملتو . فضغطوا عليها إنما بلطف ، دون مزاح أو احتقار . كارلوس ؟ الفتيان الذين دفعوا سيارتها إلى الماء ؟ منحت بالاس الفم الملتوي نابين طويلين .

انطوى كانون الثاني (يناير) وكذلك شباط (فبراير) . في آذار مرت الأيام غير مختصرة من الليل مع احتلالها من قبل رسوم معتنى بها لأعضاء الجسد وأشياء جديرة بالتذكر . مشابك شعر صفراء وفاوانيا حمراء وصليب أخضر على حقل أبيض . كان قضيب مهيب مخترق بقوس كيوبيد . بتلات زهرة شارون ، لورنا دون . زوجان برتقاليان لامعان يمارسان الحب تحت شمس طفولية .

ومع استلام كونسولاتا للمسؤولية ، مثل الأم الرئيسة الجديدة والمعدلة ، راحت تغذيهن غذاء خالياً من الدم والماء لوحده لإطفاء غليلهن ،

فقد أخذن بالتغيّر . يجب أن يذكرن بالأجسام المتحركة التي يرتدينها ، وقد كانت الأجسام الحية تحتها شديدة الإغواء .

الزبون الذي قد يتوقف سيلاحظ تغييراً ضئيلاً . قد يتساءل لماذا الحديقة دون عناية ، أو من خدش كلمة «أسف» على صندوق الكاديلاك . وقد يتساءل حتى لماذا المرأة العجوز التي كانت تجيب على الدقات على الباب لم تعد تغطي عينيها الرهيبتين بنظارات داكنة . أو ما الذي تفعله الشابات بشعورهن . لاحظ أحد الجيران أنهن أصبحن أكثر وداً ـ إحساس بالإفراط في الشراب وجو مشحون في الدارة ، والحس الغريب والنظرة المختلفة إلى حد كبير في عيون القاطنات في المنزل ـ لدى التحدث إليك ، وإلا فإنهن كن ساكنات وآخذات بالتقييم . ولكن لو جاءت صديقة ، فإن انزعاجها الأول من مشهد النساء الشابات قد يخرسه أسلوبهن الراشد : كم بدون هادئات ، وكم تبدو كوني مستقيمة الظهر ووسيمة . كم يلائمها هذا الفستان المألوف . وحين تدخل [الزائرة] وراء مقود السائق ، فإن هناك سلة مع طرد فوقها يوضع إلى القرب منها ، فسيزعجها أولاً كونها غير قادرة على معرفة ما هو غائب . ومع اقترابها من بيتها وقيادتها السيارة على امتداد الشارع المركزي ، فإن تحديقتها قد تقع على منزل سويتي فليتوود ، منزل بات بست أو قد تلاحظ واحداً من فتيان آل بول أو مينوس في طريقه إلى منزل إيس . ثم قد تدرك ما كان مفقوداً : على نحو مخالف لبعض الناس في روبي ، فإن نساء «الدير» لم يعدن مسكونات . أو مطاردات أيضاً ، كما يمكن لها أن تضيف . ولكنها مخطئة في هذه الأخيرة .



لون



كـانت الطريق ضيقـة ، والمنعطف حـاداً ، ولكن اسـتطاعت أن تبـتـعـد بـالأولدزمــوبيل عن التــراب وتصل إلى الإســفلت دون أن توقع الإشــارة بالكامل . في وقت أبكر ، على الطريق إلى هناك ، مع العتمة والنور الأمامي الوحيـد ، لم تسـتطع «لون» منع الواقيـة الأماميـة من الاحتكاك بالإشارة ، والآن ، ها هي تغادر «الدير» ، وقد أصبح عموده مائلاً واللوحة التي تقول «بطيخ مبكر» على وشك أن تسقط . همهمت : «لا تسـتطيع التهجئة» . تلك التي لفت نفسـها بالشرشف على الأرجح . لا يوجد الكثير من التعليم هناك . ولكن «مـبكر» كتبت على النحو الصحيح . لم ينته تمـوز (يوليو) بعد ، وحديقة «الدير» فيها بطيخ ناضج للقطاف . مثل رؤوسهن . ملسـاء من الخـارج ، حلوة من الداخل ، ولكن يا إلهي ، هل هي غبـية ؟ ولا واحـدة منهن كانت ستصغي . قلن إن «كوني» مشغولة ورفضن نداداتها ولم يصدقن كلمـة ممـا قالتـه لون . بعد أن ساقت سيـارتها إلـى هناك في منتصف الليل لتخبـرهن ، لتـحذرهن ، وقد راحت تراقبـهن في غضب عـاجز وهن يتثاءبن ويبتسـمن . والآن كان عليها أن تتصور ما هو العمل الآخر الذي يمكنها أن تفعله ، وإلاّ فإن البطيخات اللواتي تشققن سيكن رؤوسهن الصلعاء .

كان هواء الليل ساخناً والمطر الذي كانت تشمّه كان بعيداً ولكنه لا يزال قادماً ، وهذا ما فكرت به قبل ساعتين ، حين كانت تأمل في حصاد اليبروح وهو لا يزال جافاً ، فتجولت عند حافة الجدول قرب «الفرن» . ولو لم تكن هناك ما كانت ستسمع الرجال أو تكتشف الشر الذي كانوا يعدون له .

أخفت الغيوم أفضل جواهر سماء الليل ولكن الطريق إلى روبي كان مألوفاً مثل طبق جمع التبرعات . أغمضت عينيها نصف إغماضة على أي حال . في حال عدا شيء ما أو شخص ما أمامها ـ أمام النور الأمامي الوحيد للأولدزموبيل . يمكن أن يكون الأوبوسوم أو الراكون أو الغزال أبيض الذيل أو حتى امرأة غاضبة حيث أن النساء هن اللواتي يمشين في هذا الطريق . النساء فحسب . لا رجال أبداً . منذ أكثر من عشرين عاماً راقبتهن لون . ذهاباً وإياباً : نساء باكيات ، نساء محدقات ، نساء عابسات يعضضن على شفاههن أو نساء ضائعات فحسب . هنا في أرض حمراء وذهبية ، تشقها هنا وهناك صخرة سوداء أو رقعة صغيرة من الخضرة . هنا تحت السماء المزدحمة جداً بالنجوم كان الأمر مشيناً جداً . هنا حيث تعاملك الريح كرجل ، كانت النساء يجررن أحزانهن على امتداد الطريق جيئة وذهاباً بين روبي و«الدير» . كن الماشيات الوحيدات . كانت سويتي فليتوود قد مشته وكذلك بيلي ديليا . والفتاة المسماة سينيكا ، وأخرى تسمى مايفيس . وآرنيت أيضاً ، وأكثر من مرة واحدة . وليس هذه الأيام فحسب . لقد مشين في هذا الطريق منذ البداية . سوآن مورغان مثلاً ، ومرة حين كانت شابة ، «كوني» أيضاً ؛ رأت لون الكثيرات من الماشيات . وعرفت عن أخريات . ولكن الرجال لم يمشوا هذا الطريق أبداً . كانوا يقطعونه بالسيارة رغم أن وجهتهم كانت كما هي وجهة النساء : سارجنت ، «ك . د .» ، روجر ،

مينوس . حتى «ديكون» الطيب نفسه قبل عقدين من الآن . حسناً ، لو لم تأت بأحد ليصلح حزام المروحة ويسد خزان الزيت ، لكانت هي الآن ماشية على قدميها أيضاً ، شريطة أن يكون لديها مكان يستحق أن تسافر إليه .

لو كان هناك زمن للسرعة ، فهذا هو ، ولكن حالة السيارة منعت ذلك . في عام (١٩٦٥) كانت الماسحات ومكيف الهواء والراديو صالحة كلها . والآن كان السخان القوي العنصر الوحيد الذي يذكر بقوة الأولدزموبيل الأصلية . في عام (١٩٦٨) وبعد أن عرفت مالكين اثنين ، ديك ثم سوآن مورغان ، سألتها سوآن إن كانت تريدها . صرخت لون فرحاً . وأخيراً ، هاهي في التاسعة والسبعين ، دون رخصة ولكن سريعة الغضب ، هاهي ستتعلم السياقة ويكون لها سيارتها أيضاً . ما عادت تطلب من الناس أن يوصلوها مجاناً ، ولا مكابح تزعق في باحتها في كل الساعات ، داعية إياها إلى حالات طوارئ . لم تكن طوارئ أو حالات انتظار تتحول إلى أزمات . كانت تستطيع الآن أن تكون حرة ، وتفحص الأمهات عندما تريد ، وتصل إلى المنزل بسيارتها الخاصة والأهم المغادرة متى شاءت . ولكن الهدية وصلت متأخرة جداً . ما أن أصبحت ذات قدرة ذاتية على الحركة فعلاً ، ما عاد أحد يريد خدماتها . بعد أن أغضبت ذوات الأظلاف وأرهبت ذوات المخالب ، وبعد أن أحرقت طوابير من الغبار الأحمر عبر طرقات الجرارات لأسابيع ، لم يعد لديها مكان تذهب إليه . كانت مريضاتها يتركنها تتلمس وتحدق ، ولكن عند الولادة كن يسافرن ساعات (لو استطعن إلى ذلك سبيلاً) إلى المستشفى في دمبي ، وذلك نحو الأيدي الباردة للرجال البيض . والآن ، هي في السادسة والثمانين ، ورغم شهرتها الممتازة (أي أنها لم تفقد أماً واحدة كما حدث ذات مرة لفيري) ، ها هن النساء يرفضن تسليمها بطونهن المنتفخة وصرخاتهن وأيديهن

المتشبثة . كن يضحكن على أحزمة البطن النظيفة خاصتها ونقاط بول الأم . وكن يرمين بشاي الفلفل خاصتها في المرحاض . لم يكن يهم أنها كانت تتكور على كنباتهم لهدهدة الأطفال المضطربين وتكبو في مطابخهن بعد أن تجدل شعور بناتهن ، وتزرع الأعشاب في حدائقهن وتعطي النصائح الجيدة في السنوات الخمس والعشرين الماضية ولخمسين أخرى في هايفن قبل أن يرسلوا في طلبها . ومهما علمتهن أن يمشطن نهودهن لجعل الحليب يتدفق ، وما الذي يفعلنه بعد الولادة ، وفي أي اتجاه يضعن السكين تحت الفرشة ؛ ومهما فتشت المقاطعة كلها لتحصل لهن على نوع القذارة التي يردن أكلها ؛ ومهما دخلت السرير معهن وضغطت بعقبيها على أعقابهن ، وساعدتهن على الدفع ، الدفع! أو قامت بتمسيد بطونهن بالزيت الحلو لساعات . رغم أنها فعلت ذلك كله فلم يعد ذلك يهم . كانت جيدة بما فيه الكفاية في جعلهن يأتين إلى هذا العالم ، وحين استدعيت هي وفيري للاستمرار في العمل في المكان الجديد ، روبي ، جلست الأمهات في كراسيهن ومددن ركبهن وتنفسن الصعداء . والآن بعد أن ماتت فيري ، بقيت هي قابلة وحيدة لمجموعة من السكان كانت في حاجة إلى عائلات كبيرة كبر أحياء سكانية بل وتفاخر بها ،إلا أن الأمهات رحن يبعدن عنها أرحامهن . ولكن لون اعتقدت أن في الأمر ما هو أكثر من موضة أجنحة الأمومة في المستشفيات . كانت هي من ولّد أطفال آل فليتوود وكل وليد متخلف عقلياً أو جسدياً كان يسيء إلى سمعتها ، وكأنها قد «صنعته» بنفسها ولم تولّده فحسب . لقد اتحد الشك في أنها مشؤومة مع وسائل الراحة التي يقدمها مستشفى دمبي لحرمانها من العمل الذي تدربت عليه . حكت لها إحدى الأمهات أنها لم تكن تستطيع مغالبة حب أسبوع الراحة وصينية الخدمة وميزان الحرارة واختبارات ضغط الدم ، وأنها كانت مولهة

بجرعة النهار والحبوب المضادة للألم . ولكنها قالت إنها تحب أكثر من كل شيء آخر كيف كان الناس يسألونها باستمرار عن حالها . لم يكن أي من هذا متوفراً لها لو كانت ستلد في المنزل . هناك ستحضر طعام الفطور للعائلة في اليوم الثاني أو الثالث وتقلق حول نوعية حليب البقرة وحليبها هي أيضاً . ربما شعرت نسوة أخريات بالشعور نفسه ـ ترف النوم والابتعاد عن البيت ، والوليد يؤخذ منها كل ليلة ليعتني به شخص آخر . والآباء أيضاً ، كانت لون تشك في أنهم كانوا أسعد بالأبواب المغلقة ، والانتظار في القاعة ، كونهم في مكان يكون الرجال مسؤولين فيه بدلاً عن امرأة درداء تمضغ العلكة لتبقي لثتها قوية . كانت فيري قد حذرتها : «لا تخطئي فهم تشكرات الآباء . الرجال يخافون منا ، وسيكونون دائماً هكذا . نحن بالنسبة إليهم وصيفة الموت الواقفة بينهم وبين الأطفال الذين تحملهم زوجاتهم» . خلال هذه الأوقات ، كما قالت فيري ، فإن القابلة هي الوسيط ، الشخص الذي يعطي الأوامر ، والذي يعتمد الكثير على مهارته السرية ، وكان هذا الاعتماد يغضبهم . وخاصة هنا في هذا المكان حيث راحوا يتكاثرون في سلام . كانت فيري على حق كالعادة ، ولكن لون كانت مسؤولية أخرى . كان يقال إنها تستطيع قراءة الأفكار ، وهي موهبة أتت من شيء ما ، مهما يكن هذا الشيء ، إلاّ أنه لم يكن الرب ؛ وقد استخدمتها منذ أن كانت في الثانية ، حين وضعت نفسها ليجدوها في الباحة بعد موت أمها في الفراش . أنكرت لون ذلك . واعتقدت أن كل شخص كان يعرف ما يفكر به الآخرون . ولكنهم كانوا يتجنبون الشيء الواضح فحسب . ومع ذلك كانت تعرف بالفعل شيئاً ما أكثر عمقاً من ذاكرة مورغان أو كتاب تاريخ بات بست . كانت تعرف ما لا تستطيع الذاكرة ولا التاريخ ذكره أو تسجيله : «حيلة» الحياة و«سببها» .

على أية حال ، مع انتهاء أسباب رزقها (لقد استدعيت مرتين فقط خلال السنوات الثماني الماضية) ، فقد راحت لون تعتمد على كرم رعايا الكنيسة والجيران . كانت تنفق وقتها في جمع الأعشاب الطبية ، منتقلة من كنيسة إلى أخرى لتلقّي معونة ومسح الحقول التي لم تكن توجه إليها الدعوة لأنها مفتوحة ، بل لأنها مليئة بالأسرار . مثل الهياكل العظمية التي تكفي لحمولة سيارة والتي وجدتها قبل أشهر قليلة . ولو كانت تهتم بذهنها بالذات بدلاً من الاهتمام بالشائعات ، لكانت قد بحثت في أمر الصقور المحمومة التي ظهرت في أيام الصوم الكبير حالما ظهرت : قبل سنتين عندما ذابت الثلوج في الربيع ، آذار (مارس ١٩٧٤) . ولكن بما أنها شوهدت مباشرة حين أعلن آل مورغان وآل فليتوود عن الزفاف ، فإن الناس خلطوا ما بين فكرة أن الزواج استدعى الصقور أو أنه كان يحمي المدينة منها . والآن عرف الجميع أنها انجذبت إلى مأدبة عائلية من أشخاص فقدوا في عاصفة جليدية . أطباق «أركنسو» . لصاقة «هاربر جوري» على بعض أدوية السعال . كانوا يحبون واحدهم الآخر ، أفراد تلك الأسرة . حتى مع إزعاج الطيور الكاسرة لهم ، تستطيع أن تعرف أنهم كانوا متعانقين وهم ينامون على نحو أعمق فأعمق في ذلك البرد العميق .

في البداية ظنت أن سارجنت كان قد عرف الأمر كله . لقد زرع الذرة في تلك الحقول . ولكن لم يكن هناك خطأ في ارتسام الدهشة على وجهه أو على وجه أي من الآخرين حين سمعوا بذلك . كانت المشكلة منحصرة في إبلاغ أو عدم إبلاغ رجال القانون . كان القرار ألا يبلغوا . حتى دفنهم سيعني الاعتراف بشيء لم يكن لهم يد فيه . حين ذهب بعض الرجال لإلقاء نظرة ، لم يركزوا اهتمامهم على المشهد الذي أمامهم بل غرباً على «الدير» الذي كان يبدو ضمن خط نظرهم . كان عليها أن تعرف منذ ذلك الحين . لو

كانت تعطي انتباهها ، أولاً للصقور المحومة ثم إلى أذهان الرجال ، لما كانت تستهلك الآن كل «الريغلي» والبنزين في حوزتها في مهمة أملت أن تكون الأخيرة . كان بصرها الآن كليلاً ومفاصلها متصلبة : لم يكن هذا عملاً لقابلة موهوبة . ولكن الرب أحال المهمة إليها ، فليتبارك قلبه المقدس ، وبسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة في ليلة حارة من ليالي تموز (يوليو) ، فقد كانت تعرف أنها تسافر في زمن «الرب» ، وليس خارجه . هو الذي وضعها هناك ، وشجعها على البحث عن الدواء الذي يفضل أن يقتطف جافاً في الليل .

كان حوض الجدول جافاً . والمطر القادم سيعالج ذلك حتى لو جعل جذر اليبروح ذا الساقين طرياً . كانت قد سمعت ضحكاً خفيفاً وموسيقى من المذياع قادمين من «الفرن» . شبان يتغازلون . على الأقل كانوا في مكان مفتوح ، كما فكرت ، ولا يزحفون إلى مخزن للتبن أو تحت بطانية في مؤخرة شاحنة . ثم توقف الضحك والموسيقى . كانت أصوات ذكرية عميقة تعطي أوامر : كانت الأضواء المومضة تلقي شعاعاً على الأجسام والوجوه والأيدي وما يحملونه . ودون همهمة ، غادر الأزواج من الشبان ولكن الرجال بقوا . كانوا يتكئون على جدران «الفرن» أو يقعون على مؤخراتهم ، وقد تجمعوا في العتمة . أخفت لون نور مصباحها اليدوي بمئزرها وكانت ستتحرك دون أن ترى إلى مؤخرة كنيسة «هولي ريديمر» ، حيث كانت سيارتها متوقفة ، لولا أنها تذكرت الحوادث الأخرى التي تجاهلتها أو أساءت فهمها : صقور الصوم الكبير المحومة ، ومسدس أبولو الجديد . عادت إلى العتمة الكاملة وجلست فوق العشب العطشان . كان عليها أن تتوقف عن الشعور بعدم الرضا تجاه رفض سكان البلدة لخدماتها ، وأن تتوقف عن سرقة الانتقام الرخيص بتجاهل ما كان يجري وتترك الشر يأخذ مجراه . أن تلعب

دور العميـاء يعني أن تتجنب اللغة التي نطق بها الرب . لم يكن يرسل التعليمات رعداً أو يهمس الرسائل في الآذان . أوه ، كلا . كان رباً محرّراً . كان معلّماً علمكم كيف تتعلمون ، أن تروا بأنفسكم . كانت إشاراته واضحة ، إلى حد كبير ، لو أنكم توقفت عن الانغماس في عصير الغرور الحامض واهتممتم بعالم الرب . لقد أرادها أن تسمع الرجال الذين اجتمعوا في «الفرن» ليقرروا أو يصمموا كيف يطردون نساء «الدير» ، ولو أرادها [الرب] أن تشهد ذلك . فلابد أنه يريدها أن تفعل شيئاً ما حيال ذلك . في البداية لم تكن تعرف ما يجري ، أو ما تفعل . لكن كما في الماضي حين كانت متحيرة ، فقد أغمضت عينيها وهمست : «سيفعلون . سيفعلون» . عندها ارتفعت الأصوات ، وسمعت بوضوح وكأنها تقف بينهم ما كان يقول واحدهم للآخر وما كانوا يعنون . ما الذي نطقوا به أو لم ينطقوا به .

كان هناك تسعة منهم . البعض كان يدخن والبعض يتنهد ، وذلك حين بدأوا الواحد إثر الآخر بالكلام . الكثير ممّا قالوه سمعته لون من قبل ، رغم أن ذلك كان دون الحراشف الخشنة التي راحت تنمو للكلمات وهي تتسلل كالثعابين عبر هواء الليل . لم يكن الموضوع جديداً ، ولكن لم يكن فيه أي من المتعة التي يجري بها معالجة الموضوع حين يكون ذلك من منبر الكنيسة . كان القس كاري قد تكلم عن الموضوع في موعظة استقبلت على نحو جيد فقام بتضمين نسخة عنها في كل يوم أحد .

«ما الذي تخليتم عنه حتى تعيشوا هنا ؟» هكذا سأل وهو يشدّد على كلمة «تخليتم» مثل مغنية سوبرانو . «ما التضحية التي تريدون القيام بها كل يوم لتعيشوا في جمال الرب وكرمه وسلامه ؟» .

«قل لنا أيها المحترم . هيا» .

شهق القس كاري : «أقول لكم ماذا ؟» .

«نعم يا سيدي» .

«هيا تابع» .

كان القس كاري قد رفع يده اليمنى في الهواء وكورها إلى قبضة . ثم بدأ يعدّ أصبعاً أصبعاً ما حرمت رعية الكنيسة نفسها منه .

«التلفزيون» .

ضحكت الرعية .

«الديسكو» .

ضحكوا بمرح بصوت أعلى وهزوا رؤوسهم .

«الشرطة» .

هدروا بالضحك .

«السينما والموسيقى القذرة» ، تابع بأصابع من اليد اليسرى . «الشر في الشوارع ، السرقة في الليل ، القتل في الصباح . الشراب المسكر للغداء والمخدرات للعشاء . هذا ما تخليتم عنه» .

كان كل بند من البنود يستجر التنهدات والآهات الدالة على الأسف . كان كل عضو/ عضوة من أعضاء الرعية يستطيع أن يشعر بقلبه/ بقلبها مترعاً بالشفقة على أولئك الذين كانوا يتصارعون مع تلك «التضحيات» ، وقد عمّه الامتنان لأنه رفض تلك الشرور الحديثة الكئيبة القاسية الآثمة التي تختفي تحت قناع المسرات وأنه نجا منها .

ولكن لم تكن هناك من شفقة . هنا ، حين تكلم الرجال عن الدمار الذي لحق بهم : كيف أن روبي تتغير متحولة إلى أساليب لا يمكن احتمالها ، وأنهم لم يكونوا يفكرون بإصلاحها بمدّ يد الصداقة أو الحب . كانوا قد رسموا خريطة الدفاع بدلا عن ذلك وشحذوا الأدلة المطلوبة له ، حتى أصبحت كل قطعة تلائم حزاً مصقولاً على نحو مسبق . قلة منهم كانت تقوم

بكل الكلام ، والبعض قال القليل ولم يقل اثنان منهم شيئاً على الإطلاق ، ولكن رغم صمتهما ، عرفت لون أن القيادة كانت لتوأمين .

أتتذكرون كيف حوّلن الزفاف إلى فضيحة ؟ ما رأيكم ؟ هاهه ، وكان ذلك هو اليوم نفسه الذي رأيتهن فيه تقبّلن الواحدة الأخرى في المقعد الخلفي من تلك الكاديلاك الزرية المظهر . في ذلك اليوم نفسه ، وكأن ما حدث ما كان كافياً لإرضاء الشيطان ، فإن اثنتين أخريين منهما . كانتا تتعاركان في التراب . في التراب . يا إلهي ، أكره المرأة الماجنة . قالت سويتي إنهن بذلن قصارى جهدهن ليدسسن لها السم . وقد سمعت ذلك أيضاً . لقد علقت هناك في عاصفة ثلجية على الطريق والتجأت إليهن . كان عليها أن تحذرهن . أنتم تعرفون سويتي . على أي حال قالت إنها سمعت أصواتاً تنبعث من مكان ما في ذلك المنزل . بدت لها الأصوات كأنها لأطفال صغار يبكون . ما الذي يفعله بحق الله أطفال صغار هناك ؟ أأنتم تسألونني ؟ مهما يكن الأمر ، فهو ليس طبيعياً . حسناً ، لقد كان يؤوي فتيات صغيرات ، أليس كذلك ؟ حسناً أتذكر . قيل إنها كانت مدرسة . مدرسة لأي شيء ؟ ما الذي يعلّمنه هناك ؟ سارجنت ، ألم تجد الماريجوانا تنمو في وسط حقل الفصة خاصتك ؟ أجل . لقد حصل ذلك بكل تأكيد . وهذا لا يدهشني . كل ما أعرفه هو أنهن ضربن آرنيت حين ذهبت إلى هناك لتواجههن حول الأكاذيب التي قلنها لها . تعتقد هي أنهن احتفظن بطفلها وقلن لها إنه ولد ميتاً . تقول زوجتي إنهن أجهضنها . هل تصدقون ذلك ؟ لا أعرف ، ولكني ما كنت لأبرئهن من فعل ذلك . ما أعرفه هو أن وجهها كان في حالة مزرية . لا يمكننا احتمال هذا يا رجال . لقد حكى لي روجر أن الأم الرئيسة - تعرفون المرأة العجوز البيضاء التي اعتادت أن تتبضع من هنا أحياناً ؟ - حسناً ، قال إنها حين توفيت كانت تزن أقل من خمسين باونداً وتلتمع

كالكبريت . يا يسوع! قال إن الفتاة التي أوصلها بسيارته إلى هناك كانت تغازله علناً . تلك هي التي تبقى نصف عارية طوال الوقت ؟ كنت أعرف أن هناك شيئاً ليس على ما يرام منذ أن نزلت من ذلك الباص . كيف حصلت على باص للوصول إلى هنا على أي حال ؟ خمنوا ، لماذا تخمنون ؟ تعتقدون أن لديها قوى خفية ؟ أعرف أن لديهن قوى خفية . والسؤال هو من قوته أقوى . لم لا يغادرن المكان فحسب ؟ هل كنتم تغادرون لو كان لديكم منزل كبير عتيق دون أن تضطروا للعمل من أجله ؟ يحدث شيء ما هناك ، ولا أحب أي شيء مما يجري هناك . لا رجال . يقبلن بعضهن البعض . أطفال مخبؤون . يا يسوع! لا نعرف ماذا أيضاً . انظروا إلى ما حدث لبيلي ديليا بعد أن بدأت تتسكع حول ذلك المكان هناك . لقد أوقعت أمها على الدرج وهربت إلى ذلك المكان مثل خنوص يطارد حلمة الثدي . سمعت أنهن يشربن الكحول بكميات هائلة أيضاً . كانت المرأة العجوز ثملة على الدوام في كل مرة رأيتها فيها . وهل تتذكرون أول الكلمات التي تلفظن بها حين أتين إلى الزفاف ؟ طلبن أي شيء يشربنه وحين حصلن على كوب من الليمونادة ، تصرفن وكأنهن تعرضن للبصاق عليهن وخرجن من الباب . أتذكر ذلك . ساقطات . أشبه بالساحرات ، ولكن يا أخي العظام وصلت بالأمر إلى نهايته . لا أصدق أن أسرة بكاملها ماتت هناك دون أن يعرف أحد بذلك . لم يكونوا بعيدين إلى ذلك الحد ، هل تفهمون ما أعني ؟ لا يمكنني أن أصدق أنهم تركوا الطريق وتاهوا في حقل وهناك منزل كبير عتيق على مسافة أقل من ميلين عنهم . كانوا سيرونه . لا بد من ذلك . كان الرجل سيخرج ويمشي إليه ، هل تفهمون ما أعنيه ؟ كان باستطاعته أن يفكر تفكيرا عقلانيا ، أليس كذلك ؟ وحتى لو لم يستطع ذلك لاستطاع أن يرى . كيف يمكنك ألاّ ترى منزلاً بذلك الحجم هناك في أرض منبسطة مثل

رأس مسمار ؟ أتقولون إن لهن علاقة بالأمر ؟ اسمعوا . لم يحدث أي شيء أبداً في هذه النواحي مثلما يحدث الآن . قبل أن تصل تلك البقرات الصغيرات إلى البلدة ، كانت هذه مملكة يملؤها السلام . الأخريات اللواتي كن قبلهن هناك كان لديهن بعض الورع . هؤلاء المومسات هناك لوحدهن لا يدخلن كنيسة أبداً وأراهن على دولار مقابل خمسة سنتات سمينات أنهن لا يفكرن بذلك أبداً . هن لسن في حاجة إلى الرجال ولا إلى الرب . لا أستطيع أن أقول إنه لم يتم تحذيرهن . لقد طلبنا منهن أولاً ثم حذرناهن . لو بقين لوحدهن لكان ذلك شيئاً آخر . ولكنهن لا يفعلن ذلك . إنهن يتطفلن . إنهن يجذبن الناس إلى هناك كما ينجذب الذباب إلى البراز ، وكل شخص يقترب منهن يصاب بتشوه ما وها هي الفوضى تتسلل إلى بيوتنا وعائلاتنا . لا نستطيع تحمل ذلك ، وأنتم كذلك . لا نستطيع تحمله إطلاقاً .

وهكذا ، فكرت لون أن الأنياب والذيل موجودة في مكان آخر . هناك في مكان بعيد كان كل ما هو زلق موجود في منزل مليء بالنساء . لم يكن نساء آمنات في حرص حريص بعيداً عن الرجال ، ولكن ما هو أسوأ ، نساء اخترن صحبة بعضهن البعض ، أي ليس ديراً بل مجمع ساحرات . هزت لون رأسها وعدلت «النعناع المزدوج» خاصتها . كانت تصغي بفتور إلى الكلمات ، محاولة أن تحزر الأفكار التي وراءها . بعضها فهمته فوراً . سارجنت ، كما عرفت ، سيومئ برأسه عند كل جزء من أجزاء الإشاعة ، واضعاً نهاية رقعة الحقيقة ومتسائلاً بصوت مرتفع لم لا تستطيع هذه البلدة الجميلة عن عمد التي يحكمها رجال مسؤولون أن تبقى كما هي : مستقرة ومزدهرة دون شبان يردون على الكلام بفظاظة . لم يريدون الرحيل وتأسيس أسر (وزبائن) في مكان آخر ؟ ولكنه سيأخذ بالتفكير في مسألة كم ستكون نفقاته أقل لو أنه امتلك أرض الدير وكيف أنه لو رحلت النساء من

هناكَ فسيكون في وضع أفضل لوضع يده عليه . عرف كل واحد منهم أنه سبق له وزار «الدير» : «ليحذرهن» ، أي أنه عرض شراء المكان ، وحين كان الجواب تحديقة غير مفهومة ، طلب من المرأة العجوز أن «تفكر بعناية» وأن «الأمور الأخرى يمكن أن تحدث لتخفيض السعر» . كان ويزدوم بول يتطلع إلى سبب ليشرح لماذا لم تعد لديه سيطرة على إخوته وأخواته . أن يشرح كيف حدث أن أولئك الذين اعتادوا أن يعبدوه ويصغوا إليه ، كانوا الآن تائهين محاولين أن يستقلوا بأنفسهم . إطلاق النار الذي جرى في العام الماضي بين برود وأبولو كان تنافساً على بيلي ديليا وهو سبب كاف بالنسبة إليه لجعلهما يسافران طلباً للمتعة ولرمي بعض النساء على الطريق . كانت بيلي ديليا على علاقة طيبة مع أولئك النسوة ، وجعلت واحداً من الأخوة الأصغر سناً يوصلها بالسيارة إلى هناك ، وبعد ذلك تحولت المشكلة بين أبولو وبرود إلى مشكلة خطيرة ، لم يكن أي منهما قد سمع أوامر ويزدوم بألا يتكلم مع أو ينظر إلى تلك الفتاة ثانية . والنتيجة كانت توراتية : رجل يكمن لأخيه حتى يذبحه . أما بالنسبة إلى أرنولد وجف فليتوود ، حسناً ، فهما يريدان أن يلوما شخصاً ما على أطفال سويتي منذ فترة طويلة . ربما كان الخطأ من القابلة ، وربما من الحكومة ، ولكن القابلة لا يمكن سوى أن تصرف عن العمل والحكومة ليست مسؤولة ، ورغم أن لون قد ولَدت بعضاً من أولاد جف المرضى قبل فترة طويلة من وصول المرأة الأولى ، إلا أنهم ما كانوا ليدعوا شيئاً صغيراً كهذا يمنعهم من إلقاء اللوم على أي شيء آخر عدا دمائهم . أو دم سويتي . مينوس : حسناً سيكون جاهزاً للإغارة على أي شخص . إنه ينفق الأسابيع هناك لا يفعل شيئا ، فيجعلك تظن أنه ممتنّ . لابد أن أولئك النسوة قد شهدن بعض الأشياء ، رأين بعض الأشياء التي لا يريد هو أن تخطر لذهن أي شخص في حال لفظتها شفاههن . أو ربما كان الأمر

مجرد محو للعار الذي كان يشعر به لأنه ترك هاربر والآخرين يقنعونه بألاّ يتزوج من تلك المرأة التي جلبها إلى بيته . تلك الفتاة الجميلة الحيوية التي قالوا له إنها ليست مناسبة له . قالوا إنها أشبه بامرأة ملذات منها بعروس . تظاهر أنه كان يسكر بسبب ما فعلته به فييتنام ، ولكن لون ظنت أن خسارته لتلك الفتاة الجميلة الحيوية كانت السبب الحقيقي . لم تكن لديه الشجاعة ليرحل ويذهب ليعيش معها في مكان آخر . بل اختار بدلاً عن ذلك أن يستسلم لحكم أبيه وجعله يدفع سعراً جيداً لذلك : القبول بعلته دون شكوى . إن التخلص من بعض النساء المستقلات اللواتي كن قد نظفن ما خلفه من قذارات وغسلن ملابسه الداخلية ومسحن قيأه وأصغين إلى لعناته وبكائه ، هذا التخلص قد يقنعه لفترة بأنه كان بالفعل رجلاً غير ملوث بضعف أمه ، يستحق صبر أبيه وأنه كان محقاً في ترك المرأة الحيوية ترحل . لم تكن لون قادرة على عدّ المرات التي جلست خلالها في « نيوتسيون » وسمعت أباه ، هاربر ، يبدأ بالإدلاء بشهادته ، فيبدأ بسرد خطاياه هو وينتهي بذكر النساء الفالتات من عقالهن اللواتي يستطعن منعك من معرفة من وماذا وأين هم أطفالك . لقد تزوج امرأة من آل بلاكهورس ، كاثرين ، وجعلها تقلق حتى تصاب بمرض عصبي في جهاز هضمها وهو يلاحقها فيما تفعله ومن تراه وهذا وذاك من الأمور ، وأنها كانت تربي ابنتها « كايت » على النحو الصحيح . زوجته الأولى ، أم مينوس ، مارثا ، لم تسعده . وكان الأمر سيئاً إلى حد أنه جعل ابنهما الوحيد ينسى ذلك . ثم كان هناك « ك . د . » رجل العائلة . التحدث عن مدى غرابة واحدة من فتيات « الدير » أولئك وكيف عرف الأمر مباشرة ما أن رآها تنزل من الباص . هاها . إنه أب الآن لابن في الشهر الرابع كامل الأصابع واليدين والقدمين ، ومن يعرف ربما بدماغ كامل أيضاً ، وذلك بفضل ذلك الطبيب الراغب في معالجة السود في

دمبي . لذلك قام هو وآرنيت بالتعالي على لون ، ومهما كانت آرنيت سعيدة الآن وراغبة في إلقاء لوم «خطئها» السابق على نساء «الدير» اللواتي تحايلن عليها ، فإن «ك . د .» سيكون لديه حقد آخر . الفتاة التي يلحق باسمها العار الآن كان قد طاردها خلسة لسنوات حتى رمته خارج الباب . لابد من مجموعة كاملة من الأطفال الأصحاء حتى ينسى ذلك . إنه من آل مورغان ، على أي حال ، وهم لم ينسوا شيئاً منذ عام (١٧٥٥) .

فهمت لون هذه الأفكار الخاصة وبعضاً من دافع ستيوارد وديكون : ولاواحد منهما يصبر على ما لا يستطيع التحكم به . ولكنها لم تستطع أن تتخيل حقد ستيوارد : نكده من فكرة أن حفيد أخته (ربما ؟) قد أوذي أو قتل في ذلك المكان . كانت تلك بثرة تسري في مجرى دمه ، وهي لا تتقلص ولا يصبح لها رأس صديدي . ولا كانت هي [لون] قادرة على تخيل كم كانت قد تعمقت في دماغه ذكرى كيف أن أخاه كاد ينهي زواجه من سوآن . كيف أن ديك انزلق بعيداً عن المسار وهو يتطلع إلى تينك العينين السمّ والسامتين . ظل الاثنان يلتقيان لشهور بحالها سراً ، ولشهور بحالها كان ديك مذهولاً ، يرتكب الأخطاء ولنفترض أن الفتاة قد حملت ؟ حملت بطفل هجين ؟ كان سيتوارد يتحرق من فكرة تلك الخيانة لكل ما يدين به للآباء القدماء وما وعدهم به . ولكن الخيانة التي هرب منها بالكاد ، الخيانة ضد قانون الآباء ، قانون الاستمرار والتكاثر ، قد تم التغلب عليها بالتهديد الدائم لوجهة نظره المفضلة عن نفسه وأخيه . كانت النساء في «الدير» بالنسبة إليه حكاية ساخرة متباهية للسيدات الزنجيات التسع عشرة الموجودات في ذاكرته وذاكرة أخيه وتفاهمهما الكامل . كن انحطاط تلك اللحظة التي تشاركا فيها ، لحظة البشرة وزهرة رعي الحمام المضاءتين بنور الشمس . هؤلاء النسوة [من الدير] بقهقهاتهن الجاهلة قد أسأن إلى

اللهجات العذبة ورنين الضحك المرح والمرحب لأولئك النسوة التسع عشرة اللواتي كان من المفروض أن يعشن إلى الأبد في أحلام ملونة بألوان الباستيل ، قد أصبح مقدراً عليهن الاندثار بسبب هذا النوع الجديد الداعر من النساء . ما كان قادراً على تحملهن لأنهن لطخن تاريخه الشخصي بملابس العاهرات خاصتهن وشهية المومسات خاصتهن . كن يسخرن من ويدنسن الرؤيا التي حملته هو وأخوه عبر الجرب وصبغت زواجهما ودعمت جهودهما لبناء بلدة يمكن للرؤيا أن تزدهر فيها . ما كان ليسامحهن أبداً على ذلك ولن يحتمل هذه الخسارة للمحبة .

كما لم تكن لون تعرف عن نهر الجليد الذي هو غرور ديكون مورغان في حجمه المخفي وتعاظمه وسكونه . كانت تعرف عن علاقته القديمة مع كونسولاتا . ولكنها لم تكن قد عرفت مدى عاره الشخصي أو فهمت أهمية محو كل من العار ونوع المرأة التي اعتقد أنها مصدر ذلك . امرأة لا يمكن التحكم بها ، امرأة قارضة عضت له شفته لتلعق الدم الذي نزف منها ، امرأة غريبة جميلة ذات بشرة ذهبية لها عينان بلون الطحلب الأخضر حاولتا إيقاع الرجل في الفخ ، ثم حبسه في غرفة في القبو مع الشراب المسكر لإضعافه حتى يقوما بأشياء شهوانية وأمور غير طبيعية في الظلام . إنها «سالومي» التي هرب منها في الوقت المناسب أو أنها كانت ستحظى برأسه على طبق العشاء . تلك المرأة النهمة التي تمارس الحب على الأرض والتي لم تغادر حياته بل شقت طريقها بالمراوغة إلى عواطف سوآن و ـ كما كان يشك ـ قد زودتها بأدوية شريرة لجعلها أقل حباً له مما كانت ولم يكن السبب في ذلك الجمود الذي أصابها هو حزنها الأبدي على ابنيهما ، إنما ما تبتلعه من تلك الأدوية التي تعطيها إياها المرأة التي حولت اسمها إلى نكتة ومحاكاة ساخرة لما يجب أن تكون عليه المرأة .

لم تعرف لون ولم تستطع أن تعرف كل ذلك ، ولكنها كانت تعرف بما فيه الكفاية وقد كشفت لها المصابيح اليدوية المعدات : أصفاد تلمع وحبل ملفوف ولم يكن عليها أن تخمن ما كان معهم أيضاً . خطت بنعومة وشقت طريقها على امتداد حافة الجدول نحو سيارتها . همست : «سيفعلون ذلك . سيفعلون ذلك» . مقتنعة بأن ما سمعته واستنتجته لم يكن تبطلاً . فالرجال لم يأتوا إلى هنا لمجرد القيام بتدريب . وشأنهم شأن مجندي مركز تدريب البحرية ، شأن الغزاة الذين حضروا أنفسهم للذبح ، فقد كانوا هناك ليهذروا وليحمّوا دماءهم أو يتحولوا إلى جليد حتى ينفذوا المهمة على نحو أفضل . أحد الأمور على نحو خاص كان مفهوماً لها بسرعة : الصوت الوحيد غير المغنّي كان صوت الشخص الذي يقود الجوقة .

*

«أين ريتشارد ميسنر ؟» لم تكترث لون بإلقاء التحية . كان قد قرعت باب ميسنر ، ثم دخلت المنزل لتجده مظلماً وفارغاً . كانت الآن قد أيقظت أقرب جيرانه ، فرانسيس بول دوبري من نومها . أنّت فرانسيس .

«ما الذي جرى لك يا لون ؟» .

«قولي لي أين ميسنر» .

«لقد ذهبا إلى موسكوغي . لماذا ؟» .

«هما . من هما ؟» .

«القس ميسنر وآنا . هناك مؤتمر . لم أنت في حاجة إليه في هذا الوقت من الليل ؟» .

«أدخليني» ، قالت لون ثم مرت عبر فرانسيس إلى غرفة المعيشة .

قالت فرانسيس : «تعالي إلى المطبخ» .

«لا وقت لدي» وصفت لون الاجتماع : «مجموعة كاملة من الرجال يخططون لشيء ما ضد «الدير» . آل مورغان وآل فليتوود وآل ويزدوم أيضاً . سيلاحقون النسوة هناك» .

«يا إلهي ، أي نوع من الفوضى هذا ؟ هل سيبثون الرعب في قلوب أولئك النسوة في منتصف الليل ؟» .

«يا امرأة ، اسمعيني . هؤلاء الرجال يحملون بنادق مع أجهزة تسديد عليها» .

«هذا لا يعني شيئاً . لم يسبق أن رأيت أخي يذهب إلى أي مكان دون بندقيته ، إلاّ إلى الكنيسة ، وحتى في تلك الحالة فهو يبقي البندقية في السيارة» .

«لديهم حبل أيضاً يا فراني» .

«حبل ؟» .

«ثخنه بوصتان» .

«ما الذي تظنينه ؟» .

«نحن نضيع الوقت . أين سات ؟» .

«نائم» .

«أيقظيه» .

«لن أزعج زوجي من أجل بعض النساء المجنونات» .

«أيقظيه يا فراني . لست مجنونة وأنت تعرفين ذلك» .

*

كانت أول القطرات دافئة وسمينة ، تحمل رائحة نبتة المجنون البيضاء والصبير من مناطق في الشمال والغرب . وقد تحطمت على زهور البشلشكة

وزهرة البوق الصحراوية وانزلقت من أوراق الهندباء البرية . لقد تدحرجت مليئة ومنزلقة مثل حبات الزئبق فوق الأرض المتشققة بين صفوف الحديقة . وحين جلسوا في نور المطبخ ، فإن لون وفرانسيس وسات دوبري استطاعوا أن يروا بل ويشموا هطول المطر ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يسمعوه ، إذ كانت القطرات ناعمة ملساء .

لم يكن سات مقتنعاً بضرورة تلبية طلب لون بأن يندفع خارجاً ويوقفهم ، ولكنه وافق على التكلم مع القس بوليام والقس كاري في الصباح . قالت لون إنه مع الصباح سيكون قد تأخر كثيراً ثم انطلقت مسرعة لتجد شخصاً ما لا يكلمها كأنها طفلة غير قادرة على الاستيقاظ من كابوس . كانت آنا فلود قد رحلت . لم تكن تستطيع الذهاب إلى سوآن بسبب ديك . وبما أن «ك . د .» وآرنيت قد أخذا المنزل الذي اعتاد مينوس امتلاكه ، فإن دافي مورغان لن تكون في البلدة . فكرت في كايت ولكنها كانت تعرف أنها لن تقف في وجه أبيها . فكرت في بينيلوبه ولكنه صرفتها من ذهنها ، بما أنها لم تكن متزوجة من ويزدوم فحسب ، بل وهي ابنة سارجنت أيضاً . أدركت لون أنه سيكون عليها الذهاب إلى المزارع ، إلى أناس كانت تثق أنهم لا يدعون العلاقات الأسرية تعمي عقولهم . كانت مساحات المطر الصالحة للعمل نعمة غير متوفرة ، لذلك راحت لون وهي تدير العلكة في فمها ، تركز على أن تقود بحرص وبعناية . قادت السيارة عبر «الفرن» المهجور ، وقد سرّت لأنها حصلت على ثمار البودوفلون الدرقي في الوقت الملائم ، ولاحظت أنه لم يكن هناك نور في بيت آنا أو في منزل ديك مورغان وراءه . أغمضت لون عينيها نصف إغماضة لتعبر الأميال القليلة من الطريق الترابي بين روبي والريف . كان يمكنها أن تكون امتداداً مليئاً بالمشاكل لأن الأرض كانت تمتص المطر الآن ، وتنفخ جذور النباتات العطشى وتشكل جداول صغيرة أنى شاءت .

ساقت السيارة ببطء ، مفكرة في أنه لو كانت هذه المهمة شيئا أراده الرب ، فلاشيء سيوقفها . في منتصف الطريق إلى منزل آرون بول توقفت الأولدزموبيل في حفرة إلى جانب الطريق .

*

حين كانت لون دوبري تحاول تجنب لوحة «البطيخ المبكر» ، كان الرجال ينهون بحث التفاصيل وهم يتناولون القهوة وشيئاً أقوى لمن يرغب به . لم يكن أي منهم مدمناً على الشراب ، باستثناء مينوس ، ولكنهم لم يعترضوا على مزج قهوة هذه الليلة . خلف مبنى سارجنت الأشبه بالحظيرة ، حيث تتم المتاجرة ، وخلف الحقل الصغير الذي احتفظ فيه بجياد ذات مرة ، كان هناك كوخ صغير . كان يصلح فيه المسامير ـ أضحت هواية الآن ولم تعد خدمة يتقاضى أجراً عليها ـ حيث يتأمل كما ويتجنب النساء في عائلته . كان الكوخ مكان راحة ذكرية ، ومجهزاً بموقد صغير ، ومجمدة ، وطاولة عمل وكراسي ، وكلها على أرضية غير قابلة للتدمير . كان الرجال قد بدأوا للتو في النفخ في فناجيهم حين بدأ المطر بالهطول . بعد جرعات قليلة انضموا إلى سارجنت في الباحة لينقلوا الأكياس ويغطوا المعدات بأقمشة مشمعة . حين عادوا وقد بللهم المطر ، إلى الكوخ ، وجدوا أنفسهم خفيفي الروح وجائعين فجأة . اقترح سارجنت تقديم شرائح لحم العجل لهم ودخل إلى بيته للحصول على المطلوب لإطعام الرجال . سمعته بريسيلا ، زوجته ، وعرضت المساعدة ، ولكنه أعادها إلى فراشها بصرامة . راح هطول المطر المعطر يقرع كالطبل . كان الجو في الكوخ مشجعاً ورفاقياً والرجال يأكلون شرائح العجل السميكة المحضرة بالطريقة التقليدية والمقلية في مقلاة ساخنة جداً .

* * *

كان عطر المطر أقوى إلى الشمال من روبي ، وخاصة عند «الدير» ، حيث كان البرسيم الأبيض الكثيف ونبات المكنسة الاسكوتلندية يستعمران كل مكان عدا الحديقة . نهضت مايفيس وبالاس من النوم من شدة فوحان العطر ، واندفعتا لتخبرا كونسولاتا وغريس وسينيكا أن المطر الذي طال انتظاره قد هطل أخيراً . كن مجتمعات عند باب المطبخ ، فراقبن في البداية ، ثم أخرجن أيديهن ليشعرن بالمطر . كان أشبه بالغسول على أصابعهن لذلك دخلن تحت المطر وتركنه ينصب مثل البلسم على رؤوسهن الحليقة ووجوههن المرفوعة إلى أعلى . بدأت كونسولاتا بالأمر . وسرعان ما انضمت إليها الأخريات . هناك أنهار عظيمة في العالم وعلى ضفافها وعلى حواف المحيطات يشعر الأطفال بالإثارة أمام الماء . في الأماكن التي يكون فيها المطر خفيفاً فإن الإثارة تكاد تكون جنسية . ولكن تلك الأحاسيس تنحني أمام نشوة النساء المقدسات الراقصات في المطر العذب الحار . كن سيضحكن لولا أن السحر كان عميقاً جداً . لو كانت هناك أي ذكريات عن تحذير سابق أو تهديدات بالأذى ، فإن المطر الذي لا يقاوم كان سيغسل ذلك كله نهائياً . عانقت سينيكا الصباح المعتم ثم تركته يذهب . شاهدت غريس التنظيف الناجح للقميص الأبيض الذي ما كان يجب أن يلطخ أبداً . تحركت مايفيس تحت رجفة بتلات زهرة شارون التي كانت تدغدغ بشرتها . أمسكت بالاس التي كانت قد ولدت صبياً رقيقاً أمسكت به قريباً منها بينما راح المطر يغسل امرأة مخيفة على مصعد وكل الخوف من ماء أسود . كونسولاتا ، التي كانت قد بقيت في البيت بسبب الرب الذي ناشدها في الحديقة ، كانت الراقصة الأشد جنوناً ، ومايفيس الأكثر أناقة . رقصت سينيكا وغريس معاً ، ثم افترقتا لتقفزا في الوحل الطازج . بالاس التي راحت تمسد حبات المطر من رأس ابنها . راحت تتأرجح كورقة سرخس .

*

بعد أن خرجت من الحفرة ، بحثت لون عن دوبري . كانت فد تربت لدى تلك الأسرة التي أنقذتها وعلمتها إحدى بناتها ، وعلاوة على ذلك ، فقد عرفت من أي معدن هم . بايوس دوبري ابن بوكر دوبري وابن أخ جوفينال دوبري الشهير ، كان أول اختيار لها . وشأن آل مورغان وبلاكهورس فقد كانوا مسرورين بأن يكونوا من نسل الرجال الذين حكموا في مباني المجلس التشريعي للولاية ، ولكن خلافاً لهم كانوا أكثر اعتزازاً بالأجيال الأسبق : حرفيون وصانعو بنادق وخياطون وصانعو أشرطة وإسكافيون وحدادون ومعماريون كانت أعمالهم الجدية قد سرقت منهم من قبل المهاجرين البيض . كان تقديرهم الأعمق للأجيال التي شهدت دكاكينهم تحترق وورداتهم ترمى من فوق متن السفن . وبسبب أن المهاجرين البيض لم يستطيعوا أن يثقوا بالتنافس العادل أو أن ينجحوا به ، فقد ألقي القبض على هؤلاء الناس وتم تهديدهم وتطهيرهم وإزالتهم من الحرف والأعمال الماهرة . ولكن العائلات تمسكت بما استطاعت وبما كسبت من عام (١٧٥٥) ، حين حمل أول دوبري فوطة بيضاء فوق ذراعه وكتاب صلاة في جيبه . لم يكن الإيمان الذي دعمهم كئيباً . جعلتهم الفضيلة والطيبة غير المتوقعة يبتسمون . سما الورع المتعمد بقلوبهم كما لا يستطيع أي شيء آخر . لم يكونوا دائماً عارفين ما هو الأمر ، ولكنهم أنفقوا كثيراً من الوقت محاولين أن يكتشفوا . قبل أن ينتخب جوفينال بوقت طويل للمجلس التشريعي للولاية ، كان حوار العشاء على مائدة آل دوبري يركز على المشاكل التي يعاني منها كل عضو ، وكيف يمكن لكل فرد وللجميع أن يعالجوا الأمر أو يقدموا المساعدة . وكان الدور دائماً على أخلاقيات الفعل ، ووضوح الدوافع ، وسواء كان سلوك ما سيعلي مجد الرب ويبقي على ثقته . ما كان أي واحد من آل دوبري الحاليين يحب نساء

«الدير» أو يستحسنهن ، ولكن ذلك كان بعيداً عن المسألة . لقد أهانتهم أفعال برود وأبولو . كان ويزدوم بول أخاً لكنّتهم ، وفي مساهمة هذين في مجموعة تنوي إلحاق الأذى بالنساء ـ لأي سبب كان ـ فإنهما سيريان بسرعة نتيجة أعمال الوحش . وهذا ما حصل . حين قالت لون لهم ما سمعته وعرفته ، لم يضيع بايوس أي وقت . لقد طلب من زوجته ، ميليندا ، أن تذهب إلى منزل آل بوشامب ، وأن تقول لرن ولوثر أن يأتيا إليه . سيذهب هو ولون إلى ديد ساندز وآرون بول . قالت ميليندا إن عليهما أن يبلغا دافي ، ولكنهما لم يتفقا على كيفية فعل ذلك إن كان ستيوارد هناك . لم تعرف لون إن كانوا قد سبق لهم وانطلقوا نحو «الدير» أو كانوا ينتظرون الفجر ، وقالت إن شخصاً ما يجب أن يخاطر ويبلغ دافي ، التي تستطيع لو شاءت أن تبلغ سوآن بما يحدث .

*

كانت النساء متعبات من رقصهن الليلي إنما سعيدات ، حين عدن إلى المنزل . رحن يجففن أنفسهن ويطلبن من كونسولاتا أن تحكي لهن مجدداً عن «بيداد» ، بينما رحن يزيتن شعورهن بزيت الغلطيرة المسطحة .

«جلسنا على ممشى الشاطئ . غسلتني بماء زمردي . كان صوتها يجعل النساء الفخورات يبكين في الشوارع . كانت النقود تسقط من أصابع الفنانين والشرطة ، ورجانا أكبر طهاة البلد أن نأكل من طعامهم . كان لدى «بيداد» أغان يمكنها أن تثبت موجة في مكانها ، تجعلها تتوقف في انثناءتها لتصغي إلى لغة لم تسمعها منذ انفتح البحر . الرعاة بطيور ملونة على أكتافهم نزلوا من الجبال ليتذكروا حياتهم في أغانيها . رفض المسافرون الصعود إلى متن سفن متجهة إلى الوطن بينما كانت تغني . في الليل

أمسكت بالنجوم من شعورها ولفتني في صوفها . كان أنفاسها تفوح بالأناناس والكاجو...» .

*

نامت النساء واستيقظن ونمن مجدداً مع صور الببغاوات وأصداف البحر الكريستالية وامرأة تغني ولم تتكلم أبداً .في الرابعة صباحاً استيقظن ليتحضرن لليوم . خلطت إحداهن العجين بينما أشعلت الأخرى الفرن . جمعت الأخريات الخضار لوجبة الظهر ، ثم جهزن طعام الفطور . كان الخبز المعجون في أكوام ، يوضع في صفائح الخبز لخبزه .

*

كان نور الشمس يتوق للمعان حين وصل الرجال . كانت زرقة السماء المغسولة بالحجر صعبة على الكسر ، ولكن ما أن أوقف الرجال سياراتهم خلف أشجار السنديان وانطلقوا نحو «الدير» ، بعد أن دخلت الشمس عبر الشقوق . الزرقة الرائعة . راح ماء الليل يرتفع على شكل ضباب من البرك والشقوق التي امتلأت في كتف الطريق . حين يصلون إلى «الدير» ، يتجنبون الدوس على الحصى لأنها تحدث صوتاً بل يتحركون عبر العشب العالي وأقواس قوس القزح العرضية نحو الباب الأمامي . المخالب ، قد تختطف ستيوارد من هذا العالم . ربما كانت مرقشة وتلتمع من المطر ، وتحيط بالدرجات . وبينما يصعد بينها ، يرفع ذقنه ثم بندقيته ليفتح بالنار باباً لم يقفل أبداً . ينفتح الباب على مفاصله . تتبعه الشمس إلى الداخل ، منتشرة على جدران البهو ، حيث كان أطفال صغار منحوا صفات جنسية يلعبون الواحد مع الآخر عبر رش الطلاء . وفجأة تظهر امرأة لها البشرة البيضاء نفسها ، وكل ما يحتاجه

ستيوارد إلى أن يرى هو عيناها الحسيتان المقومتان حتى يضغط على الزناد مجدداً . يذهل الرجال الآخرون ولكنهم لا يتراجعون عن الخطو من فوقها . يعبثون بأسلحتهم ويشعرون فجأة أنهم شباب وصالحون فيتذكرون أن مسدساتهم أكثر من مجرد زينة أو إرهاب أو راحة . إنها مقصودة بذاتها .

ديك يعطي الأوامر .

ينقسم الرجال إلى مجموعات .

*

تسمع ثلاث نساء يحضرن الطعام في المطبخ صوت الطلقة . وقفة . طلقة أخرى . ينظرن بحذر عبر الباب المتأرجح . تظهر ظلال رجال مسلحين يدعمها النور من الباب الموارب وتدخل القاعة . تسرع النساء نحو غرفة الألعاب ويغلقن الباب ، وذلك قبل ثوان من دخول الرجال إلى القاعة . يسمعن وقع خطوات تمر وتدخل المطبخ الذي غادرنه للتو . لا نوافذ في غرفة الألعاب . النساء واقعات في فخ وهن يعرفن . تمر دقائق . يغادر أرنولد وجف فليتوود المطبخ ويلاحظان آثار زيت الغلطيرة المسطحة في الجو . يفتحون باب غرفة الألعاب . تتحطم منفضة سجائر من الألابستر على صدغ أرنولد ، ممّا ينعش المرأة التي تلوح بها . تستمر في الضرب حتى يقع على أطرافه الأربعة ، بينما يوجه جف ، الذي بوغت ، مسدسه متأخراً لحظة واحدة . يطير من يده . يرفع ذراعه أولاً للحماية ثم ليختطف العصا حين ينكسر إطار « كاثرين سيينا » فوق رأسه .

تعدو النساء نحو القاعة ، ولكنهن يتجمدن حين يرين شخصين يغادران المصلّى . وحين يركضن عائدات إلى المطبخ يكون هاربر ومينوس خلفهما . يمسك هاربر بخصر وذراع إحداهن . إنها ضئيلة الحجم ، لذلك لا يرى

المقلاة وهي تضرب جمجمته . يقع ويسقط مسدسه . أما مينوس الذي يبذل جهده ليقيد رسغي امرأة أخرى ، فيستدير حين يقع أبوه . المادة التي تغمر وجهه حارة جداً حتى أنه لا يستطيع الصراخ . يقع على ركبة واحدة وتصل يد امرأة إلى المسدس الذي كان يدور على الأرض . يمسك متألماً ونصف أعمى ، بكاحلها الأيسر . تسقط على الأرض وهي ترفس رأسه بقدمها اليمنى . وراءه تسدد امرأة سكين جزار وتغرسها عميقاً في عظم الكتف حتى أنها لا تستطيع أن ترفعها للطعنة الثانية . تتركها هناك وتهرب إلى الباحة مع المرأتين الأخريين ، فيفزعن الطيور أثناء ذلك .

لا يرى ويزدوم بول وسارجنت بيرسون القادمين من الطابق الثاني أي شخص . يدخلان غرفة الصف حيث ينصب النور عبر النافذة . يبحثان وراء المقاعد المدفوعة إلى الجدار حتى لو كان واضحاً أنه لا يمكن لأي شخص حتى لو كان طفلاً أن يختبئ هناك .

هناك في الأسفل تحت أعمدة طويلة بطيئة من «بلاك أند ديكر» يراقب ديك و«ك . د .» قذارة وعنفاً وانحرافات تتجاوز المخيلة . سجاجيد قذرة مرسومة على نحو جميل تغطي الأرض الحجرية . يداعب «ك . د .» بأصابعه صليبه الخشبي . يتحسس ديك جيب قميصه حيث يضع نظاراته الشمسية . كان قد فكر باستعمالها لأغراض أخرى ، ولكنه يتساءل إن كان يحتاجها الآن لتبعد عن بصره هذا البحر من الشذوذ الذي يومئ في الأسفل . لا أحد يجرؤ على الخطو فوقه . وها هما بعد أن وجدا تبريراً لتوقعاتهما ، يلتفتان ويصعدان الدرج . باب غرفة الصف مفتوح على سعته . يشير سارجنت وويزدوم أن يدخلا . إنهم مجتمعون عند النوافذ ، ويفهم الخمسة كلهم : النساء لا يختبئن . لقد أصبحن طليقات .

*

بعد وقت قصير من مغادرة الرجال لمنزل سارجنت ، يصل سكان روبي إلى «الفرن» . المطر قد أصبح أبطأ . برميل القمامة ممتلئ بالنفايات . الجدول قد أزبد ولكنه لم يطغ على شاطئيه . الماء يتسرب إلى تحت الأرض بدلاً عن ذلك . كان المطر الهاطل كالشلال من رأس الفرن يلاقي وحلاً مبقعاً برقاقات الجص الذي جرف من الآجر . يميل الفرن قليلاً إلى جانب واحد . الأرض المرصوصة التي يرتاح عليها قد تخربت . يذهب السكان بالشاحنات والسيارات ليقابلوا الرجال .

لا حاجة لدى أي من الأختين إلى الإقناع ، فكلتاهما تعرفان أن شيئاً ما كان يحدث . تطلب دافي من سوآن أن تقود السيارة . كلتاهما صامتتان مع أفكار عالية منطلقة كالصاروخ . راقبت دافي زوجها يحطم شيئاً ما في نفسه لمدة ثلاثين عاماً . وكلما كان يكسب ، كلما كان هذا الشيء يصبح أقل . والآن قد يكون آخذاً بتخريب كل شيء . هل شوشته خمس وعشرون سنة من النجاح المفرط ؟ هل كان يفكر في أنهم بسبب وجودهم بعيداً عن رجال القانون البيض قد أصبحوا فوق هذا القانون ؟ طبعاً لا أحد يستطيع أن يطلب زوجاً أكثر شغفاً ، إذ كان زواجهما يبدو كاملاً طالما تجاهلت الأجزاء غير الممكن معرفتها . ومع ذلك ، فهي تفتقد للمنزل الصغير المغلق حيث كان «صديقها» يزورها . لم يأت إليها سوى مرة واحدة منذ أخذ «ك . د .» المنزل وكان ذلك في حلم كان يتحرك فيه مبتعداً عنها . نادت عليه . التفت . الأمر التالي الذي عرفته كان أنها كانت تغسل له شعره . استيقظت مذهولة ، ولكنها مسرورة لأنها رأت يديها مبتلتين بالصابون .

تعاقب سوآن نفسها لأنها لم تكلم ديك فحسب ، لم تكلمه . كان عليها أن تقول له إنها تعرف كل شيء عن « كوني » . أن خسارتهما لطفلهما الثالث كان حكماً ضدها وليس ضده . بعد أن أنقذت كوني حياة سكاوت ، تبخر حقد

سوآن ضدها وبسبب أنهما أصبحتا صديقتين وفيتين ، فقد اعتقدت أنها غفرت لديك أيضاً . والآن راحت تتساءل ما إذا كان خوفها من الاختناق في هواء رقيق جداً على التنفس ، وحزنها الذي لم يتوقف على ابنيها ، وإبقاؤها الألم حياً برفض قراءة آخر رسائلهما ، ما إذا كان ذلك كله وسائل لمعاقبته دون أن يبدو عليها كذلك . على أي حال ، كانت واثقة من أن طرد نساء «الدير» له علاقة بزواجهما . هاربر وسارجنت وأرنولد ما كانوا بالتأكيد ليرفعوا يداً على أولئك النسوة لو لم يكن ديك وستيوارد قد فوضاهم وتلاعبا بعقولهم . لو أنها تكلمت فحسب قبل اثنتين وعشرين سنة . لو تكلمت فحسب .

حطمت دافي الصمت : «ما اعتقادك ؟» .

«لا أستطيع» .

«لن يؤذوهن ـ أليس كذلك ؟» .

أوقفت سوآن المساحات . لم تعد هناك حاجة إليها . «لا» ، أجابت .

«سخيفونهن . أي سيجعلونهن يهربن» .

«الناس يتحدثون عنهن طوال الوقت ، وكأنهن... قذارة» .

«إنهن مختلفات فحسب» .

«أعرف ، ولكن كان هذا كافياً من قبل» .

«هؤلاء نساء يا دافي . مجرد نساء» .

«عاهرات على أي حال ، وغريبات أيضاً» .

«دافي!» .

«هذا ما يقوله سيتوارد ، وإذا ما صدق ذلك...» .

«لا أهتم إن كن...» . لم تستطع سوآن أن تتخيل ما هو أسوأ . صمتت كلتاهما .

«تقول لون إن «ك . د .» هناك أيضاً» .

«سيكون» .

«أتظنين أن مايبل تعرف ؟ أو بريسيلا ؟» تسأل دافي .

«أشك في ذلك . لولا لون لما عرفنا نحن ؟» .

«أعتقد أن الأمر سيكون على ما يرام . آرون وبايوس سيوقفانهم عند حدهم . وعائلة بو شامب . حتى ستيوارد لن يتدخل في شأن لوثر» .

ضحكت الأختان عندئذ ، ضحكات صغيرة ملؤها الأمل ، وهما تواسيان نفسيهما وتسرعان عبر الهواء الرائع للفجر .

* * *

تستيقظ كونسولاتا . قبل ثوان ظنت أنها سمعت وقع خطوات تنزل . افترضت أن بالاس آتية لترضع الطفل النائم إلى القرب منها . تلمس الحفاضات لترى إن كانت هناك حاجة إلى تغييرها . شيء ما . شيء ما . تشعر كونسولاتا بالبرد . تفتح الباب فتسمع خطوات متراجعة ثقيلة جداً ، وكثيرة جداً على امرأة . تفكر في مسألة إزعاج طفل من نومه أم عدم إزعاجه . ثم وبسرعة تلبس ثوباً أزرق له قبة بيضاء وتقرر أن تترك الطفل على السرير . تصعد الدرج وترى على الفورً شكلاً ممدداً في الردهة . تركض إليها وتعانق المرأة بذراعيها وهي تمرغ خدها والجانب الأيسر من ثوبها بالدم . النبض في العنق موجود ولكنه ليس قويا ، والتنفس سطحي . تفرك كونسولاتا الزغب على رأس المرأة وتبدأ في «الخطو إلى الداخل» ، أعمق ، لتجد نقطة النور . تسمع طلقات من الغرفة التالية .

الرجال يطلقون النار من النوافذ على ثلاث نساء هاربات عبر البرسيم ونبات المكنسة الاسكوتلندية . تدخل كونسولاتا وهي تصرخ . «لا!» .

يلتفت الرجال .

تضيق كونسولاتا تحديقتها أمام الشمس ثم ترفعها وكأنها قد التهت بشيء ما عال فوق رؤوس الرجال . تقول : «لقد عدتَ» وتبتسم .

يحتاج ديكون مورغان إلى النظارات الشمسية ، ولكنها محشورة في جيب قميصه . ينظر إلى كونسولاتا ويرى في عينيها ما جف منهما ومن نفسه أيضاً . هناك دم قرب شفتيها . يخطف هذا أنفاسه . يرفع يده ليوقف يد أخيه وليكتشف من منهما الأقوى . تخترق الرصاصة جبينها . تصرخ دافي . سوآن تحدق .

*

«هذا الاحتضار قد يستغرق وقتاً» . لون تواقة إلى «النعناع المضاعف» وهي توقف النزف من جرح المرأة البيضاء . حملتها هي و«رن» إلى الأريكة في غرفة الألعاب . لا تستطيع لون سماع نبضات القلب ، ورغم أن نبض العنق لا يزال موجوداً فقد غادر الكثير من الدم جسم هذه المرأة ذات الرسغين الصغيرين كماهما رسغا طفل .

تصرخ : «هل ذهب أحد لينادي على روجر ؟» .

يرد عليها أحدهم : «نعم» .

تسبب لها الضجة خارج الغرفة صداعاً مع رغبة شديدة في المضغ . تترك لون المرأة لترى ما يمكن عمله لإنقاذ حياة أو اثنتين في هذه الفوضى .

دافي تبكي على الدرج .

«دافي ، عليك أن تسكتي الآن . أحتاج إلى امرأة مفكِّرة . ادخلي إلى هنا واحصلي على بعض الماء . حاولي جعل تلك الفتاة هناك تشربه» . تجرها نحو المطبخ حيث سوآن .

في وقت أسبق كان ديكون مورغان قد حمل كونسولاتا إلى المطبخ ،

حاملاً إياها بين ذراعيه خلال الوقت الذي كانت فيه النساء تخلي المنضدة . وضعها هناك بعناية ، وكأن أي حركة قاسية كانت ستؤلمها . وبعد أن أضحت كونسولاتا في وضع مريح ـ معطف سوآن المطري مطوي تحت رأسها ـ بدأت يداه ترتجفان . ثم غادر ليساعد الرجال الجرحى . كان مينوس ، غير القادر على إخراج السكين من كتفه ، يصهل ألماً . كان رأس هاربر متورماً ، أما آرنولد فليتوود فبدا كأنه يعاني من ارتجاج . كما كان فك جف المحطم ورسغه المكسور في حاجة إلى اهتمام . كان وقد وصل أشخاص آخرون من روبي حركتهم القافلة الأولى ، ممّا ضاعف في الفوضى والجلبة . سحب القس بوليام السكين من كتف مينوس وعانى من صعوبة كبيرة في جعل الرجال من آل جوري وفليتوود يوافقون على الذهاب إلى مستشفى دمبي . وصلت رسالة من ابن ديد ساند بأن عودة روجر من ميدلتون متوقعة هذا الصباح ، وما أن يعود سترسله ابنته فوراً . كان بوليام مقنعاً في النهاية وقاد الرجال الجرحى بالسيارة بعيداً عن المكان .

استمرت أصوات ذكورية في الارتفاع . بين الاتهامات العالية والدفاع الكئيب الأخفض ، تحت وابل من الأسئلة والتنبؤات بيوم الحساب ، مضى نصف ساعة أو نحوها قبل أن يفكر أي شخص في السؤال عما حدث للنساء الأخريات . وحين سأل بايوس ، أشار سارجنت برأسه «هناك في الخارج» .

«هربن ؟ إلى الشريف ؟» .

«أشك في ذلك» .

«ما الأمر يا رجل ؟» .

«لقد سقطن جميعاً . في العشب» .

«أذبحتم كل أولئك النسوة ؟ لماذا ؟» .

«والآن سيلاحقنا القانون الأبيض واللعنة!» .

«لم نحضر إلى هنا لنقتل أحداً . انظر ما فعلنه بمينوس وفليت . كان دفاعاً عن النفس » .

نظر آرون بول إلى «ك . د .» الذي عرض هذا التفسير . «هل تدخل إلى منزلهن ولا تتوقع منهن المقاومة ؟ » كان الاحتقار في عينيه واضحاً ولكن ليس بارداً مثل احتقار لوثر .

سأل لوثر : «من كان معه البنادق ؟ » .

« كلنا ، ولكن الخال ستيوارد هو من...» .

صفعه ستيوارد على فمه ، ولولا سايمون كاري ، كانت مذبحة أخرى ستجري . «أمسكوا بهذا الرجل!» صرخ القس كاري وأشار إلى «ك . د .» . «أنت واقع في ورطة يا بني» .

ضرب بايوس بقبضته على الجدار . «لقد سبق لك وأخزيتنا . والآن هل ستدمرنا ؟ ما هذا الشر الذي فيك ؟ » كان ينظر إلى سيتوارد ، والآن كانت تحديقته نحو ويزدوم وسارجنت والرجلين الآخرين .

قال سيتوارد : «الشر في هذا المنزل . انزل إلى القبو وانظر بنفسك» .

«أخي يكذب . هذا من فعلنا . فعلنا نحن لوحدنا . ونحن نتحمل المسؤولية» .

لأول مرة خلال واحدة وعشرين سنة نظر التوأمان الواحد إلى الآخر مباشرة في العين .

في هذه الأثناء كانت سوآن ولون دوبري قد أغمضتا العينين الشاحبتين ولكنهما لا تستطيعان فعل شيء حيال الثالثة ، الرطبة الخالية من الأهداب التي [حفرت] بينهما .

همست سوآن : «لقد قالت : «ديفاين» » .

«ماذا ؟ » لون تحاول تدبير شرشف لتغطية الجسد .

«حين ذهبت إليها . مباشرة بعد أن قام ستيوارد... أمسكت برأسها وقالت : «ديفاين» [سماوي] . ثم شيئاً ما مثل : «إنه سماوي ينام سماوياً» . ربما كانت تحلم على ما أظن» .

«حسناً ، لقد أصيبت بطلقة في الرأس يا سوآن» .

«ما الذي تعتقدين أنها رأت ؟» .

«لا أعرف ، ولكنها فكرة جميلة حتى لو كانت آخر جملها» .

تدخل دافي وتقول : «لقد ماتت» .

سألت لون : «أأنت واثقة ؟» .

«اذهبي وانظري بنفسك» .

«سأفعل» .

تغطي الأختان كونسولاتا بالشرشف .

تقول دافي : «لم أعرفها كما عرفتها أنت» .

«لقد أحببتها . والله شاهد عليَّ لقد أحببتها ، ولكن لم يعرفها أحد فعلاً» .

«لم فعلوا ذلك ؟» .

«فعلوا ؟ تعنين (فعل) ، أليس كذلك ؟ لقد قتلها ستيوارد وليس ديك» .

«تجعلين الأمر يبدو وكأنه يتحمل المسؤولية كلها» .

«لم أعن ذلك» .

لا تعرف سوآن ما تعنيه ، عدا كيف يمكن إيجاد قطعة صابون لتنظف أي لطخة تستطيع تنظيفها . ولكنه تبادل يعدل علاقتهما على نحو لا رجوع فيه .

*

تجمع أشخاص مذهولون وغاضبون وحزينون وخائفون في السيارات ، عائدين إلى أطفالهن وماشيتهم وأعمالهم المنزلية وعدم الثقة . كم عملوا بجد لأجل هذا المكان ، وكم كانوا بعيدين ذات مرة عن الحالة الرهيبة التي شاهدوها للتو . كم يمكن لمهمة نظيفة ومباركة إلى هذا الحد أن تلتهم نفسها وتصبح العالم الذي نجيا منه ؟

قالت لون إنها ستبقى مع الجثث حتى يصل روجر إلى هناك . تسأل ميليندا : « كيف ستعودين ؟ سيارتك عند منزلنا » .

تتنهد لون . « حسناً لن يتحرك الأموات . ولدى روجر الكثير من العمل » . ومع انطلاق السيارة ، تنظر لون إلى المنزل . « الكثير من العمل » .

لم يكن لديه الكثير . حين وصل روجر بست إلى روبي ، لم يغير ملابسه حتى . فقد شغل محرك سيارة الإسعاف/ الجنازة وأسرع إلى « الدير » . كانت ثلاث نساء قد سقطن أرضاً على العشب ، كما قيل له . هناك واحدة في المطبخ . وأخرى في القاعة . بحث في كل مكان ، في كل بوصة من العشب وكل رقعة من نبات المكنسة الاسكوتلندية . قن الدجاج . الحديقة . كل صف من صفوف الذرة في الحقل . ثم كل غرفة : المصلى وغرفة الصف . غرفة الألعاب كانت فارغة والمطبخ أيضاً : كان شرشف ومعطف مطري مطوي على الطاولة هما الإشارة الوحيدة إلى أن جثماناً كان هناك . نظر في الطابق العلوي في كلا الحمامين وغرف النوم الثمانية . ومن جديد في المطبخ وفي حجرة المؤونة . ثم نزل إلى القبو ، وخطا من فوق لوحات الأرضية . فتح باباً كشف عن مستودع للفحم . خلف باب آخر يوجد سرير صغير وزوج من الأحذية اللامعة على خزانة أدراج . لاشيء . حتى الكاديلاك كانت قد اختفت .

سايف ـ ماري

«هذا السبب نحن هنا : في هذه اللحظة الفريدة من الحزن المؤلم ـ في التأمل في الحياة القصيرة والموت غير المقبول وغير المفهوم لطفل ـ نثبت أو نؤجل أو نخسر إيماننا . هنا في دقات هذه اللحظة ، في هذا المكان فإن كل أسئلتنا وخوفنا وغضبنا وتشوّشنا ويأسنا تبدو وكأنها تندمج وتخطف الأرض ونشعر وكأننا نسقط . هنا ، كما نقول ، حان الوقت لنتوقف ، لنتمهل هذه المرة ونرفض التفاهات حول طيور السنونو التي تسقط تحت عين الرب ، حول جدوى الموت في سن الشباب (هذه الطفلة لم يكن أمامها خيار أن تكون طيبة) أو حول الموت كونه الديموقراطية الوحيدة . هذا هو زمن طرح الأسئلة التي في أذهاننا . من يستطيع فعل هذا لطفلة ؟ من يستطيع أن يسمح بهذا أن يحدث لطفلة ؟ ولماذا ؟» .

ما كانت سويتي فليتوود لتناقش الأمر . لن توضع طفلتها لترتاح على أرض ستيوارد مورغان . كانت مشكلة جديدة : موضوع مواقع الدفن لم تذكر في روبي لمدة عشرين سنة ، وكانت هناك دهشة وحزن حين أصبحت المهمة ضرورية . حين ماتت «سايف ـ ماري» أصغر أولاد سويتي وجف ، افترض الناس أن البقية : نوح وإستر ومينغ سيتبعونها

بسرعة . منح الأول اسماً قوياً لابن قوي وكونه أيضاً اسم أبي جده . وسميت الثانية إستر على اسم أم جدتها التي أحبت واهتمت بالأول على نحو شديد الغيرية . والثالث سمي باسم ألح عليه جف : شيء له علاقة بالحرب . اسم آخر الأطفال هذا كان طلباً (أو مرثاة) : سايف ـ ماري [انقذوا ماري] ، ومن قال إن لم يكن هذا الدعاء قد استجيب له . وهكذا ، فإن النقاش الحاد عن المقبرة الرسمية لم يحدث فقط بسبب رغبات سويتي وتوقعات المزيد من الجنائز ، ولكن من إحساس بأنه لأسباب معقدة ، فإن «الحصّاد» لم يعد محظوراً عليه دخول روبي . لذلك كان ريتشارد ميسنر يشرف على أرض مقدسة ويؤسس مؤسسة جديدة . ولكن كان استخدام المقبرة لهذا الغرض بالذات في مزرعة ستيوارد ـ حيث ترقد روبي سميث ـ مسألة مستحيلة لسويتي . تحت تأثير أخيها ، لوثر ، ولوم ستيوارد على المشكلة التي سببها لزوجها وحميها أيضاً ، فقد قالت إنها تفضل أن تفعل ما فعله روجر بست (حفر قبر على أرضه) وما كانت ستهتم على نحو أقل بأن ثلاثاً وعشرين سنة مرت منذ حدث ذلك الدفن السريع الذي لم يحضره الكثيرون في الحديقة الخلفية .

فهم معظم الناس لماذا كانت تحدث كل تلك الجلبة (الحزن واللوم كانا شراباً مسكراً) ولكن بات بست اعتقدت أن عناد سويتي كان محسوباً . إن رفض عرض مورغان وإلقاء الشك على ورع مورغان قد يستخرجان المزيد من الهدايا من جيوب مورغان . ولو كانت نظرية بات عن الـ (٨-ص) صحيحة ، فإن انتقام سويتي وضع جماعة الـ (٨-ص) في موقف حرج إذ عليهم أن يقرروا أن تكون لديهم مقبرة حقيقية ورسمية في بلدة مليئة بالخالدين . لقد حدث شيء زلزالي منذ شهر تموز (يوليو) ، فها هم إذن هنا ، تحت سماء ملساء في يوم لطيف من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ،

وقد اجتمعوا على مسافة ميل أو نحوه خلف آخر منزل في روبي ، وكان بالطبع ملكاً لآل مورغان ، ولكن لم يتجرأ أحد على إبلاغ سويتي بذلك . كانت بات الواقفة بين الحشد المحيط بآل فليتوود الحزانى ، قد استعادت شيئاً ما قريباً من الاستقرار . في وقت أبكر ، عند صلاة الجنازة ، كان غياب التأبين قد جعلها تبكي . والآن عادت إلى نفسها المألوفة المتسلية دون انفعال . لقد أملت على الأقل أن تكون لا انفعالية ، وأملت أن تكون التسلية ما كانت تشعر به . عرفت أن هنا وجهات نظر أخرى حول موقفها ، وبعضها عبّر عنه ريتشارد ميسنر . («حزين . حزين وبارد ») ، ولكنها كانت باحثة ، وليس شخصاً رومانتيكياً ، وقد حصنت نفسها ضد كلمات ميسنر التي قالها عند حافة القبر بدلاً عن مراقبة الحزانى .

لقد عاد هو وآنا فلود بعد يومين من الهجوم على نساء «الدير» ، وقد مرت أربعة أيام حتى علم بما حدث . قدمت له بات النسختين عن القصة الرسمية : الواحدة منهما تقول إن تسعة رجال قد ذهبوا ليحاوروا ويقنعوا نساء «الدير» بالمغادرة أو إصلاح أساليبهن . حدث شجار . اتخذت النساء أشكالاً أخرى واختفين في الجو الرقيق . والثانية (نسخة فليتوود ـ جوري) بأن خمسة رجال قد ذهبوا لطرد النساء ، وأربعة آخرون ـ المؤلفون ـ قد ذهبوا ليمنعوهم أو يوقفوهم عن ذلك . هؤلاء الأربعة هاجمتهن النساء ولكنهم نجحوا في طردهن ، وقد انطلقن في سيارتهن الكاديلاك . ولكن لسوء الحظ ، فإن بعض الرجال الخمسة فقدوا اتزانهم وقتلوا المرأة العجوز . تركت بات لريتشارد حرية اختيار التفسير الذي يفضله . أما ما لم تقله له فكان نسختها الخاصة : أن تسع رجال من الـ (٨-ص) اغتالوا خمس نساء بريئات : (أ) لأن النساء كن غير نقيات (لسن من الـ (٨-ص) . (ب) لأن النساء كن غير تقيات (زانيات على الأقل ، ومحبذات للإجهاض على

الأكثر) . (ج) بسبب أنهم «استطاعوا» : أي معنى أن يكون المرء من وجهة نظرهم من الـ (٨-ص) وأيضا ما تطلبته تلك «الصفقة» .

لم يصدق ريتشارد أياً من الحكايتين اللتين أصبحتا إنجيلاً على نحو سريع ، وتحدث إلى سايمون كاري وسينيور بوليام ، اللذين وضحا أجزاء أخرى من الحكاية . ولكن لأنه لم يصل أي منهما إلى قرار حول النهاية ، وبالتالي ما إذا كانا قادرين على صياغة تقرير قابل للتصديق والموعظة ، فهما لم يستطيعا إقناع ريتشارد . كانت لون هي من زوّدته بالتفاصيل الشاحبة التي سارع كثيرون إلى تكذيبها ، لأن لون ـ كما قالوا ـ كانت شخصاً غير موثوق . باستثنائها ، لم يسمع أحد الرجال عند «الفرن» ومن كان يعرف ما قالوه بالفعل ؟ ومثل بقيّة الشهود فقد وصلت بعد إطلاق النار . وعلاوة على ذلك ، فإنها هي ودافي يمكن أن تخطئا حول ما إذا كانت المرأتان في المنزل ميتين أو جريحتين ، وأخيراً لم تر أي شخص خارج المنزل ، حياً أو ميتاً .

أما بالنسبة إلى لون ، فقد أصبحت قلقة من الطريقة التي كانت تُروى بها الحكاية . كيف كان الناس يغيرونها لجعل أنفسهم يبدون طيبين . عدا ديكون مورغان ، الذي لم يكن لديه ما يقوله ، كان لكل واحد من الرجال المهاجمين حكاية مختلفة وكانت عائلاتهم وأصدقائهم (الذين لم يكونوا قريبين من الدير أبداً) يدعمونهم ، ويعززون ويعيدون صياغة المعلومات الخاطئة ويخترعونها . ورغم أن عائلات دوبري وبوشامب وساند وبول أيدوا نسختها ، فإنه حتى سمعتهم في مجال الدقة والاستقامة لم تمنع الحقيقة المعدّلة من أن تستولي على أحياء أخرى . لو لم تكن هناك ضحايا فإن حكاية الجريمة كانت مجالاً لعبث أي لسان . لذلك أغلقت لون فمها وأبقت ما كانت أكيدة منه مطوياً في عقلها : لقد منح الرب روبي فرصة ثانية . لقد

جعل نفسه مرئياً جداً وغير قابل للجدال كوجود حتى أن المغرورين على نحو معيب (مثل سيتوارد) والأغبياء على نحو لا يمكن إصلاحه (مثل ابن أخته الكذاب) كان يجب أن يكونا قادرين على رؤيته . لقد قام الرب بالفعل باجتياح عبيده واستقبالهم في ضوء النهار ، إكراماً للطيبة! أمام أعينهم ، إكراماً للمسيح! وبما أنهم كانوا يتهمونها بالكذب فقد قررت أن تبقى صامتة وتراقب يد الرب تعمل عملها في الكافرين والشهود المزورين . هل سيعرفون أنهم خوطبوا من قبل الرب ؟ أم هل سيبتعدون أكثر عن أساليبه ؟ هناك شيء واحد أكيد : كانوا قادرين على رؤية «الفرن» . لم يستطيعوا إساءة فهم ذلك أو التعبير عنه ، لذا عليهم أن يسرعوا بالأحرى ويثبتوا انزلاقه قبل أن يفوت الأوان : وقد يكون قد مات ، فالشباب قد غيروا الكلمات مجددا . ما عادوا يدعون أنفسهم «كونوا تغضينة جبينه» ، فالكتابات على غطاء الفرن كانت تقول الآن «نحن تغضينة جبينه» .

مهما كانت حدة الخلافات حول ما حدث بالفعل ، فإن بات عرفت أن الحقيقة الكبيرة والمتفق عليها كانت أن كل شخص كان هناك ترك البناء متأكداً من أن رجال القانون سيقومون بسعادة باجتياح البلدة (لقد قتلوا امرأة بيضاء على أي حال) ، وسيلقون القبض عملياً على كل رجال الأعمال في روبي . وحين علموا أنه ليس هناك موتى للإبلاغ عنهم أو نقلهم أو دفنهم ، كان الشعور بالراحة عظيماً إلى حد أنهم بدأوا ينسون ما ارتكبوه أو رأوه فعلاً . ولولا لوثر بوشامب ـ الذي روى أكثر الحكايات لعنة ـ وبايوس وديدساندز وآرون ـ الذين دعموا قصة لون ـ لكان الأمر بكامله قد طواه النسيان . ولكن حتى هؤلاء لم يستطيعوا تقديم تقارير بميتات غير طبيعية في منزل لا جثث فيه ، ممّا قد يؤدي إلى اكتشاف ميتات طبيعية في سيارة مليئة بالجثث . ورغم أن بات لم تكن حائزة على ثقة أناس كثيرين إلا أنها

جـمـعـت من الأحـاديث التـي جـرت مع أبيـهـا ، ومع كـايـت ، ومن التنصت المتعمد على ما كانوا لا يزالون بعد أربعة أشهر يروونه حول المشكلة ، سائلين الرب أن يوجههم فيما إذا كانوا مخطئين ؛ وإن كان رجال القانون البيض سيسمح لهم بالتعامل مع قضايا كانوا يعالجونها بأنفسهم على النقيض من كل شيء عرفوه وآمنوا به . الصعوبات كانت تحيط بكل شخص كما وتورطه ؛ توزيع اللوم ، الصلوات لأجل الفهم والمغفرة ، الدفاع الوقح عن الذات ، الكذب المباشر ، ومجموعة كاملة من الأسئلة التي بقيت دون جواب والتي ظل ريتشارد ميسنر يلقيها عليهم . لذلك جاءت الجنازة كفترة توقف ولكن ليس كختام .

ربما كانوا على حق فيما يتعلق بهذا المكان طوال الوقت ، كما فكرت بات ، وهي تمسح في ذهنها سكان البلدة . ربما تكون روبي محظوظة . لا ، لقد صححت نفسها . رغم أن الدليل على الهجوم كان غير مرئي ، إلا أن النتيجة لم تكن كذلك . كان هناك جف الذي يضع ذراعه حوله زوجته ، ويبدوان كلاهما حزينين إنما مهيبان إلى حد ما أيضاً ، فلقد كان جف الآن المالك الوحيد لمخزن أبيه الخاص ببيع المفروشات والأدوات . وقف آرنولد ، الذي أصبح فجأة رجلاً عجوزاً جداً ذا صداع دائم ، ومستمتعاً بغرفة نومه بعد أن انتقلت آرنيت ، وقف برأس مطاطئ وعينين هائمتين تتحركان في كل مكان عدا التابوت . بدا سارجنت بيرسون مرتاحاً كما لم يكن أبداً ؛ لم يكن لديه صاحب ملك يتوقع أن يدفع له أجر الحقل وما لم يكن المدقق المالي للمقاطعة سيهتم بقرية صغيرة يعيش فيها أشخاص سود هادئون يخشون الرب ، فإن جشعه سيكون دون كبح . كان هاربر جوري ، دون ندم ، يرتدي بزة زرقاء داكنة وجرحاً في الرأس أعطاه الإذن ، كأنه وسام ، ليتخذ وضعية المحارب ، المدمى إنما الذي لم ينحن ، ضد الشر . كان

مينوس الأكثر تعاسة . لم يكن لديه زبائن عند مخزن آنا بعد الآن ، وذلك ليس لأن كتفه المجروح قد قيّد مرونته بأدوات الحلاقة ولكن لأن تناوله للشراب قد امتد الآن ليشمل أياماً أكثر من أيام الأسبوع . كان إسرافه يتسارع نحو نهايته . أما ويزدوم بول فكان في أصعب وضع . لقد حمّله سبعون من أفراد العائلة مسؤولية (كما حمّلوا أخويه برود وأبولو) الإساءة إلى سمعة أجدادهم ، فما عادوا يمنحونه لا السلام ولا المنصب ، وهم يقرعونه يومياً حتى سقط على ركبتيه أمام كامل رعية كنيسة «هولي ريديمر» . بعد الإدلاء بالشهادة والعودة إلى الالتزام ، وبعد أن تم تجديده وهو مترع بالندم ، فقد بدأ محادثات تجريبية مع برود وأبولو . كانت أرنيت و«ك . د .» يعمّران منزلاً جديداً على أرض ستيوارد . كانت حاملاً مجدداً ، وكانا كلاهما يأملان في الحصول على وضعية يجعلان من خلالها الحياة مزعجة لآل بول وآل دوبري وآل ساندز وآل بوشامب ، وخاصة لوثر ، الذي اغتنم كل فرصة لإهانة «ك . د .» . وكان أكثر التطورات إثارة للاهتمام هو ما حدث للأخوين مورغان . كانت ملامحهما القابلة للتمييز تتآكل : اختيار التبغ (تخليا عن تدخين السيجار ومضغ التبغ في آن واحد) ، والأحذية والملابس وشعر الوجه . ظننت بات أنهما يبدوان أكثر تشابهاً مما كانا عليه عند الولادة حتى . ولكن الاختلاف الداخلي كان عميقاً جداً بحيث لا يمكن لأحد أن يخطئه . ستيوارد ، الوقح الذي لا يعتذر ، أخذ «ك . د .» تحت جناحه ، مركّزاً على جعل ابن أخته وابن ابن أخته البالغ من العمر ستة عشر شهراً غنيين (والمنزل الجديد ضمناً) ، مسهلاً دخول «ك . د .» إلى المصرف بينما راح ينتظر دافي أن توافق ، ويبدو أنها ستفعل ، لأنه كان هناك برود واضح بينها وبين سوآن . اختلفت الأختان حول ما حدث في «الدير» . شاهدت دافي كونسولاتا تسقط ولكنها أصرت

على أنها لم تر من جذب الزناد . عرفت سوآن وكانت في حاجة إلى أن تعرف شيئاً واحداً : لم يكن ذاك زوجها . لقد رأت يداً تتحرك فوق يد ستيوارد في إيماءة محذرة مانعة . رأتها وقالت ذلك المرة إثر الأخرى إلى أي شخص كان مستعداً ليصغي .

كان ديك مورغان هو الذي تغير أكثر ما يكون التغيير . كأنما كان قد نظر في وجه أخيه ولم يعد يحب نفسه بعد ذلك . ولدهشة الجميع فقد شكل صداقة (حسناً علاقة على أي حال) مع شخص آخر عدا ستيوارد ، وكان سببها ومبررها وأساسها أمراً غامضاً للجميع . لم يكن ريتشارد ميسنر يتكلم ، لذلك كان كل ما يعرفه أي شخص على وجه الثقة كان ذلك السير بقدمين حافيتين والذي جرى علناً .

كان الشهر هو أيلول (سبتمبر) ولا يزال الطقس حاراً حين سار ديكون مورغان نحو الشارع المركزي . كان هناك أقحوان إلى يمين وأقحوان إلى يسار الممر الآجري المؤدي من بيته الحجري المهيب . كان مرتدياً قبعته وبزة المهنة مع الصدارة وقميصاً أبيض نظيفاً . دون حذاء . دون جواب . دخل شارع سانت جون ، حيث كان قد زرع أشجاراً تبعد الواحدة عن الأخرى خمسين قدماً ، وكان تفاؤله عظيماً قبل عشرين سنة من الآن . التفت يميناً إلى الشارع المركزي . كان قد مر عقد على الأقل منذ لمس نعل حذائه ، ناهيك عن قدميه الحافيتين ، ذلك البيتون . عبر منزل آرنولد فليتوود بالضبط ، قرب زاوية شارع سانت لوك . قال زوجان : «صباح الخير يا ديك» . رفع يده بالتحية ، وعيناه موجهتان نحو الأمام . سلمت عليه ليلي غاري من رواق منزلها قرب «تقاطع مارك» ولكنه لم يلتفت برأسه . «هل تعطلت السيارة» ، سألت محدقة إلى قدميه . في مخزن أدوية هاربر جوري ، عند زاوية الشارع المركزي وشارع سانت ماثيو ، أحس ولم ير بالأحرى

الأعين المراقبة تسير معه . لم يلتفت ليرى ولا نظر عبر نافذة «مصرف مورغان للتوفير والقروض» وهو يقترب من شارع سانت بيتر . عند مفترق بيتر يعبر ويذهب إلى منزل ريتشارد ميسنر . في آخر مرة كان هنا ، قبل ست سنوات ، كان غاضباً ومليئاً بالشك ولكنه متأكد أنه هو وأخوه سيسودان . ما كان يشعر به الآن كان غريباً على توأم : نقصان ، وحدة مكبوتة حرمته من شهية للطعام والنوم والصوت . منذ تموز (يوليو) بدا الناس الآخرون له يتحدثون هامسين ، أو يصرخون من مسافة بعيدة . راقبته سوآن ، ولكنها ، على نحو رحيم ، لم تبدأ أي حوار خطير . لكأنها فهمت أنها لو فعلت ذلك ، فإن ما قاله لها سيسحب الحياة من حياتهم . قد يقول لها إن فترة الربيع الخضراء قد تم استنزافها ، وأنه خارج تلك الخسارة ، فقد كانت هي عظيمة وأجمل مما يعتقد أن أي امرأة يمكنها أن تكون ، وأن شعرها العصي على الترتيب كان يؤطر وجهاً من سطوح حادة جداً إلى حد أنه كان يرغب في لمسها ، وأنه بعد أن تتحدث ، فإن الابتسامة التي تتلو ذلك تجعل الشمس تبدو حمقاء . قد يقول لزوجته أنه ظن أولاً أنها كانت تحادثه ـ «هاأنت عدت» ـ ولكنه عرف الآن أن الأمر لم يكن كذلك . وأنه كان يتوق على الفور لمعرفة ما رأته ، ولكن ستيوارد ، الذي لم ير شيئاً أو رأى كل شيء ، أسكتهما لئلا يعرفان عالماً آخر .

في وقت مبكر من ذلك الصباح من شهر أيلول (سبتمبر) ، كان قد استحم ولبس بعناية ولكنه لم يستطع إجبار نفسه على تغطية قدميه . عالج الجوارب الداكنة والحذاء الأسود اللامع لفترة طويلة ، ثم وضعها جانباً .

قرع على الباب ورفع قبعته حين أجاب الرجل الأكثر شباباً :

«أنا في حاجة إلى مخاطبتك أيها المحترم» .

«ادخل» .

لم يسبق لديكون مورغان أن تشاور مع رجل أو وثق برجل . كل حواراته الحميمة كانت دون كلمات مع أخيه أو هي حوارات تهديدية مع رفاق من الذكور . ولا واحداً منها تطلب منه أن يترجم إلى كلام القضية الخام التي عرضها على القس ميسنر . خرجت كلماته مثل قطع الحديد المصبوبة المسحوبة من النار من قبل حداد متمرن : ساخنة ، سيئة التشكيل وتتشابه الواحدة مع الأخرى فقط من حيث التوهج . تحدثا عن سور «رافيينا» في إيطاليا ، أبيض تحت شمس أواخر وقت العصر مع ظلال بلون النبيذ تمر على حافته . عن طفلين على شاطئ يعرضان عليه صدفة لها شكل S : كم كانت وجوههم مفتوحة وكم كانت الأجراس عالية . عن ماء مالح يحرق وجهه على السفينة حاملة الجنود . عن فتيات ملونات في بناطيل فضفاضة يلوحن من باب معمل للتعليب . ثم حكى له عن جده الذي سار حافي القدمين مسافة مائتي ميل مفضلاً ذلك على أن يرقص .

أصغى ريتشارد باهتمام مقاطعاً إياه مرة واحدة ليعرض عليه ماء بارداً . ورغم أنه لم يفهم ما كان ديكون يتحدث عنه ، فقد استطاع أن يرى أن حياة الرجل كانت غير قابلة للسكن . بدأ ديكون يتحدث عن امرأة استغلها . كيف ترفع عنها لأن أساليبها المنفلتة والسهلة قد منحته الإذن للتخلي عنها واحتقارها . وأنه بينما كانت الخيانة الزوجية تلاحقه لفترة قصيرة (قصيرة جداً) ، فإن ندمه الطويل تجلى في أنه أصبح ما كان يلعنه الآباء القدامى : إنه من نوع الرجال الذي نصب نفسه قاضياً ودمّر وسحق من هم في حاجة والمغلوبين على أمرهم والمختلفين .

سأله ريتشارد : «من هذه المرأة ؟» .

لم يجب ديكون . مرّر أصبعه في داخل قبة قميصه ، ثم بدأ بقصة أخرى . بدا أن جده زكاريا كانت عرضة للتوبيخ الشخصي وموضوعاً

لمقالات صحفية تصف أعماله المحظورة وهو في منصبه . كان إحراجاً للزنوج وتهديداً ونكتة للبيض . ولم يستطع أحد أو يرغب أحد لا من السود ولا من البيض من مساعدته على إيجاد عمل آخر . بل لقد استكثر عليه عمل تدريسي في مدرسة ابتدائية ريفية فقيرة . كان الزنوج القادرين على مساعدته قلة (فالكساد الاقتصادي لعام ٧٣ كان شديداً) ، ولكنهم ترجموا الأسلوب الوقور لزكاريا على أنه برود وكلامه المدروس على أنه وقاحة أو سخرية أو كلتاهما . فقدت الأسرة المنزل الجميل وعاش الجميع (التسعة كلهم) مع أسرة إحدى أخواته . وجدت زوجته ميندي عملاً كخياطة في المنزل ، وراح الأطفال يقرأون أعمالاً عرضية . لقد عرف عدد قليل من الناس أن زكاريا كان له أخ توأم ، كما تذكر ذلك عدد أقل . وقبل أن يغير اسمه ، كانا يعرفان بـ« كوفي » [قهوة] و« تي » [شاي] . وحين حصل « كوفي » على عمله في المجلس التشريعي للولاية ، بدا « تي » مسروراً كأي شخص آخر . وحين طرد أخوه من منصبه ، فقد شعر بالتحدي والإهانة بالدرجة نفسها . وفي أحد الأيام ، بعد سنوات ، وبينما كان يتمشى مع أخيه قرب حانة ، فإن بعض الرجال البيض الذين أضحكهم الوجهان المزدوجان شجعا الأخوين على الرقص . ربما أن التشجيع اتخذ شكل مسدس ، فإن « تي » أطاع البيض مستخدماً المنطق ، حتى ولو كان رجلاً ناضجاً ، وأكبر سناً منهم . أما « كوفي » فأصيب برصاصة في قدمه بدلاً عن ذلك . ومنذ تلك اللحظة ما عادا أخوين . بدأ « كوفي » يخطط لحياة جديدة في مكان آخر . اتصل برجال آخرين ومشرعين آخرين سابقين عانوا من سوء الحظ شأنه : جوفينال دوبري ودرام بلاكهورس . كانوا الثلاثة الذين شكلوا نواة الآباء القدامى . ولا حاجة إلى القول إن « كوفي » لم يطلب من « تي » الانضمام إليهم في رحلتهم إلى أوكلاهوما .

قال ديكون مورغان : « كنت أفكر دائماً في أن « كوفي » - بيغ بابا - كان على خطأ ، أي فيما فعله مع أخيه... كان « تي » توأمه على أي حال . أنا أقل ثقة الآن... أعتقد الآن أن « كوفي » كان على حق لأنه كان هناك شيء في « تي » لم يكن مجرد مراعاة بعض الرجال البيض السكارى . لقد رأى شيئاً أخجله . الطريقة التي كان أخوه يفكر فيها بالأمور ، الخيارات التي قام بها تجاهها . لم يستطع « كوفي » تحمل ذلك . ليس لأنه كان خجلاً من توأمه ، بل لأن العار كان في نفسه . لقد أخافه ذلك . لذلك انطلق مبتعداً ولم يتحدث إلى أخيه ثانية . ولا كلمة واحدة ، أتعرف ما أعنيه ؟ » .

قال ريتشارد : « لابد أن الأمر كان صعباً » .

« أقول إنه لم يقل كلمة أخرى له ولم يكن يسمح لأي شخص آخر بذكر اسمه » .

قال ريتشارد : « افتقار إلى الكلمات ، افتقار إلى الغفران . افتقار إلى الحب . إن فقدان أخ أمر صعب . واختيار فقدانه ، حسناً ، أسوأ من العار الأصلي ، أليس كذلك ؟ » .

نظر ديكون إلى قدميه لفترة طويلة . بقي ريتشارد هادئاً معه . وأخيراً رفع رأسه وقال :

« أمامي طريق طويل يا ريتشارد » .

قال ريتشارد ميسنر : « ستقطعه . لا شك في ذلك » .

*

كان ريتشارد وآنا يشكان في الاختفاء الجماعي الملائم للضحايا ، وما أن عادا ، حتى ذهبا ليريا بنفسيهما . عدا مهد أبيض لامع في غرفة نوم كتب على بابها كلمة « ديفاين » بالأحرف الكبيرة ، والمواد الغذائية ، لم

يكن هناك شيء يوحي بالسكن مؤخراً في المكان . كانت الدجاجات تتجول حرة أو افترست نصفها الحيوانات الجواسة : كانت شجيرات الفلفل متفتحة الأزهار ، ولكن بقية الحديقة ضائعة . أما حقل الذرة الخاص بسارجنت فكان اللمسة البشرية الوحيدة . نظر ريتشارد بالكاد إلى أرضية القبو . ولكن آنا فحصتها بقدر ما يسمح لها مصباحها بالفحص الدقيق ، فرأت الشناعة التي وصفها «ك . د .» ، ولكنها لم تكن بالخلاعة التي رآها هو فيها ، ولا كانت «خربشة» الشيطان . لقد رأت بدلاً عن ذلك اضطراب الإناث اللواتي حاولن أن يلجمن ، دون أن تدوسهن الأقدام ، الوحوش التي حاولت استرقاقهن .

غادرا المنزل ووقفا في الباحة .

قالت له آنا : «اسمع . إحداهن أو ربما أكثر لم تكن ميتة . لم ينظر أحد بالفعل : بل كان مجرد افتراض . ثم ، بين الزمن الذي غادر فيه الناس ووصول روجر ، خرجن من هناك مسرعات . واصطحبن القتلى معهن . أمر بسيط ، أليس صحيحاً ؟» .

قال ميسنر : «صحيح» ولكنه لم يبد مقتنعاً .

«لقد مرت أسابيع الآن ، ولم يأت أحد ليطرح أسئلة . لابد أنهن لم يبلغن عن المسألة ، فلم علينا فعل ذلك ؟» .

«طفل من كان هناك ؟ ذلك المهد جديد ؟» .

«لا أعرف ، ولكنه لم يكن طفل آرنيت بكل تأكيد» .

ثم قال ثانية : «صحيح» مع مستوى الشك نفسه . ثم قال : «لا أحب المسائل الغامضة» .

«أنت واعظ . اعتقاد حياتك بكامله سر غامض» .

«الاعتقاد غامض ، والإيمان سر غامض . ولكن الرب ليس سراً غامضاً . بل نحن كذلك» .

«أوه يا ريتشارد» ، قالت وكأنها الأمر كله أكثر مما يمكن احتماله .

كان قد طلب منها الزواج : «هل تتزوجينني يا آنا ؟» .

«أوه ، لا أعرف» .

«لم لا» .

«نارك شديدة اللذع» .

«ليس حين تؤخذ بالحسبان» .

لم تتوقع أبداً أن تكون سعيدة إلى ذلك الحد وعائدة إلى روبي ، بدلاً عن القيام بالإعلان الكبير ، فقد راحا يصنفان ما بدا أنه الانهيار الشامل لبلدة .

«هل نأخذ هذه الدجاجات ؟ سيتم التهامها على أي حال» .

قال : «إن شئت» .

«لا أعرف . سأرى إن كان هناك بعض البيض» . دخلت آنا قن الدجاج وهي تجعد أنفها وتخطو عبر نصف بوصة من فضلات الدجاج . ناضلت مع اثنتين من الدجاجات للحصول على خمس بيضات ظنت أنها طازجة على الأرجح . حين خرجت بيدين مليئتين ، نادت : «ريتشارد ، ألديك شيء أضع فيه هذه ؟» عند حافة الحديقة كان كرسي أحمر باهت اللون واقفاً على جنبه . إلى البعيد كانت البراعم والموت . نباتات البندورة الذاوية مع محاصيل من النباتات الخضراء الورقية التي تعيد بذر أنفسها بأزهار ذهبية ، نباتات الخطمية الوردية العالية جداً حتى أن رؤوسها كانت تتكئ فوق خط من براعم القرع اللامعة ، رؤوس مخرمة للجزر أصبحت محترقة وبلا حياة قرب سنابل البصل الخضراء المستقيمة . كانت ثمار البطيخ قد أظهرت رغبتها كاشفة عن لثة حمراء مليئة بالعصارة . تنهدت آنا من مزيج الإهمال والنمو غير الممكن التحكم به . كانت البيضات الخمس دافئة ذات لون بني أصفر في يديها .

اقترب منها ريتشارد . «هل هذا كبير بما فيه الكفاية ؟» وفتح منديله وهو ينفضه نفضاً .

«ربما . إليكها ، أمسكها بينما أرى إن كانت ثمار الفلفل قد نضجت» .

قال : «لا . سأذهب أنا» . وأسقط المنديل فوق البيضات .

ولم يحدث حتى عاد ، ووقفا قرب الكرسي ، ويداها توازن البيضات البنية اللون والقماشة البيضاء ، وأصابعه تبدو وقد تضاعف عددها بأصابع الفلفل الطويلة : خضراء وحمراء وسوداء كالخوخ ـ أن شاهداه . أو أحسّا به بالأحرى ، لأنه لم يكن هناك شيء يُرى . باب ، كما قالت لاحقاً . «لا ، نافذة» ، كما قال وهو يضحكك . «هذا هو الفرق بيننا . أنت ترين باباً وأنا أرى نافذة» .

ضحكت آنا أيضاً . توسعا حول الموضوع . ما الذي يعنيه الباب ؟ وما تعنيه النافذة ؟ مركزين على الإشارة وليس الحدث ، وقد استثارتهما الدعوة وليس الحفلة بالأحرى . عرفا أنه كان هناك . عرفا ذلك على نحو جيد جداً حتى أنهما كانا قد تحجرا للحظة طويلة قبل أن يتراجعا ويركضا نحو السيارة . كان البيض والفلفل في المقعد الخلفي . رفع مكيف الهواء قبتها . ثم ضحكا أكثر وهما في السيارة وتبادلا إهانات سارة حول من هو المتشائم ومن هو المتفائل . من رأى باباً مغلقاً ومن رأى نافذة مرفوعة . أي شيء لتجنب أن يعيشا ثانية تجربة الرجفة أو النطق عالياً بما كانا يتساءلان عنه . سواء عبر باب يحتاج إلى فتح أو نافذة ذات إيماءة سبق أن رفعت ، فما الذي سيحدث لو دخلت ؟ ما الذي سيكون على الجانب الآخر ؟ ما هو يا ترى ؟ ما هو ؟

*

كان القس ميسنر يحظى باهتمام الجميع ولم يتبق لديه سوى كلمات قليلة يقولها . تركزت نظرته على الرجال الجديرين باللوم ، سبعة منهم ، مع بعض الغريزة البدائية للحماية ، الذين تجمعوا معاً ، بعيداً عن الحزانى الآخرين ، كما بدا له . سارجنت ، هاربر ، مينوس ، آرنولد ، جف ، «ك . د .» ستيوارد . كان ويزدوم أقرب إلى أسرته ، وديكون لم يكن هناك إطلاقاً . كانت أفكار ريتشارد حول هؤلاء الرجال غير كريمة . وسواء كانوا الأولين أو الآخرين ، فهم يمثلون أقدم أو أجدّ العائلات السوداء ، أفضل التقاليد أو الأكثر إثارة للشفقة ، وقد انتهوا إلى خيانة ذلك كله . يظنون أنهم خدعوا الرجل الأبيض ولكنهم يقلدونه في الحقيقة . يظنون أنهم يحمون زوجاتهم وأطفالهم ، حين يشوهونهم في الواقع . وحين يطلب الأطفال المشوهون المساعدة ، يبحثون في مكان آخر عن السبب . لقد ولدوا من حقد قديم ، حقد بدأ حين راح نوع من السود يحتقر نوعاً آخر من السود ووصل هذا النوع بالكراهية إلى مستوى آخر ، فقد حولت أنانيتهم مائتي سنة من المعاناة والانتصار إلى لحظة من التباهي والخطأ والتصلب جمدت العقل . بدت له روبي ، التي لا يلجمها الإنجيل والتي صمت أذنيها عن جلبة تاريخها الخاص ، بدت له فشلاً غير ضروري . كم كانت أمنية السعادة الدائمة إنسانية على نحو رائع ، وكم أصبحت المخيلة البشرية رقيقة وهي تحاول تحقيق ذلك . سرعان ما تصبح روبي مثل أي بلدة ريفية أخرى : الشبان يفكرون بمكان آخر والعجائز مليئون بالندم . ستكون المواعظ بليغة إنما سيقل تدريجياً عدد من يهتم بها أو يجد لها صلة بالحياة اليومية . كيف يمكنهم إبقاؤها متماسكة ، هكذا تساءل ، هذه الجنة التي تم كسبها بصعوبة والتي لا يمكن تعريفها إلا بغياب أولئك الذين لم ينجوا والتافهين والغرباء ؟ من سيحميهم من قادتهم ؟

وفجأة عرف ريتشارد ميسنر أنه سيبقى . ليس لأن آنا أرادت ذلك فحسب ، أو لأن ديك مورغان التجأ إليه ليقدم اعترافاً من نوع ما ، ولكن أيضاً لأنه لم تكن هناك معركة أفضل ، ولا مكاناً يكون فيه أفضل من أن يكون بين هؤلاء الناس الجميلين والمليئين بالأخطاء والغرور الذي لا يحتمل . وعلاوة على ذلك ، فإن الموت قد يكون شيئاً جديداً عليهم وإن لم يكن الميلاد كذلك . كان المستقبل يلهث عند البوابة . سيحصل روجر بست على محطة الوقود خاصته وستشق الطرق الموصلة . سيأتي الغرباء ويذهبون والبعض سيطلب سندويشة وعلبة بيرة عيار ٣,٢ . ومن يدري ، فقد يفتتح مطعم أيضاً . سيناقش «ك . د .» وستيوارد مسألة التلفزيون . لم يكن ملائماً الابتسام في جنازة ، لذلك تصور ميسنر الفتاة الصغيرة ذات اليدين التالفتين اللتين سمح له مرة بأن يمسكهما . لقد ساعده ذلك على استرداد خط تفكيره . كانت الأسئلة التي طرحها بدلاً عن أصحاب الحداد في حاجة إلى جواب .

«هل لي أن أقترح بأن هذه ليست هي الأسئلة الهامة . أو بالأحرى هذه هي أسئلة الألم وليس الذكاء . والرب ، كونه هو الذكاء نفسه ، والكرم نفسه ، قد منحنا «العقل» لنعرف مدى دقة الرب . ولنعرف أناقته . نقاءه . لنعرف أن ما يبذره ليس حياً حتى يموت» .

اشتدت الريح قليلاً ، ولكن ليس بالقوة الكافية لإزعاج الحضور . كان ميسنر يخسرهم . وقفوا أمام القبر المفتوح مغلقين أمام كل شيء عدا تأملاتهم . كانت الأفكار الجنائزية تمتزج بخطط الاحتفال بعيد يوم الشكر وتقييمات الجيران وثرثرة الحياة اليومية . كبت ميسنر تنهيدة قبل أن ينهي ملاحظاته بالصلاة . ولكن حين طأطأ رأسه وحدق إلى غطاء التابوت رأى النافذة التي في الحديقة ، شعر بها تومئ إليه نحو مكان آخر

ـ لا حياة ولا موت ـ ولكن هناك في البعيد ، مشكّلة أفكاراً لم يكن يعرف أنها في حوزته .

كان يصرخ : «انتظروا . انتظروا . هل تعتقدون أن هذه كانت حياة قصيرة مثيرة للشفقة خالية من القيمة لأنها لم تواز حياتكم ؟ فلأقل لكم شيئاً . الحب الذي تلقّته كان واسعاً وعميقاً ، والرعاية التي مُنحت لها كانت لطيفة وقاسية ، وهذا الحب وتلك الرعاية قد طوقاها على نحو كامل حتى أن الأحلام والرؤى التي رأتها ، والرحلات التي قامت بها جعلت حياتها مرغمة وغنية وقيّمة شأنها شأن أي من حيواتنا وربما أكثر بركة . إنه لمن سوء حظنا أننا لا نعرف في حياتنا الطويلة ما عرفته في كل يوم من أيام حياتها القصيرة ، وأنه رغم أن الحياة في الحياة ذات نهاية والحياة بعد الحياة أبدية ، إلا أن الرب معنا دائماً ، في الحياة وبعدها وخاصة فيما بينهما ، إنه يكمن لنا حتى نعرف الروعة» . توقف ، وقد أقلقه ما قاله والطريقة التي قاله بها . ثم ، وكأنما ليعتذر للفتاة الصغيرة ، فقد تحدث برقة مباشرة مخاطباً إياها .

«أوه يا سايف ـ ماري [أنقذوا ماري] ، اسمك بدا دائماً كأنه يقول : «أنقذوني . أنقذوني» . هل هناك رسالة أخرى كامنة في اسمك ؟ أعرف واحدة تضيء لنا لترى : لم يكن هناك وقت لم تُنقذي فيه ، يا ماري . آمين» .

أحرجته كلماته قليلاً ، ولكن في ذلك اليوم ، لم يكن هناك أبداً وضوح كهذا الوضوح .

*

مَشت بيلي ديليا ببطء مبتعدة عن النساء الأخريات المشاركات في الجنازة . لقد وقفت مع أمها وجدّها وابتسمت لآرنيت مشجعة ، والآن أرادت أن تكون لوحدها . كانت هذه أول جنازة تحضرها ، وفكرت فيها من خلال مدى ما جعلت جدها يتاح له أن يجعل مهاراته مطلوبة . وكان في ذهنها أيضاً غياب النسوة اللواتي أحبت . لقد عاملنها معاملة طيبة جداً ولم يحرجنها بالتعاطف بل منحنها لطفاً دافئاً . لقد نظرن إلى وجهها المليء بالكدمات وعينيها المتورمتين ، فشرّحن الخيار لوضعه على جفنيها بعدما جعلنها تشرب كأساً من النبيذ . لم تلح ولا واحدة فيهن على جعلها تحكي ما الذي قادها إلى ذلك المكان ، ولكنها استطاعت أن تعرف أنهن سيصغين لو أرادت ذلك منهن . كانت المسماة مايفيس هي الألطف وجيجي الأكثر إضحاكاً . ربما كانت بيلي ديليا الوحيدة في البلدة التي لم يكن يحيرها السؤال عن مكان وجود النساء أو كيف اختفين . ولكن كان لديها سؤال آخر : متى سيعدن ؟ متى سيعادون الظهور بعيون متقدة وطلاء الحرب والأيدي الكبيرة ليمزقن ويهدمن السجن الذي يسمي نفسه بلدة ؟ بلدة حاولت أن تدمر جدها وتبتلع أمها وتحطمها هي تقريباً . لا مكان متخلف رجعي يحكمه رجال كانت قدرتهم على السيطرة خارجة عن السيطرة وكانت لديهم الجرأة على تقرير من يستطيع أن يعيش ومن لا يستطيع وفي أي مكان ، والذين رأوا في إناث حيويات وحرّات غير مسلحات تمرّد المهرات ولذلك تخلصوا منهن . كانت تأمل من كل قلبها أن تكون النساء هناك ، مصقولات على نحو داكن ، يقضين أوقاتهن ، يطلين أظافرهن باللون النحاسي المعدني ، ويبردْن أنيابهن ، ولكن موجودات هناك . أي أنها أملت في حدوث معجزة . وليس هذه الأمنية معقولةً إلى ذلك الحد حيث أن معجزة صغيرة قد حدثت مسبقاً : لقد

تصالح برود وأبولو واتفقا على الانتظار حتى تتخذ هي رأياً . كانت تعرف ، كما عرفا هما أيضا ، أنها لن تستطيع أبداً وأن هذا الثلاثي سينتهي فقط مع نهايتهم . ستضحك نساء الدير على هذا حتى أنها تستطيع رؤية أسنانهن المدببة .

جاء إرجاء تنفيذ حكم الإعدام بعد سنوات ، ولكنه جاء أخيراً . كان مانلي جيبسون سيموت في جناح مع آخرين مثله ولن يكون محزوماً بسير إلى كرسي دون أن يراه أي من أقربائه . كان أمراً عظيماً . كان يستطيع الخروج وهو الآن عضو في طاقم العمل على طريق البحيرة . كانت البحيرة شديدة الزرقة . وكان غداء « كنتاكي فرايد تشيكن » رائعاً ، ربما يستطيع أن يركض . يا لها من نكتة . هاهو شخص في الثانية والخمسين ومحكوم عليه بالسجن المؤبد وفي حالة هروب . أين يذهب ؟ إلى من ؟ كان مسجوناً منذ عام (١٩٦١) ، مخلّفاً وراءه بنتاً في الحادية عشرة من عمرها لم تعد تكتب له الرسائل ، والصورة الوحيدة لها التي في حوزته تمثلها وهي في سن الثالثة عشرة .

كانت فترة الغداء خاصة . جلسوا قرب البحيرة أمام نظر الحراس ولكن قرب الماء على أي حال . مسح مانلي يديه بمناديل الورق الصغيرة . إلى يساره ، قرب زوج من الأشجار ، نشرت امرأة شابة بطانيتين على العشب ، وبينهما مذياع . التفت مانلي ليرى ما رأي الطاقم بذلك : شخص مدني (مع أنثى أيضاً) في وسطهم بالذات . كان الحراس المسلحون يتمشون على الطريق فوقهم . لم يكن أي منهم يعطي إشارة تدل على أنهم يرونها .

أدارت المذياع ونهضت ، كاشفة عن وجه كان سيعرفه في أي مكان . ما كان قادراً بأي حال من الأحوال على ضبط نفسه . هسهس : «جيجي» .

نظرت الفتاة نحوه . مشى مانلي الهوينى نحو الشجرتين ، آملاً أن الحراس سيظنون أنه سيتبول .

«هل أنا على حق ؟ أهو أنت ؟» .

«دادي مان ؟» أخيراً بدت مسرورة من مشاهدته .

«أهذا أنت! يا للعنة! لقد عرفت ذلك . ما الذي تفعلينه هنا ؟ أتعرفين أني نلت الإرجاء ؟» .

«لا ، لم أعرف ذلك» .

«حسناً ، انظري هنا . لن أخرج من السجن أو ما شابه ، ولكني لم أعد منتظراً دوري» . التفت مانلي ليرى إن كان الآخرون قد لاحظاهما . همس : «فليبق صوتك منخفضاً . ما الذي تفعلينه هنا إذن ؟» لاحظ ملابسها للمرة الأولى . «أنت في الجيش ؟» .

ابتسمت جيجي : «نوعاً ما» .

«نوعاً ما ؟ أتعنين أنك كنت فيه ؟» .

«أوه ، دادي مان ، أي شخص يستطيع شراء هذه الملابس» . ضحكت جيجي .

«أعطني عنوانك يا حبيبتي . أريد أن اكتب إليك لأحكي لك كل شيء . هل سمعت شيئاً عن أمك ؟ هل لازال أبوها حياً ؟» كان مستعجلاً ، فصفارة الغداء قد تنطلق في أي لحظة .

«ليس لدي عنوان بعد» . رقعت جيجي قبعتها ثم أعادتها .

«لا ؟ حسناً ، اكتبي أنت لي . إلى اهتمام السجن . سأضعك على اللائحة غداً . أستطيع استلام رسالتين في الشهر...» .

صفرت الصافرة . كرر مانلي : «رسالتان» . ثم قال «هل لازالت لديك تلك القلادة التي أعطيتك إياها ؟» .

«نعم» .

«أوه يا حبيبتي ، أوه يا حبيبتي . يا ابنتي الصغيرة» . مدّ يده ليلمسها ولكن توقف وقال : «علي أن أذهب . سيعطونني علامة سلوك سيئة . إلى اهتمام السجن . هل سمعت ؟ رسالتان في الشهر» . تراجع وهو لا يزال ينظر إليها . «هل سأتلقى رسائل منك ؟» .

عدلت جيجي قبعتها . «ستتلقى يا دادي مان . ستتلقى» .

لاحقاً ، حين جلس مانلي في الباص ، راح يراجع كل تفصيل ممّا رآه من ابنته . القبعة العسكرية وبنطال السخرة : بألوان التمويه . حذاء عسكري ثقيل ، تي شيرت أسود . راح يفكر بالأمر ، وقد اقسم أنها كانت تحزم أغراضها . نظر نحو البحيرة التي راح لونها يعتم تحت شمس أخفض إنما أجمل .

*

خلعت جيجي ملابسها . كانت الليالي تجعل البحيرة باردة ، وتجعل تدفئتها أصعب فأصعب على الشمس في اليوم التالي . في هذا الجزء من البحيرة كان لا بأس من السباحة دون ملابس . كانت هذا ريف البحيرات : ماء أخضر زبرجدي ، أشجار مستقيمة و ـ في الأماكن التي لا ترتادها الزوارق أو صيادو السمك ـ فإن هناك خصوصية قد تحسدها عليها العائلات المالكة . التقطت منشفة وجففت شعرها . لقد نما أقل من نصف بوصة ، ولكنها كانت تحب الطريقة التي كانت تتموج فيه الريح والماء والأصابع . فتحت زجاجة من شراب الصبر وبدأت بفرك بشرتها . ثم ،

عدلت المنشفة قربها ، ونظرت نحو البحيرة حيث كان رفيقها قادماً إلى الشاطئ لتوه .

*

كانت اللوحة الخامسة عشرة ، شأنها شأن الأولى ، في حاجة إلى المزيد . تحاول أن تتذكر أن الذقن قد أصابت دي.دي بالإحباط في محاولتها الأولى ، ولكن حين قررت تخطّي خط الفك وأن تظلل فحسب الجزء الأسفل من وجه ابنتها ، فقد وجدت أن العينين خطأ كلهما . اللوحة الخامسة عشرة كانت جيدة ، ولكن الجسم الذي كان كئيباً وغير مثير للاهتمام ، قد بدا أنه يحتاج إلى شكل آخر : عند الردف أو المرفق . وبما أنها لم تمر بتجربة دافع ليس حسياً ، فقد ذهلت بالطاقة التي كانت قادرة على استدعائها بإرادتها لتجدد الشكل أو تبدأ من جديد . ظلت العيون تأتي اتهامية ، وكانت درجة لون البشرة تفلت من قبضتها . وكان الشعر كالقبعة دائماً .

جلست دي دي على الأرض ، وراحت تدوّر مقبض الفرشاة بين أصابعها وهي تتفحص العمل الذي قامت به . وبنفخة قوية من الهواء نهضت ودخلت غرفة الجلوس . ولم ترها قادمة عبر الباحة إلا حين رشفت أول رشفة من المارغاريتا ، وقد ربطت إلى صدرها حقيبة ظهر أو شيئاً ما . ولكنها دون شعر . لا شعر إطلاقاً ورأس طفل يتبع تحت ذقنها مباشرة . ومع اقترابها استطاعت دي دي أن ترى ساقين بدينتين مستديرتين ، مثل حلوى «الدونات» ، وهما تخرجان من حقيبة الظهر على صدر الأم . وضعت المارغاريتا وضغطت بوجهها على نافذة الصورة . لا مجال للخطأ . كانت تلك هي بالاس . يد على أسفل حقيبة الظهر وأخرى تحمل سيفاً . سيفاً ؟ كانت الابتسامة على وجه بالاس مبهجة . أما ثوبها ـ زهري وأحمر وعنبري اللون ـ

فكان يدوّم حول كاحليها مع كل خطوة . لوحت دي دي بيدها ونادت باسمها . أو حاولت ذلك . وبينما راحت تفكر : «بالاس» وتشكلها في ذهنها ، فقد خرجت على نحو مختلف ، مثل urg ثم neh neh . كان هناك شيء ما ليس صحيحاً في لسانها . كانت بالاس تتحرك بسرعة إنما لا تتقدم نحو الباب الأمامي . كانت تمر عبر المنزل إلى الجانب . تركض دي دي ، في فزع ، إلى داخل الاستوديو ، وتمسك باللوحة الخامسة عشرة وتندفع نحو الفناء رافعة إياها عالياً وهي تصرخ : urg. urg. urg . التفتت بالاس ، ضيقت عينيها وتوقفت وكأنها تحاول أن تحدد مصدر الصوت . ثم فشلت في معرفة المصدر ، فتابعت طريقها . توقفت دي دي ، مفكرة في أنها قد تكون شخصاً آخر . ولكن مع شعر أو بدونه ، كان ذاك هو وجهها ، أليس كذلك ؟ كانت قادرة على معرفة وجه ابنتها أكثر من أي شخص آخر ، أليس كذلك ؟ كما تعرف وجهها بالذات .

رأت دي دي بالاس مرة أخرى . في غرفة نوم الضيوف (حيث اعتاد كارلوس ـ عشيق الأم ـ أن ينام) . كانت بالاس تفتش تحت السرير . وبينما راحت دي دي تراقب ، دون أن تجرأ على الكلام في حال خرج الصوت العجيب من فمها ، نهضت بالاس . وبنخرة تدل على الرضا ، أخذت حذاء تركته هناك في آخر وأول زيارة لها . حذاء جلدي ثمين ، وليس ذلك النوع المصنوع من البلاستيك أو القش . لم تلتفت بالاس ، بل غادرت عبر زجاج الباب المنزلق . تبعتها دي دي ورأتها تدخل سيارة محطمة تنتظر على الطريق . كان هناك أشخاص آخرون في السيارة ولكن الشمس كانت تغرب لذا لم تستطع دي دي أن تعرف إن كانوا رجالاً أم نساء . ثم سارت السيارة ضمن لون بنفسجي شديد إلى حد أنه حطم قلبها .

*

توقفت سالي أولبرايت ، التي كانت تمشي متجهة شمالاً في « كالوميت » ، أمام الواجهة الزجاجية لفندق « جني كانتري إن » . كان متأكد تقريباً ، من أن المرأة الجالسة لوحدها إلى طاولة لأربعة أشخاص كانت أمها . اقتربت سالي لتحدق من تحت قبعة القش التي كانت ترتديها المرأة . لم تستطع أن ترى الوجه تماماً ولكن الأظافر واليدين التي تمسكان بلائحة الطعام كانت خاصتها دون شك . دخلت إلى المطعم . قالت سيدة تجلس قرب مسجلة النقود : « هل أستطيع مساعدتك ؟ » في كل مكان كانت سالي تذهب إليه الآن كانت تجعل الناس يترددون . وكل ذلك بسبب لون شعرها . قالت للسيدة : « لا . أنا أبحث عن... هاهي » . وبينما ادعت الثقة ، سارت نحو الطاولة المخصصة لأربعة أشخاص . لو كانت على خطأ ، ستقول : « عذراً ظننتك شخصاً آخر » . انزلقت إلى كرسي ونظرت عن كثب إلى وجه المرأة .

« أمي ؟ » .

رفعت مايفيس عينيها . قالت : « عجباً . انظري إليك » .

« لم أكن متأكدة بسبب القبعة وكل الأمور الأخرى ، ولكن يا إلهي ، إنها أنت » .

ضحكت مايفيس .

« أوه ، لقد عرفت ذلك . يا إلهي . أمي . لقد مرت... سنوات! » .

« أعرف . هل أكلت ؟ » .

« نعم . لقد أنهيت طعامي للتو . أنا الآن في فرصة الغداء . أعمل في... » .

رفعت النادلة دفتر الطلبات . « هل قررتما ما تريدان ؟ » .

قالت مايفيس : « نعم . عصير برتقال . جريش مزدوج مع بيضتين فوق الوسط » .

«لحم خنزير مقدد ؟» سألت النادلة .

«لا . شكراً» .

«لدينا مقانق جيدة . متصلة ومحشوة باللحم المفروم» .

«لا شكراً . هل تقدمون الصلصلة مع البسكويت ؟» .

«طبعاً . هل تريدينها فوقه أو إلى جانبه ؟» .

«إلى جانبه من فضلك» .

«بالتأكيد . وأنت ؟» التفتت إلى سالي .

«قهوة فقط» .

قالت مايفيس : «هيا . اطلبي شيئاً . على حسابي» .

«لا أريد شيئاً» .

«هل أنت متأكدة ؟» .

«طبعاً متأكدة» .

غادرت النادلة . نظرت مايفيس إلى البساط والأدوات الفضية . «هذا ما أحبه في هذا المكان . يتركونك تختارين ما تشائين . الصلصة تصب فوقه أو إلى جانبه . أترين ؟» .

«أمي! لا أريد التحدث عن الطعام» . أحست سالي كأن أمها كانت تنزلق مبتعدة ، وتتصرف وكأن مشاهدتهما لبعضهما البعض لم يكن شيئاً هاماً .

«حسناً ، لم تكن لديك تلك الشهية الكبيرة ؟» .

«أين كنت ؟» .

«حسناً ، لم أستطع العودة ، أليس كذلك ؟» .

«تعنين تلك المذكرة بحقك ؟» .

«أعني كل شيء . ماذا عنك ؟ هل أنت على ما يرام ؟» .

« تقريباً . فرانكي في حالة جيدة . علاماته كلها ممتازة . بيلي دجيمز ليس جيداً إلى ذلك» .

« أوه ، لماذا ؟ » .

« إنه يعلق مع فتيات مخيفات صغيرات » .

« أوه ، لا » .

« يجب أن تزوريه يا أمي . تحدثي إليه » . .

« سأفعل » .

« حقاً ؟ » .

« هل يمكنني تناول غدائي أولاً ؟ » ضحكت مايفيس وخلعت قبعتها .

« ماما . لقد قصصت شعرك » . هاهو الشعور يعود ، الشعور الانزلاقي . « يبدو لطيفاً على أي حال . كيف ترين شعري ؟ » .

« إنه جميل » .

« لا ، ليس كذلك . كنت أفكر في اللون الذهبي ، ولكني تعبت من ذلك الآن . ربما سأقصه أيضاً » .

وصلت النادلة ورتبت الأطباق بأناقة . ملّحت مايفيس الجريش ووضعت الزبدة فوقه . ثم شربت عصير البرتقال وقالت : « أوه طازج » .

خرجت منها العبارة مسرعة ، فقد أحست أن عليها أن تسرع . إن كان عليها أن تقول أي شيء ، فعليها أن تسرع . « كنت خائفة طول الوقت يا ماما . حتى قبل التوأمين . ولكن حين غادرت ، أصبح الأمر أسوأ . أنت لا تعرفين . أعني كنت خائفة من أن أغفو لأنام » .

« تذوقي هذا يا حبيبتي » . عرضت عليها مايفيس كأس العصير .

أخذت سالي جرعة سريعة . « حاول أبي... يا للقذارة! لا أعرف كيف تحملت ذلك . كان يسكر ويحاول إزعاجي يا أمي » .

«أوه يا طفلتي» .

«لقد حاربته على أية حال . قلت له إنه في المرة القادمة التي يغمى فيها عليه سأذبحه . كنت سأضطر إلى ذلك أيضاً» .

قالت مايفيس : «أنا آسفة جداً . لم أعرف ما أفعله غير ذلك . كنت دائماً أقوى مني» .

«ألم تفكري بنا أبداً!» .

«طوال الوقت . وقد تسللت عائدة لأتلصص عليكم جميعاً» .

ابتسمت سالي : «لا . أمي ؟» .

«في المدرسة غالباً . ولكني كنت خائفة جداً من الاقتراب من المنزل» .

«أنت لا تعرفين ما حدث . لقد تزوج أبي من امرأة ترفسه على قفاه إذا لم يتصرف جيداً ويبقي الباحة نظيفة وكل الأمور الأخرى . ولديها مسدس أيضاً» .

ضحكت مايفيس : «جيد» .

«ولكني تركت البيت . أنا وتشارمين حصلنا على منزل معاً في أوبوم . هي...» .

«هل أنت متأكدة أنك لا تريدين شيئاً ما ؟ الطعام جيد هنا حقاً يا سال» .

أمسكت سالي بشوكة وزلقتها في طبق أمها ، وأخذت شيئاً من الجريش المتكتل . وحين أصبحت الشوكة في فمها ، تقابلت عيونهما . أحست بألطف إحساس عندها . شيء طويل وعميق وبطيء ولامع .

«هل سترحلين مجدداً يا أمي ؟» .

«مضطرة إلى ذلك يا سال» .

«هل ستعودين ؟» .

«بكل تأكيد» .

«لكنك ستحاولين التحدث إلى بيلي دجيمز ، أليس كذلك ؟ وفرانكي سيحب ذلك . هل تريدين عنواني ؟

«سأتحدث إلى بيلي وقولي لفرانكي إني أحبه» .

«أنا منزعجة وآسفة على كل شيء يا أمي . كنت خائفة طوال الوقت» .

«وأنا أيضاً» .

كانتا واقفتين في الخارج . ازدادت زحمة فترة الغداء مع المتبضّعين وأطفالهم .

«عانقيني يا طفلتي» .

وضعت سالي ذراعيها حول خصر أمها وبدأت تبكي .

قالت مايفيس : «هاهه . لا أريد بكاء» .

عصرتها سالي .

«أخ» . قالت مايفيس ضاحكة .

«ماذا ؟» .

«لاشيء . ذلك الجانب يؤلمني قليلاً . هذه هي الحكاية وما فيها» .

«هل أنت على ما يرام ؟» .

«أنا في أتم حالة يا سال» .

«لا أعرف ما تظنينه بي ، ولكني أحببتك دائماً ، حتى حين...» .

«أعرف ذلك يا سال . أعرف ذلك الآن على أي حالة» . دفعت مايفيس بخصلة من الشعر الأسود والأصفر خلف أذن ابنتها وقبلت خدها . «اعتمدي علي يا سال» .

«سأراك ثانية . أليس كذلك ؟» .

«وداعاً يا سال . وداعاً» .

راقبت سال أمها تختفي في الأمام . مررت أصبعها تحت أنفها ، ثم أمسكت بالخد الذي قبلته . هل أعطتها العنوان ؟ أين تذهب ؟ هل دفعا الحساب ؟ متى دفعا الحساب إلى أمينة الصندوق ؟ لمست سالي جفنيها . في دقيقة كانتا تغمسان البسكويت ؟ وفي الدقيقة التالية كانت تقبلان الواحدة الأخرى في الشارع .

*

قبل سنوات عديدة كانت قد مرت بمنزل التبني ورأت الأم - امرأة مرحة عقلانية وقد بدا على الأطفال أنهم يحبونها . جميل جداً . كان ذلك كل ما في الأمر . تستطيع الاستمرار في حياتها . وهكذا فعلت . حتى جاء عام (١٩٦٦) حين انجذب بصرها إلى فتيات بعيون شوكولاتية كبيرة . لابد أن سينيكا في سن أكبر الآن ، في سن الثالثة عشرة ، ولكنها مرت لتسأل السيدة غرير لترى وإن كانت تعرف شيئاً عنها .

«من أنت مجدداً ؟» .

«ابنة عمها ، جين» .

«حسناً ، كانت هنا لفترة قصيرة فحسب... أشهر قليلة في الواقع» .

«هل تعرفين أين...» .

«لا يا حبيبتي . لا أعرف شيئاً» .

بعد ذلك كانت تصاب بحالات شرود على غير المتوقع في الطرق العامة وصفوف الانتظار أمام المسارح وفي الباصات . في عام (١٩٦٨) كانت على ثقة أنها رأتها في حفل موسيقي لـ«ليتل ريتشارد» ، ولكن ضغط الزحام منعها إلقاء نظرة أقرب . كانت جين متحفظة حول هذا

البحث الهدام . لم يعرف جاك أنها كانت قد رزقت بطفلة من قبل (في سن الرابعة عشرة) ، وبعد الزواج ، حين أنجبت له طفله ، بدأت بالبحث عن العينين . وكانت مشاهداتها تأتي في لحظات غريبة وأماكن عجيبة ـ مرة اعتقدت أن الفتاة التي تنزل من شاحنة بيك آب هي ابنتها ـ وحين اصطدمت بها أخيراً في عام (١٩٧٦) ، أرادت أن تطلب سيارة إسعاف . كانت جين مع جاك يعبران مرآب الملعب تحت أنوار باهرة لاهبة . رأيا فتاة تقف أمام سيارة والدم ينزف من يدها . شاهدت جين الدم أولاً ثم العينين الشوكولاتيتين .

صرخت : «سينيكا» وركضت نحوها . حين اقتربت اعترضتها فتاة أخرى ، تمسك بزجاجة جعة وخرقة ، وبدأت تمسح لها الدم .

صرخت جين من فوق رأس الفتاة :

«سينيكا ؟» .

«نعم ؟» .

«ماذا حدث ؟ هذه أنا!» .

قالت الفتاة الثانية : «بعض الزجاج . لقد سقطت على بعض الزجاج . أنا أعتني بها» .

«هيا يا جين!» كان جاك على مسافة بضع سيارات . «أين أنت بحق الجحيم ؟» .

«قادمة . دقيقة واحدة . حسناً ؟» .

كانت الفتاة التي تمسح يدي سينيكا ترفع عينيها بين الحين والآخر لتعبس في وجه جين . سألت سينيكا : «هل دخل الزجاج عميقاً ؟» .

مسحت سينيكا كفيها ، الأول ثم الثاني . «لا . لا أظن ذلك» .

«جين! السير سيكون كالجحيم يا حبيبتي» .

«ألا تتذكرينني ؟» .

رفعت سينيكا نظرها ، والأنوار اللامعة تجعل عينيها سوداوين . «هل عليّ أن أتذكر ؟ من أين ؟» .

«في وودلون . كنا نعيش معاً في تلك الشقق في وودلون» .

هزت سينيكا رأسها . «كنت أعيش في بيكون قرب الملعب» .

«ولكن اسمك هو سينيكا ، صحيح ؟» .

«نعم» .

«حسناً ، أنا جين» .

«سيدتي ، الرجل يناديك» . عصرت الصديقة الخرقة وصبت باقي الجعة على يدي سينيكا .

قالت سينيكا لصديقتها : «أوه . هذا يحرقني» . لوحت بيديها في الهواء .

قالت جين : «أعتقد أني على خطأ . ظننتك فتاة كنت أعرفها من وودلون» .

ابتسمت سينيكا . «حسناً . الجميع يرتكبون الأخطاء» .

قالت الصديقة : «الأمر على ما يرام الآن . انظري» .

نظرت سينيكا وجين كلتاهما . كانت يداها نظيفتين ، دون دم . مجرد خطوط قليلة قد تترك أو لا تترك علامات .

«عظيم!» .

«هيا بنا» .

«حسناً . وداعاً» .

«جين!» .

«مع السلامة» .

قال جاك وهو يدوس على دواسة البنزين وينظر في المرآة الخلفية : «من كانت تلك ؟» .

«فتاة ظننت أني كنت أعرفها سابقاً . حين كنت أعيش في تلك الشقق في وودلون . مشروع الإسكان هناك» .

«أي مشروع إسكان» .

«في وودلون» .

«لم تكن هناك أي مشاريع في وودلون» ، قال جاك . «كان ذلك في بيكون . لقد هدموها الآن ، ولكنها لم تكن أبداً في وودلون . كانت في بيكون . قرب ذلك الملعب القديم تماماً» .

«أأنت واثق من ذلك ؟» .

«طبعاً أنا واثق . أنت تنسين يا امرأة» .

* * *

في صمت المحيط تغني امرأة سوداء كالحطب . إلى جانبها امرأة أخرى يرتاح رأسها على حضن المرأة المغنية . تداعب أصابع محطمة الشعر البني بلون الشاي . كل ألوان أصداف البحر الحنطي والزهري واللؤلؤي ـ تندمج في وجه المرأة الأصغر سناً . عيناها الزبرجديتان تعبدان الوجه الأسود المؤطر في الأزرق . حولهما على الشاطئ ، تلتمع نفايات البحر . أغطية الزجاجات المرمية تلتمع قرب صندل محطم . يعزف جهاز راديو صغير ميت لحن الموجة الهادئة .

لاشيء يبدد هذا العزاء الذي تدور حوله أغنية بيداد ، رغم أن الكلمات تستدعي ذكريات لم يسبق لأي منهما أن عرفتها : عن الوصول إلى سن متقدمة في رفقة الأخرى ، عن الكلام الذي يتبادل وتقسيم الخبز المدخن من

النار ، عن البركة غير الجامعة للنقيضين المتجلية في العودة إلى الوطن ليكون في البيت : سهولة العودة إلى حب قد بدأ .

حين ترسل موجات المحيط إيقاعات الماء إلى الشاطئ ، تنظر بيداد لترى ما الذي جاء . سفينة أخرى ، ربما ، ولكنها مختلفة ، تتجه نحو الميناء ، الطاقم والركاب ، الضائعون والمنقذون ، يرتجفون ، فقد كانوا منكسري الخاطر (disconsolate) لبعض الوقت . والآن سيرتاحون قبل أن يتحملوا عبء العمل الذي خلقوا لأدائه هنا في الأسفل في «الفردوس» .

(انتـــــهت)

❖❖❖

❖

توني موريسون

نوبل ١٩٩٣

- ولدت في ولاية أوهايو في ١٨ شباط ١٩٣٠ لعائلة زنجية تنتمي الى أرقاء الجنوب الأمريكي .
- أكملت دراستها في جامعة هوارد في واشنطن بعد أن قدمت أطروحتها المعنونة : الانتحار في روايات وليام فوكنر وفرجينيا وولف .
- عملت ناشرة للأدب الأفرو ـ أمريكي لدى منشورات راندوم هاوس ، قبل أن تنتقل كأستاذة محاضرة في جامعة برنستون الأمريكية .
- عام ١٩٧٠ نشرت روايتها الأولى : العين الأكثر زرقة .
- من أشهر رواياتها : نشيد سليمان (١٩٧٨) ، الحبيب (١٩٨٨) ، جاز (١٩٩٣) .
- منحت جائزة بوليتزر عام ١٩٨٧ .
- حازت على جائزة نوبل عام ١٩٩٣ .
- أول كاتب أمريكي أسود يمنح جائزة نوبل للآداب .
- عن روايتها « الفردوس » تقول :

« لقد أبغضها البعض واتهمني آخرون بأنها مغرقة في النزعة النسائية ، فيما رأى البعض أنها بالغة الصعوبة ، عكس ما قاله آخرون تماماً!

أما أنا فلا أبالي بما يقال... الكاتب يخاطر بنفسه كلما أمسك قلمه وراح يكتب . سأشعر بالضيق حقاً إن أثارت كتاباتي استحسان طائفة معينة من النقاد » .

ISBN => 2-84305-151-7
EAN => 9782843051517